

سلسلة الأدب

العودة إلى المنفى

أبو المعاطى أبو النجا









المشرف العام

د. ناصر الأنصاري

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومي للشباب

وزارة التنمية الإقتصادية

تصميم الغلاف

د. إيناس حسني

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

العودة إلى المنفى

أبو المعاطي أبو النجا



٢٠٠٨

العودة إلى المنفى

أبو النجا ، أبو المعاطى .

العــودة إلـى المنفى/ أبـو المعــاطى أبـو النجــا . ـ

القاهـرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٩.

٤٠٠ ص ؛ ٢٠سم (أسرة ٢٠٠٨- أدب)

تدمك : ٤ - ٨٦٩ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ أدب الأطفال.

أ - العنوان .

ب - السلسلة .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٤٩٨ / ٢٠٠٩

I.S.B.N 978-977-420-869-4

ديوى ٨١٠,٩٠٩

توطئة

منذ ثمانية عشر عامًا انطلق مهرجان القراءة للجميع على جناح فكرة أن الكتاب هو عماد المعرفة الرئيسى، والثقافة الرفيعة، وأن الكتاب ينفرد عن غيره من أدوات التثقيف ومصادر المعرفة بقدرته على تنمية الفكر وصنع العقول المستنيرة، وتكوين الشخصيات المتميزة، وفتح آفاق الاستنارة أمام الملايين، والإسهام فى تشكيل وجدان الأمة، وحفظ تراثها، والوصول إلى رؤى مستقبلية لنهضتها.

ولقد حرصت مكتبة الأسرة طوال أعوامها السابقة كرافد رئيسى للمهرجان على تحقيق الهدف النبيل من تأسيسها.. ذلك الهدف الذى تحدد فى طرح العبقرية الإبداعية والفكرية والعلمية للمجتمع المصرى المعاصر، وفتح نوافذ على الفكر والإبداع العالمى، وإقامة جسور بين الحضارات المختلفة، والتعرف على ثراء التاريخ الفرعونى والإسلامى، وأخيرًا تحفيز الأجيال الجديدة على القراءة حتى تصبح عادة، بل ضرورة ملحة تترسخ أهميتها فى الأذهان من خلال كتب عظيمة الفائدة، تباع بأسعار رمزية فى متناول الملايين.

ولأن وصول الكتاب إلى كل مكان فى مصر سيظل حلم السيدة الفاضلة سوزان مبارك، راعية القراءة للجميع. فلقد أعلنت هذا العام مبادرتها الجديدة بإهداء مليون كتاب مجانًا للمجتمع، ولأن مهرجان القراءة للجميع يتخذ شعارًا مختلفًا كل عام يتواءم مع الرسالة التى يهدف إلى تحقيقها وتنوعها وتطورها عامًا بعد عام، فإن مكتبة الأسرة تتخذ توجهًا عامًا فى اختياراتها للكتب، يستهدف دائمًا تحقيق وعى عام متجدد يطور القوى الاجتماعية، ويقوم على

منظومة قيم تتلخص فى تعميق دور العلم والتفكير العلمى، وتعزيز الديمقراطية، والتعددية وترسيخ قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وتأكيد قيمة التسامح وثقافة السلام، وترسيخ قيمة دور المرأة، وقيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وإبراز تواصل الإبداع المصرى. ولقد تم استحداث قيمة جديدة هذا العام هى تعزيز تجليات الوطن وقضاياه، وذلك لمواجهة متغيرات خرائط الصراع المضاد، الذى يسعى إلى التفتيت بإشعال الفتن والانقسامات التى تحول الانتماء الوطنى إلى ولاءات لأعراق وعقائد ومذاهب، وفق تصنيفات قاطعة تعمل على تعبئة الناس وقولبتهم لكى تضعهم فى موقف التضاد بعضهم لبعض على سبيل الاستبعاد والاستعداء للنيل من سيادة الدولة الوطنية، وانتهاك دعمها للمواطنة والديمقراطية والمجتمع المدنى ومشروعية التعايش؛ ولذا ستظهر تجليات الوطن وقضاياه وتتجسد فى الإبداعات التى ستطرحها مكتبة الأسرة هذا العام.

لقد نهض صرح مكتبة الأسرة على أعمدة المكتبة العربية، وثراء تحفها الإبداعية والفكرية، واكتشاف الأقلام الموهوبة الشابة، فالتف الجميع حوله كواحد من أكبر المشاريع الثقافية فى تاريخ مصر الحديث، نأمل دائمًا أن يحقق أحلامه العظمى، وأن يساهم مساهمة فعلية فى نهضة المجتمع.

مكتبة الأسرة



تقديم

أثرى «أبو المعاطى أبو النجا» المكتبة الإبداعية بالعديد من الهوايات والمجموعات القصصية بدءًا من «فتاة فى المدينة» عام ١٩٦٠ وحتى «الجميع يربحون الجائزة» ١٩٨٤، فضلاً عن إسهاماته فى مجال النقد وحاز على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٣.

وروايته التى بين أيدينا الآن «العودة إلى المنفى» صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٦٩، فى فترة عصيبة من تاريخ مصر أعقبت هزيمة ٦٧، وتشابهت فى ظروفها وملابساتها بتلك المرحلة التى تلت أحداث الثورة العرابية واحتلال مصر، إذ تحول حلم الثورة وآمالها إلى كابوس ولغز اختلف الناس فى تفسيره بحثًا عن طريق للنور. وانطلاقًا من حسه الوطنى فقد اتخذ «أبو المعاطى أبو النجا» من حياة خطيب الثورة العرابية موضوعًا لروايته، حيث استدعى شخصية «عبدالله النديم» الذى عاد من منفاه بفلسطين ـ فى مثل تلك الظروف ـ إلى منفى جديد فى وطن مستعبد يأسر أهله جراح الهزيمة. فما كان منه إلا أن جاب القرى والمدن فى جميع الأقاليم ليشحذ الهمم ويستثير العقول لمختلف طوائف الأمة، وليبدد حالة من البلادة والذهول خيمت على كل شىء، فأصدر مجلة «الأستاذ» ليلهب بها حماسة الجيل الجديد فى مواجهة معركة التضليل التى قادها أعوان الاحتلال والاستبداد، فاستطاع أن يكوّن عصبية جديدة من فلول جيشه الشعبى ونجح فى تجميع الصحف الوطنية من جبهة قوية موحدة، تحمل على عاتقها مسئولية الدفاع عن الأمة والتعبير عن حقوقها وآمالها. وهكذا ظل «عبدالله النديم» مقاتلاً حين يحاصره الأعداء وتحدق به الأخطار، حتى بعد أن أغلقت «الأستاذ» ورحيله إلى يافا، ثم عودته إلى منفاه الأخير فى الأستانة شريطة ألا

يتكلم فى السياسة وألا يهاجم الإنجليز، لكنه تكلم فى كل شىء بل وهاجم السلطان، لتضحى حياته سلسلة من المعارك المتصلة حارب فيها الأغنياء بلا عمل والفقراء بلا أمل، وحارب فيها الإنجليز المستعمرين والحكام الذين لا يتصدون لمسئولياتهم، كما حارب فيها الترهل والبلادة والمأجورين والمنافقين. وإذا كانت حياة «نديم» قد أضفت على بعض صفاته بشىء من المراوغة تبعًا للخبرة وتغير الظروف إلا أن صفة واحدة ظلت تلازمه كجلده هى صفة «المقاتل».

ومنذ ذلك التاريخ جرت فى نهر النيل مياه كثيرة، ووقعت على شاطئيه أحداث جسام، وقد تجد الأجيال الجديدة من أبناء مصر أنها فى حاجة أكثر من أى وقت مضى لأن تتعرف على شخصية «عبدالله النديم» التى تمتزج فيها قوة الروح بوضوح الرؤية وبعظمة التضحية. كما تصورها «أبو النجا» فى أعقاب ١٩٦٧، فكانت خطوة على الطريق لنصر أكتوبر المجيد.

يصدر الكتاب ضمن مشروع «مكتبة الأسرة» هذا العام، عن طبعته الثانية الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠.

الإهـــداء

«إلى شعب مصر العظيم، أقدم واحداً من
أبنائه من أعظم أبنائه، عبدالله نديم»

الجزء الأول

شاهين باشا كنج

فى مدينة طنطا، وفى سنة ١٨٧٧م ، كان يعيش رجل ذائع الصيت والسطوة اسمه شاهين باشا كنج، وكان مفتشًا عامًا للوجه البحرى يمتد سلطانه على جميع المديرين فى الدلتا، الذين تمتد سلطتهم على مأمورى المركز فى أقاليمهم، أولئك الذين يتغلغل نفوذهم إلى جميع العمد والمشايخ القابضين على أزمة الأمور فى كل القرى حيث يعيش ملايين الفلاحين من شعب مصر!!

ولكن هذا الرجل المتربع على قمة ذلك الهرم البشرى ـ الذى يبدو أقدم بكثير من أهرامات الجيزة الحجرية ـ والذى كان مجرد ذكر اسمه أمام أى شخص ممن يمثلون إحدى درجات ذلك الهرم البشرى كافيًا لأن يبعث فى أعصابه رعدة يحس بها من هم دونه فى درجات ذلك الهرم، هذا الرجل كانت له مثل جميع الناس حياته الخاصة، وهواياته التى تملأ هذه الحياة بالبهجة، وأصدقاؤه الخصوصيون والبارعون فى إشباع هذه الهوايات، وقد كان يهوى الأدب ـ الذى انتهى فى هذا العصر إلى أن يصبح مجرد ترديد لأشعار القدماء وطرائفهم وحكاياتهم وتقليد ذلك كله ـ ولا يكاد يتسلل إلى حياته الخاصة، خالعًا مع ثيابه الرسمية الفاخرة كل مظاهر السلطة ويجلس مع أصدقائه حتى يرتد أنيسًا رقيقًا ظريفًا يضحك من قلبه مثل سائر خلق الله حتى لتدمع عيناه الواسعتان وتنتفخ أوداجه المحمرة فيمسح عينيه بمنديله الحريرى، وينسى أحيانًا فيمسح بنفس المنديل أنفه إذا ما احتاج إلى ذلك!!

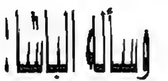
وفى واحدة من تلك اللحظات التى يرتد فيها الباشا إلى نفسه بين أصدقائه وفى قصره كان يتمايل وهو مضطجع على إحدى الأرائك الوثيرة وهو يتابع صبيًا مليحًا كان يتغنى بهذه الأبيات:

سـلـوه عن الأرواح فـهى ملاعـبـه
وكـفـوا إذا سل المـهـنـد حـاجـبـه

وعـودوا إذا نـامت أراقم شـعـره
وولـوا إذا دبت إلـيـكم عـقـاربه

ولا تـذكـروا الأشـبـاح بـالـله عـنـده
فـلـو اتـلـف الأرواح من ذا يـطـلـبـه

وكأنما تذكر الباشا فجأة أن هذه ليست أول مرة يسمع فيها هذه الأبيات، ويعجب بها فى الوقت نفسه، فمال على الشيخ أحمد الجندى الجالس بجواره والذى أحضر الغلام المليح ليغنى للباشا، والمسئول بطبيعة الحال عن الغلام وشعره وصاحب الشعر...



ـ لمن هذا الشعر الجميل؟

وحكيت له قصة طويلة وغريبة عن رجل اسمه عبدالله نديم، اشتركت الحاشية كلها فى روايتها، واختلفت فصول القصة باختلاف الرواة ولكنهم اتفقوا على شىء واحد ـ هو ما اهتم له الباشا فى القصة كلها وهو أن الرجل ظريف جدًا، وأنه يمكن لو أراد الباشا ـ أن يكون هنا خلال يومين على الأكثر فهو يقيم الآن بالمنصورة عند أحد أصدقائه وتساءل الباشا فى مرح:

ـ لم لا تأتون به؟ ثم أضاف وقد استبد به السرور.

ـ فقط أريده حيًا!

وكان له ما أراد، ولم يستطع الباشا أن يخفى دهشته وهو يبصر عبدالله نديم لأول مرة، فقد أبصر رجلاً نحيلاً له وجه يميل للسمرة، جبهته أعرض مما ينبغى بالنسبة لوجهه الصغير المثلث، وأنفه الدقيق وحاجباه طويلان كثيفان يظللان عينيه اللتين تتحرك أهدابهما حركة نشيطة تنم عن آثار رمد قديم لم يشف تمامًا ولكن حركة الأهداب تبدو جزءًا من هذه الحركة النشيطة العامة التى تشمل الجسد كله، وكأن ثمة

شيئًا يتحرك تحت جلده أو تحت ثيابه، وكانت «بدلته» البنية تحمل ليس فقط آثار سفر طويل بل آثار نوم طويل كذلك!

وقال الباشا وقد انتقلت دهشته إلى صوته:

- أنت.. أنت عبدالله نديم صاحب الشعر الجميل الرقيق؟

- نعم، هكذا أجاب عبدالله نديم ثم تابع بعد لحظة صمت: ولست رقيقًا أو جميلاً! قالها بمرح وفى بساطة من تعود مثل هذا الموقف.

- ولكنك ظريف يا ملعون ظريف!

- نعم ظريف جدًا!

وضج الجميع بالضحك، وهكذا شاء نديم أن يرفع الكلفة بينه وبين الباشا فى نفس اللحظة نفسها التى فعل فيها ذلك حتى لا يكون هذا من حقه وحده، ولم يخف مغزى هذا السلوك على الباشا كما لم تخف عليه فيما بعد نبرة الاعتداد بالنفس التى تفصح عنها كل تصرفات «نديم» ذلك الاعتداد الذى لا يبذل أقل جهد لإخفائه، والذى لم يعتده الباشا فى تصرفات من حوله والذى أصبحت تضيق به حاشية الباشا نفسها قبل أن يعلن هو عن ضيقه به، وفى براعة كان الباشا يحول ذلك الاعتداد ليبقى فى دائرة الحاشية بعيدًا عنه، وبنفس البراعة كان ينميه ليكون مصدرًا دائمًا للمنازعات الأدبية بطبيعة الحال والتى تضفى على مجلس الباشا حرارة أكثر وسرورًا أعمق، وبلغت تلك المنازعات أقصى حدتها حين زعم نديم أن شعره لا يقل عن شعر المتنبى فتحدته الحاشية أن يأتى بمثل بيت المتنبى:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوًا له ما من صداقته بد

فأخرج نديم ورقة وقلمًا وكتب أبياتًا جاء فيها هذا البيت معارضًا به بيت المتنبى:

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا
يعارضه غر ويفحمه وغد

وكانت مواهب «نديم» التى لم يكن شعره سوى أقلها، والتى لا تقاس إليها مواهب الحاشية مجتمعة جديرة بأن تغفر له - لدى الباشا على الأقل - اعتداده وغروره أيضًا ولكنها لم تمنع الباشا الذى كان فى أعماقه كارهًا لهذا الاعتداد من أن ينتهز أية فرصة يمكن أن يداعب فيها كبرياء «نديم»!

وقد حانت الفرصة فى يوم من أيام المولد الأحمدى بطنطا، وكان السيد على أبو النصر شاعر الخديو إسماعيل، وصديق الباشا يزور المدينة بمناسبة المولد، وكان يجلس مع عبدالله نديم على مقهى «الصباغ» الشهير فى ذلك الوقت، حين أخذ أحد «الأدباتية» يطوف بزبائن المقهى، لابسًا طرطورًا طويلاً فوق رأسه، صابغًا وجهه بالألوان الفاقعة، موقعًا على طبلة صغيرة تحت إبطه ومرددًا أزجاله فى مدح من يمر به من الزبائن، وهى أزجال تختلف من زبون لآخر فتصف كل واحد بما يناسب شكله وثيابه ومكانته، وكلها تصر على طلب الإحسان الذى يؤكد الأدباتى للجميع أنه فى حاجة إليه بقدر ما هم فى غنى عنه..! وحين جاء دور «نديم» وقف أمامه الأدباتى قائلاً وهو يهز طرطوره مع إيقاع الطبلة وإيقاع الزجل:

انعم بقرشك يا جندى
وإلا اكسنا امال يا افندى

إلا انا وحياتك عندى
بقى لى شهرين طوال جوعان

وبدلاً من أن يعطيه «نديم» قرشًا أو قرشين كما فعل الجميع رد عليه قائلاً:

اما الفلوس انا مديشى
وانت تقول لى ما امشيشى

يطلع على حشيشى
اقوم املص لك لودان

وعاد الأدباتى يكرر الطلب ونديم يكرر الرفض، واستمرت تلك المباراة الغريبة ساعة تحلق فيها الزبائن حول الرجلين وهما يرددان الأزجال من نفس الوزن والقافية، حتى ضج المقهى بالتصفيق بعد أن غص بالزبائن ولم يكد السيد على أبو النصر الذى شاهد الواقعة ينقلها إلى الباشا حتى ضرب على ركبتيه بيديه الممتلئتين، وارتد إلى الوراء مستغرقًا فى الضحك وفى تلك اللحظة نفسها خطر له أن هذه هى الفرصة التى كانت ينتظرها دون شك.. فماذا عليه لو أنه دعا أشهر الأدباتية فى مدينة طنطا لمباراة نديم فى ارتجال الزجل بفنونه المختلفة، مباراة عامة فى ساحة قصره، جمهورها هو جمهور المولد الأحمدى.. وحين أدار الفكرة فى رأسه وهو يعتدل فى جلسته قرر أن يعطى

الأدباتية خمسة جنيهات إذا غلبوا «نديم» وأن يضرب كلاً منهم عشرين كرباجًا إذا هزموا، والمهزوم هو الذى تخذله بديهته فى إنشاد الزجل فور انتهاء خصمه من دوره فى الإنشاد، وبهذه الطريقة لا يضمن فقط حماس المتبارين بل حماس الجمهور نفسه الذى سجعل وجوده من هذه المباراة حكاية العام كله، حكاية يعود بها الزائرون مع ما يحملونه من حلوى طنطا الشهيرة وبركاتها وذكرياتها، وفكر للحظة أن «نديم» يمكن أن يعتذر ولكنه تيقن من أنه لن يفعل حيث ستمنعه كبرياؤه اللعينة، وبهذه الطريقة تكون هذه الكبرياء هى التى عاقبت نفسها، فهو إن غلب الأدباتية فلا فخر له فى ذلك، وإن غلبوه يكن الباشا قد ألقى عليه درسًا لا ينساه فى الوقت الذى يكون فيه قد هيأ لنفسه ولأصدقائه متعة لا تنسى!!

* * *

وانتشر الخبر فى المدينة التى لم تكن وقتذاك كبيرة جدًا، والتى كانت قد بدأت تسمع بنديم، وتستعيد حكايته مع الأدباتى بمقهى الصباغ، كان بعضهم يريد أن يشاهد «نديم» الذى سمع عنه، بينما توقع الآخرون أن يظهر الشيخ داوود زعيم الأدباتية جميع ما عنده من مواهب، طالما استمتعوا بها فى الأفراح وليالى رمضان وعودة الحجاج، وأيام المولد النبوى والأحمدى كذلك...

ـ ولكنه فى مناسبة كهذه سيكتشف الناس أنه كان يخدعهم طوال عمره ولم يظهر لهم إلا بعض ما عنده!

هكذا كان يردد أنصار الشيخ داوود أما أعداؤه فكانوا يقولون:

ـ أنتم لا تعرفون «نديم»، الشيطان نفسه لا يغلبه!

ـ ومن «نديم» هذا؟

ـ أحد كلاب شاهين باشا كنج التى يتسلى بها وهى تتهارش فى حديقة قصره!

هكذا كان يهمس بعض الرجال الساخطين على الباشا وعلى كل ما يأتى به.

ـ وحتى لو كانت كلابًا تتهارش أو تتصارع فالأمر يستحق المشاهدة!!

على أن احتمال تنفيذ عقوبة الجلد وحدها قاد إلى هناك أكبر عدد من الناس..!

ونصب سرادق ضخم فخم، ووقف خارج السرادق أضعاف من جلسوا فيها وعبثًا حاول الجنود حفظ النظام فى البداية، ولم يكن نديم مطمئنًا ولا خائفًا، كان مكتئبًا كآبة من يساق لشىء لا يكرهه ولكن مجرد إحساسه بأنه مساق وبأن ثمة جمهورًا يتفرج وينتظر..! مجرد إحساسه هذا كان يتركه فريسة لهذه الكآبة التى حرص على ألا تتسرب إلى وجهه، لقد جعل من أحد الأدباتية منذ أيام أضحوكة الناس فى المقهى، وكان الأمر هزلاً كله، ولم يكن يبالى به أو بغيره، ولكنه الآن يحس أن الأمر مختلف وبأن شبح الباشا يقف وراء هذه اللعبة التى بدأت تفقد شكلها البرىء والمرح كلما أطال فيها التفكير، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا وحده يكفى لكى يمزق هؤلاء الأدباتية تمزيقًا، ولم ينقذه من خواطره إلا صوت الباشا وهو يعلن من مجلسه بدء المباراة..!

ودنت اللحظة الحاسمة وبدأ الشيخ داوود الذى كان يرتدى فى هذا الحفل المهيب جبة وقفطانًا ويتعمم بعمامة ضخمة تناسب جلال الموقف، بدأ وسط ضجيج الحشد فلم يسمعه سوى من حوله ومنهم نديم نفسه:

أول كلامى حمد الله ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبدالله قدام أميرنا وأسيادى

قال نديم وهو يبتلع ريقه الذى أحس به جافًا فى بادئ الأمر:

أنا أريد أحمد ربى بعد الصلاة على المختار
وإن كنت تطمع فى أدبى اسمعك أحسن الأشعار

وحين رد الشيخ داوود سمع نديم صوته هذه المرة بوضوح أشد :

دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعكه
ندخل على أسيادنا بسرور وتغنم الخير والبركه

وفى هذه المرة سمع آخر رجل فى الخيمة صوت نديم وهو يلعلع:

هيا احتكم فى البحر وشوف فن النديم ولا فنك
دلوقت تسمع يا متحوف أحسن أدب وحياة ذقنك

وسأل رجل كان يقف خارج الخيمة صديقه:

- أين نديم؟

وخشى الصديق أن يرد فقد ساد الصمت حتى خارج الخيمة واكتفى بالإشارة إلى نديم وهو واقف بين شاهين باشا وجعفر مظهر باشا، لقد أظهرت فخامة ملابس الرجلين وضخامتهما رداءة سترة نديم وهزاله.. وبعد لحظات كان نديم وحده هو الذى هناك، كما كان صوته الجهورى داخل الخيمة وخارجها، وكف العساكر عن حفظ النظام، فى البداية كان ما يميز «نديم» هو صوته فقد بدا صوت الشيخ داوود الذى كان يعتقد أهل طنطا أنه أقوى الأصوات عاجزًا عن أن يتجاوز حدود الخيمة.. وهكذا كسب نديم من أول جولة تصفيق الأعداد الكبيرة خارج الخيمة التى لم تكن تسمع سواه، وبالنسبة لنديم كان الحشد كله قد بدأ يختفى. لم يكن يحس به إلا حين ينتهى من الإنشاد فيهدر بالتصفيق.. كان ثمة رجل عجوز يناظره ويساعده آخرون وكانوا جميعًا يلعبون بالكلمات ويحولونها إلى نغم، مجرد نغم، لم يفكروا هم أنفسهم طويلاً فيما يمكن أن يكون للكلمات من معنى، ولم يكن ذلك الحشد الجاهل معظمه يهمه سوى أن يطرد النغم فيصفق.. كانت تلك اللعبة هى لعبة نديم القديمة المفضلة، التى طالما بهر بها كل من عرفهم.. إنه يستطيع أن يلعب بها كما يلعب الحاوى بأطواقه الثلاثة دون أن تسقط من يديه الاثنتين، وحين بدأ الشيخ داوود ينسحب ليتابع المباراة زميل له أحس الجمهور كما أحس هو أنه أصبح سيد الموقف.. وبدأ يبصر الحشد الذى كان قد اختفى عن عينيه، لم يعد يخافه، كانت تلك أول مرة يلعب فيها لعبته أمام مثل هذا العدد، ويكتشف فيها أن هذا الحشد يمكن ترويضه مثل غيره من الأشياء، وأنه حين يروض يصبح أسلس قيادًا وتصبح اللعبة أمامه أكثر روعة..! كانت الأصوات تتغير عدا صوت واحد عرفه الناس خارج الخيمة، وداخل الخيمة، عرفوه كما عرفوا صاحبه وتدفقت فى نديم حيوية غريبة لا تلائم مظهره النحيل، ولأول مرة أحس أنه لا يلعب بالكلمات وحدها ولا بالأدباتية وحدهم بل بالحشد كله وبالباشا نفسه وبمن حوله من الأصدقاء وبدأت اللعبة تستهويه وتستثير غرائزه حتى بعد أن كف جميع الأدباتية عن الإنشاد وتوقفوا استمر ينشد حتى قام الباشا وسط تصفيق الآلاف وأجلسه بجواره وقبله.. لحظتها فقط طلب كوبًا من الماء، وتذكر فجأة أباه وأمه وأولاده وأنه لم يرهم منذ وقت طويل!!

* * *

وفى اليوم نفسه خرجت القصة من مدينة طنطا على لسان أحد المسافرين بعد أن انتهت زيارته للسيد أحمد البدوى.. لم ينتظر حتى يعود لأهله ويحكى القصة، لقد بدأ الحكاية فى القطار، وفى لحظات أصبح الفلاح الذى كان يروى القصة مركزًا لدائرة صغيرة التهمت فى سرعة بالغة كومة الحمص التى قدمها للدائرة التى اعتبرها بطريقة ما فى حكم الضيوف الواجب تحيتهم، وضمن الدائرة كان ثمة رجل فى الخمسين من عمره يرتدى بذلة كفلت له احترامًا ملحوظًا وسط المسافرين وتطل عيناه الرماديتان خلف منظار أنيق لامع وبيده منشة شعرها كان فى يوم يطرد الذباب عن خلفية حصان أشهب.. كان ذلك الأفندى صامتًا طوال الوقت قد عزلته ملابسه الأنيقة عن بقية المسافرين، ولم يكد يسمع اسم عبدالله نديم على لسان الفلاح حتى خرج من عزلته وبلا شعور راح يشارك الدائرة الاستماع وأيضًا أكل الحمص وراح يسأل الفلاح عن نديم هذا.. شكله.. هيئته.. ثيابه.. ولم يعد لديه شك فى أنه هو، وحتى لو لم يذكر الفلاح اسمه لما كان يناسب هذه القصة بطل غيره..! وكان الفلاح لا يتذكر بطبيعة الحال بيتًا واحدًا من الزجل الذى سمعه واكتفى بوصف السرادق العظيم، والكراسى المذهبة التى كان يجلس فوقها الباشا وضيوفه، والعساكر الذين لم يمتنعوا عن ضرب الناس حتى فى يوم كهذا، وأبدى أسفه لشىء واحد لا غير هو أن الباشا لم يجلد الأدباتية كما كان يقتضى الرهان بل أعطاهم خمسة جنيهات مع أنه هو لم يذهب إلا لهذا السبب..! وقال فلاح آخر كان يجلس بجواره وقد أذهله المبلغ:

ـ خمسة جنيهات لهؤلاء المتسولين!

ـ نعم بدلاً من عشرين جلدة! كان يستحقها كل منهم!!

وقال فلاح عجوز كان لا يزال يمص الحمص حتى يمكنه مضغه فى فمه الخالى من الأسنان:

لو أعطوا الفلاحين نقودًا بدل الجلد بهذه الطريقة لأصبحنا أصحاب الثروة فى البر كله! وضحكت الدائرة!

وأحس الفلاح الذى كان يروى القصة بأهمية الحكاية التى يملكها ولم يسترح؛ لأن الأفندى قد لاذ بالصمت بعد أن فرغ من أسئلته وقد توهم للحظة أن هذه القصة قد تكون سببًا فى معرفته بواحد من الناس الكبار ولم يرد أن تضيع الفرصة نهائيًا فسأله فى تردد:

ـ هل سعادتك تعرف عبدالله نديم هذا؟!

واكتفى الأفندى بهز رأسه موافقاً! ولم ييأس الفلاح فعاد يسأله:

- يشرفنا أن نعرف اسم البك الكريم.

- عبدالعزيز حافظ.

وبعدها لاذ الفلاح بالصمت!

فلم يحاول عبدالعزيز حافظ بعدها أن يتكلم أو يسأله حتى عن اسمه وبقى هذا الفلاح بلا اسم..!

عبد العزيز بك حافظ

وفى الواقع أن الفلاح لم يخسر شيئًا لأنه لم يحظ بالتعرف على الأفندى الأنيق، فلم يكن عبدالعزيز حافظ أكثر من مفتش سابق بقطارات السكة الحديدية ولم تكن تلك وظيفة هينة فى ذلك الوقت، وكانت كافية لأن ينال صاحبها رتبة بك من أصدقائه ومعارفه حين يخاطبونه أو يحررون له الرسائل!

ولكنه ـ عبد العزيز حافظ ـ كان قد تركها، ولم يبق له منها سوى تصريح سفر مجانى ينتقل به إلى حيث يشاء، وحين لم يكن هناك ما يفعله فإنه يسافر، وقد كفل له عمله السابق أصدقاء فى كل البلاد، وكانت زيارة الأصدقاء فى بلادهم لأسبوع أو أكثر شيئًا مألوفًا فى تلك الأيام، حيث لم يكن الوقت وحده الشىء الوحيد الرخيص الثمن، ولم يكن عبدالله نديم بالنسبة له مجرد صديق عادى ـ مع كثرة أصدقائه ـ ولم تكن علاقته به تمتد لشهور أو سنين بل كان يعتبرها صداقة عمر، مع أنه كان فى عنفوان شبابه، وكان نديم حين رآه أول مرة فى مطلع صباه، وكانت تلك المناسبة كافية لأن تحمل «عبدالعزيز حافظ» إلى الوراء باحثًا عن هذا اليوم الذى رأى فيه «نديم» لأول مرة، ولم يكن يعينه على ذلك سوى الصمت المطبق الذى لم ير فيه الفلاح المهزول سوى نوع من الكبرياء المرذولة التى أصبحت جزءًا من شخصية الأفندى فى ذلك الوقت: حتى ولو لم يكن تركيًا لعينًا يتقد أنفه حمرة كعرف الديك.

* * *

كانت أمسية شتاء عام ١٨٥٩م، وكان ليل الإسكندرية البارد هو الذى حمله على أن يستأذن صديقه ـ الشواربى بك ـ من أعيان الثغر فى العودة إلى بيته فى وقت مبكر، وقال الشواربى بك:

ـ ليس الليلة، سيزورنا الشيخ محمد العشرى ومعه الصبى الذى سمعنا عنه! وقال صديق آخر وهو لايزال مضطجعًا بجسده البدين على إحدى الحشايا المطرزة:

ـ جئت الليلة لأراه، ثم أضاف موجهًا حديثه لعبد العزيز حافظ: ما الذى ستفعله فى البيت؟ لماذا لا تدعهم يستريحون منك قليلاً؟

ـ كنت أفضل أن أريحكم! قالها وهو يعاود الجلوس.

قال صديق ثالث وهو يتجه إلى «الشيشة» ليجدد نارها ودخانها:

ـ لقد رأيته فى منزل نظيم بك.. إنه صبى أعجوبة ثم تابع وقد عبرت ملامحه عن ضيقه، ولكن المصيبة فى ثيابه، أنه قذر حقًا، ويجب أن يغسل هو وثيابه فى البحر قبل أن يجلس بيننا.

تبسم الشواربى بك فى سماحة الرجل الكريم وقال: سمعت هذه الملحوظة وقد كلفت الشيخ العشرى أن يشترى له سترة جديدة!

ـ هل هو قريب الشيخ العشرى؟

ـ لا.. تلميذه.. يتعلم فى مسجد إبراهيم باشا!

ـ من أبوه؟

ـ يقال إنه صاحب مخبز بحى المنشية اسمه مصباح أما الصبى فاسمه عبدالله!

«لا ينسى أبدًا تلك الليلة، لم يصدق حين رآه، إنه هو الصبى الذى يتحدث عنه الناس كأعجوبة، ويتسابق أعيان الإسكندرية فى دعوته إلى بيوتهم، كان فى الرابعة عشرة من عمره تقريبًا، أسمر البشرة، هزيلاً تحيط بجلد عنقه طبقة من الوسخ لم تخفها تلك السترة الجديدة التى يلبسها فوق جلبابه، وكان يبذل جهدًا ليتلاءم مع السترة التى لم تكن مناسبة له، ومع دنيا الكبار التى فتحت له أبوابها، ولكنه كان يفشل دائمًا فى أن يبقى دقائق دون أن ينظر أو يتحسس جزءًا من ثيابه التى بدت غريبة عليه غرابة الأثاث الفاخر والناس الكبار الذين يتوددون إليه ويحادثونه، وبين وقت وآخر تصدر عنه إحدى الحركات الصبيانية كأن يمد يده فجأة ليهرش ظهره، أو يغرق فى ضحكة يبدو جرسها الرفيع وسط ضحكات الكبار الرصينة أو ينسى رأسه فى وضع مائل حين يجتذبه أحد المصابيح المدلاة من سقف الحجرة وهى غارقة فى دوائر

نحاسية دقيقة ترسم ظلالها المعقدة على الحشايا الممتدة، وحين ينتبه أو ينبهه أستاذه الشيخ العشرى فإن وجهه الشاحب يغرق بالحمرة، وينكسر جفناه ذو الأهداب الثقيلة المدببة فى نظرة خجولة لا تطول هى الأخرى كثيرًا، ولا تكاد الجماعة تجتذبه إلى الحديث حتى يتخلص من خجله الطارئ وينسى كل ما حوله وينطلق فى جرأة غريبة يردد محفوظاته التى لا يدرى أحد متى ولا كيف حفظها؟ ولم تكن ذاكرته الخارقة هى كل شىء، فلا تكاد الجماعة تنساه بعض الوقت منصرفة إلى أحاديثها حتى يفاجئهم الصبى الذى ظنوه غير قادر على متابعة أى حديث يفاجئهم بأبيات من محفوظاته كأنما قيلت لمثل هذه المناسبة أو بسؤال يعود بهم إليه، أو بنادرة تشى بذكائه وتحذرهم من العودة إلى تجاهله، وكانت جرأة الصبى هى التى لفتت عبدالعزيز حافظ إليه أكثر من ذكائه وذاكرته، ولقد ظل طويلاً يعتقد أنها جرأة صبى لم يجرب ضراوة الحياة بعد، صبى لم يفطن إلى حقيقة الهوة التى يجتازها فى لمح البصر وهو معلق بذراع أستاذه الشيخ محمد العشرى، صبى ربما كانت حداثته وحدها وقبل أى شىء هى التى تفتح له أبواب البيوت والقلوب، وتدفع به بعيدًا خارج دائرة الصراع الجهنمية التى تشمل بركتها جميع الدوائر حتى مجلس الأدب والأنس والفكاهة!

ـ ما رأيك؟ كان الشواربى هو الذى يسأل عبدالعزيز حافظ فى نهاية السهرة وبعد أن اصطحب الشيخ العشرى تلميذه وخرجا ليعيده إلى بيته.

ـ غلام نادر الذكاء. ولكن.

ـ لكن ماذا؟

وقال عبدالعزيز حافظ مفضلاً أن يكتم ما عن له:

ـ ماذا يقول أبوه حين يعود له صبيه بثياب لم يشترها له؟

وضحك الشواربى بك ضحكة عظيمة

ـ ماذا تظنه يقول؟ سيحمد الله طبعًا!

وفى تلك الليلة ظل عبدالعزيز حافظ يفكر لا فى موقف الأب بل فى موقف الصبى نفسه كيف يحس حين ينتزع من قصر الشواربى بك الفاخر ليتحسس طريقه بعد قليل فى حارات المنشية المظلمة الرطبة وحين يسلم جسده إلى فراش ما كان يمكن أن يدرك

مدى حقارته قبل أن يدخل هذا القصر ويرى ما فيه من حشايا وأرائك ومناضد، وحين تمتد يده مع أيدى أسرة كاملة إلى طبق واحد، وقد كانت منذ قليل ترتعش بقدح الخشاف الرائع المذاق خشية أن تسقط منه قطرة واحدة على المفرش الحريرى المطرز...! ماذا يحس حين يتكرر ذلك ويتكرر؟؟

ولم يبق لديه شك فى أن مواهب الصبى لن تحمل له سوى الدمار، ولم يتعجل نتائج شكه، ظل يتابع الصبى الذى أدرك بدوره أن اهتمام عبدالعزيز حافظ بك يختلف به عن اهتمام الآخرين، وأنه يحبه ذلك الحب الذى انتظره من أبيه دون جدوى لم يجد لدى أبيه سوى السخط، وكان هو الذى قال ذلك لعبد العزيز حافظ:

- إنه لا يحبنى مثلك! كان الصبى يتكلم بنفس الجرأة.

- من؟

- أبى.

- أنت مجنون! ولم يبد على الصبى أيما ضيق قال فى بساطة!

- إنها الحقيقة لقد طردنى من البيت فجئت لك!

- ولماذا طردك؟

- لأننى لم أعد أذهب إلى مسجد الشيخ إبراهيم!

- ولماذا لا تذهب إليه؟ ألا تريد أن تكمل دراستك؟

- لا أحب هذه الدراسة! قالها فى بساطة شديدة!

- ألا تريد أن تصبح مثل أستاذك الشيخ العشرى؟

- أستاذى هو الذى جعلنى أحب الأدب والشعر وليس فى مسجد الشيخ إبراهيم سوى النحو والصرف والفقه والتوحيد والمنطق...

- هذه العلوم هى التى توفر لك فرصة العيش.

- لا أريد هذا العيش!

- ماذا تريد إذاً؟ من أين تأكل طعامك؟

ـ أنا مستعد لأن أعمل أى شىء!

ـ أى شىء؟ إذًا اذهب إلى المسجد وواصل دراستك!

ـ كنت أظنك تحبنى!

ـ يا عزيزى لا أحد يحبك مثل أبيك ومثلى ولكنك لا تريد أن تفهم!

ـ أفهم كل شىء، الحياة التى تريدونها، لا أحد يحبها الشيخ العشرى نفسه ساخط عليها، وكان سعيدًا جدًا وهو يجد كبار الناس فى الإسكندرية يسألون عنه وعنى، أساتذتى الآخرون يحسدونه لأنه وحده يذهب معى إلى كل مكان، الشيخ جاد أستاذ المنطق طلب منى أن أكلم الشواربى بك ليوظف ابنه فى الميناء وتقول لى أنت لا تريد أن تفهم!

وهكذا وبأسرع مما توقع تحققت كل مخاوفه، ها هو الصبى يتعلق بالسماء قبل أن تنبت له ريشة واحدة فى جناحيه، وليتركه يسقط مرة واحدة ليفيق إلى الأبد من سخافاته، وقال عبد العزيز حافظ لأبيه حين زاره وظل خمس دقائق يحاول أن يوضح له ما لا يحتاج إلى توضيح «وكان الأب خجولاً خجلاً ذكره بجرأة الصبى» قال عبد العزيز حافظ:

ـ لا تخف! أين يمكن أن يذهب؟! لابد أنه عند أحد أقاربه!

ـ سألتهم جميعًا عنه، سألت أعمامه بالشرقية، قالوا لم يحضر.

ـ إنه مندفع ولكنه ليس غرًا، ومهما يكن المكان الذى ذهب إليه فسوف يعود لك وللمسجد ليتم دراسته.

ـ ليته يعود فقط.

ـ كل الأولاد يهربون مرة ومرتين ثم يعودون بعد أن يدركوا أن قسوة الأبوين أرحم قسوة فى الدنيا كلها، ألم تهرب مرة يا عم مصباح؟

ـ لا .

ـ أنا هربت مرة واحدة.

... ولمثل الأسباب التى هرب من أجلها ولدك وبعدها عدت لأبوى وهم الرجل الذى كان غبار الفرن ودقيقه يخلفان أثرهما على لحيته بتقبيل يدى عبد العزيز حافظ، كأنه أعاد له ابنه فعلاً ولكنه سحب يده وقال له وهو يودعه إلى الباب.

ـ لا تقلق سيعود ابنك..

* * *

وفى تلك الليلة عاش عبد العزيز حافظ مع مغامرته الأولى والأخيرة حين هرب إلى بلدة خالته، كانت خالته التى لم ترزق بأطفال تحبه وتفرط فى تدليله، وخيل إليه أنه فى بيتها يمكن أن يكون حرًا تلك الحرية الجميلة التى يفعل فيها أى شىء، أو على الأقل لا يذهب فيها إلى المدرسة التى لم يكن يحبها بقدر ما يحب كتب الشعر والزجل وقصص «أبو زيد» والزير سالم التى كان زوج خالته يملك منها الكثير، وكان يحاول البحث عن أحد هذه الكتب فوق صوان الملابس حين كسر إحدى الأوانى الزجاجية الثمينة، يومها لم يضربه زوج خالته ولم يقل أية كلمة، ولكنه ضرب خالته نفسها ضربًا مبرحًا، وليلتها لم ينم عبد العزيز حافظ، وعاد إلى أبيه فى أول قطار ليأخذ العلقة الأولى والأخيرة، ويودع إلى الأبد فكرة الحرية الجميلة التى تسمح له بأى شىء، وانتهى حبه للأدب والشعر إلى أن يصبح هواية يشبعها فى سهراته ورسائله لأصدقائه، ويضع مؤلفات لم يجرؤ على أن يعرضها حتى على أصدقائه واستحال حلمه القديم بأن يصبح واحدًا من البارزين فى صناعة الأدب إلى شفقة وتندر على المنقطعين لهذه الصناعة التى لا تطعم أحدًا خبزًا.. وكان هو الوحيد الجدير بأن يسأل عن عودة الصبى وأن يتابعه لكنه نقل إلى المحروسة «القاهرة» بأسرته ونسى موضوع الصبى تمامًا..!

* * *

وذات ليلة دق باب بيته، وفتح الباب، ولأول وهلة لم يعرف ذلك الفتى الواقف أمامه دون أن تتضح ملامحه فى شريط الضوء المنبعث من مصباح زجاجى فى منتصف الصالة.

ـ من؟

ـ عبد الله مصباح..

وصافحه وهو يدير الاسم فى رأسه.

ـ تفضل. قالها بلهفة ، ليدخل، ليراه فى الضوء، كان هذا فتى آخر أكثر طولاً، أشد نحولاً، تشى ملامحه ـ التى فقدت مظاهر الطفولة فجأة ـ بالتردد، وكان صوته أكثر من أى شىء آخر قد فقد رقته وطفولته، كل ذلك فى عامين اثنين، وتقدمه إلى حجرة الضيوف، وهناك فقط أبصر الصبى القديم خلف ذلك الهيكل الذى غشه أمام الباب.

ـ نسيتنى؟

ـ لا ولكنك كبرت فجأة لم أكد أعرفك لأول وهلة!

وجلسا متجاورين على «كنبة» خشبية ضخمة تحتل وحدها نصف الحجرة وفى الضوء أبصر كل منهما الآخر بوضوح أشد، وخيل لعبد العزيز حافظ أن جرأة الصبى قد اختفت مع ملامحه القديمة أيضًا.

ـ لازلت تهرب من أبيك. قالها مازحًا ومحاولاً أن يزيل تهيبه وأن يؤكد له أنه مازال يذكره جيدًا.

ـ نعم.

وضحكا معًا، وشربا كوبين من القرفة أحضرتهما خادمة صغيرة بينما راح عبد العزيز حافظ يسأله عن كل شىء فى الإسكندرية عدا شىء واحد ادخره للنهاية على الأقل حتى يأنس به الصبى وينسى حرجه، وفرغت الأسئلة مع الشراب، وبدأ عبد العزيز حافظ يحوم حول السؤال الذى تحاشاه.

ـ لعلك تريد الالتحاق بالأزهر؟

ـ لا، وسكت الصبى وعاد الحرج مع الصمت الذى اشتركا فيه قال الصبى بهدوء:

ـ تحب أن تعرف لماذا جئت؟

وأحس أنه كان قاسيًا على الصبى وأن الصبى هو الآخر يقسو على نفسه وأن جرأته القديمة لم تختف ولعلها صقلت وتحولت إلى صلابة الحديد المطروق.

ـ لماذا تقول هذا الكلام؟ زيارتك أسعدتنى، فكرت أنك ربما أردت أن تكمل دراستك بالأزهر.

ـ لم أكملها بمسجد إبراهيم باشا!

ـ لماذا لا تترك هذا الموضوع الآن؟ لم لا تحدثنى عن أبويك؟

ـ لم أرهما منذ مدة طويلة كنت...

فقاطعه محاولاً أن يخفف من التوتر الذى يعود مع كل سؤال وقال ضاحكًا:

ـ لازلت هاربًا إذًا، لاتزال شقيًا، لا حديث فى هذا الموضوع قبل أن تتعشى ثم نتحدث حتى الصباح.. لا تعرف كم أحبك!

ـ هذا ما عرفته متأخرًا ولهذا جئت إليك!!

وليلتها تحدثا طويلاً قبل العشاء وأثناءه وبعده، وكان الصبى هو الذى نام أولاً، غلبه النوم وقطع حديثه الذى ما كان لينتهى فى ليلة أو ليلتين، كان متعبًا وغرق فى الجلباب الذى أحضره له عبد العزيز حافظ لينام فيه، وحين خلع «بدلته» بدت ساقاه نحيلتين كما برزت ضلوعه خلف القميص الرقيق اللاصق بصدره، وتحركت فى عبد العزيز حافظ عواطف الأب، وعلق سترة الصبى التى يبدو أنها قاست أكثر مما قاسى صاحبها على مشجب فى جانب الحجرة وترك الصبى لينام، أما هو فلم ينم فى تلك الليلة لقد راح يسترجع حديث الصبى كأنما ليتأكد من أنه ليس فيه جزء ولو صغير من خيال فتى مراهق، ولكن الحديث نفسه، والطريقة التى كان يتحدث بها الصبى لم تدع له مجالاً للشك فى صدقه، كانت الحياة هى الحياة ولقد عاملت الصبى بأقسى مما توقع بكثير، لقد أطلعته فى وقت واحد على أجمل وأسوأ ما تنطوى عليه، الثراء والإعجاب فى بيوت الكبار والأعيان، والجوع والمهانة حين تلفظه تلك البيوت بنفس السهولة واليسر اللذين استقبلته بهما وفى أقل من عامين كان قد جاب القطر من أقصى الدلتا إلى الصعيد وعاد ليقول له: «لابد أن يجد الإنسان عملاً دائمًا... عملاً يحتاج إليه كما يحتاج هو إلى العمل».

كان هو الصبى الذى أدرك هذه الحقيقة ثم تابع وهو يعض إصبعه.

«وكل ما يحبه المرء يأتى بعد ذلك دور البحث عنه» ولكنه لم يبحث عن هذا العمل فى الإسكندرية وإنما جاء ليبحث عنه فى القاهرة «ليس فى الإسكندرية أدب ولا أدباء إنهم هناك يتسلون فقط بكل شىء حتى بالأدب وبالأدباء أنفسهم، أما هنا فأظن الأمر يختلف» ولم يقل له عبد العزيز حافظ إنهم يتسلون به فى كل مكان، كان قد بدأ أعظم اكتشافاته، وحين عرض عليه أن يتعلم فن التلغراف لم يتردد وحين قال له:

ـ إنه عمل جديد وملائم لك، لكن هناك عيبًا واحدًا، هو أننى لا أضمن لك أن تعمل بالمحروسة بعد انقضاء فترة تعلمك!

فوجئ بالصبى يقول له:

- لا بأس، المهم أن أعمل، وسيكون العمل بإحدى محطات السكة الحديد، وسيكون هناك دائمًا قطار يمكن أن أستقله إلى المحروسة.

وفكر عبد العزيز حافظ «ولكن قد لا تجد الوقت والفراغ لتأتى إلى هنا، تلك يا صغيرى هى البداية ولسوف تتعلم كيف ترضى» ولم يقل له شيئًا مما فكر به فقط قال له:

- قد تكون الحياة صعبة بعض الشىء فى مثل هذه المدن الصغيرة!

- لن تكون أصعب مما رأيت، مادمت آكل من جيبى فليس هناك صعب!

وفكر عبد العزيز حافظ أن الصبى ذا الستة عشر عامًا قد أصبح حكيمًا بطريقة ما، ولكن حكمته لن تنضج بعد إلى الحد الذى يجعله يكف عن أحلامه السخيفة فى الأدب والأدباء، فهو لا يزال يتابع حلمه القديم، فى أناة أكثر، ومتاعبه تتحول فى يده إلى وسائل للبحث وراء نفس الحلم الذى تخلى عنه عبد العزيز حافظ بسهولة أكان مخطئًا؟ لكن من يدرى؟ فالصبى حتى الآن قد جرب الحلو والمر، وكلاهما مثير وحاد، ولكنه لم يجرب ذلك الطور الآخر الفظيع أعنى العادى والمألوف حيث يتبلد كل شىء، وحيث تمر الأيام كأعمدة البرق خلف زجاج قطار مسافر، بينما يحس الإنسان أنه لايزال فى نفس المكان... كانت تلك مأساته الدائمة والأليمة، وتحول شعوره الدفين بالمرارة إلى ترقب وانتظار لهذه المغامرة التى تتنفس بانتظام فى حجرة مجاورة وتحتل نصف ثوبه لا غير!

وحين سألته زوجته بعد ثلاثة أيام من بقاء الصبى فى ضيافته:

- هل سيبقى ضيفك هذا كثيرًا؟

أجاب - لا... ثم تابع بلهجة مرحة - إنه ليس ضيفًا... وقد يصبح زوجًا لإحدى بناتك!

- ألم تجد غير هذا؟ كانت قد رأت سترته لا غير، وكان هذا فى رأيها كافيًا لأن ترفض حتى مزاح زوجها فى هذا الموضوع!

- ولكنه ذكى ونابغة يا امرأة!

ـ ليستفد من ذكائه فى تدبير ثوب يلبسه ومكان ينام فيه!

وأنقذ ذكاء الصبى عبد العزيز حافظ فى الوقت المناسب، فقد تعلم بأسرع مما توقع له صناعة التلغراف، وجاء اليوم الذى وقف فيه ليودع ضيفه قبل أن يسافر إلى بنها ليعمل فى محطتها، لم يتصور أن الصبى سيخطف قلبه وهو مسافر، قال له: ستكتب لى دائمًا، وسأعرف كل شىء عنك!

ـ سأكتب لك، ولن أنسى ما حييت ما فعلت من أجلى!

وضم الصبى إلى صدره واكتشف لحظتها أن ضلوع الصبى لم تكن فى مكانها، وأنه امتلأ قليلاً، وعاوده شعور الأب وأحس والقطار يتحرك به أنه يودع حلمه القديم إلى حيث تذهب كل الأحلام فهو أدرى الناس بما ينتظر صبيه فى دنيا لاتزال بالنسبة له فضولاً ودهشة وفكر والقطار يختفى عن عينيه «وقد تنسى أن تكتب إلىّ أيضًا قبل أن تنسى كل أحلامك» ولكن رسائل الصبى لا تلبث أن تصل إليه تباعًا وفى نظام أدهشه بقدر ما أسعده: شاكرة فى البداية، ثم شارحة ـ بأسلوب جدد مواجعه ـ كل ما تقع عليه عيناه... المسافرين والحمالين والباعة والفلاحين والتجار والسكارى والحشاشين ومن خلال الرسائل أبصر المدى الذى تتحرك فيه عينا الصبى وقدماه كان الصبى الجوابة ينتشر لا فى المدينة الصغيرة وحدها بل فى القرى المجاورة، وكان الأعيان الفارغون المتبطلون قد اكتشفوا مواهب عامل التلغراف المضحك بشكله ولسانه، وكانت رسائله تصف كل ذلك فى سجعات محكمة وتشبيهات رصينة مؤكدة أن حلمه القديم لايزال هناك يتململ، موضحة كل شىء عدا شىء واحد ظل يقلق عبد العزيز حافظ كيف يوفق بين ذلك كله وبين عمله؟ وتصبح هذه الرسائل جزءًا من حياة عبد العزيز حافظ، يقلقه أن تتأخر عن موعدها، ولكن الرسائل لا تلبث أن تصل معتذرة وشارحة هذه المرة ما لم يكن مفاجأة لعبد العزيز حافظ، فالحياة هى الحياة، والعمل الدائم يتحول إلى ملل دائم والفضول والدهشة يتكشفان عن قسوة غريبة، والناس هم الناس والرسالة الأخيرة تشرح كل شىء:

«ولو علم السيد ما أنا فيه من معاناة الأمور، ومعاداة الدهور لالتمس عذرًا لتأخيرى، فأرجو الصفح عما يوجد فى هذا من القبح، فقد حررته ليلة نوبتى بعد عشائى وقبل نومتى، مع صفير الوابورات وجعجعة القطارات، ونداء العدة مدة بعد مدة،

وعندى من الأوباش كل سكير وحشاش، حزب يلعب الدمنة، وفريق يقرأ كليلة ودمنة، وقوم يلعبون النرد، وشخص يقزح كالقرد وكنت فى بلوى كبيرة إذ صار المحل كبيرة»[1] كنت أعرف ذلك كله، ولسوف تعرف ما هو أكثر، ولم يكتب له ذلك أبداً. لم يكتب سوى ما كان ينتظره منه، وتتحول الخطابات إلى أنات ولكنها أنات موقعة فهو يصف من حوله من الناس قائلاً فى رسالة أخرى وأخيرة:

«لا يرون عيبًا فى فحش، فهم أغلظ طبعًا من وحش، إن ائتمنتهم خانوا وسرقوا وإن هديتهم ضلوا ومرقوا، وقد أعيانى رد هذا الخطب، حتى ذبل غصن يقينى الرطب فكاد طبعى تسرقه تلك الطباع، وتجرى به فى كهوف الضياع، فقد خضت معهم فى حديث اللغو، ولبست ثياب اللعب واللهو».

ـ إن قبح الناس لم يجعلك تنسى ما للكلمات الموقعة من جمال هو وحده كل ما بقى لى، وما قد يبقى لك، وأخشى يا صديقى الصغير أن يأتى يوم تنسى فيه كل إيقاع، ويصبح إيقاع الحياة هو نفس إيقاع الآلة التى تدق عليها، فجميع الأصوات فى أذنى تختلط بصوت عجلات قطار لا يريد أن يقف، ولم يكتب له ذلك أبداً، كان فقط يشجعه، وظل يفعل حتى انقطعت رسائل الصبى ثم انقطعت ردوده تلك التى كان يوقعها بإمضائه الغريب عبد الله نديم، وكان قد أخبره مرة بقصة ذلك اللقب الذى أطلقوه عليه فى الإسكندرية، ولم يأخذ هو موضوع اللقب مأخذ الجد إلا بعد أن رأى إصرار الصبى على التوقيع به، فأصبح يخاطبه به فى رسائله، وحين انقطعت أخباره وانتهت علاقته به إلى أن تصبح قصة جديرة بأن تروى فى ندوة الشيخ أحمد وهبى التى يتردد عليها فى الغورية ليؤكد بها لأصدقائه ـ ما سبق أن أكده ـ من ضيعة النبوغ الأدبى فى هذا البلد وفى هذا الزمن، أضفى لقب نديم على هذه القصة مسحة من الطرافة لكن القصة ما لبثت أن نسيت تمامًا كما نسى صاحبها نفسه!

***

ـ أهو أنت؟ ظننتك مت وانتهى أمرك!

ولكنه هو عبد الله نديم يجىء هذه المرة أيضًا بعد أن كاد يلفه النسيان ولكنه يبدو أكثر طولاً وامتلاءً وأقل ترددًا وخجلاً.

(١) مثل محل شرب البيرة.

- وهل يموت الشقى يا سيدى؟

قالها وهو يدخل، واحتوتهما نفس الحجرة وألقى الضوء على وجهيهما نفس المصباح.

- لم أجد سببًا واحدًا معقولاً لانقطاع رسائلك سوى موتك!

وضحك الصبى وهو يقول:

- ستجد هذه المرة سببًا واحدًا معقولاً لحياتى!

- لماذا لا تخبرنى أولاً عن أحوالك فليس يهمنى أن يكون لحياتك أسباب معقولة!

وأخرج الصبى من جيب سترته مظروفًا حكوميًا وأخرج منه ورقة مطوية بعناية وسلمها له برفق كأنه كان يخشى عليها من الهواء نفسه، وقرأ عبد العزيز حافظ الخطاب الحكومى الذى كان مختصرًا جدًا وندت عنه صيحة فرح.

- غير معقول يا بنى..! وكأنما أراد أن يوضح لنديم لماذا كان ما فى الخطاب غير معقول فتابع.

- أنت.. أنت تنقل هكذا فى لمح البصر إلى قصر الأميرة خوشيار هانم بالمحروسة!!

ثم ردد... مستحيل لكن أخبرنى كيف حدث ذلك؟

- كان المستحيل أن أظل هناك أنقر على تلك الآلة اللعينة فى بنها!

- لكن لم تقل لى كيف؟ لابد أنك عرفت بعض الرؤساء أو أن أحدهم عرفك.

- كلهم يعرفوننى!

قالها عبد الله نديم ببساطة، وكأنه يطلب من عبد العزيز حافظ أن يكف عن دهشته التى لم يجد لها أقل تبرير، ولم يكن عبد العزيز حافظ فى حاجة إلى أن يتعقل كيف يمكن أن يبرز صبيه وسط عاملى التلغرافات إذ ذاك ولا كيف يمكن أن يلفت أنظار رؤسائه، حتى إذا احتاج قصر الأميرة إلى موظف جديد فى التلغراف قدموه على غيره!

لم يكن فى حاجة إلى أن يتعقل ذلك إلا لأن الأمور المعقولة وحدها هى التى كانت تحتاج فى منطق الحياة التى عرفها إلى تبرير، أما ما هو غير منطقى وخاطئ فهو وحده الذى يمكن أن يتقبل دون مناقشة، ودون حاجة إلى شرح، وهاهى ذى الحياة التى

لم تمنح ثمارها الحلوة إلا للحمقى والبلهاء تقذف بواحدة من أشهى ثمارها إلى فم ذلك الصبى الموهوب! وأحس كأنه خدع بطريقة ما! ولكن ما الذى فعله هذا الصبى أكثر منه؟ واختصرت كلمة الحظ التى أدارها فى رأسه كثيرًا من شكوكه ومواجعه، ولقد أحس أن هذا الصبى صبيه، وأنه إذا كان قد بدأ طريقه مستندًا إلى ذراعه فإنه لايزال محتاجًا إلى هذه الذراع ولن يتركه وحده فى هذه المدينة الكبيرة، وربما يكون القدر الذى لم يفهم أحد بعد كل حكمته يدخر له وللصبى ما لم يخطر بباله يومًا وإلا فلماذا وضعه فى طريقه؟ لماذا؟ ولم يقل للصبى أية كلمة مما دار بخاطره ومع ذلك فلم ينم كلاهما فى تلك الليلة إلا قبيل الفجر.

***

وكان هو الذى اختار له مسكنًا قريبًا من بيته، وكان هو الذى انتقى له «بدلة» جديدة تناسب موظفًا فى قصر الأميرة، وكان هو الذى أقرضه أول مبلغ ليدبر أموره، وليكون مسكنه صالحًا لاستقبال من يفكر فى زيارته، وكان هو الذى أخذ بيده إلى ندوة الشيخ أحمد وهبى التى سمعت مرة واحدة باسمه ثم نسيته ليرى بعينيه ويسمع بأذنيه نجوم الأدب فى مصر فى ذلك الحين.

ـ أهذا هو الفتى الذى انقطعت أخباره عنك؟!

كان السيد على أبو النصر شيخ الشعراء فى ذلك الحين هو الذى ألقى بالسؤال بينما راح يتفحص الصبى بعين الخبير وهو يجلسه بجواره!

ـ كيف توصل أخبار الناس وتقطع خبرك؟

كان الشيخ على الليثى هو الذى بدأ المداعبة وقد تذكر أنه كان يعمل بالتلغراف.

كان الصبى لايزال مأخوذًا وهو ينقل نظراته بين العمائم الناصعة والوجوه المكتنزة الراضية التى طالما سمع بأسماء أصحابها وفى منتصف الحجرة كانت تنتصب «شيشة» ضخمة متوجة بلفائف «التنباك» التى تحترق على مهل وتتفرع عنها أذرع كثيرة تمتد إلى الجالسين حولها!

ـ هل أنت أداة وصل أم قطع؟

واكتشف الصبى الطربوش الوحيد بين حلقة العمائم حين ألقى صفوت أفندى الساعاتى بمداعبته.

ـ إنه يصل المقطوع ويقطع الموصول!!

كان الشيخ أحمد الزرقانى بلحيته المهيبة وسنه الذهبية هو الذى يمسك بطرف الخيط.

ولم ينقذه منهم سوى الشيخ أحمد وهبى صاحب الندوة وأشهر تجار الطرابيش بالغورية وكانت تلك طريقته فى الإنقاذ.

ـ دعوه لى قليلاً لنرى متى تتقطع أنفاسه؟!

وكان معنى هذا فى عرفهم أنه هو الذى سيختبر الصبى شأن الجوهرى الذى لا يريد أن يتسلل إلى «دكانه» معدن زائف!!

وحين تركز الهجوم فى جبهة واحدة وجد الصبى نفسه التى فقدها، ويطول الاختبار، ويحتدم السؤال والجواب، والصبى ـ الذى زال عنه الروع ـ يحاور ويداور، فهو يكمل الأبيات الناقصة، ويعارضها بأبيات من محفوظاته، وأحيانًا تسعفه البديهة فيعارضها بأبيات من مؤلفاته ويتنقل بين البحور، ويستشهد بالشعراء من مختلف العصور ويتلاعب بالألفاظ التى يختلف معناها من زمن لآخر، ومن بيئة لأخرى، ويتخلص تمامًا من وجله فيداعب ويشاغب، ويشعر بسرور الجالسين، وباحتدام جمرات «الشيشة»، وبالضحكات تدمع عيونهم وتجعلهم يشرقون بالدخان فيمعن فى المداعبة والمشاغبة، ويعترفون بالصبى واحدًا منهم!!

***

ـ لكن ليس هكذا يا نديم «وكان هذا قد أصبح اسمه» أن هؤلاء ليسوا مثل أعيان الريف إنهم أناس ذوو مكانة وأنت تتجاوز الحدود فى تبسطك معهم! وخاصة مع محمود سامى البارودى!

هكذا كان عبد العزيز حافظ يحاول دائمًا أن يضع لجامًا لهذا المهر الجامح.



- ولكن «محمود سامى» صديقى.

- صحيح هو فى مثل سنك لكن أباه حسن حسنى بك مدير.. وقاطعه نديم ضجرًا..

- ولكنى لا أتبسط مع أبيه.. ثم إنه صديقى وأنت تعرف.

- كلنا أصدقاء لكن..

- لست أحب تهييبك.

- ولست أحب اندفاعك!

ولكن كلا منهما ظل يحب الآخر رغم كل شىء، كان صبيه الذى لم ينضج بعد، ولم يكن مستعدًا لأن يخسره، ولا أن يتركه يخسر الناس ولكن هل كان حقًا يخسرهم؟ لقد فوجئ عبدالعزيز حافظ هذه المرة وكأن الناس يخفون فى داخلهم قدرًا هائلاً من السماحة والتبسط يواجهون به هذا الفتى الذى يجد دائمًا عذرًا مناسبًا لأن يقول لهم ما يود.. يجده أحيانًا فى ضرورة القافية، أو الآية أو الحكاية تجعلهم يضحكون حتى من أنفسهم، ولم تعد حداثة الصبى هى التى تغفر له بل طرافته.. وكانت الأيام القاسية التى جاب فيها الصبى أرجاء القطر هاربًا من أبيه والتى سهر معها عبد العزيز حافظ ليلة كاملة غير مصدق أن فى قدرة رجل لا صبى أن يواجه كل هذه الضراوة ثم يدخر خوفه من الحياة أو تحفظه من الناس، كانت هذه الأيام قد أصبحت مادة لا تنضب لسخرية الصبى من نفسه ومن الناس الذين آذوه أو أكرموه، كانت قدرته الهائلة على التذكر لا يعادلها إلا قدرته على النسيان.. لقد نسى كل الآثار التى عجز عبد العزيز حافظ نفسه عن نسيانها، بروح الطفل الذى ينسيه الحاضر كل ماض أو مستقبل والذى يعيش بكل طاقته لحظته لا غير، وكان يدور به على الندوات كما يدور التاجر بسلعة نادرة فتتفتح الأبواب، ولا تفصح العيون إلا عن الدهشة، وتبذل الدعوات فى سخاء، وتمتد السهرات مع الليل..! ولم تكن حياته الجديدة تتسع لغير المرح والفكاهة كانت تلك أيامًا حلوة، فالخديو الجديد إسماعيل باشا ابن الأميرة خوشيار هانم التى يعمل نديم فى قصرها يرتقى عرش مصر، والناس يحلمون مع وعوده بعهد جديد سعيد، وأسعار القطن ترتفع، لأن حربًا تنشب فى تلك البلاد البعيدة التى تدعى أمريكا. وخزائن الأعيان والذوات مالكى الأرض تمتلئ بالأموال، ويصبح الفراغ هو المشكلة الحقة التى تواجه هذه الطبقة التى تعيش فى «المحروسة» وكان الحل الوطنى لهذه المشكلة، هو أن

يلتقى الناس فى البيوت حتى لا يقتلهم الفراغ فرادى، وكان السمر سلاحهم الوحيد، ولم يكن الأدب سوى نوع من السمر إنهم يتكلمون ويتكلمون فإذا ارتفعت درجة حرارتهم ارتفعت درجة الكلام فصار شعرًا أو زجلاً أو نوادر، فإذا ضاق بهم الحاضر فالماضى وراءهم، عصور بأكملها مليئة بالشعر والنثر والطرائف، وترتفع قيمة صبيه الذى كان رأسه منجمًا من كنوز الماضى، والذى كان قادرًا على أن يصوغ كنوزًا جديدة تلائم الحاضر ليبيعها فى تلك السوق الرائجة، سوق الفراغ، وكف عبد العزيز حافظ عن التأسف على نفسه، كما كف عن توجيه النصائح لصبيه، كانا قد أصبحا صديقين، كما لم يعد لفارق السن بينهما من قيمة أو وجود فى غير ملامح وجهيهما، كان قد رد إليه شبابه، فهما يتهاجيان ويتناجيان شعرًا ونثرًا فى البيت أو فى الطريق، وتعرفهما ندوات القاهرة كثنائى ينوب أحدهما عن الآخر ويتحدث بلسانه ويعتذر عنه!! ولكنه يتميز عن ثنائى الإسكندرية ليس فقط باختفاء الشيخ العشرى بل بأنه أكثر وجاهة، أكثر مالاً، أكثر مرحًا، أكثر صراحة، أو هكذا خيل لعبد العزيز حافظ، فحين كان ينفرد به نديم كان يحدثه حديثًا آخر تمامًا عن ذلك العالم المسحور الذى ما كان بمقدور عبد العزيز حافظ أن يعرف عنه شيئًا، عالم القصر..!

ـ كنت أظن أن سور القصر يفصل فقط بين نوعين من البيوت، ولكنه يفصل بين عالمين لا يمت أحدهما للآخر بصلة.

هكذا قال له بعد أن انتقلت الأميرة من قصرها بالعباسية إلى القصر الجديد بجوار النيل..! بعد أن أصبح ابنها حاكم مصر.

ـ وما رأيك فى عالم القصر الجديد يا نديم؟

ـ قد تختلف محتويات القصور لكن ثمة شيئًا واحدًا لا يختلف فيها كلها.

ـ ما هو؟

ـ إنها دائمًا لمن يمتلكونها! فى كل القصور توجد أسوار داخلية أشد صلابة من السور الخارجى تفصل بين من يمتلكون القصر ومن يمتلكهم القصر، نحن يا صديقى ضمن الممتلكات هنا أو هناك!

ـ لست أفهم كيف تردد هذا الكلام، تستطيع يا بنى أن تعبر، هذه الأسوار! مكانك يا نديم ليس أبدًا فى حجرة التلغراف، ورمقه نديم بنظرة فاحصة.

- وأين ترى مكانى يا سيدى؟

- بجوار الخديو.. تصبح نديمًا له!

وانفجر نديم ضاحكًا:

- ابن الخباز يصبح نديمًا للسلطان يبدو أنك كنت تقرأ كثيرًا ألف ليلة!

- لست أهزل يا بنى أنت تعرف الكثيرين ممن يعرفهم الخديو ولتنس حكاية أبيك هذه!

- ألا يحب الخديو أن يعرف من أين يأتى جلساؤه؟

- لو رآك مرة واحدة لما سألهم من أين جاءوا بك؟

- وكيف يرانى؟ أقف فى طريق موكبه؟

- كف عن سخفك، لو كنت جادًا ففى أعياد الميلاد والجلوس واحتفالات القصر مناسبة لأن...

وقاطعه نديم كمن يريد إسكاته: أعرف، لكن هل تظن حقًا؟

- مادمت تعرف فأى شىء لعين يربطك بحجرة التلغراف؟

- فى الحقيقة لا شىء ولست أدرى.. ربما أفعل ذلك يومًا.

ولم يكن عبد العزيز حافظ فى تلك الأيام يدع فرصة تمر دون أن يكرر لنديم فكرته، ودون أن يتركه نديم بلا إجابة واضحة، ومع ذلك فلم يؤثر شىء كهذا فى صداقتهما، فلم يكن نديم مجرد صديق، كان قد أصبح نصفه الآخر الأكثر شبابًا، الأرقى موهبة، المفتاح السحرى لبيوت الذوات وقلوبهم، حيث تساوى توصية أمير أو كبير ما لا يقدر بمال ولماذا يتعجل الأمور؟ وهل كان يحلم يومًا بما انتهى إليه لرفقة ذلك الصبى الذى جاء به القدر فى طريقه لحكمة لن تبقى طويلاً طى الكتمان، لكن الزمن اللعين يمر، والحرب التى نشبت فى البلاد البعيدة تنتهى وأسعار القطن تتدهور، والناس يتحدثون عن قروض يعقدها الخديو الجديد ليتم المشروعات التى بدأها أيام الرخاء، وهنا وهناك كان الناس ينظرون إلى السكك الحديدية تمتد وإلى الترع تشق، والجسور تبنى، والقصور الملكية يتم بناؤها وتؤثث، ومع القروض والمشروعات يفد الأجانب من أوروبا، مرابون يمدون يدهم بالأموال، وخبراء وفنيون ومستوردون يمدون

يداً أخرى تأخذ نفس الأموال، ومع الأجانب تقبل عادات جديدة، وهوايات جديدة، وسلع جديدة تتلقفها على الفور تلك الطبقة التى كان نديم وأمثاله يحتكرون فراغها، فتجد مشكلة الفراغ حلولاً جديدة بدل الحل الوحيد القديم، فآلات الطرب الحديثة، وتأثيث البيوت على الطرز الحديثة والمقاهى التى تفتح على نظام أوروبى، ودار للأوبرا وتجديد لحديقة الأزبكية وبناء لمسرح جديد يتوسطها، وبيوت للهو، وخمور معتقة ومستوردة، و... وصبيه القديم... نصفه الأرقى يغافله ويتخطى العشرين بسنوات، لم يعد ذلك المراهق الغر الذى قرر ذات مساء أن يوليه حمايته ورعايته، لقد غدا شابًا رقيقًا يعرف متى يتكلم ومتى يصمت ومتى يغضب ومتى لا يغضب دون حاجة إلى لجام؟ ويغافله مغافلة أخرى أشد فيصبح نديمًا لمن لا يعرف من الناس والأشياء، لم تعد مجالس الأدب هى كل مجالسه، وأن أخبار علاقاته الجديدة وندواته الجديدة أصبح يتلقفها من الأصدقاء الذين يحرجونه فى كل مرة بالسؤال عنه فلا يجيب، ويحرجونه ثانية بمعرفتهم ما كان يظن أنه أولى بمعرفته منهم، وبالتندر بالثنائى الذى أصبح مفردًا من ناحية وجمعًا من ناحية أخرى، ويحس إحساسًا قاتمًا بأن صديقه لا يلبث أن يتخطاه هو نفسه، وتأبى كبرياؤه هذه المرة أن تدعه يذهب إلى بيت نديم القريب من بيته عاتبًا أو مغاضبًا ولكن «نديم» نفسه لا يلبث أن يعود إليه لينقذه من هواجسه، يأتى دائمًا فى اللحظة المناسبة كأنما يبعث به نداء خفى علوى!

ـ لم يعد أحد يراك يا صاحب السعادة! أين تذهب بك الشياطين!

ـ وهل تذهب الشياطين إلى الأزهر يا سيدى؟ إننى أحضر دروس المساء هناك كل ليلة!

ـ منذ متى أصبحت تعشق الدروس؟

ـ منذ بدأت أسمعها من أساتذتها.

ـ ومن أساتذتك العظام هؤلاء؟

ـ لا تسخر فلم يكن من المعقول أن يكتشف المرء روعة المنطق والأصول والتوحيد قبل أن يلتقى بالشيخ حسن الطويل والشيخ الإمبابى! لا تتصور كم أصبحت تلذ لى هذه الموضوعات!

ـ والأدب؟

ـ لن تصيبه هذه العلوم بأى أذى!

ولم يكن قلق عبدالعزيز حافظ على اهتمام نديم بالأدب إلا بقدر قلقه على اهتمام نديم به، وفى معركة الحب الدائرة بينهما كان يدرك أنه الطرف الأضعف فلم يلجأ لوضع العراقيل كان مستعداً للتنازلات التى لا تمس كبرياءه، والتى كان نديم من الذكاء بحيث يقدم له فرصتها كاملة!

إن إحساسه الخاص بظلم الحياة له قد بددته موهبة نديم الخارقة ولم يعد يعتقد أن للقدر دائمًا حكمة فيما يأتى أو يترك من الأمور!

والنهاية، حتى نهاية الصداقة أو الحب، يمكن أن تحتمل إذا لم نفاجأ بها، إذا عرفنا بدقة الوقت الذى تبدأ فيه..! ولم يقل لصديقه شيئًا من هذا كله فقط قال له:

ـ المهم يا صديقى ألا أسمع أخبارك من الناس، أن تجعلنى أراك. كان هذا هو الرجاء الأخير لعبد العزيز حافظ وبعدأيام قليلة مر به نديم وقال له:

ـ تعال معى.

ـ إلى أين؟

ـ إلى منتدى محمد باشا سيد أحمد بشبرا.

ـ ولكنى لا أعرفه.

ـ ولا أنا.

ـ كيف إذًا نذهب إليه؟

ـ هو الذى دعانى لندوته.

ـ دعاك أنت لا أنا.

ـ كنت أذهب معك إلى كل من تعرف!

ورافق عبد العزيز حافظ نديمًا مرة ومرة وفى النهاية قال له:

ـ يا صديقى يكفى أن أراك كلما وجدت فرصة لزيارتى ثم حاول أن يقدم لنديم اعتذارًا فتابع حديثه قائلاً:

ـ ليست لى قدماك ولا لسانك، وليست لك أسرتى!

ولم يقل له نديم «وما الجديد فى كلامك. لقد قبل اعتذاره بأسهل جدًا مما توقع، وفى الحقيقة أنه لم يكن ضائقًا بمكان التابع لنديم فلم يكن غير ذلك حتى وهو يقود «نديم» إلى ندوات المحروسة أول عهده بها، ولكن كانت هذه محروسة جديدة وندوات جديدة لا يدرى كيف اكتشفها ذلك الجواب الغريب، ندوات لا تهتم بالأدب وحده، ولا تحتفى بالمرح والفكاهة إنهم يتجادلون ساعات طويلة فى العقائد والمذاهب والتاريخ، ويلغطون أحيانًا بالحديث عن أوروبا وحضارتها وسياستها وما يتصل بمصر من هذا كله ولا يتورعون عن خدش الخديو فى أحاديثهم، ولم يخطر بباله يومًا أن التصوف يمكن أن يكون موضوعًا يستهوى صبيه، وأن الشيخ عبدالواحد الحريرى شيخ الطريقة العنانية يمكن أن يكون شيخ الندوة التى رافقه فيها لآخر مرة، وكان عبد العزيز حافظ يتساءل هذه المرة بلا جزع ودونما سخط وكأنما لمجرد التساؤل، أية شياطين تركب «نديم» هذا وتسوقه فى كل اتجاه؟

لقد حاول أن يعرف الشيطان الحقيقى الذى يركب «نديم» ويوجه خطاه، أحيانًا كان يظنه الأدب، وأحيانًا كان يظنه الفكاهة والسخرية، ولكنه لم يتصور أن يصبح للتصوف والتاريخ والمنطق شياطين أيضًا، وكأن هناك عائلة كاملة تتناسل وتنجب ما لا يحصى من الشياطين ولقد فكر يومًا أن الزواج يمكن أن يطرد كل هذه الشياطين، وهذه مسألة مجربة، وكان قد أفهم «نديم» بكل ما قدر عليه من لباقة أنه رفض عريسًا تقدم لابنته مع أنه موظف مثله فى السكة الحديدية؛ لأنه تهمه الأخلاق أولاً وقبل كل شىء، وكان يعتقد أنه يقدم فرصة العمر لنديم الذى يدرك مدى حساسيته من هذه الناحية فقد حكى له مرة قصة الحب الوحيدة، التى أدمت قلبه وهو صبى بالإسكندرية، وكانت حبيبته مجرد خادمة فى مثل سنه تأتى إلى الفرن حاملة على رأسها لوحًا من الخشب رصت فوقه أقراص العجين... وكان قد أبصر أول الأمر شعرها الناعم المرسل ولم يبصر وجهها الذى كان مختفيًا تحت لوح الخشب إلا بعد أن ساعدها «مبروك» الفران على إنزال اللوح، كان وجهها مستديرًا وأبيض، وكان معفرًا بالردة الصفراء، وعلى رموشها غبار الدقيق وكانت عيناها تتوهجان وجسدها كله يهتز ومبروك يساعدها على إنزال اللوح، وضايقه أن «مبروك» قرصها فى يدها، وضايقه أكثر إنها لم تنهره، وأنها اكتفت باتهامه بقلة الأدب، وإنها كانت تضحك وهى تقول له ذلك، ويومها لم يذهب للجامع ليتلقى دروسه، وجاب الشوارع كالمجنون دون أن يبصر غيرها فى كل مكان ذهب

إليه، وعاد إلى الفرن وعرف الأيام التى تأتى فيها بالعجين وبالسمك وبطاجن البطاطس، وعرف أن «مبروك» اللعين يحبها، ولم ييأس كان هو الآخر يحبها فى جنون، ولم يفكر أن يقرصها مثل مبروك، بل فكر فقط فى لمس شعرها الطويل الناعم، وفكر مرة أن يزيل الدقيق بيده عن خديها، ولكنه فضل أن يزيله عن شعرها، وحين فعل ذلك فى يوم لم يكن فيه أبوه موجودًا بالفرن اتهمته أيضًا بقلة الأدب ولكنها لم تضحك، وحين قال لها: إنك تتركين «مبروك» يلمس يدك قالت له غاضبة: لم يعد غيرك يا وجه القرد!

ويومها أيضًا لم يذهب للمسجد، وطاف بنفس الشوارع وكان يبكى! وحين حكى نديم له هذه القصة كان يضحك، وكان يقول له: أعرفُ أن «نديم» خلق ليحبه الرجال وحدهم أما النساء فسأحبهن وحدى!

فى تلك الأيام كان نديم يفتح له قلبه، وكان يظن وهو يحكى أمامه قصة الموظف الذى رفض خطبته أنه يقدم له فرصة العمر ولكن «نديم» الذى أصبح من بعض الوجوه لغزًا لم يفعل أكثر من أن وافقه على ضرورة أن يكون زوج ابنته رجلاً ذا خلق، وكأنه كان يطلب رأيه فى هذه المشكلة لا غير!

واكتشف أنه ليس وحده الذى تستبد به الحيرة، ويحاول حل هذا اللغز فالشيخ أحمد وهبى نفسه، الذى كان ينظر إليه دائمًا كأحكم الحكماء، وأفراد ندوته الذين أسبغوا على نديم شرف قبوله فى ندوتهم، كل هؤلاء كانوا يبحثون كيف أفلت منهم هذا الصبى؟ وإذ بدت لبعضهم فكرة العقوق كحل أمثل لهذا اللغز، فلم يكن هو بقادر على قبول هذا الحل! ذلك أن «نديم» ظل دائمًا وفيًا له ذلك الوفاء المحير أنه يعود إليه دائمًا قبل أن يبلغ اليأس غايته قد يختفى أسابيع أو شهورًا ولكنه يعود دائمًا وبجزء من قلبه كان يدرك أن «نديم» يحبه ذلك النوع من الحب الذى أصبح لا يطمع فى أكثر منه، حبًا خالصًا حتى من العرفان بالجميل، ولكن إلى متى يبقى هذا الحب؟ أنه يتحول إلى أخلص مستمع لهذا الجوابة الذى حاول ذات يوم أن يكون دليله إلى مدينة المحروسة، ويكتشف وهو يستمع إليه كأنه يحدثه عن مدينة أخرى غير تلك التى يعيش فيها، أن الأبواب التى لم تفتح قط تفتح له، والأخبار التى لم تسمع من قبل يرويها لأول مرة، وأسرار القصور والباشوات الكبار ورجال السياسة يتحدث عنها فى خفة وجرأة يرتعد لها كلما مست الخديو من قريب أو بعيد..!

ـ كن عاقلاً يا نديم فأصدقاؤك الذين يهمسون بهذا الكلام لا يترددون فى التقرب من الخديو ومدحه، وبدلاً من أن تفعل مثلهم.. بدلاً من أن تأخذ مكانك اللائق فى القصر تردد هذا الكلام!

ـ لازلت تفكر فى مكانى بالقصر! إن القصر مكان ملعون حتى لعامل التلغراف.

ـ نديم، كلما فكرت فى أنك تفتح لى قلبك تعود لمثل هذا الكلام وإذا كان القصر ملعونًا كما تزعم فلم لا تتركه!

ويبتسم نديم كما يفعل فى كل مرة يحاول فيها عبد العزيز حافظ أن ينفذ إلى هذا الجانب الغامض من حياته ويقول له:

ـ إنه ملعون لهذا لأننى لا أستطيع أن أتركه رغم هذه اللعنة، ثم يحيل الموضوع إلى فكاهة سخيفة محركًا فى الوقت نفسه كبرياء عبد العزيز حافظ التى تمنعه من التمادى فى السؤال.

ـ سأتركه حين تجد لى عملاً مناسبًا، ألم تكن أنت الذى أوجدت لى هذا العمل فى البداية؟

***

فى عام ١٨٧٢م ١٢٨٩هـ، كانت البلاد كلها تحتفل بأفراح أنجال الخديو، وتزينت الشوارع بالأعلام، وتعصبت البيوت بسعف النخيل الموشح بباقات الورد، وامتلأت جريدة الوقائع المصرية بأشعار التهنئة والمديح وكانت فرصة العمر للشعراء ولمدعى الشعر أيضًا، وفوجئ عبد العزيز حافظ باسم عبد الله نديم ضمن الشعراء وفوجئ مرة أخرى بقصيدة نديم التى بدأت بهذا المطلع:

بيت السعادة مطلع الأفراح

دامت سلالته غذا الأرواح

تنتهى بعد البيت السابع الذى لم يكن يحمل طابع النهاية، وفوجئ مرة أخيرة بأن القصيدة منشورة وسط قصائد القراء الأكثر طولاً ورداءة، ولم يحتمل كل هذه المفاجآت بل هى التى حملته إلى بيت نديم لقد ظل طوال عمره ينتظر هذه المبادرة من نديم،

ويدفعه إليها، فكيف يفقد المسئولون عن النشر صوابهم بعد أن يسترده نديم، وحين وصل إلى البيت قال له دون أن يدخل فى مقدمات. وهو يشير إلى الأبيات المنشورة:

- أهذا كل ما كتبت؟

- هذا كل ما نشر.

كان نديم جالسًا وأمامه نفس عدد الوقائع الذى حمله عبد العزيز حافظ. وكان مهمومًا ولكنه يبدو غير مبال بهمومه، يرتدى جلبابًا مقلمًا بأقلام عريضة زرقاء وعلى رأسه طاقية من نفس قماش الجلباب وقد فقدت نظراته فضول الجوابة وتحفزه ثم تابع حديثه.

- كانت قصيدة طويلة مائة بيت وخمسة! ثم أضاف وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة: لست أفهم لم نشروا سبعة أبيات فقط؟ كنت أفضل أن ينشروا خمسة أبيات ويحتفظوا بالمائة صحيحة!

قال عبد العزيز حافظ وقد شعر فى قرارته بأن هذه الأزمة تقرب بينهما بطريقة ما، وأن «نديم» رغم سخريته يبدو كقلعة على وشك التسليم، وكان يريد أن يفهم أسرار القلعة فقدم لنديم الذى أصبح مدخنًا أيضًا سيجارة وهو يقول له بلهجة لا تشى بالفضول:

- فى هذه المناسبات قد يلجئون إلى اختصار بعض الأبيات لكن كيف يصل الأمر إلى هذا الحد؟

- يا صديقى لا تهتم. فقد وصل الأمر إلى عدم نشر القصيدة كلها فى البداية.

- غير معقول!

- تلك هى الحقيقة وبعد أن كتبت رسالة إلى الشيخ أحمد عبد الرحيم محرر الوقائع أعاتبه على إهمال القصيدة، كان رده نشر هذه الأبيات.

- الشيخ أحمد عبد الرحيم صديقك!!

- وأكثر من ذلك هو الذى طلب منى كتابتها.

- أنت لك أعداء يا نديم.. أنت تدرك هذا.. ولابد أن أحدهم تدخل فى الموضوع!

- جائز. قالها بلا مبالاة وكأنما سئم فجأة الحديث فى الموضوع.

ـ تتحدث كأن الأمر لا يهمك، كأنك تظن أنهم سينحنون أمامك ويفسحون لك الطريق..!

لماذا لم يفعلوا هذا بأية قصيدة أخرى؟ لو لم يحسوا خطرك أنت، لماذا لا تقاتل من أجل هدفك؟

ـ عن أى هدف تتحدث؟ قالها نديم وكأنه لم يسمع سوى آخر كلمة.

ـ لست أفهمك يا نديم كلما أحاول الاقتراب منك تفر، أعرف أننى لم أعد صديقك، وآسف إذا كنت..

وجذبه نديم من يده بقوة وهو يهم بالقيام:

ـ اجلس وأرحنى من الكلام الذى تنوى أن تقوله.

وأحس عبد العزيز حافظ وهو يعاود الجلوس فى نفس البيت الذى استأجره له وعلى نفس «الكنبة» الخشبية التي اشتراها معه وأمامه نفس المنضدة المغطاة بمفرش قذر وعشرات الكتب التى أصبح نديم من مدمنى قراءتها..! يتخللها غبار سجائر وبقايا طعام وبقايا قهوة فى قدح من الفخار.. أحس بغريزته وحدها أنه بصدد لحظة حاسمة، فإما أن يسترد بعدها صديقه القديم أو يفقده إلى الأبد..!

ومرت لحظات صمت قاتمة قال بعدها نديم وقد عاد إلى عينيه بريقهما النافذ وهو يسحق تحت خفه الجلدى بقايا سيجارته:

ـ عن أى هدف تتحدث؟ تعنى أن أكون شاعر الخديو أو نديمه؟ ولم يرد عبد العزيز حافظ. واندفع نديم:

ـ لست أنكر أننى حلمت هذا الحلم السخيف وقبل حديثك عنه بسنين!

ـ ومع ذلك لم تحدثنى عنه فى حينه، وحين بدأت أنا الحديث كنت تراوغ!

واستمر نديم وكأنه لم يسمع رد صديقه، كان بريق عينيه يزداد نفاذًا وحدة، وكانت رعدة خفيفة تتمشى فى أطرافه وصفحة خده.

ـ ربما لأنه كان أقصر حلم، فلم أكن فى حاجة إلى وقت طويل لأدرك أن الخديو رجل غارق فى السعادة إلى الحد الذى لا يجعله يظن أن بمقدور شخص أن يزيده منها شيئًا، ولقد كان أمامى الكثير لأدركه فى هذا القصر الملعون.

ـ تعود لكلامك السخيف عن القصر. وصرخ فيه نديم:

ـ أنت الذى تعود لخوفك كلما ذكر القصر ولو بين أربعة جدران.



ـ أخاف عليك من لسانك يا نديم.

ـ أعرف يا صديقى وأعرف أنك أطيب الأصدقاء، وحين كنت تعاود الحديث عن موضوع مدح الخديو لم أكن أرواغك.. أقسم لك إن المشكلة لم تكن أبدًا أن أقول لك ما فى قلبى أو ألا أقوله، وإنما أن أعرف حقيقته..! وبينما كان من السهل أن أدرك أن الخديو هذا ـ الذى يلعنه بعضهم، ويقدسه بعضهم، ويجهل الآخرون أنه سبب مصائبهم ـ بينما كان من السهل أن أدرك أنه رجل سمين مثل قربة ماء، يبصر بإحدى عينيه وبنصف الأخرى فقط، وأنه ذكى ذكاء الأبالسة، وليس يعنيه فى شىء أن يلقى شعبه الهوان، طالما هو يلقى فى قصوره العديدة كل ما يحب، وأن لا يبالى بأن يلعنه الناس ولا يبالى أكثر بأن يمدحوه، وأن مدحه مسألة لا تعنى سوى مادحيه أنفسهم، بينما كان من السهل أن أدرك ذلك، لم يكن من السهل حتى أمس القريب أن أدرك موقفى منه، وصمت نديم وكأنما يتهيأ لاندفاعة بعيدة أو ليمنع نفسه منها، ولم يمنعه عبدالعزيز حافظ أو يشجعه كان فقط يستمع إليه وتساءل نديم:

أنت تعرف يا صديقى من أين أتيت؟ أنت وحدك الذى يعرف!؟

ـ لماذا تعود لهذا الكلام؟

ـ لأنه البداية الحقيقية لكل شىء، إذا كنت أريد أن أقول الحقيقة لك أو لنفسى، كنت هاربًا، كانت أشياء كثيرة تطاردنى وكنت أجرى أمامها... أفر منها وانتهت المطاردة خلف أسوار القصر، وبدأت ألتقط أنفاسى وأجد الأمن، وفى الوقت الذى كان يجب فيه أن أصاب بالجنون لأننى لم أنس بعد كل ما تركته ورائى، ولأننى أبصر وأسمع كل يوم داخل أسوار القصر ما كنت أعتقد أنه يوجد فى مكان واحد لاغير يحلم به كل البائسين الذين عرفتهم.. كانت الجنة هناك للرجل السمين قربة ماء، ولمن لايحصيهم العد من الأبالسة، ولم يصبنى الجنون..! فقط أصابنى الخوف..! الخوف الذى لم أعرف له مثيلا فى حياتى كلها حتى وأنا مطارد .. الخوف من أن أجد نفسى مرة أخرى خلف ذلك السور، وأن تعود المطاردة (وفكر عبدالعزيز حافظ «كنت أظن النسيان إحدى مواهبه») وقتها لم أفكر فى الصواب أو الخطأ، فى الظلم أو العدل، كنت مروعًا، وكان رأسى يدور، ولم يكن شىء فى مكانه، وإذا كان أحد مسئولا عن الصواب والخطأ والظلم والعدل فليس أنا!

ولست أذكر متى بدأ الخوف يغادر جلدى؟ ومتى بدأت أحلم حلمى القصير بأن أكون نديم الخديو ومتى بدأت أدرك سخفه وأتخلى عنه!

من المؤكد أن ذلك لم يحدث فى شهر أو عام ومن المؤكد أيضًا أنه لم يحدث إلا بعد أن تأكد لى أن الطريق إليه ليس سهلا، وإلا بعد أن أرسلت القصائد تلو القصائد لمنظمى الاحتفالات بأعياد الخديو لتهمل مرة بعد مرة..

وبدأت أهرب من جديد أهرب هذه المرة إلى تلك الكبرياء اللعينة وإلى التفكير فى الصواب والخطأ وفى الظلم والعدل، وإلى أحاديثى السخيفة عن القصر التى كنت تخافها!

- لم تفتح لى قلبك بهذا!

- وأية شجاعة يحتاجها الإنسان ليفتح قلبه وهو مملوء بالأوحال ومع الوقت يبدو أننى نسيت السبب الحقيقى لهذه الكبرياء نسيت أنه الفشل، وصدقت نفسى، وبدأت أجد سعادة وعزاء حقيقيين فيما كنت أظنه فشلا وخيبة، وحتى بعد أن أصبح المسئولون عن أعياد الخديو واحتفالاته يطلبون منى أن أشارك فيها كنت أجد سعادة لعينة فى الاعتذار فى آخر لحظة بأى عذر سخيف، وكان القصر مكانًا ملعونًا، يفقد فيه كل شىء معناه، وكنت هناك دائمًا لأرى كل يوم أن الفشل مرة ومرات ليس معناه الفشل دائمًا، وأن السيد على أبو النصر والشيخ على الليثى اللذين كانا يسألاننى عن القصر وما وراء أسواره قد عبرا هذه الأسوار وأصبحا شاعرى المعية، شاعرى الخديو الذى قد يمر عام بأكمله دون أن يرياه سوى مرة أو مرات ولكنهما شاعرا الخديو لا عمل لهما إلا تمجيد فضائله ومكرماته، وكانا صادقين بشكل ما فقد كانا غارقين فى هذه المكرمات، وكان الخديو غارقًا فى لهوه، والناس غارقين فى بؤسهم ولا أحد يدرى بغيره، وليست تبدو نهاية لشىء، ولا معنى لأى شىء، حتى كبريائى اللعينة التى صدقتها طويلا، ووصل الأمر إلى أن كنت أجد فيها سعادة وعزاء.. أصبحت تبدو لى كنوع من البلاهة، وانتهى بصيص الشجاعة الذى خلقته الكبرياء والذى فتنت به إلى خوف لعين، تشعله تلك الأسئلة الخبيثة من الذين أهملوا قصائدى فى الماضى وأصبحوا يسألون عنها حين لم أعد أدور بها وراءهم!

- أى شىء لا يرضيك يانديم؟

ـ لماذا تهجرك شياطين الشعر داخل القصر بينما نسمع أشعارك خارجه؟

ـ ألا يعجبك القصر يانديم؟

لقد قلت لك يا صديقى إنه ليس من السهل أن يعرف المرء حقيقة ما فى قلبه ولست أستطيع أن أزعم لك أى دافع جعلنى أكتب هذه القصيدة الأخيرة؟ ربما كان الخوف من أن أفقد وظيفتى فى القصر!. وربما كان الحلم القديم تدفعه نفس الكبرياء اللعينة، ربما لأن كل شىء طيب كان يفقد معناه ويذوى ويبدو مضحكًا وجنونيًا، انتهيت إلى هذا الموقف التعس الذى أصبحت بعده غير قادر على أن أجد حتى وهم الشجاعة ولأحرم حتى من نعمة الكذب على النفس، إن القصر مكان ملعون، إنهم لايتركون لك حتى فرصة أن تكون منافقًا حقير .ذا كان هذا هو المهرب الوحيد لك!

وصمت نديم، وانكفأ وجهه إلى الأمام، ولم ينطق عبدالعزيز حافظ بكلمة.. أحقًا هذا هو صبيه القديم؟ طفله الذى أخذ على عاتقه يومًا مهمة حمايته؟ وهل هناك ما هو أخطر من ذلك الجحيم الذى ينطوى عليه؟ أمن قلب هذه الحمم تنبعث أصفى الضحكات والنكات؟

كان نديم لايزال مطرقًا، وموجات عصبية تسرح فى صفحة وجهه وفى عينيه نظرة تائهة وغارقة فى دمعة متحجرة، وكأنما تنبه عبدالعزيز حافظ إلى أنه يجب أن يقول شيئًا، ولم يجد فى رأسه كلمة واحدة، وأنقذه انهيار نديم المفاجئ، فاحتضنه بين ذراعيه وهو يردد:

ـ ياصديقى يا صديقى..!

وأحس وجسد نديم ينتفض بين ذراعيه أنه يسترد صبيه الغريب أنه يذهب بعيدًا ولكنه يعود دائمًا إلى ذراعيه! وكان سعيدًا بعودته، وسعيدًا أكثر لأنه لم يصبح زوجًا لابنته!

* * *

ولم يهنأ عبدالعزيز حافظ طويلاً باسترداد صبيه وإن كان هو الذى تركه هذه المرة منقولاً إلى «المنيا» فى عمل جديد... وقال لنديم وهو يعد حقائب سفره:

سوف تكتب لى ياصديقى!

وهز نديم رأسه وهو يعاونه فى إعداد الحقائب مؤكدًا أنه لن ينسى أعز صديق وتابع عبدالعزيز حافظ وكأنه يملى شروطه:

ـ رسالتين كل أسبوع: واحدة تصلنى يوم الإثنين، والثانية يوم الخميس وضحك نديم وهو يوافق على هذا الشرط.

ـ ولا تقل الرسالة عن عشرين سطرًا.

ـ ألا تزال هناك شروط؟

ـ نعم.

ـ «أن تلتزم الجناس في الفقرة لتكون أوقع فى الفكر، وأن يكون آخر كل رسالة دخولا على أول ما بعدها وأن ترشف من كل دن، وتشطح فى كل فن وأن.. وأن».

وضحك المودعون وتحولوا إلى شهود، وضامنين لتنفيذ هذه المعاهدة وفرضوا بدورهم شروطًا جديدة، أن ينسخ نديم من هذه الرسائل ثلاث صور لتتاح لهم فرصة قراءتها، وهكذا فرضوا بتدخلهم أن تصبح هذه الرسائل التجارب الأولى لعبد الله نديم كمؤلف، ولهم كقراء لنفس المؤلف.. وقبل أن يتحرك القطار إلى الصعيد همس عبدالعزيز حافظ فى أذن صديقه: لا تستسلم للحزن ياصديقى ولا تركن لغير الله ولا تنس أن تكتب لى!

وإلى «المنيا» تتابعت رسائل نديم أو مؤلفاته الأولى الصغيرة ... مؤكدة وفاءه وموضحة المكان الجديد الذى أطلق إليه الهارب القديم قدميه «الستر المسدول فى دلالة الإنجيل على الرسول».

«الحصون المنيعة فى الرد على أهل الطبيعة».

«الفكرة المطيعة فى تطبيق الطبيعة على الشريعة».

ثم مؤكدة أن الهارب القديم لا يصبر على مكان أو موضوع، إنه يعاود التسكع فى أمكنة أخرى والبحث عن موضوعات جديدة فيكتب عن «الشجرة الغشاشة فى أولاد مصر الحشاشة».

«وشد الدبلاق فى أكتاف أهل بولاق».

«وحاورينى يا طيطة فى الطربوش والبرنيطة».

ثم يبدأ نديم فى خرق المعاهدة، إنه يبدأ بشرط الوقت فيخل به وبشرط الحجم فينقص فيه، وبالجناس فلا يلتزمه، وبالموضوعات المنوعة، فتصبح رسائله كلها موضوعًا واحدًا لا يتغير ..! وكان الموضوع هذه المرة رجلاً غريبًا وفد على مصر منذ أكثر من عام اسمه الشيخ جمال الدين الأفغانى، ولم تكن تلك أول مرة يرى فيها عبدالعزيز حافظ افتتان نديم بشخص، كان هو يومًا هذا الشخص، وكأنه الشيخ أحمد وهبى، وفى كل مرة كان نديم الذى يبدو من ناحية عميقًا كبئر تبدو من ناحية أخرى فياضة كنهر لا يكتم عواطفه نحو شخص أو شىء بل يدعو الناس جميعًا لأن يشاركوه عواطفه وهكذا بدأ بإرسال الدعوة إلى «المنيا»!

«إن حديثه الساحر سيفقد كل سحره إذا حاولت أن أكتبه لك، يجب أن تسمعه منه لتحس أى نوع من الناس ذلك الرجل!!».

«إن خبرته العظيمة هى خبرة رجل طاف ببلاد كثيرة ، وجادل حكامًا وعلماء ومفكرين وحكمته هى حكمة رجل عاش مع كل حكماء العالم فى كتبهم، وشارك فى معارك الحرب والسياسة».

«إنه يريد تجديدًا للإسلام يكون أساسًا لنهضة الشرق كما كان تجديد المسيحية على يد البروتستانت أساسًا لنهضة الغرب».

«لم نكن نفهم المعنى الحقيقى للأدب أو السياسة وأكاد أقول لك لم نكن نفهم الدين. إن كل شىء يبدو فى صورته الحقة حين يتحدث عنه، وحين أتخيل أنه كان من الجائز ألا يجىء هذا الرجل، وأن أظل أجهل ما يتحدث عنه، حين ذلك يقف شعر رأسى».

«وهناك شىء يقوم به هذا الرجل لا يقل أهمية عن تعريفنا بأفكاره إنه يجعلنا نحن الذين نلتقى حوله كل ليلة يعرف بعضنا البعض الآخر، ولم أكن أتصور أنه كان يوجد فى المحروسة وحدها هذا النوع من الشبان لقد كتبت لك مرة رسالة طويلة أعرفك فيها بمن كنت تعرفهم أفضل منى أتذكر تلك الرسالة «لواء النصر فى أدباء العصر»؟.

إن أدباء العصر الحقيقيين هم هذه الشرذمة التى تلتف حوله وكلما تذكرت أنه كان من الممكن ألا ألتقى بهم لولا هذا الرجل يقف شعر رأسى أيضًا، وأتساءل أى شىء كنت

أعرفه عن المحروسة قبل أن يجىء هذا الرجل ليعرفنى بأهلها الحقيقيين كما عرفنى بكل شىء يستحق المعرفة؟ وفى أى الجحور كان يختفى هؤلاء؟».

وفى كل الحقيقة أن شعر عبدالعزيز حافظ هو الذى يقف فى كل مرة يتلقى فيها رسائل نديم التى تدور كلها حول المعانى السابقة وتزيد فيها وتعيد، ذلك أن رسائل نديم لم تكن وحدها التى تصله من المحروسة تتحدث عن هذا الرجل الغريب الذى غادر بيته أخيرًا واتخذ مجلسًا عامًا فى مقهى بجوار الأزبكية، وأصبحت أحاديثه كما غدت شخصيته ملكًا عامًا لجمهور المحروسة يتحدث عنها كيف يشاء .. كانت الرسائل الأخرى تتحدث أيضًا عن هذا الأفغانى الذى كان يشبه من بعض الوجوه وباء روع الجميع وأثارهم «إنه زنديق ومخرب ومخرف».

هكذا كتب له صديق من مشايخ الأزهر وحكى له نفس الصديق كيف ضربه الشيخ عليش شيخ المالكية بالمركوب فى صحن الأزهر وكيف انقطع بعدها عن تدنيس الأزهر بذهابه إليه...!

واكتفى صديق آخر بوصف ملابسه وملامح وجهه «إنه مهيب وجذاب فى الوقت نفسه ولو حاولت أن تتخيل صورة لواحد من كبار المسلمين فى عصر الرسول لما وجدت غير صورته بعمامته التى لا يحسن لفها وعباءته الفضفاضة التى تتسع دائمًا لشخص آخر معه».

وأكد له صهره فى رسالة «أنه سمع فى مصدر ثقة أنه يشرب الكونياك فى بيته ويردد لمخالطيه فى البيت أفكار الأوروباويين والدهريين، أما الذى رآه هو بعينه والذى لا يحتمل شكا فهو أن مجلسه بمقهى الأزبكية يضم المسلمين والنصارى واليهود والمصريين والشوام كذلك».

وفى رسالة ثانية من صديقه مدرس الأزهر أخبره :

«أن السلطان نفسه قد طرده من الأستانة بعد أن تبين له أنه فاسد مفسد، ضال مضل، ولم يفسح له الخديو جنابه إلا لما بينه وبين السلطان من عداء خفى».

وأشار صديق آخر موظف بالحقانية إلى «أنه يرى أن نهضة الإسلام لن تتم إلا بإقامة دولة قوية تقود بقية الدول الإسلامية» ثم علق بلهجة الرجل الفاهم «ولست أظنه يرى أن تكون تركيا هذه الدولة بل مصر ومن الجائز أن الخديو يريد أن يستغل دعوته تلك فى إقامة دولة عربية مستقلة من مصر وسورية والجزيرة العربية، وهذا حلم من

أحلام الخديو القديمة» ثم ختم رسالته قائلا: «أرجو أن أكون قد أجبت عن سؤالك الخاص بحقيقة علاقته بالخديو».

«تسألنى عن الحقيقة بشأن هذا الرجل باعتبارى أكثر أصدقائك عقلاً وحكمة وأقول لك حتى لا أضحى بهذه الثقة.

الحقيقة يعلمها الله، ولكن الذى لا يختلف أحد بشأنه، هو أنه الرجل الوحيد فى مصر كلها الذى يقدر على أن يفتح فمه فى مكان عام وينقد الخديو وحكومته نقداً مريراً بشأن الديون التى تتفاقم مشكلتها يومًا بعد يوم، ويؤكد أن سبب هذا البلاء هو عدم وجود دستور حقيقى، يفعل ذلك دون خوف ودون أن يصدر الخديو قرارا بنفيه بل وأكثر من ذلك دون أن يقطع راتبه، وإذا بدا لك أن هذا كله غير معقول فيمكنك أن تزور المحروسة ليلة واحدة، وستتأكد من صدق ما قلته لك لو ذهبت إلى مقهى الأزبكية حيث يسهر الرجل وسط تلاميذه وفيهم صديقك القديم عبدالله نديم».

وعبثًا حاول عبدالعزيز حافظ أن يجد وسط هذه الفوضى والاختلاط شيئًا متسقًا أو مفهومًا، وعبثًا حاول أن يتحصن فى حدود المنيا ناجيًا من هذا الوباء، الذى بدأ يتسلل من القاهرة فى الرسائل وعلى ألسنة المسافرين، وطلبة الأزهر العائدين إلى بلادهم، وبعض الوعاظ المتنقلين، وحين كتب رسالة أخيرة إلى نديم رسالة ناصحة ومشفقة ومحذرة كان رد نديم الذى تحولت رسائله إلى برقيات «لماذا لا تحضر مرة واحدة إلى المحروسة فى زيارة قصيرة لترى الرجل وتستمع إلى حديثه، فتريح نفسك وتريحنى!».

ولكنه لم يجد فى نفسه دافعًا قويًا لهذه الزيارة، كان موظف بالمنيا قد تقدم لخطبة ابنته فلم يتردد هذه المرة، ووجد فى انشغاله بهذا الموضوع وبتوابعه عذرًا مناسبًا، وفى الحقيقة أنه أحس بغريزته وحدها التى كانت دائمًا دليله حين تختلط الأمور أن البلاد كلها مقبلة على أيام صعبة، وأولاده أولى باهتمامه ورعايته فى هذه الأيام وفى غيرها، ونديم الذى غدا رجلا ناضجًا أولى بنفسه، وربما لم يكن أبدًا فى حاجة إليه لا اليوم ولا حتى فى الماضى، وبعيدًا عن المحروسة وعن نديم كان يمكنه أن يناقش الحقائق بوضوح وفى هدوء ماله وهذا كله.. ! إن «نديم» شخص مختلف عنه، ولن يزعم لنفسه أنه يمكنه دائمًا أن يخترق جلدة رأسه ليعرف ما بداخلها مالم يفعل نديم ذلك بنفسه، وإذا كان قد أحبه كما لم يحب شخصًا فى حياته، وإذا كان واثقًا من أن «نديم» يبادله الحب، فإن ذلك لا يقتضى أبدًا أن يربط نفسه بعربة نديم بعد أن أصبح عاجزًا عن

معرفة الشياطين التى تشد هذه العربة وتندفع بها فى طريق ليس يعلم غير الله نهايته..!

* * *

ولم يفكر فى زيارة المحروسة إلا بعد عام من زواج ابنته، ولم يفعل ذلك لأنه أراد أن يرى الرجل الذى أصبح غريمه بمعنى من المعانى بل ليرى «نديم» نفسه وليبارك له، وكانت رسائل نديم التى تحولت إلى لغة البرقيات قد حملت له هذا الخبر:

«هل تصدق؟ لقد تزوجت! ذهبت لزيارة أهلى بالإسكندرية وبعد أيام فوجئت بنفسى متزوجًا من إحدى قريباتى، كانت تلك مشيئة الله ومشيئة أمى وأبى ولست أدرى ماذا أقول لك عن هذا الزواج فخبرتى به لا تتعدى أيامًا قليلة».

وشعر عبدالعزيز حافظ براحة عميقة وسعادة حقيقية، ولم يأسف من أجل ابنته بل ربما أسف قليلا من أجل الفتاة المجهولة التى تزوجت «نديم» وربطت مصيرها إلى الأبد بعربة تقودها الشياطين وفكر أنه لم يكن محقًا فى أسفه عليها، ربما هى التى تصرف الشياطين وتجر العربة.

وحين وصل إلى المحروسة، وحين زار «نديم» فى بيت الزوجية غرر به البيت فى الدقائق الأولى.. كان نديم يبدو مثل كل الأزواج الصالحين مائلا للسمنة مزدهر الخدين، يرتدى جلبابًا نظيفًا، ويقدم لضيوفه ـ فى أكواب خشبية منقوشة عليها آيات قرآنية ـ شرابًا طهورًا من الخروب، فإذا كانوا ضيوفًا أعزاء مثل عبدالعزيز حافظ قدم ثانية وثالثة القهوة والقرفة والدخان...! ثم عشاء مطهوًا فى أبرمة الفخار كان هو بالإضافة إلى مسحة النظام والنظافة التى امتدت إلى حجرة الضيوف فاختفت تلال الكتب فى صوان خشبى داخل الحائط وتجمع رماد السجائر فى صدفتين وضعتا بعناية فوق مفرش منقوش يغطى المنضدة، كان كل ذلك الدليل على وجود زوجة ما كانت التقاليد تسمح إلا بظهور آثارها!

وتنفس عبدالعزيز حافظ عبير الأيام الخوالى، وفكر والحديث لايزال فى بدايته عاطفيًا سريعًا متقطعًا أن الزوج الصالح هو من بعض الوجوه صديق صالح! ولكن ما أن انتهت الأسئلة السريعة والأشربة الباردة والساخنة، وهدأت العواطف حتى وجد كلا الرجلين نفسيهما يتحدثان عن الشيخ جمال الدين، كانت صورته تطل عليهما من أطار

معلق على الحائط، وكان عبدالعزيز حافظ قد أبصر نفس الصورة تطل فى منزل الشيخ أحمد الزرقانى، الذى أصبح بدوره من مريدى الشيخ، وكان قد رأى أن الشيخ قد أحدث خلخلة فى الندوات القديمة كلها فانتزع رجلا من هنا ورجلا من هناك، وكان نديم يتحدث وهو ينقل نظراته بينه وبين الصورة المعلقة، وأدرك حين أصبح الحديث عن الشيخ أن ثمة كلمات جديدة يستعملها نديم، وأن حدته قد خفت قليلا ليحل مكانها وثوق هادئ مطمئن، ولم يقاطعه مرة واحدة، كان نديم يحس أكثر منه الأشياء المقلقة والثغرات فيوضح كل شىء ويكمل ويستدرك وكأنه قد صمم على أن يجعل منه تلميذًا جديدًا للشيخ الذى لم يكن ينقصه التلاميذ، وحين فرغ من حديثه وأشعل سيجارته الخامسة استشعر عبدالعزيز حافظ شفقة وعطفًا لا على نديم بل على تلك العروس المجهولة التى شاء لها القدر أن تربط حياتها بحياة هذا المخلوق، كان دائمًا يخاف من اندفاعه وحدته أما الآن فقد أصبح أكثر خوفًا من هدوئه وثقته!! وحين فتح له قلبه قبيل سفره حين سمح له بأن يرى عذابه وقلقه، وحتى ما كان يظنه ضعة وحقارة، لم يقلق عليه كما يقلق الآن، ولم يشأ هذه المرة أن يخفى عنه شيئًا قال له مستعيرًا نغمة الهدوء والثقة: لن أناقش ما قلته من ناحية كونه صوابًا أو خطأ، ولكنى أعرف شيئًا واحدًا بسيطًا هو أن الشيخ جمال الدين هذا يعيش هنا، ويقول ما يقول، لأن الخديو يدفع له راتبه ولست أدرى إلى متى يظل الخديو يدفع أجرًا لرجل لا يفعل شيئًا سوى نقد حكومته وإثارة خواطر الشباب ضده، وحتى إذا كان هذا الرجل مستعدًا لأن يقوم بعمل آخر يعيش منه فإنى واثق ثقتى بالله أن اليوم الذى سيطرد فيه من البلاد أقرب مما تتصور!

وابتسم نديم دون أن يفارقه هدوؤه.

ولكن هذا ما يردده الشيخ جمال الدين فى كل وقت، أن الخديو يمكنه أن يطرده فى أى وقت ولكنه لا يستطيع أن يطرد المصريين من بلادهم!

- طبعًا لا يستطيع ولا أظنه يريد ذلك فهو فى حاجة ماسة إليهم لتسخيرهم فى تسديد ديونه، ويكفيه أن يقتل أو ينفى رجلا أو رجلين ليعرف الباقون طريق السلامة!

وغاظه مرة أخرى أن «نديم» لم يخرج عن هدوئه وإنما أغمض عينيه على صورة الشيخ جمال الدين المعلقة، وقال له وهو يبتسم عن أسنان ترك الدخان عليها طبقة سوداء.

ـ ولكنه يفعل ذلك الآن، يكفى أن تكون لك شكوى أو مظلمة تتقدم بها له أو لغيره لتصبح حياتك فى خطر، يكفى أن يتأخر أى فلاح بائس فى تسديد جزء من الضرائب التى لا يعرف لها مقدارا ولا موعداً ليشد إلى عمود خشبى ويجلد قبل أن يمزق أحشاءه «الخازوق».

ـ وبدلاً من أن يدعوك هذا إلى التفكير، إلى التعقل..

ـ لقد دعانى فعلاً إلى التفكير وقبل أن يأتى هذا الرجل لم أصل إلا إلى شىء واحد تعرفه أنت جيداً كدت أكره نفسى وأكره الحياة كلها، ولم يفعل هذا الرجل أهم من أنه علمنا كيف نفكر؟

ـ يبدو ذلك واضحًا، قالها عبدالعزيز حافظ بمرارة ثم تابع وهو يطلب من نديم أن يفتح النافذة قليلاً لتصرف دخان الحجرة: أما أنا الذى لم أتعلم منه شيئًا فلا أفهمه ولا أفهمك رغم ما قلته، لست أحب أن أخدعك فأنا لا أفهم هذا الرجل الذى يعيش بلا أسرة وبلا وطن وبلا عمل مطمئنًا إلى أنه لن يصيبه أذى حقيقى ثم يجد سعادته فى دفع الآخرين إلى الهلاك !

ـ أنت تقترب من الحقيقة، ولا تكاد تلمسها فى كل مرة حتى تولى هاربًا.. لو أراد هذا الرجل ليبقى أميرًا فى وطنه، وله هناك أسرة عريقة.. ولو أراد لقنع بوظيفته لدى السلطان ولكنه ضحى بهذا كله من أجل فكرته!!

الشخص الذى يؤمن بهدف كبير، هذا ما يمثله الشيخ جمال الدين يمثله ولا يقوله فقط، هذا ما كنا نفتقده فى بلادنا، إنه لا يريد سوى أن ينقل فكرته إلى الآخرين، وأن ينقلوها إلى غيرهم، وفى الوقت الذى يمكن أن يموت هو أو ينفى أو يعذب تبقى الفكرة، تبقى دائمًا حية وجديدة لدى من يؤمن بها، وبهذا لا يكون الموت أو النفى أو حتى الفشل نهاية لشىء، بهذا لا يفقد شىء معناه، ولا يكره إنسان حياته أو يحتقرها، بهذا يرتبط الماضى بالحاضر والأحياء بالموتى ولا يصبح النصر والهزيمة نهاية لشىء!! وحين يصبح المعنى الصحيح للدين فى رأس كل مسلم والمعنى الصحيح للأدب فى ضمير كل كاتب ماذا يستطيع الخديو أو غيره أن يفعلوا؟

ولم يجب عبدالعزيز حافظ، صمت محدقًا فى الهوة العميقة التى أحس بها تحت قدميه، متذكرًا ما قاله نديم منذ لحظات عن المعنى الصحيح للدين والأدب متخيلاً

الوقت والناس والآلام التى يمكن أن تبتلعها تلك الهوة السحيقة قبل أن يحس بصلابة الأرض تحت قدميه، وقبل أن يصبح الخديو غير قادر على أن يصنع شيئًا له أو لغيره! ولم يشعر فى لحظة من حياته كلها بمثل هذا الحب لنديم حب كهذا الذى،نقدمه فى سخاء لشخص نعلم أنه قد يأتى وقت قريب لايطالبنا فيه بحب أو غيره!!

وحين سأله نديم: الا تحب أن تراه؟

اكتفى بإلقاء نظرة على صورته المطلة من الحائط وخيل إليه أن عينيه النافذتين تحدقان فيه خلف زجاج منظاره اللامع.

ـ لقد رأيته وسمعت حديثه . هكذا أجاب عبدالعزيز حافظ وربما لم يفكر إذا كانت إجابته تلك قد ضايقت «نديم » أو لعله فكر ولم يبال، فقد أشعره حديث نديم بالسخط على نفسه!!

وفى كل مرة حاول فيها أن يضع حدًا لعلاقته بنديم فلا يستطيع أى شىء يجتذبه إليه؟ وأية حكمة بقيت للقدر؟ وودع «نديم» دون أن يسأله حتى يكتب له هذه المرة، وحين وصلته بعد شهور من هذا اللقاء رسالة من صديق يخبره فيها أن «نديم» قد طرد من القصر بعد أن جلد بالسياط، وغادر المحروسة إلى حيث لا يعرف أحد، لم يكن الخبر مفاجئًا له، ولم يحزن كثيرًا؛ لأنه كان قد أفرغ حزنه فى لحظة الوداع تلك، حزن فقط من أجل تلك الفتاة المجهولة زوج نديم والتى كانت ابنته توشك أن تأخذ مكانها، وحزن أكثر من أجل رجل زاره منذ سنين ودقيق الفرن يلوث لحيته ليسأله عن صبيه الهارب!

* * *

وحين سمع فى القطار بقصة نديم فى طنطا عاد إلى هذا الجزء من حياته مستطلعًا وحزينًا ودهشًا وفرحًا فى الوقت نفسه ومتسائلاً فى النهاية عن معنى هذا كله.

وبدا له كل شىء بلا معنى، وكان هذا ما اكتشفه من سنين طويلة واستراح إليه حتى أقلقه هذا الصبى ومازال يقلقه!!

بـدواى

«بدواى» واحدة من القرى التى تؤلف قاعدة الهرم الذى يتربع على قمته «شاهين باشا كنج» وهى مثل أية قرية مصرية فى ذلك الحين يحكمها عمدة، وكان اسمه الشيخ أحمد سعدة، وأهل القرية الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف شخص تقريبًا يزرع أكثرهم فى أرض العمدة التى تبلغ ألف فدان، ويمتلك بعضهم عددًا قليلاً من الأفدنة يزرعونها بأنفسهم، بينما يعمل بقية أهل القرية كأجراء يومًا بيوم سواء فى أرض العمدة أو فى التراحيل التى تجمعهم مع أمثالهم من أبناء القرى المجاورة للعمل فى الجفالك والتفاتيش الكبيرة حيث يعملون مقابل حصولهم على الطعام لا غير، أو مقابل أجر لايكاد يفى بنفس الطعام!!

ولم يكن الشيخ أحمد أبو سعدة سوى صورة متواضعة لشاهين باشا كنج له نفس سلطانه لكن على عدد أقل من الناس، ولكن هذا يعوضه من ناحية أخرى أنه يعلم ويملك من شئون رعاياه مالا يستطيع الباشا أن يملكه من أمور الناس فسيح كالدلتا، إن العمدة قصير وبدين، وجلده مثل جلود الفلاحين فى بدواى لوحته الشمس، ويديه مثل أيديهم قوية وصلبة، وعينيه مثل عيونهم تختبئان فى محجريهما وتحتميان دائمًا بالرموش والحواجب بسبب من شمس الريف الساطعة، فترتسم على الوجه تلك التقطيبة المميزة لوجوه الفلاحين، ولكنه يختلف عنهم بعد ذلك فى كل شىء، فهو الذى يحدد لكل واحد من الذين يزرعون فى أرضه نصيبه من الأرض ومن العمل ومن المحصول، ولأنه يعيش معهم فى بدواى فإنه يعرف عنهم كل شىء ماذا يمتلك الرجل من البهائم والأطفال والدواجن؟، والعمل الذى يصلح له كل طفل، ومن المرأة المشهورة بتربية الدجاج الجيد؟ واستخلاص القشدة الناضجة؟ وما النقود التى يمكن أن تعود بها كل امرأة من سوق البندر بعد أن تبيع بيض الدجاج وزبد اللبن؟ حتى لا يستطيع شخص أن

يخفى عنه جزءًا ولو صغيرًا يمكن أن يستخلص فى تسديد ديونه للعمدة، وحتى يعرف هو كيف يحصل للمأمور على الضرائب التى كانت تفرض على زمام القرية كلها، لتدفعها القرية متضامنة بصرف النظر عن محصل كل فدان وعن عمل كل فلاح، وإذا لم يكن هو عارفًا بالخفايا كلها فمن أين يحصل للمأمور على هذه الضرائب؟ وإذا لم يفعل فإن السوط فى يد عساكر المأمور وزبانيته لا يفرق بين جسد العمدة وجسد أحقر فلاح.

وإذا كان العمدة يعرف الكثير عن رعاياه فإنهم كانوا لا يعرفون عن حياته إلا القليل، مع أن بيته الضخم قائم على حدود قريتهم، فقد كانت ثمة حواجز تفصل بينهم وبينه، حواجز تبدأ بسور حجرى يحيط ببيته، سور يعجز أكثر الأولاد شقاوة عن تسلقه ليس فقط بسبب ارتفاعه، ولا بسبب طرفه المحدد والمحشو بقطع الزجاج والصفيح الحادة، بل بسبب قطيع من الكلاب الشرسة الذى يعاون عددًا من الخفراء فى حراسة حديقة القصر الكبيرة، التى لا تكف أشجارها عن طرح الثمار طوال العام!!

وليس ذلك السور الحجرى سوى بداية الحواجز، وبعده يأتى سور آخر أكثر صلابة، سور بشرى تكونه حاشية العمدة التى يختارها بعناية من أهل بدواى نفسها، ليعانوه فى إدارة شئون الزراعة، وإذا كان السور الحجرى يحمى الحديقة والقصر فإن السور البشرى يحمى أسرار العمدة، وطريقة حياته، وينقل للناس أوامره وزواجره، ويكون أداته لتنفيذ ما يراه من خطط أو مشاريع وأخطر مهمة له أن يكون بمثابة عيون وآذان تنقل للعمدة كل شىء حتى لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة فى شئون تلك المملكة الصغيرة المسماة بدواى!!

ولكن بدواى كأية مملكة فى الدنيا صغرت أو كبرت، كانت لها أسرارها الخاصة التى لا يعرفها العمدة ولا حاشيته، فمع أن أفراد هذه الحاشية من بدواى نفسها فلا يكاد الواحد منهم يرتفع إلى مصاف الحاشية حتى ترفعه بدواى نفسها من عالم أسرارها وتحرم عليه ما كان حلالا فى الماضى، فبدواى رغم فقرها تملك أموالاً لا تمد إليها يدها أبدًا، أموالاً لها حرمة الموتى، ومدفونة فى باطن الأرض، أو باطن جدار، وتمتلك حليًا لها حرمة الأموال، وبدواى رغم تعاستها لها متعها الخفية التى تبدأ بعد أن تنام كل العيون، وبالأخص عيون الزوجة والأطفال ، فتلتهب تلك المتع مع جمرات الموقد وتدور مع «غابة» الجوزة، وترتفع مع حلقات الدخان إلى دنيا الوهم والحلم والخدر،



وبدواى رغم خوفها من الله والعمدة والحاشية، تسرق، وتخون، وتخدع كلما وجدت الفرصة وهى تؤمن أن حقول الأذرة نعمة من نعم الله مثل حقول القمح والقطن ولكنها ترى أيضًا أنها أصلح من الأخيرة لإخفاء ما يسرق من الحقول حتى يأتى الليل، وأصلح أيضًا للخلوة بامرأة، وبدواى رغم أنها لا تعرف إلا رحلتين رحلة الأغنياء للحج ورحلة الفقراء للعمل سخرة فى القنال أو التفاتيش أو النيل أو الترع، يحلم فقراؤها دائمًا ويحققون حلمهم أحيانًا برحلة ـ لا تقل عن رحلة الأغنياء إلى الحجاز ـ رحلة إلى طنطا لزيارة سيدى أحمد البدوى فى أيام المولد!!

ومنذ ليلة واحدة عاد الشيخ قاسم من زيارة طنطا بكمية كبيرة من الحمص والحلوى ليبيعها فى «دكانته»، وأهم من ذلك أنه عاد بقصة سهرت معها بدواى ليلة كاملة، تلك هى قصة «عبد الله نديم» مع الأدباتية، والشيخ قاسم هو الرجل الوحيد فى بدواى الذى يمكنه أن يتكلم عن عبدالله فينصت الجميع، ويصدق الجميع، ويشعر الجميع بالندم، وأيضًا بالفرح فالشيخ قاسم الذى لا يملك غير عين واحدة سليمة، النحيل الأسمر هو الوحيد فى بدواى الذى تلقى العلم فى المسجد الأحمدى وهو صبى، وحين عاد من طنطا أهلته تلك الدراسة لأن يرفعه العمدة إلى مصاف الحاشية كمعلم لأولاده، ومع أنه ظل خطيب المسجد فى القرية، وإمام الناس فى الصلاة، إلا أنه كان يدرك أنه أصبح منفيًا ضمن الحاشية، ولم يأسف لذلك فمع أن بدواى تمقت حاشية العمدة، فكل واحد فيها حلم مرة واحدة على الأقل بأن يختاره العمدة ضمن هذه الحاشية، ومنذ أكثر من عام هبط على القرية رجل غريب اسمه «عبدالله نديم»، ظهر أولا مع العمدة، ثم مع الحاشية، ولقد واجهته القرية بريبتها التقليدية فهى تشك فى جميع الأفندية الذين يهبطون على العمدة، فهم جميعًا ضرب من الحكام، ومجيئهم لم يحمل مرة واحدة أى خير للقرية، وحتى إذا لم يكونوا حكامًا، فهم أصدقاء العمد فى البندر، وهم رقعاء وفضوليون لا يحسنون سوى صيد الطيور، ويعودون محملين بالهدايا التى تنهب من طيورهم وزبدهم، وقد تقع عيونهم على فتاة مليحة هنا أو هناك، فيطلبونها للخدمة فى بيوتهم، ولا يجرؤ أحد على رفض ذلك الطلب إذا نطق به العمدة!!

وحتى بعد أن تحقق أهل القرية من أن الضيف الجديد ليس من هذا النوع، فلم تذهب ريبتهم فيه، بل لقد زادت هذه الريبة، حين وجدوه يحاول اختراق الأسوار الحجرية والبشرية، محاولاً أن يقترب منهم، فى المسجد، وفى الحقول، وعلى المصاطب،

لابسًا جلبابًا مثلهم، سائلا عن شئونهم، متوددًا ملاطفًا للصغار والكبار، راويًا لهم بعض الحكايات والطرائف لم يزدهم هذا كله إلا شكًا وارتيابًا فطوال حياتهم لم يجدوا شخصًا يتقرب منهم إلا إذا كان فى ذلك مصلحة له أو شر لهم، وربما يتضح الأمر بعد قليل، وكانوا يتساءلون ما الذى يريده هذا الرجل؟ هل هو حقًا يعلم أولاد العمدة؟ وماذا يفعل الشيخ قاسم إذًا؟ وماذا يقصد اللعين بأسئلته التى لا تنتهى كيف تحاسبون العمدة؟ وكيف تدفعون كل هذه الضرائب؟ وكيف تعرفون مالكم وما عليكم؟ وكيف تعيشون بعد هذا كله؟ ماذا يريد رجل العمدة اللعين هذا؟ هل يظنهم يجهلون أنه بصاص (جاسوس) ملعون أرسلته الحكومة ليعرف أين يخبئون أموالهم؟ ولم يجرؤ أحدهم على أن يواجهه بشىء من ذلك، كانوا يخافونه، وكانوا يستمعون له ويغمغمون وقد ينصرفون قبل أن يفرغ من سؤاله، أما دهاتهم فكانوا يسايرونه ويؤكدون له أن الله يرزقهم كما يرزق النمل فى جحوره وأنهم يحمدون الله..! وأما الأشقياء فلم يتورعوا عن سرقة «طشت» غسيل من بيته مرة، وحقيبة ثيابه مرة ثانية، وأن يغشوه فى كل مرة حاول أن يشترى فيها شيئًا منهم!

ولكن أحدًا لم يقدر على أن ينفجر فيه ذلك الانفجار اليائس الذى فعله «حسنين الأعرج» كان عجوزًا متعبًا وأعرج حقيقيًا ولم يكن فيه جزء سليم غير لسانه، وكان نديم يكرر محاولاته اليائسة فى اختراقه قلعة بدواى الحصينة اللعينة حين انفجر فيه:

- ما الذى تريده منا؟ ما غرضك الحقيقى؟

وبهت نديم الذى كان يتوسط حشدًا من الفلاحين على إحدى المصاطب.

- ماذا يخيفك يا رجل؟ أنا فلاح مثلك!

- لست مثلى ولست فلاحًا ولا تعرف شيئًا عن الفلاحين.

ثم تساءل فى غيظ: أليست لك بلد؟ لماذا لا تذهب إلى بلدك؟

تطلع نديم حوله دهشًا محاولاً أن يستطلع رد الفعل لدى من حوله فلم يجد سوى صمت مطبق لعين وقال أحدهم فى غلظة:

- اسكت يا أعرج؟

ولم يسكت حسنين الأعرج بل اندفع.

- إنه يمرضنى بأسئلته وحكاياته! لماذا لا يذهب ويحكيها لصديقه العمدة؟

قال نديم الذى كان يكبح نفسه طوال الوقت بهدوء وفى محاولة يائسة للفهم:

- ما الذى يتعبك يا عم حسنين هل أنت ضائق بى أم بالعمدة؟

- ها هو اللئيم يريد أن يوقعنى فى الكلام ولكنى لا أهتم بك ولا به اذهب وقل له ذلك!

- لن أقول له شيئًا.. ولكنى أستطيع إذا كانت لك عند العمدة مشكلة أو بينك وبينه..

فقاطعه الأعرج:

- ألم أقل لكم ها هو اللئيم يحاول مرة ثانية ألم أقل لكم؟

ثم صرخ.. العمدة هو سبب مصائبى، وانفجر يقذف فى كلمات متشنجة بقصته مع العمدة.. القصة التى لم تكن مجهولة إلا لنديم، وعبثًا حاول نديم أن يفهم شيئًا من عواء الرجل وتشنجه! وكان الشيخ قاسم هو الذى حكى له القصة كاملة فيما بعد، وأيقن نديم أنه لا يمكنه أن يصنع شيئًا لهذا الرجل ولا غيره.. فلم تكن أرضه وحدها هى التى استولى عليها العمدة بعد أن غرق الرجل فى سلسلة الديون التى لم يكن يعرف لها بداية ولا نهاية..! كان هناك كثيرون غيره غارقون فى الديون وكان جهدهم كله مباعًا لسنين طويلة لحساب العمدة؛ لأنه وحده الذى يدفع ضرائب الزمام، وكان أى شقاء يلقونه من العمدة جديرًا بأن يكون ضربًا من النعيم، لو تأخر العمدة عن دفع الضرائب وحال بينهم وبين سياط المواسة وحواريهم!!

وكان من الممكن أن يعرف حسنين الأعرج فضيلة الصمت كغيره ولكنه كان عجوزًا وكان قد فقد ثلاثة رجال هم كل أبنائه فى حرب الحبشة وفى حفر قناة السويس، وإن كان السبب الحقيقى لاندفاعه الأهوج كما يردد عقلاء بدواى: أن الرجل يعرج بعقله! وكان نديم قد ضجر من بدواى ومن العمدة ومن نفسه ولم يكن ينتظر سوى نهاية العام ليأخذ أجره ويمضى!

وفى نهاية العام سمعت بدواى فى ذهول تلك المشاجرة العاصفة بين نديم والعمدة.

- يجب أن آخذ أجرى لقد علمت أولادك عامًا كاملاً.

- كنت مطرودًا من القصر، ولمتك من الطريق، والآن ترفع صوتك فى وجهى.

- تنسى أنك دعوتنى إلى بيتك، تنسى أنك رجوتنى فى البقاء، وتنسى كل ما يجب أن يذكره الرجل الكريم!

- عد إلى الطريق الذى جئت منه!

- أى طريق يقودنى إلى غير بيتك هو طريق السلامة!

ويجن العمدة لأن رجلاً لا حول له ولا قوة قدر على إهانته أمام الجميع، رجلاً ليس مديرًا ولا مأمورًا ولا يملك غير ثيابه، ويقسم لينتقمن منه شر انتقام فهو إذا لم يفعل فربما يتجرأ عليه الأوغاد الآخرون!!

ويفكر العمدة ويدبر، ولكن الشيخ قاسم الذى كان لايزال ضمن الحاشية والوحيد الذى كانت تربطه بنديم علاقة إنسانية و الوحيد الذى قدر له أن يفهم «نديم» ويحبه، ويفشل فى الوقت نفسه أن يخترق به الحصار الذى كان يعيش معه بداخله..!

الشيخ قاسم هذا يذهب إلى بيت نديم فى الوقت المناسب ليقول له:

- أى شىء يبقيك فى هذا البلد اللعين؟

- لا شىء ولكنى لا أريد أن أفر!

- يجب أن تنجو بجلدك فالليلة وليست أية ليلة أخرى سيقتلك رجال العمدة!!

وحين لا يجد رجال العمدة «نديم» فى بيته، يحرقون البيت فى لحظة غضبهم وحين تشتعل النيران فى البيت الذى كان يسكنه نديم محرقة كل ما لم يقدر على حمله يكون هو فى طريقه إلى المنصورة، وفى ضوء هذا الحريق أبصرت بدواى حقيقة الرجل الذى ظنته بصاصًا للحكومة وصديقًا للعمدة، ولم تصدق ما كان يقول عنه الشيخ قاسم إلا بعد أن طرده العمدة حين تأكد له أنه هو الذى أخبر «نديم» بما بيته له، وساعده على الفرار..! وكان الشيخ قاسم جديرًا بأن يلقى الهلاك لا مجرد الطرد من حاشية العمدة لولا أنه ترك القرية عدة شهور ولم يعد إلا بعد أن كسرت شوكة العمدة حين اتصل نديم بشاهين باشا كنج وأخبره بما حدث من عمدة بدواى فأرسل للعمدة وأرغمه على أن يدفع لنديم أضعاف حقه، وكأن الشيخ قاسم الذى فتح دكانًا للتجارة فى بدواى هو الذى نقل لهم هذا الخبر، وكان هو الذى يقرأ لهم أشعار نديم فى هجاء العمدة التى أصبحت حديث الناس فى الإقليم كله، وأكثر من ذلك كان يقرأ لهم هجاء نديم لأهل

بدواى نفسها، الذى كتبه لصديق بالمنصورة ثم ذاع خبره فى القرى المجاورة، كانوا هم الذين طلبوا منه ذلك، وحين قرأ عليهم «قوم يحتاجون لترجمة السلام فضلاً عن الكلام. قلوبهم غلف وألسنتهم قلف..!» ضحكوا وقالوا له كفى فلن يفهم أحد منا أو من غيرنا هذا النوع من السباب! أما حين حكى لهم قصة نديم مع الأدباتية فى طنطا فقد وجدوا فى القصة فرصة جديدة لمغايظة العمدة، وكان الأطفال سلاحهم، فلم يكد الشيخ قاسم يفرغ من تحفيظهم الأزجال التى تمكن من نقلها، ومن تدريبهم على أصول اللعبة، حتى امتلأت بهم الأجران كل ليلة، وترددت أزجال نديم كما تردد اسمه فى أنحاء بدواى، وعبثًا حاول الخفراء فى كل مرة تشتيت الأطفال وتخويفهم، كانوا يعاودون اللعب بعد انصراف الخفراء.. وعلق أحد حكماء بدواى، وكان يجلس أمام دكان الشيخ قاسم، على تلك اللعبة قائلاً:

ـ حقًا إذا أردت أن تغيظ رجلاً فسلط عليه امرأة، وإذا أردت أن تغيظ امرأة فسلط عليها مجموعة من الأطفال..!

واستدرك أحد الجالسين قائلاً:

ـ ولكننا نغيظ العمدة يا عم رجب.

ـ يا غبى، أنا أقصد أن عمدة بدواى امرأة!

المنصورة

قريبًا من بدواى كانت تقع مدينة المنصورة، عند القمة من أهرام «شاهين باشا كنج» كانت تمتاز بموقعها الفريد على النيل، الذى جعلها من أهم مراكز التجار فى القطر وخاصة فى تلك الأيام التى كانت تجارة أوروبا تصل فيها إلى آسيا وإفريقيا عبر الطريق البرى والنهرى داخل القطر ثم اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح فغاص هذا الشريان الحيوى، ثم افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ وبدلاً من أن تصبح هى الشريان الحيوى الجديد الذى يحمل لمصر الرخاء والنماء، كانت قد أصبحت كلها ملكًا لأوروبا حين باعت حكومة الخديو أسهم مصر فى قناة السويس إلى إنجلترا فى نوفمبر سنة ١٨٧٥ ليمكنها أن تسدد أقساط الدين، التى يحل موعدها فى ديسمبر من نفس العام..! وحتى لا تعلن الإفلاس.

وفى عام ١٨٧٦ كانت ديون الخديو لبنوك أوروبا قد بلغت ٩١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى وبسبب هذه الديون انتهت مصر كلها إلى أن تخضع لنفوذ أوروبا ممثلاً فيما سمى آنذاك بالمراقبة الثنائية لدولتى إنجلترا وفرنسا مراقبة للإيرادات والمصروفات، مراقبة تضغط المصروفات وتحجز من الإيرادات ما يوفر للدائنين حقوقهم كاملة، كانت سلسلة القروض التى بدأها الخديو مع بداية حكومة تلتف فى أحكام حول كل مصادر الثروة فى مصر لتسقط واحدة بعد الأخرى، فسقطت القناة، وسقطت إيرادات السكة الحديدية، وإيرادات ميناء الإسكندرية، وإيرادات الدائرة السنية، وانتهت التجارة الخارجية كلها إلى الشركات الأجنبية، وكانت التجارة الداخلية هى الأخرى تسقط فى قبضة التجار الأجانب الذين تسللوا إلى مدن القطر الرئيسية ليفتحوا المتاجر والملاهى والخمارات، ويبيعوا أحدث المنتجات الأوروبية، وهكذا انتهت طبقة التجار الوطنيين إلى

أن تبيع للناس بعض المنتجات الوطنية كالعطارة والخردوات والمنسوجات المحلية والجلود والأوانى الفخارية والخشبية..!

ولم يكد عام ١٨٧٦ يقبل حتى كانت أصابع التجار الأجانب تتسلل إلى آخر قلعة.. إلى العطارة والخردوات والمنسوجات والجلود والأوانى فتقلد الأشكال الوطنية لهذه المنتجات وتعرضها فى الأسواق..!

ولم يكن «محمود الغرقاوى» إلا واحدًا من التجار الوطنيين الذين وقفوا على عتبات محالهم بالمنصورة ينظرون فى ذهول إلى الأجانب وهم يتسللون إلى المدينة ثم يتكدسون فيما لايزال يعرف حتى اليوم بسوق الخواجات..! وإلى عملائهم القدامى وهم ينصرفون إلى متاجر الخواجات ليشتروا نفس البضائع المركومة فى متجره وقد أصبحت تباع داخل علب أنيقة محلاة بالأشرطة، علب تضم كل شىء حتى أصناف العطارة البلدية، وحاول نفر قليل من المصريين أن يقاوموا الطوفان بينما غرق الآخرون، بعضهم غرق فى بحور الخمر، وبعضهم غرق فى بحور الشعر، وكان «محمود الغرقاوى» من هذا النوع الأخير، وكان قد قابل عبد الله نديم أول مانزل المنصورة منذ أكثر من عام، ولم يعجب فقط بشعره، كان معجبًا أكثر بأحاديثه وبروح الدعابة الكامنة فيها مهما كان جادًا، أيامها كان قادمًا من المحروسة، مطرودًا من القصر ومعبأ بأحاديث الشيخ جمال الدين، أيامها كان يتحدث عن الصواب والخطأ والخير والشر، كان الشر يتمثل فى التجارة الأجنبية وفى النفوذ الأجنبى، وكان الخير دائمًا هنا فى مصر، فى فهم صحيح للدين، فى توعية للشعب بحقيقة دينه، وحقيقة ما يحدق به من أخطار وأعداء، وكأنما نسى الرجل الذى كان لايزال يحمل بقية من مال أنه مجرد طريد، كان يبدو كما لو كان داعية أرسله الشيخ جمال الدين إلى الريف ليقوم بالمهمة التى يقوم هو بها فى المحروسة، ثم غاب عبدالله نديم عامًا كاملاً فى بدواى، وحين قابل بعدها «محمود الغرقاوى» لم يصدق الرجل عينيه، كان نديم مروعًا حقًا وهو يصف له النيران التى أبصرها تلتهم بيته وهو يغذ السير فى الحقول، كان رجلاً قد عاين الموت ولقد كان يظن أنه رأى الكثير فى هذه الدنيا ولكنه لم يكن قد رأى الموت بعد، موته هو..! واحتراقه وسط أكوام القش وأعواد الخشب. كانت تلك أول مرة يكتشف فيها أن الشر يمكن أن يكون مصرى الجنسية، غنيًا وفقيرًا وأن الشعب يمكن أن يكون كتلة من البلاهة والغباء والسوء، تهدد بالويل كل من تسول له نفسه أن يجعلها شيئًا أفضل، وقال

محمود الغرقاوى الذى كان قد سبقه إلى معاناة الموت غرقًا مفتشًا عن روح الدعابة فى الرجل:

ـ وما دمت لم تمت بعد يا نديم فسأدبر لك عملاً.

ـ أى عمل تعنى؟

ـ سأفتح لك محلاً صغيرًا للخردوات.

ـ لكن!

ـ لن تكون الأمور أسوأ مما هى، وقد تربح يا نديم فيكون لك نصف الربح أو ما يكفيك منه وتبقى بيننا.

كان نديم قد تحدث معه من قبل فى مشاكل التجارة وقد ذهل بخبرة نديم فى هذا الموضوع لم تكن خبرته بالتفاصيل لكن بالكليات، ويبدو أنه خدع فى نديم على نحو ما، وضحك حين قال له نديم:

ـ إذا أردت أن تضمن نجاح المشروع فأحضر لى قبعة من الغد ويصبح اسمى الخواجة «دميان».

وضحك نديم أيضًا حين قال له الغرقاوى:

ـ يمكن أن نحضر لك قبعة، وأن تلوى لسانك الطويل بلكنة الخواجات ولكن ماذا نفعل بجلدك يا نديم؟ أنه يبدو غير صالح للتغيير ولو جئنا بمن فى البلد من صباغين ودباغين! وفتح لنديم متجرًا صغيرًا للخردوات غير عابئ بصراخ ابنه:

ـ ألا يكفى ما نلقاه من السوق؟

ـ قد يربح يا بنى، والبضاعة لنا، وله نصف الربح، إنه رجل جذاب والناس يقبلون عليه.

ـ إنه جذاب حقًا لمن لا فائدة فيهم من الناس!

ولكن محمود الغرقاوى الذى كان قد فقد روح التاجر العظيم وتحول إلى مجرد رجل مضياف لم يعبأ بصراخ ولده، وحتى حين أفلس نديم تمامًا، لم يجد فى قلبه أى حقد عليه، فلم يكن نديم هو ذلك الحالم بمكان فى حاشية الخديو ولا الداعية المتقمص

لتعاليم أستاذه جمال الدين ولم يكن حتى عامل تلغراف ولا معلم صبية ولا مجرد بائع لحساب غيره كان كل ما تبقى من هذا كله.. إنسانًا عاين الموت والطرد والضرب والفشل والإذلال، وكان بعد هذا قادرًا على أن يؤكد لمحمود الغرقاوى أنه سيسدد ديونه فى أول فرصة ولم يكن يدرى نديم بعد هذا كله على من يصب نقمته؟ فقد اكتشف على نحو مفاجئ أن ذاته تستحق أكثر من أى شىء أو شخص تلك النقمة فكيف يمكن أن يحقد عليه محمود الغرقاوى؟؟

وحين أرسل شاهين باشا كنج إلى عبدالله نديم قال حسن بن محمود الغرقاوى:

ـ انجابت غمة!

وقال بعض أصدقاء نديم:

ـ قد يمر وقت طويل قبل أن ترى المنصورة رجلاً مثله.

وقال بعضهم الآخر:

ـ أمثاله يعودون دائمًا فالتسكع فى البلاد هو عملهم!

وقال محمود الغرقاوى لهؤلاء الأصدقاء جميعًا:

ـ لست آسفًا على ما فعلت من أجله، ولا أرى ما هو العمل الذى يصلح له نديم هذا، ولكنى واثق ثقتى من وجودكم أنه ليس واحدًا من هؤلاء المخبولين الظرفاء الذين كنا نتسلى بهم دائمًا.

وكان محمد كمال الموظف بمجلس المنصورة وصديق نديم هو الذى نقل إلى محمود الغرقاوى حكايته مع الأدباتية بطنطا..!

وكان يزوره بمتجره الذى هدأت فيه حركة التجارة هدوءًا جعله يصلح لأن يكون مكانًا يلقى فيه أصدقاءه ويسامرهم وعلق أحد الجالسين على القصة:

ـ الزجل والشعر، تلك بضاعة نديم التى لا تبور أبدًا. واشترك الحاضرون فى الحديث:

ـ إنها تبور مثل أية بضاعة، وغدًا يطرده شاهين باشا.

ـ لقد أضاع نديم فرصة العمر بعد أن فتح له الغرقاوى بك متجرًا.

وعلق الغرقاوى:

ـ لم تعد التجارة فرصة والرجل كريم متلاف لايصلح للتجارة.

ـ ولا لغيرها. هكذا قال حسن بن الغرقاوى ثم أضاف:

ـ الكريم هو الذى ينفق من ماله الذى شقى فى جمعه. وعاد «محمد كمال» الذى نقل القصة والذى كانت تربطه بنديم صداقة خاصة، سمحت له بأن يكتشف دخيله نفسه وأن يشارك الغرقاوى «ونديم» أحاديثهما الخاصة اللافحة التى تلعن الخديو والباشوات الكبار وقال بلهجة لم يخف مغزاها على محمود الغرقاوى وهو الذى كان يدرك طوايا نديم:

ـ ولكنه انسجم مع شاهين باشا كنج جدًا!

ـ ليس أمامه سوى أن ينسجم معه!

هكذا قال الغرقاوى ولم يفهم الحاضرون أكثر مما تعنى الكلمات، فقال أحدهم:

ـ ميزة نديم أنه ينسجم مع الجميع، تصوروا: أولادى جميعًا يسألون عنه، ويحفظون حكاياته لهم!

فعاد حسن الغرقاوى يزمجر:

ـ ولكنه حتى الآن لم ينسجم مع أى عمل صالح إلا إذا كنتم ترون التسول عملا صالحًا!

فصرخ محمود الغرقاوى فى ولده:

ـ أنت أحمق وغر، لماذا لاتكف عن كلامك الفارغ؟

فانسحب فى الحال داخل المتجر تجنبًا للمشاحنة مع أبيه أمام أصحابه...

وفكر أحد الجالسين فى دهاء أن هجومًا لبقًا على نديم يخفف من حدة الموقف، ويرضى كرامة الأب والابن معًا. فقال:

ـ فى الحقيقة أن «نديم» أغرب رجل رأيته فى حياتى، فبينما يبدو فاهمًا لأشياء كثيرة وقادرًا عليها، يترك بلده وأولاده ليدور فى البلاد بلا عمل!!

وبدا لمحمود الغرقاوى وكأنه يسمع بهذه الحقيقة لأول مرة وسأل نفسه: صحيح لماذا لم يذهب نديم إلى الإسكندرية بعد طرده من القصر؟ لماذا يرسل نديم أولاده إلى هناك ليعولهم أبوه ويدور فى البلاد كالمخبول؟ كان بمقدوره أن يجد عملا فى الإسكندرية لو أن العمل يعنيه..! من المؤكد أن فى هذا الرجل شيئًا فاسدًا ولكن ماهو؟ ولم يجد فى نفسه أية رغبة فى التحرى عن هذا الشىء ولكنه قرر بينه وبين نفسه أن يكف عن معاداة ابنه من أجل رجل ليس يدرى حقيقته تماما وأكثر من ذلك لم يعد له وجود بينهم.

ومع ذلك فقد وجد نفسه يردد:

ـ أحيانًا كان يحدثنى عن ابنه إلياس، وعن مخبز أبيه، وحين حاولت أن أعزيه حين قدم من بدواى قال لى: هون عليك فحين تسوء الأمور سأعود إلى الإسكندرية لأبيع مع أبى شيئًا لايستغنى عنه أحد، الخبز. وتساءل الغرقاوى فى نفسه هل كان ينتظر أن تكون الأمور أسوأ من ذلك؟

ـ ولكن أباه هو الذى طرده وهو صبى، ثم طرد من القصر، وطرد من بدواى، وكان يجب أن نطرده من هنا!

كان حسن الغرقاوى هو الذى قال ذلك متشجعًا بتغير نبرة الحديث، ولكن أحدًا لم يرد عليه هذه المرة، وانتهى الكلام بشأن نديم!..

المحروسة

كان ذلك هو عام ١٨٧٧، وكانت المحروسة تبدو مدينة مختلفة تمامًا عن تلك التى عرفها نديم وعبد العزيز حافظ، وعاشا فيها كثنائى يلتقى أحيانًا ويفترق أحيانًا أخرى، كان نديم لايزال فى طنطا، وكان عبد العزيز حافظ قد عاد إلى المحروسة بعد أسبوع من ذلك اليوم الذى سمع فيه بقصة نديم مع الأدباتية وفى اعتقاده أنه عاد لمن تبقى من أصدقائه بصيد ثمين، ولكنه لم يكد يضع قدمه فى المحروسة حتى اكتشف أن ثمة قصة أخرى تملأ آذان المدينة..

ويدور حولها همس الجميع..! فلم يكن يلتقى اثنان أو أكثر فى بيت أو مقهى أو شارع، فى فرح أو مأتم أو صلاة إلا وكانت قصة النهاية الغامضة الفاجعة «لإسماعيل صديق المفتش» بداية الحديث وأيضًا نهايته..! ولم يكن فى مصر كلها رجل يجهل إسماعيل صديق المفتش فهو لم يكن مفتشًا على الدلتا وحدها مثل شاهين باشا أو على الصعيد مثل محمد سلطان باشا، بل كان كبير المفتشين وصديق الخديو وأخاه فى الرضاع ووزير ماليته منذ عام ١٨٦٨، وهو الرجل الذى ظل يتقدم لمجلس شورى النواب فى دورات انعقاده بأرقام ميزانية تبدو البلاد خلالها فى أحسن حال فالصادرات تزيد دائمًا على الواردات، وثمة وفر فى الميزانية وحديث لبق عن الديون المتبقية منذ حكم المغفور له محمد سعيد باشا وحديث آخر أكثر لباقة عن قرض جديد من أجل التخلص من هذه الديون تارة ومن أجل إتمام بعض المشروعات العمرانية تارة أخرى ومن أجل تفشى الطاعون البقرى تارة ثالثة، ولم يجرؤ شخص فى مجلس شورى النواب على أن يناقشه الحساب فى حقيقة الأرقام التى يقف فى كل دورة ويلقيها فى هدوء، ولاغى حقيقة القروض بأرباحها الفاحشة، وهل تذهب حقاً لتسديد الديون وإتمام المشروعات



أم تتحول إلى قصور على جنبات النيل وفى صحراء العباسية وعلى ضفاف البسفور لينزل فيها الخديو فى زيارته للأستانة ليدفع رشاواه هناك لوزراء السلطان من أجل الحصول على لقب خديو تارة، ومن أجل أن تصبح الخديوية من حق أكبر أبنائه لا من حق أكبر فرد فى الأسرة العلوية تارة أخرى، وهل تنشأ بها إصلاحات للشعب الذى يتحمل عبء هذه القروض أم تتحول إلى إصلاحات فى أرض الخديو التى امتدت فجأة فأصبحت خُمس الأراضى المزروعة فى القطر كله، وتتدفق أنهارًا من الخمر فى كئوس مفضضة ومذهبة لتدور فى احتفالات الخديو الباهرة بافتتاح القناة، حيث أصبح كل ملوك أوروبا ضيوفا يأكلون ويشربون ويستمتعون بذلك الجو الأسطورى الذى طالما حلموا به فى ألف ليلة..! وتتحول داخل قصور الخديو إلى أثاث نادر وتحف رائعة وسهرات، وحفلات تمثل أرقى ماحلمت به باريس فى عهد الإمبراطور نابليون الثالث!!

كان هذا هو إسماعيل صديق المفتش الذى لم يجرؤ شخص من أعضاء مجلس شورى النواب على أن يناقشه الحساب، لأنه كان يعرف أكثر من غيره حقيقة هذا المجلس، وحقيقة الغرض الذى أنشئ من أجله، فلم يكن الشعب هو الذى طالب به، ولم يكن معقولا أن يتطوع الخديو بإنشاء مجلس يناقشه الحساب، أو حتى يكون مجرد لمسه تضاف إلى صورة مصر لتبدو كما حلم بها الخديو قطعة من أوروبا، وإنما كان مجرد وسيلة جهنمية من عديد الوسائل التى لجأ إليها الخديو لابتزاز الأموال من هنا وهناك كان الخديو يقترض من بنوك أوروبا قروضًا تطوقه بالأغلال فلماذا لايقترض من الداخل أيضًا قروضًا جديدة، قروضًا إن لم تفد فى تسديد القروض الخارجية أو تسديد أرباحها فسوف تمتاز عنها بأنها لن تطوقه بالأغلال، لأنها ستكون فى شكل ضرائب لاترد، ومن غير هذه الطبقة من أعيان الفلاحين المالكة للأرض والطامحة لأن يكون لها كيان اجتماعى يمكن أن تسعفه بالمال؟ ولماذا لايأتى بهم إلى المجلس ليشعروا أنهم أصبحوا ذوى مكانة تقتضيهم بعض التضحيات التى لن يبخلوا بها بأية حال؟ ومن غير وزيره الداهية يمكن أن يتفنن ويبتكر؟

وهكذا كان إسماعيل صديق المفتش هو الذى حمل هذا المجلس على أن يقرر ضريبة السدس، ضريبة المواشى و.. و.. ثم وصل فنه العظيم إلى أرقى درجات الابتكار حين حمل المجلس على أن يقرر ضريبة «المقابلة» وهى ضريبة لايتمكن من دفعها إلاكبار

الملاك (أعضاء المجلس) وهى تطالب هؤلاء الملاك بأن يدفعوا فى عام واحد ستة أمثال الضريبة المقررة على أراضيهم، وطبعًا لابد أن يكون ثمة مقابل لهذه التضحية أن يكون ثمة ربح لهذا القرض العظيم، ولم يكن الربح سوى مجرد وعد.. وعد بأن تخفض ضريبة الأرض التى تدفع هذا المبلغ إلى النصف وبصفة دائمة، والصفقة تبدو مغرية للملاك لو صدق الوعد، ولكن أحدًا لم يجرؤ وقتها على أن يقول لإسماعيل صديق المفتش إن الحكومة لم تصدق فى أى وعد قطعته على نفسها!

ولم يكن من الممكن أن تستمر لعبة القروض تلك إلى مالا نهاية، وإذا كان أعضاء مجلس شورى النواب يخافون، فما الذى يخيف أصحاب الديون فى أوروبا والخديو يوشك أن يعلن إفلاسه..! بعد أن سقطت كل مصادر الثروة فى مصر وأصبح دخلها مرتهنًا بسداد الديوان..!

وجاءت أوروبا على مهل كصياد يتبختر نحو فريسته لأنه واثق من أنها لن تفلت.. ولم يكن صيادًا واحدًا، كانت أوروبا كلها قد خرجت تبحث عن الفرائس فى أصيل القرن التاسع عشر، وسمع الناس لأول مرة بتقرير لجنة «كيف» عن الحالة المالية، ثم بمشروع «جوشن وجوبير» لإصلاح تلك الحالة، وهكذا أصبح ما كان سرًا، ماكان يتهدد قائله بالموت ماكان لايتكلم فيه غير الشيخ جمال الدين أصبح حديث الصحف فى أوروبا، وحديث الناس فى المحروسة، وأبصروا إلى خديويهم الذى كان ضربًا من الآلهة، يتضاءل وينكمش ويتنازل عن سلطاته واحدة وراء الأخرى تارة لما يسمونه صندوق الدين وتارة لما يسمونه مراقبة ثنائية!!

وكان من الطبيعى أن يتساءل الناس وسط هذا كله عن إسماعيل صديق المفتش.. عن مصيره! وكان من المألوف أن تسمع هذا الحوار فى شوارع المحروسة ونواديها.

- يقولون إن مستر «جوشن» يصر على فصله كشرط ضرورى لإصلاح الحالة المالية!

ويفصل إسماعيل صديق، ثم يتردد الهمس

- يقولون إن «جوشن» يصر على محاكمته أيضًا!

- وهل يسمح للخديو بذلك؟

- وهل يملك الخديو الآن أن يسمح أو لايسمح؟

ـ ولكن إسماعيل صديق لم يكن سوى أداة الخديو، ويمكن أن تصبح محاكمته محاكمة للخديو أيضًا!

ـ إن قناصل الدول يتحدثون عن عزل الخديو أيضًا!!

وهكذا وجد الناس أنفسهم يتحدثون أيضًا عن عزل الخديو دون أن تنشق الأرض وتخر الجبال هدًا!!

وكما يحدث دائمًا فى مثل هذه الأحوال حيث تغطى الأمور السيئة بأمور أكثر سوءًا، وحيث تعالج الأكذوبة بأكذوبة أكبر وأعظم سمع الناس أن إسماعيل صديق المفتش سوف يقدم للمحاكمة بتهمة التآمر على الخديو وإثارة الخواطر ضد مشروع «جوشن وجوبير» وحوكم إسماعيل صديق وحكم عليه المجلس الخصوصى بالنفى فى دنقلة والسجن بها.. وعبثًا حاول الناس أن يلقوا نظرة واحدة على الرجل، الذى أغرق مصر كلها فى الآلام والديون وأدى للخديو وظيفة كلب الصياد، دون أن يلقى مايستحقه أى كلب آمين... عبثًا حاول الناس أن يروا الوجه الذى طالما أرعبهم.. يروه مرة واحدة غارقًا فى الرعب.. لقد أبحرت به سرًا سفينة صغيرة واختفت به نحو الجنوب..!

وبدا أن الموضوع كله سوف ينتهى بهذه الهمسات

ـ كان من الضرورى أن يحاكمه الخديو بمثل هذه التهمة حتى يتجنب فضيحة مؤكدة لو حاكمه الأجانب بخصوص المسألة المالية..!

ـ إنه لم يتجنب الفضيحة وحدها بل كسب عطف الأجانب أيضًا فقد كان إسماعيل صديق يعارض أخيرًا مشروع «جوشن وجوبير» الذى يستهدف مصلحة الدائنين الأجانب وحدهم!!

ـ معارضته لهذا المشروع الآن مثل توبة إبليس يوم القيامة.

ـ ولكن الخديو عرف كيف يستفيد من إبليس!

ـ إبليس الحقيقى لايزال هناك، ممثلا فى «جوشن وجوبير» ولن يستفيد منه الخديو!

ـ لا

ـ فى المقابر؟

وهكذا وعلى نحو مفاجئ وجد رجل الشارع فى المحروسة نفسه يتمتع بحرية عجيبة فى التعليق على الحوادث، فالحرية تهب فجأة فى تلك اللحظة النادرة التى تتحرك فيها السلطة من يد إلى يد وقبل أن تستقر فى يد قوية حازمة، وكانت السلطة الآن وكما كانت دائمًا تتبع أصحاب الأموال، وكانوا هم أصحاب الديون ولم يكن أصحاب الديون فردًا واحدًا أو دولة واحدة ولهذا فقد كان اقتسام السلطة أو تنظيمها بينهم خاصة بين إنجلترا وفرنسا فرصة جديدة لمزيد من الحرية، حتى لقد تذكر أعيان الفلاحين (أعضاء المجلس) أن لهم حقوقًا أيضًا فقد أقرضوا الحكومة ضريبة المقابلة وها هى المراقبة الثنائية التى تحاول القبض على زمام السلطة لتضمن ديون الأجانب تحاول بجرة قلم أن تلغى قانون المقابلة ففكروا فى أن يعقد المجلس اجتماعًا طارئًا بمدينة طنطا للإبقاء على المقابلة..!

وكان هذا كله فى عام ١٨٧٦..! وفى عام ١٨٧٧ الذى انتهى فيه نديم الحالم بمنازلة الطغيان إلى أن ينازل حشدًا من الأدباتية، ووصل فيه عبد العزيز حافظ إلى المحروسة، وفى ظنه أنه حمل لمن تبقى من الأصدقاء قصة يمكن أن تجد لها مكانًا وسط حكايات المحروسة فى هذا العام، وشاء القدر أن يكون الوقت الذى عاد فيه عبد العزيز حافظ هو الوقت الذى تعود فيه من دنقلة السفينة نفسها التى حملت إسماعيل صديق المفتش إلى منفاه الأخير ومع العائدين على ظهر السفينة، ومع نسمات الحرية التى هبت فجأة على المحروسة كان ثمة خبر صغير ينتشر انتشار البرق..!

ـ لم يكن إسماعيل صديق المفتش على ظهر السفينة.

ـ وأين كان إذن؟

ـ هنا، لم يغادر المحروسة!

ـ فى السجن؟

ـ لا

ـ أين يمكن أن يكون؟

ـ فى قاع النيل!

ـ والمحاكمة؟

ـ لعله الرجل الوحيد الذى كان يحاكم فى وقت واحد فى الدنيا والآخرة وراح عبد العزيز حافظ يفتش عن أصدقائه لا ليحكى لهم «قصة نديم» بل ليعرف الحقيقة التى وراء ذلك الخبر الذى تردده المحروسة فى همس محموم، وفى منزل الشيخ أحمد الزرقانى التقى مع عدد من أصدقاء ندوة الغورية، الذين فرقتهم الأيام وعادت فجمعتهم، كان الزرقانى قد أصبح من أتباع الشيخ جمال الدين، وكان السيد على أبو النصر والشيخ على الليثى قد أصبحا شاعرى المعية، وكانوا كلهم فى تلك الليلة بمنزل الشيخ الزرقانى وقال السيد على أبو النصر بلهجة العالم ببواطن الأمور:

ـ لقد سمعت بهذا النبأ فى طنطا من شاهين باشا نفسه وقبل أن تسمع به المحروسة.

وسأل عبد العزيز حافظ فى لهفة: كنت فى طنطا إذًا؟ ومتى عدت من هناك؟

ـ منذ ليلة واحدة. وفكر عبد العزيز حافظ «أن فرصة رواية قصة نديم قد أفلتت منه بعد أن وجد لها شاهد عيان» وكان الشيخ الزرقانى هو الذى عاد يسأل:

ـ لكن كيف شاع الخبر فى المحروسة؟

ـ يقولون إن أحد الحراس الذين شاركوا فى قتل إسماعيل صديق أصيب بانهيار فراح يهذى بالحادث!!

ـ كان الخديو أحق بالانهيار، هكذا قال عبد العزيز حافظ.

ـ ربما كانت تلك أول تجربة للحارس المسكين، أما الخديو فهو رجل مدرب على هذه الأمور!

وقال السيد على أبو النصر:

ـ كان شاهين باشا مضطربًا جدًا وهو يفضى إلىّ بالخبر، وقال الشيخ على الليثى:

ـ أصبح القصر مكانا ملعونًا! وابتسم عبد العزيز حافظ فى صمت وعاد الشيخ الزرقانى يؤكد

ـ غدًا يلقى الخديو نفس المصير، إنه بهذا يؤكد ضعفه لا قوته وهذه فرصة الشعب ليثبت وجوده!

وقال السيد أبو النصر فى دهشة:

- الغريب أنك تردد نفس ماقاله نديم حين سمع القصة وسأل الزرقانى:

- وأين قابلت «نديم»؟

وهكذا وجد عبد العزيز حافظ نفسه مرة أخرى يستمع إلى قصة نديم بتفصيلاتها الدقيقة، واختلطت قصة نديم بقصة المفتش كما تختلط المأساة بالملهاة دائمًا وفى كل مكان.

وقال عبد العزيز حافظ:

- لعل «نديم» يحمد اللّه على أن خرج سليمًا من القصر!

- فى الحقيقة لست أفهم «نديم» هذا، ولست أدرى ماذا يكون الجنون إذا لم يكن هو مايفعله!

- تعنى أنه يردد ماقاله الشيخ الزرقانى.

- أعنى هذا وأكثر... إنه لايردده بين أصدقائه كما نفعل الآن ولكنه لايبالى بترديده فى أى مكان غير عابئ بما يسببه لشاهين باشا من حرج، وأكثر من هذا ففى الوقت الذى أصبح الإنسان فيه يفضل مغادرة المحروسة كلها وليس القصر وحده يفكر هو فى العودة إلى المحروسة وربما إلى القصر!

- كيف؟

- هناك فى قصر الباشا كان يلتقى بإبراهيم أغا بك توتنجى الخديو،

وانتهى اللقاء والإعجاب باختياره وكيلا لدائرة توتنجى بك.

- وما الذى يحمله على ترك شاهين باشا؟

- لقد قابل الباشا طلب نديم بدهشة فهذه أول مرة يتخلى شخص عن مثل هذه الرعاية التى يحلم بها الناس من الباشا، ولقد قال لى الباشا فى استغراب «لو كان نديم يريد مجرد العمل لكان بمقدورى أن أدبر له عملا فى طنطا»، ثم أضاف الباشا «أو لعل «نديم» يريد العودة إلى القصر من الباب الخلفى»!

وابتسم الشيخ الزرقانى قائلاً: لا أظن أن «نديم» يفكر فى أكثر من أن يجد فرصة للتردد على المحروسة، وهذا مايحققه له هذا العمل وفى حماية أحد رجال القصر.!

وابتسم السيد على أبو النصر قائلاً: أنت أدرى به فأنتما ترضعان من ثدى واحد!

وفكر عبد العزيز حافظ وقد هزه الشعور بأنه سيرى «نديم» مرة أخرى، لكنه لم يتعلم شيئًا من كل ماحدث له، إنه الهارب القديم من الدعة والأمان والاستقرار، الهارب إلى المتاعب!

الجزء الثانى

عبد اللّه نديم

لحظة فلحظة كانت مدينة «المحروسة» تختفى عن عينيه فى ضباب صباح بارد من شتاء عام ١٨٧٩م، وكانت البيوت ذات النوافذ والأبواب والشرفات تتحول إلى كتل صماء داكنة، المآذن وحدها التى كانت ترتفع إلى أعلى من جميع البيوت، هى التى ظلت تلوح لعينيه كأصابع تشير إلى أماكن وشوارع وذكريات ووجوه كانت فى وداعه منذ قليل على رصيف المحطة!

وكان هو عبد اللّه نديم جالسًا فى إحدى العربات فى القطار المسافر إلى الإسكندرية، عاجزًا عن أن ينتزع عينيه عن تلك الكتلة الصماء التى كانت منذ لحظات مدينة المحروسة والتى كانت لسنين طويلة حياة وأملا وعملا وصداقات ومسرات وأحزانًا كذلك، وانتهت فى هذا الصباح البارد إلى هذه النقطة المتلاشية فى جانب الأفق الفسيح، وربما فى تلك اللحظة فقط أدرك أن المقعد الذى يحتل جزءًا منه قد جلس فيه رجلان نحيلان على حين لم يتسع المقعد المقابل إلا لرجل واحد سمين وطفلة وحقيبة صغيرة استند إليها الرجل السمين بذراعه، ولأول مرة لايجد فى نفسه ميلا إلى ممارسة أعمق هواياته، وهى التحدث إلى الناس خاصة أولئك الذين لانعرفهم؛ حيث يبدو الحديث مثل مغامرة واكتشاف وحيث يتوافر فيه ذلك النوع من الحرية النابعة من شعور الجميع بأن الكلام لن يقيدهم بشىء؛ لأنه قادم من المجهول وذاهب إليه! لم يعد يجتذبه الأفق ولا الناس ولا الحقول المترامية عبر زجاج النافذة... لاذ بالصمت، مكتفيًا بأن يحدق فى داخله، وفى داخله لم يبصر سوى تلك النقطة الداكنة التى ابتعلها الأفق منذ قليل كانت تمتد وتستحيل فى لحظة إلى مدينة كبيرة وفى مكان منها يستطيع أن يصل إليه مغمض العينين، كان يجلس بجوار الشيخ جمال الدين

وأشرع الشيخ إليه عينيه صافيتين وقال بلهجته المشوبة بلهجات الأقطار العربية التى جابها:

ـ لماذا لاتعود إلى الإسكندرية؟ كان ذلك منذ أيام، وكان السؤال على نحو مفاجئ وكأن الشيخ جمال الدين لم يعرف إلا منذ لحظات فقط أن الإسكندرية موطن نديم، وفوجئ نديم بالسؤال وكنوع من رد الفعل لا أكثر أعاد السؤال:

ـ وماذا أفعل هناك؟ وكأنما اكتشف سخف إجابته فحاول أن يوضح الموقف فزاده سخفًا حين راح يذكر للشيخ مالم يكن يجهله.

ـ أعمل الآن وكيلا لدائرة «توتنجى بك».. وهذا العمل يتيح لى أن أكون هنا، وهذا ما أريده.. أن أكون معك.. أعمل معك.. أنت تعرف.. وقاطعه الشيخ جمال الدين:

ـ أى شىء تعمله هنا ولا نستطيع نحن أن نعمله؟ وأى شىء تقوم به فى دائرة توتنجى بك ولا يستطيع أى موظف أن يقوم به خيرًا منك؟ ولم يجب نديم، واندفع الشيخ جمال الدين وقد ازداد صوته حدة وزوى مابين حاجبيه واحتقن وجهه.

ـ تسألنى ماذا تفعل هناك؟ أذهب إلى الإسكندرية وستجد هناك آلافًا من اليونانيين والقبارصة والمالطيين والإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والشوام والمغاربة ووجه سؤالك لهم، قل لهم لماذا تركوا بلادهم وجاءوا إلى بلدك؟ لماذا قطعوا مئات الأميال فوق المياه لايملكون غير ثيابهم إلى بلاد لايعرفون حتى لغتها ليصبحوا بعد شهور أصحاب دكاكين ومقاه وملاه ومدارس وصحف وكنائس بينما تسألنى أنت ماذا أفعل فى الإسكندرية؟

وانصرف الشيخ جمال الدين إلى حديثه مع بقية الجالسين وكأن هذا الموضوع لم يعد يحتمل كلمة واحدة، وفى تلك اللحظة العاصفة بدا الأمر لنديم كما كان يبدو دائمًا فى كل الأمور التى تحسمها كلمات الشيخ القاطعة فى غاية من الوضوح والبساطة إلى الحد الذى يتعجب فيه فى كل مرة كيف لم يره من قبل بمثل هذا الوضوح؟ لم يكن فيما قاله الشيخ أمر واحد يجهله، وربما هنا يكمن سر هذا الشيخ الذى أصبحت هواية نديم اكتشاف أسراره، اكتشافها كلها خاصة وهو يبدأ طريقه هذه المرة بعيدًا عنه ووحيدًا أنه دائمًا يؤكد لمن حوله أنهم ليسوا فى حاجة إلى مايشبه المعجزة ليكونوا أكثر معرفة وقدرة بل من خلال ما يعرفون يمكن أن يصلوا إلى معرفة أرقى ومن خلال قدرتهم المحدودة يمكن أن يحققوا المعجزات..! إنه يقول للفلاح «أنت تشق الأرض بفأسك باحثًا

عن رزقك فلم لاتشق بهذه الفأس صدور ظالميك؟» وكأن الثورة ليست سوى تغيير طفيف فى اتجاه الحركة واتجاه الفكر، لكن ليس فى اللغة وحدها يكمن السر هكذا خاطب نديم نفسه، فلقد أفهمته بدواى كيف تصبح اللغة سجنًا لصاحبها، وحاول أن يبيع للناس بضاعة غير الكلام، وفى المنصورة عرف أنه يمكن أن يفشل حتى فى هذا العمل الذى يمكن أن ينجح فيه أى غلام لم يغادر بلده! فقط نجح كمهرج يقدم للباشا ورفاقه تسلية رخيصة ومبتذلة، نجح فى العمل الوحيد الذى لايمكن أن يعود إليه، وحين عمل وكيلا لدائرة توتنجى بك شاهد ماهو أكثر فظاعة من الفشل أو السجن أو الموت حتى ولو كان موته هو..!

وفى الحقيقة ربما كان المرء لايلقى موته أبدًا إلا حين ينجو منه لقد أدرك هو هذه الحقيقة حين وقف على حدود بدواى لايفصل بينه وبين موته سوى حقل حنطة صغير! أما فى دائرة توتنجى بك فلم يكن مارآه هو موته فقط أو موت غيره من البشر.. كان شيئًا آخر أكثر فظاعة وقسوة. ففى أواخر ذلك العام التعس ١٨٧٧، لم يكن المال وحده هو الذى يتلاشى من خزينة الحكومة ومن جيوب الأهالى.. بل كان الماء أيضًا، فلقد انخفضت مياه النيل فى ذلك العام انخفاضًا شديدًا، وفى الصعيد جفت أشجار القطن وأعواد الذرة، وصوحت الحقول، وامتد الجفاف إلى كل شىء، إلى ضروع الماشية، ووجوه الصغار والكبار، وتحولت الكلاب الضالة إلى ذئاب مفترسة واختفت الطيور، واختفت قبلها ديدان الأرض، ولم تعد الهجرة وسيلة للحياة، فقد كان الموت البطىء المريع فى كل مكان، ولأول مرة رأى نديم كيف أن الموت الذى رآه وعرفه بكل أنواعه حتى الموت حرقًا يمكن أن يعد من نعم الحياة العظمى، إذا قيس بهذا الفناء البطىء المروع الذى أحدثته المجاعة فى هذا العام التعس، وعلى مشارف الحقول المسودة، والجسور المشققة وخلف جدران البيوت، وفى كل مكان عمله يدفعه إليه، كان يلتقى بهؤلاء الذين يموتون لا فى يوم أو أسبوع أو شهر بل فى شهور طويلة شهور كافية لأن يروا فيها للعالم صورة غريبة، صورة استطاع نديم نفسه أن يراها معهم دون أن يحسها مثلهم تاركًا لهم وحدهم مرارة الإحساس، فلقد كان العالم الذى عرفه دائمًا وعرفوه مجموعة من البلاد والأسر والعلاقات عالم متشابك فى علاقة، قد تكون حبًا أو كراهية، صداقة أو عداوة، ولكنه أبدًا متشابك.



ولكن ماتكاد الأرض تتشقق حتى تمتد الشقوق إلى العالم كله، إلى البلاد والأسر والعلاقات، ويصبح الجميع مجرد أعداد، مجرد أفراد، تنحصر علاقتهم بالأرض المشققة السوداء كأنما يبحثون فى شقوقها عن بداية الحياة أو نهايتها، كل وحده، يبحث وحده، ويعيش وحده، ويموت وحده، عالم تسقط فيه كل اللغات، حين تسقط كل العلاقات، وتستحيل الرغبات البشرية اللانهائية إلى رغبة واحدة لا مثيل لضراوتها.. رغبة فى البقاء، وكأن الحياة تزداد جمالا كلما ازدادت بشاعة وقسوة واستحالة، وفى هذا العالم الذى وقف نديم على حدوده متفرجًا ذاهلاً مروعًا، كان كل شىء يفقد معناه من جديد.

حتى أحاديث الشيخ جمال الدين وهو جالس فى مقهى الأزبكية يشرب الشاى ويدخن ويثير مشاعر من حوله ضد الظلم ويتقاضى راتبه من الخديو، بدت له ضربًا من البلاهة والسخف، وماجدوى أن تعيش الأفكار وتنتقل من جيل إلى جيل بل ما جدوى الأفكار ذاتها؟ مادامت الحياة الإنسانية ذاتها قريبة هذا القرب المروع من الحياة الحيوانية؟ ما دام البلاء يأتى من هنا ومن هناك، مادام هو نفسه كاد يفقد شعور الإنسان العادى إزاء هذه الفاجعة! ولم يكن نديم يتردد فى أن يصرخ فى وجه الشيخ جمال الدين بكل مواجعه فى أول فرصة يراه فيها جالسًا فى هذا المقهى اللعين يثرثر أو يكتب المقالات فى الصحف الجديدة التى ساعد على إنشائها وحين رجع إلى المحروسة، لم يجد أستاذه فى نفس المكان، كانت الشقوق التى أبصر بدايتها فى أرض الصعيد المجدبة قد تسربت إلى كل مكان وإلى كل بناء، وكانت السلطة نفسها قد أصبحت أكثر الابنية تصدعًا، وكان الشيخ جمال الدين ورفاقه يشقون طريقهم خلال هذه الشقوق فالخديو الذى جرب الاستسلام للأجانب كوسيلة للمحافظة على العرش، وضحى فى سبيل ذلك برجله إسماعيل صديق المفتش، عاد يجرب المقاومة كوسيلة جديدة مستغلا الأخطاء التى تردت فيها الوزارة الأوروبية، وهى وزارة نوبار باشا التى ضمت وزيرين أوروبيين وحلت محل المراقبة الثنائية، لتزداد قبضة الأجانب إحكامًا وقدرة على أن تعتصر وتعتصر، وحين حلت المجاعة تلوثت اليد المعتصرة بدم الشعب، وأبصر الدم كل من لم يكن هناك، أبصره الخديو نفسه وأبصره الشيخ جمال الدين ورفاقه، وأبصره أولئك الذين لايزالون يحتفظون بدمهم فى عروقهم، والذين كانوا يقاومون الخديو فى الماضى وانبروا الآن لمقاومة الأجانب.. وهكذا أصبح أعداء الأمس أصدقاء اليوم، اختلف الدافع واتفق الهدف، كان الجميع يريدون إزاحة القبضة الجهنمية، وحاول

الخديو أن يستغل هذه الجماعة التى كانت تلتف حول الشيخ جمال الدين فى تحقيق هذا الهدف آملا أن تحل قبضته محل قبضة الأجانب ملوحًا باستعداده لقبول دستور حقيقى هذه المرة، وحاول الشيخ جمال الدين ورفاقه استغلال هذا التلويح من جهة الخديو والتأييد من الرجل الذى لايزال حاكمًا من الناحية الشرعية، فى إزاحة قبضة الأجانب آملين بدورهم أن ينتهزوا فرصة العمر لإقرار دستور حقيقى لايسمح لأى حاكم أن يعيد هذه المأساة.

كان التصدع الذى سرى فى جدار السلطة فرصة للحرية والآن أصبح فرصة للعمل، ولكن ماجدوى هذا كله بالنسبة لمن يموتون هناك؟ كان نديم هو الذى يسأل وهو الذى يشرح لأستاذه بنبرة يائسة الفظائع والأهوال، وكان الشيخ جمال الدين ينصت فى هدوء ويؤكد له أنه الآن يبصر شيئًا أفظع من كل ما أبصره نديم!! وحين تطل من عينى نديم نظرة غريبة ومتسائلة يقول له:

ـ يا بنى ليس هناك شىء أفظع من أن يترك اليأس يدمر روحك! لقد قلت الآن إنهم هناك رغم كل شىء يتشبثون بالحياة وأنت «رغم ماتراه هنا وماتفعله الآن» تتشبث باليأس أليس منظرك أكثر فظاعة؟

وتساءل نديم فى تلك اللحظة لم حقًا لايبصر الأمور كما يراها أستاذه؟ لم يفترسه اليأس وحده بينما يحتفظ هذا الرجل بشموخه وصلابته حيال كل شىء؟ وعلى نحو هادئ، وفى محاولة جادة لفهم الرجل وفهم نفسه أيضًا، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه منه وتحويله إلى شىء يبقى فى الرأس، ويصلح للزمن، خيل إليه أن الفارق بينه وبين أستاذه، هو نفس الفارق بين من يعيشون فى القمة ومن يعيشون فى السفح، وإذا كان الشيخ جمال الدين لألف سبب سيبقى فى هذا المكان المرتفع بحيث لايرى ولايتعامل إلا مع الصورة العامة للناس والمشكلات، فإنه هو نديم لألف سبب آخر، سيغوص بقدميه فى الأوحال فى التفاصيل والأحداث والوقائع، حيث يمكن أن يفترسه اليأس إذا لم يجد لرأسه مكانًا يستطيع منه بين وقت وآخر أن يبصر الصورة العامة للناس والمشكلات، وفى الجمعية الماسونية وجد هذا المكان، وكان الشيخ جمال الدين الذى التف حوله الساخطون هنا وهناك فى الجيش وبين الأعيان والمثقفين قد وجد فى الحركة الماسونية ملامح صيغة جد موفقة لانتظام هذه الفئات المختلفة تحت شعارها الفضفاض، الذى يتيح لغة موحدة لهؤلاء جميعًا ويتيح أكثر ـ وهذا هو الأهم ـ نوعًا من

الحماية ليس فقط من طغيان الخديو بل من طغيان الأجانب الذين كان بعضهم منضويًا تحت لواء هذه الحركة التى اجتمع تحتها ولأول مرة الأعلى والأدنى والشرق والغرب! وهكذا وجد نديم نفسه عضوًا فى نفس الجماعة مع الأمير محمد توفيق ولى عهد الخديو، والذى كان الشيخ جمال الدين يدخره كأمل كبير حين يأتى يوم تشير فيه كل الدلائل إلى قربه، وظل نديم يواصل طريقه الغريب بين اليأس والأمل، بين السفح والقمة، بين الذين يناضلون من أجل الغد والذين يناضلون من أجل اللحظة، وعلى نحو بدا له على الأقل مفاجئًا سأله الشيخ جمال الدين:

- لم لاتذهب إلى الإسكندرية؟

وها هو الآن فى طريقه إلى الإسكندرية قبل أن يتمكن حتى من إخبار أبيه بعودته..

إن الشيخ جمال الدين الذى يعيش فى القمة والذى يتعامل دائمًا مع الصورة العامة للناس والمشكلات والذى لايزال يتقاضى مرتبه من الخديو، لايمكن أن يرى أبدًا الأشياء الصغيرة، أو حتى لايسمح لغيره بأن يلفت نظره إليها، ويقينًا أنه لم يفكر لحظة واحدة فى أن «نديم» قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، ويقينًا لايذكر عدد أطفاله مع أنه أخبره بذلك مرة ولا يحس بما يعانيه رجل فى مثل سنه حين يحاول أن يبدأ البحث عن عمل، وأن يلتمس التوفيق بين العمل الذى يعيش له والذى يعيش به، وأين؟ فى مدينته القديمة حيث لايزال أبوه لايرى فيه غير شاب لم يعرف بعد طريقه الصحيح وحيث رفاق السن قد استقرت بهم الأحوال والأعمال وحيث ماضيه الطيب والردىء لايزال ماثلا فى بعض الأذهان، لم يفكر الشيخ جمال الدين فى هذا كله، وأيضًا لم يفكر هو فيه حين سمع سؤاله الحاد بل قد تعجب طويلا لأنه لم يفكر من قبل فى العودة إلى الإسكندرية ولكنه الآن مع نفسه، يقيس المسافة اللعينة التى كانت وستظل تفرق بينه وبين أستاذه المسافة بين القمة والسفح، بين هؤلاء الذين من أبسط حقوقهم، ألا يفكروا لحظة فى مشاكل العيش وبين من هم على شاكلته، مستشعرًا وحشة غريبة، ورغبة غامضة فى أن يطرح ماضيه كله وأن يختزله إلى شىء لايبهظه حمله، وحين حاول - والقطار يواصل رحلته - أن يبصر هذا الشىء أن يتأمله وحده، إذا به يجده رغبة، مجرد رغبة، فى أن يكون عبد اللّه نديم ولا شىء أكثر، ولقد هدته الأعوام الماضية إلى أن يعرف أشياء صالحة عن عبد الله نديم هذا، أشياء صالحة؛ لأنها حقيقة بقدر مايستطيع الإنسان أن يعرف من الحقيقة، إن كل شىء له حدود، طاقة المرء وخبرته

وعواطفه وفكره، ومعرفة المرء لحدود نفسه لايعدلها فى الأهمية إلا معرفته لحدود من حوله من الناس والأشياء، وفى الحقيقة أن «نديم» قد بدأ يدرك أن إصلاح بلد أو دين أو أمة لايمكن أن يكون مهمة فرد أو جيل وزنه لايبدأ مجرد بداية إلا حين يتحول إلى عمل منظم ومحدد، وربما لم يتفقد الشيخ جمال الدين نفسه من مرارة اليأس سوى شىء واحد لم يقله، وهو ما يحاول نديم الآن أن يتعرف عليه. ذلك الشىء هو أنه بدأ يحول أحاديثه الملتهبة إلى عمل، وها هو الآن يعود إلى الإسكندرية وليس يرجو أكثر من أن يلتمس خيوط هذا العمل، عمل يمكن بعد شهور أو أعوام أن يتطلع إليه، ويقول هو أو يقول الناس، ها هو عبد الله نديم إن أعظم. ما قدمته له الأعوام الماضية أنها نفت وإلى غير رجعة الأوهام الغامضة والمنى اللامحدودة، وهذا أمر قد تمضى مئات السنين على موت بعض الناس دون أن يدركوه، لقد عرف بعد كل هذا التجوال مكانه، وليس يريد أكثر من أن يحتفظ لقدميه بمكان فى السفح ولرأسه بمكان فى القمة حتى لايقتله اليأس أو تضلله الأحلام، ولينس لحظة أنه يعود لأهله كما تعود الخيبة أو الندامة ولينس أنه سيصبح بعيدًا عن الرجل الذى ظل لسنين طويلة لايتصور لحياته معنى بعيدًا عنه، بل ولعله يشعر الآن والقطار يبتعد بنوع من الراحة.. بنوع من الانعتاق والتحرر من أسر ذلك الرجل بعد أن كاد يحل طلاسمه وألغازه، وأن يعبئه فى فكرة يودعها مكانا من رأسه، فاليوم وليس فى أى يوم آخر كان بمقدوره أن يدرك أن مجرد كونه لايزال حيًّا؛ لايزال راغبًا فى العمل والأمل لايزال يشم الهواء وينفث دخان سيجارته لايزال يبصر ابتسامة الطفل الجالس أمامه والذى كان ربما يضحك من شكله، كل ذلك شىء رائع وجميل، وراح يداعب الطفل ويحادث أباه ويتأكد من حوله من الركاب على نحو أثار دهشتهم، كانت شهوة الحديث مع الركاب قد تفجرت فيه على نحو مفاجئ كأنها جزء من شهوة الحياة، وكان الركاب يتبدلون ولكن «نديم» كان دائمًا يوصل أحاديثه.. حتى وصل إلى الإسكندرية!!

الإسكندرية

لا، ليست تلك هى الإسكندرية، هكذا كان نديم يخاطب نفسه بعد أيام قضاها فى التجول هنا وهناك وفى زيارة لبعض الأصدقاء الذين فوجئوا بعودته.. ولكنها رغم كل شىء كانت الإسكندرية، إن التغيير يصيب المدن كما يصيب الناس، ولقد أخفت أمه دمعة فى ذيل طرحتها السوداء وهى تتفحصه بعينيها ويديها قائلة:

ـ لقد شاب شعرك ياولدى! ولم يفكر فى أنه قد كبر حقًا إلا حين رأى «محمد» أكبر أبنائه.. أما زوجه فلم تعد بأية حال تلك الصبية الصغيرة التى تزوجها، أبوه وحده لم يكن قد تغير كثيرًا، ربما لأن آثار الفرن كانت تخفى التغير الحقيقى دون أن تتغير هى، ولقد فوجئ بأخيه عبد الفتاح وقد أصبح رجلا حقيقيًا هذه المرة، وفوجئ مرة أخرى بأبيه يفشل لبعد يومين أو ثلاثة ـ قضاها فى الترحيب والسؤال ـ عن إخفاء قلقه بعد أن عرف حقيقة ماعاد به، وعاد له، وكان طفلاه الصغيران إلياس وعائشة فى حاجة إلى شىء أكثر من اللعب التى أحضرها لهما لكى يألفاه كانا فى حاجة إلى بعض الوقت!! وكذلك كان هو فى حاجة إلى بعض الوقت ليتعرف على إسكندريته القديمة التى جاب شوارعها وحاراتها حافيًا تارة ومنتعلاً حذاء مرقعًا تارة أخرى، وزائرًا يخف الأصدقاء للقائه تارة ثالثة وها هو الآن يعود ليبقى، فلا أقل من أن يبحث عن كل أصدقائه القدامى وسط مدينته القديمة فهم وحدهم سيكونون أدلاءه فى المدينة التى أصبحت من بعض الوجوه غريبة عليه!!

وبعد أسبوعين قضاهما فى قبول الدعوات، وفى التجول الطليق مع الأصدقاء والجلوس فى المقاهى والدكاكين والتحدث مع من يعرفهم ومن يعرفونه، وفى نبش

الذكريات الحلوة والمزة، واستنشاق روائح الماضى، والاختناق بروائح الحاضر، كان بمقدوره أن يقيس هذه المرة مدى التغير العميق الذى ألم بمدينته وبالناس وبه أيضًا!.

وإذا كان الأجانب قد تركوا فى المدن الأخرى وفى المحروسة على وجه خاص بصماتهم فى بعض الأمكنة وفى بعض مظاهر الحياة فهنا فى الإسكندرية كانت تلك البصمات هى الملامح البارزة للمدينة فالتجار الأجانب الذين كانت لهم فى المنصورة سوق يتمركزون فيها، كانوا هنا فى كل مكان، والحانات والمقاهى التى كانت تبدو كمجرد خدش فى ملامح المدن الأخرى كانت هنا من أبرز المعالم، والخمور التى كانت فى القرية أو المدينة بضاعة ثانوية يبيعها الخواجة سرًا أو جهرًا مع البقالة. كنت هنا تشرب على أرصفة المقاهى وكانت هنا دور للبغاء، ودور للصحف المصرية والأجنبية، وإذا كان من الممكن أن تقطع شارعًا بأكمله فى المحروسة دون أن تلتقى بوجه واحد من الأجانب فقد كان من المستحيل هنا أن تعبر طريقًا أو ميدانًا دون أن تنظر إلى وجه أجنبى ودون أن تسمع لغة أجنبية، صحيح أن ذلك بوجه عام كان من قديم طابع هذه المدينة، التى تبدو وكأنها تنتمى إلى ما وراء البحر أكثر مما تنتمى إلى ماوراء النهر، وصحيح أن «نديم» الصبى قد رأى فى طفولته آثار الرومان واليونان وتسلق التماثيل والمسلات. وتفرج على أسواق الشوام والمغاربة ورأى الخواجات من مختلف الأجناس، والتقطت أذناه بعض كلماتهم، وهم يهبطون من الميناء أو يعودون إليه، ولكنه الآن يبصر الميناء نفسه وأرصفته مثقلة بالبضائع الأجنبية التى لاتلبث بعد قليل أن تطل من رفوف المحال التجارية، وتتحول فى الشوارع إلى أزياء تجتذب العيون، وفى البيوت إلى أثاث وفراش تنحصر حوله أحاديث الزوار ويتباهى به أصحابه، وفى المقاهى تصبح هى الشراب المفضل، وفى المطاعم تصبح الصنف المطلوب ومع البضائع كانت تزحف التقاليد الأجنبية فى الملبس والمأكل والمشرب، وأمامها كانت تتراجع تقاليد الإسكندرية الأصيلة تقاليد التجار والصيادين وتتحصن بالأحياء الشعبية القديمة بالمنشية والمكس وكوم الدكة، وربما كان الفقر وحده هو أمضى الأسلحة فى رد هذا الهجوم الذى كان يتسلل حتى إلى هذه الأحياء مستخدمًا سلاح الخداع ليبيع لهم الخمر الرخيصة والبغاء الرخيص، وكانت الحدائق العامة هى فرصة أبناء هذه الأحياء لممارسة التقاليد الأجنبية لحظة من زمان، قبل أن يعودوا

إلى عالمهم القديم فى أحيائهم القديمة. وإذا كان شكل المدينة يحمل هذه البصمات فإن أعماقها كانت تنبض بكل ماخلفه عبد اللّه نديم فى المحروسة، وكان فى حاجة إلى وقت أطول ليتسمع هذا النبض، وكان صديقه القديم «محمود واصف» هو دليله فى تلك الرحلة التى تستهدف قلب المدينة وضميرها، كان شابًا ربع القوام ذكيًا صموتًا، حاد اللسان، حاد الملامح أبيض الوجه، وكان شاعرًا فى تلك الآيام التى كان الشعر فيها كالمراهقة مرحلة لابد أن يمر بها كل شاب قدر له أن يتلقى قدرًا من التعليم ولكنه كان موهوبًا حقًا، وجديرًا بأن يصبح شاعرًا عظيمًا لو لم تجرفه لعبة السياسة فى تلك الأيام، وكان الصدع الذى سرى فى جدار السلطة تظهر آثاره المباركة فى كل مكان، ويختلف حجمه باختلاف متانة البناء، وربما كانت الإسكندرية أضعف أجزاء البناء صلابة لا لأنها بعيدة عن مركز السلطة، بل لأنها حافلة بالمتناقضات كذلك، فهنا حيث يمكن أن يرى الموظفون والتجار والصناع من شعب الإسكندرية أمثالهم من الأجانب ينعمون بالحرية وبما لايحصى من الامتيازات فى القضاء والتعليم والعبادة والتجارة والضرائب والجمارك والمرح، هنا أكثر من أى مكان آخر كان يمكن أن يتحول الصدع إلى فجوة كبيرة يشق خلالها الثائرون طريقًا رحبًا، وإذا كانت الثورة فى المحروسة لاتجد أبناءها إلا فى تلك الشرذمة التى تلتف حول الشيخ جمال الدين، وفى شرذمة أخرى من الأعيان والذوات والمصريين الذين أضر بهم إلغاء دين «المقابلة»، كما أثقلتهم الضرائب فراحوا يجتمعون سرًا فى حلوان مؤلفين ما أسموه «الحزب الوطنى» متصلين سرًا بالشيخ جمال الدين ورفاقه. وفى شرذمة الضباط الذين تتأخر رواتبهم وتنقص ويعانون من استبداد الأتراك والشراكسة الذين تنحصر فيهم قيادة الجيش ومناصبه الكبيرة، فهنا فى الإسكندرية كانت الثورة تجد أبناءها بين الموظفين والتجار، بين المصريين والشوام، بين المسلمين والمسيحيين واليهود، هنا كانت حرية الأجانب وامتيازاتهم تمنح بعض بركاتها للثوار، وهنا تألفت جمعية سرية سمع بها نديم قبل أن يحضر إلى هنا اسمها جمعية «مصر الفتاة» وعن هذه الجمعية كان نديم يسأل صديقه «محمود واصف» ما الذى تعرفه عنها؟

ولكن الصديق الصموت الماكر كان يجيبه بأسئلة أكثر وأغزر عن المحروسة ومن فيها من الثوار محاولاً أن يعرف كل شىء عنهم وعنه، ولم يدخر نديم عنه إجابة واحدة، أفضى إليه بكل همومه وشكوكه ومخاوفه وآماله قبل أن يصرخ فى وجهه.

ـ والآن لم لا تعرفنى بأمين سر الجمعية..؟ ألم تزعم أنك تعرفه؟ ما الذى تنتظره؟

ـ نعم وسأعرفك أيضًا بنائب رئيسها.

ـ كفى وعودًا، هل تظن أننى جئت إلى هنا لأسمع أشعارك فقط؟

ـ ولكنك أسمعتنى أشعارك كذلك وكانت تلك صفقة رابحة بالنسبة لك!

ـ أيها الملعون ومتى سنلتقى بهذين الوغدين؟

ـ الليلة فى منزل صديقك محمد أمين.

ـ وهل يعرفانه؟ وهز محمود واصف رأسه مؤكدًا.

* * *

ورحب بهما محمد أمين الذى كان موظفًا بمحكمة أسيوط وانتقل إلى الإسكندرية موظفًا بديوان الأشغال كان شابًا أريبًا لبقًا يستطيع أن يتحدث إلى أكثر من شخص واحد فى جلسة واحدة دون أن يشعر أحدهم بأنه أهمله، وكان صديقًا قديمًا لنديم، ومحبًا لا أكثر للشعر وللأدب، ثم أصبح محبًا للسياسة أيضًا وشربوا القهوة ودخنوا ونفثوا مع الدخان مواجعهم، وتساءل نديم فى ضجر:

ـ ومتى سيحضر الصديقان المزعومان؟

ـ إنهما حاضران منذ ساعة أنا أمين سر الجمعية، ثم أشار إلى محمد أمين قائلا: وهذا نائب رئيسها!!

ولم يضحك نديم، فلم تكن تلك نكتة، وتساءل بعد لحظة صمت كئيبة موجهًا سؤاله لمحمود واصف:

ـ لم اتبعت معى هذه الطريقة؟

ـ لو التحقت بجمعية سرية لعرفت أن هذه هى الأصول.

ـ مع من تجهله، لكنك تعرفنى أيها الوغد!

ـ لا تغضب ربما كان يقصد مداعبتك! هكذا تدخل محمد أمين الطويل القامة الذى يبتسم دائمًا حتى فى أحرج اللحظات وقال محمود واصف بلهجة ساخرة:

ـ فعلت هذا فعلا لأننى كنت أعرفك، ثم واصل حديثه.

- كنت دائمًا أحمق يا نديم وثرثارًا مفتونًا بأحاديثه ولو كنت مثلك ما ادخرت كلمة فى صدرى، ثم أضاف: لكنك تغيرت قليلا وهذا من سوء حظ مستمعيك، وفى النهاية ضحك نديم ولم يكن أمامه سوى أن يضحك!

* * *

وأصبح نديم عضوًا فى جمعية «مصر الفتاة» السرية، وفوجئ بأن أعضاءها أقل عددًا مما يتناسب مع سمعتها المدوية، حفنة من التجار أغلبهم من اليهود، الذين تأثرت تجارتهم بتجارة الأجانب وحفنة من الموظفين، واستمع نديم إلى المناقشات وشارك فيها وفى صياغة المنشورات، ورأى لأول مرة ضمن أعضاء الجماعة أديب إسحق وسليم النقاش ونيقولا توما، وكان أبرز من أثار اهتمامه من هذا الثالوث الشامى هو أديب إسحق الذى يحرر جريدتى «مصر» و «التجارة»، كان قد قرأ له، وسمع عنه الكثير من الشيخ جمال الدين وأوصاه أن يتعرف به ويكتب فى جريدتيه، ولم يكتم دهشته حين وجده يصغره على الأقل بعشرة أعوام بينما تنم كتاباته عن اطلاع وخبرة أكبر بكثير من عمره، وبأسرع مما توقع تبخر افتتانه أو فضوله بتلك الجمعية، كانت المشكلات هى المشكلات، والسخط هو السخط، والأحاديث هى الأحاديث، ولم يكن لدى هذه الجمعية خطة عمل، إلا إذا اعتبرنا كتابة منشورات تندد بتدخل الأجانب، وتنادى بحكومة مسئولة أمام البرلمان وفق أحدث الدساتير فى أوروبا، وتهدد باغتيال من يقف فى طريق هذه الأهداف، إلا إذا اعتبرنا هذا كله خطة عمل..! ولم يكن ثمة جديد سوى ظهور مثل هذا العدد من أبناء الشعب الذين لا تحركهم مظالم خاصة كتلك التى تحرك الأعيان والضباط فى المحروسة، كانوا يعانون من ذلك الظلم العام الفادح الذى ينوء به الصغير والكبير، وكانت تحركهم تلك الروح الوطنية التى كانت تهب بشائرها فى تلك الأيام، وتهب هنا أكثر من أى مكان، آتية من وراء البحر، مع المهاجرين، ومع الصحف، متصدية للأجنبى، ومثيرة عواطف المواطن مهما يكن دينه ضد الظلم مهما يكن مصدره، ولكن هذا رغم موافقة نديم عليه، لم يكن ما يبحث عنه، كان قد سئم ترديد السخط بكل أنواعه، وكان يبحث عن شىء يمكن أن يمسكه بيديه، كان لايزال يبصر بوضوح المسافة المروعة بين السفح والقمة، بين من يعانون من أجل الغد ومن يعانون من أجل اللحظة، ولم تستطع حماسة هذه الحفنة من الشباب أن تجرفه معها أو أن تنسيه خوفه وحذره

وحرصه فى الوقت نفسه على ألا يضيع وقتًا آخر كهذا الذى ضيعه، وكان صديقه الذكى الصموت محمود واصف هو الذى أدرك ذلك قبل أن يفتح نديم به فمه، وكان هو الذى قال له:

- إذا لم يخب ظنى فجماعتنا الصغيرة تلك لا تعجبك!؟

- نعم.

قالها نديم بسرعة كأنما أراد أن يقطع الطريق على تردده، كانا يسيران وحدهما فى تلك اللحظة على شارع البحر، وكان رذاذ الموج الذى يصطدم بصخور الشاطئ التى لم تكن معبدة آنذاك يتطاير على وجهيهما، وكان وجه نديم أكثر امتلاء منه فى أى وقت مضى، وكانا قد خرجا لتوهما من اجتماع سرى لزم فيه نديم الصمت ووقتها أيضًا كان قرص الشمس الملتهب يغرق فى مياه البحر كما يغرق كل يوم دون أن تنطفئ جذوته الأبدية!!

كان محمود واصف يتساءل فى هدوء: لماذا؟

- لأنها جماعة صغيرة.

- أوحشتنا نكاتك.

- لم أقصد أن أقول نكتة.

- ماذا تقصد إذًا؟

- ماذا تقصدون أنتم بهذه الجمعية؟

- تقول أنتم؟ نسيت أنك عضو بها.

وجذبه نديم من ذراعه من أمام عربة مسرعة تجرها الجياد، ويركبها خواجة بدين وبجواره زوجة يعبث الهواء بشعرها الناعم القصير ثم قال نديم:

- كانت مجرد محاولة للبحث عن شىء للفهم!

- ولم تجده!

- نعم

- لماذا لم تقل ذلك أمام الأعضاء؟

ـ سأفعل، ولكنه أفضى لمحمود واصف بما فى قلبه لم ينتظر أياماً ليقول له ما انتوى أن يقوله لبقية الأعضاء!

* * *

وأمام الأعضاء أعاد نديم سؤاله، وانبرى البعض يرددون أمامه ما سبق أن سمعه وظل صامتًا حتى انتهى آخر متحدث، ثم قال نديم وهو متكئ على منضدة خشبية تتحلق حولها الجماعة التى كانت تتسع لها صالة بيت أحد الأعضاء، كان صوته عميقًا نافذًا وربما كان فى حاجة إلى أن يخفضه قليلا مع أن الصالة لم تكن قريبة من الباب المؤدى للسلم، وكان الضوء منبعثًا من مصباح حجرة مجاورة، وبدت ملامح نديم تكتنفها الظلال فازداد وجهه قتامة وعبوسًا وهو يقول:

ـ أيها الأصدقاء أحب أن تتأكدوا جميعًا أننى مقدر لسمو أهدافكم ولشجاعتكم وربما تكون هى التى عدتنى فوجدت القدرة على مواجهتكم برأيى، ولست أريد أن أطيل عليكم، ولكننى أشعر بأن هذا الطريق أعنى العمل السرى ليس من الضرورى أن يكون طريقنا هنا، لقد تركت ورائى بالمحروسة كثيرًا من الجمعيات السرية بعضها يضم ضباط الجيش وبعضها يضم الذوات والأعيان، ويحاول الشيخ جمال الدين أن يضم الجميع، ليوحدوا نشاطهم، وهم هناك ربما كانوا أكثر قدرة على القيام بعمل إيجابى فلديهم أموال الأغنياء وأسلحة الجيش، ورأس الشيخ جمال الدين، أما نحن ولست أهدف أبدًا إلى التقليل من شأننا فأظن أنه يمكننا أن نقوم بما لا يمكنهم القيام به، وبعمل لا يمكن أن يتهدده الفشل أبدًا، بعمل أعتقد أن الشعب فى حاجة إليه نفس حاجته إلى الدستور! وصمت لحظة انتهزها محمود واصف قاصدًا أن يمهد جوًا لطيفًا لاقتراح نديم فقال:

ـ وتزعم أنك لا تريد أن تطيل!

وضحكوا، وضحك نديم، وخفت حدة التوتر التى سادت المكان لحظة وسأل عضو اسمه الشيخ حامد الأعسر، كان طالبًا أزهريًا لم يتم دراسته، واشتغل بتجارة المصوغات التى قربت بينه وبين عضو يهودى آخر كان يمتهن نفس التجارة واسمه يعقوب زخارى.

ـ ما الذى تريد أن نفعله يا نديم؟

ـ نجعل من «مصر الفتاة» جمعية علنية، وقبل أن يوضح قال أحد الأعضاء من الطرف الآخر للمنضدة:

ـ ساعتها لن تكون «مصر الفتاة»، وتساءل يعقوب زخارى :

ـ ما الذى يمكن أن تقوم به جمعية علنية؟

وتطوع حامد الأعسر بالإجابة:

ـ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر!!

وأيدته ضحكة جماعية التفت حول المنضدة، وتمالك نديم نفسه قائلا:

ـ نعم ليكن هذا شعارنا إذا أردتم، فينضم إلينا كثيرون يملكون مالا نملك من المال وبأموالهم وبجهودنا يمكن أن نصنع الكثير للناس، يمكن أن ننشئ مدارس لتعليم الأولاد فإذا نجحت هذه الخطوة يمكن أن...

ـ ولكنك نسيت أن هذا ضمن ما ننادى به، كان يعقوب زخارى هو الذى يقاطع أيضًا هذه المرة، واندفع نديم محتدًا هذه المرة وقد التمعت عيناه وزاد ارتعاش أهدابهما.

ـ تنادون من وأنتم تدورون فى حلقة المنشورات السرية؟!

واختلطت الأصوات.

ـ هذه المنشورات تحرم الخديو من النوم!

ـ وتثير حماس الناس!

ـ الناس يعتقدون أننا نعد بالمئات!

وصرخ نديم: وليس هناك أخطر من هذا كله أن تثير حماسًا ثم تتركه يتبدد، أن توهم الناس أن هناك قوة وهمية يعتمدون عليها بدلاً من أن تجعل كل فرد يحس أن الأمر متوقف عليه!

ـ وهل تظن أن جمعية علنية تقوم بفتح المدارس هى التى ستجعل كل فرد يحس أن الأمر متوقف عليه؟

كان محمود واصف هو الذى ألقى بهذا السؤال محاولاً إعطاء الفرصة لنديم لتوضيح فكرته التى كان قد مال للاقتناع بها من قبل.

ـ نعم فالمدرسة التى تعلم الأطفال فى الصباح يمكن فى الليل أن يلتقى فيها الكبار فى هيئة اجتماع أو ندوة تتسع للمناقشات والخطب والدروس التى...

ـ وأى كلام يمكن أن تقوله يا نديم فى هذه المحافل ومن يسمح لك؟

كان محمد أمين هو الذى يسأل هذه المرة، وكان قد فوجئ مع الآخرين باقتراح نديم.

ـ المشكلة أنكم تظنون أن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يقال أو يعمل هو مهاجمة الحكومة، ومع أننى أعرف كيف أفعل هذا فى اجتماع عام دون أن أعطى الحكومة أية فرصة لإبطال الاجتماع؛ فإننى واثق أن هناك الكثير الذى ينبغى أن يعرفه الناس حتى قبل مهاجمة الحكومة، وأن مجرد اجتماعهم فى مكان واحد، مجرد إحساسهم بأن فكرة ما تلقى بينهم ليعبثوا بها فى غدوهم ورواحهم، مجرد لقائنا بهم شىء ذو خطر لو تأملتم الموضوع قليلا، ولكن أحدًا لم يشأ أن يتأمل الموضوع كما يتأمله نديم، لأن أحدًا منهم لم يكن قد عرف ما عرفه، واجتذب حامد الأعسر إلى ناحيته وجوه الحلقة حين قال:

ـ تأمل الموضوع يمكن أن يكشف عن أشياء كثيرة، كان رأسه يرتفع قليلا عن حافة المنضدة، وكانت عيناه الصغيرتان تشعان سخطًا على نديم وهو يكمل عبارته.

ـ لماذا لا تقول لنا الصراحة يا نديم إنك تبحث عن عمل، وبدلا من أن تدبر ذلك بنفسك تحاول أن تسخرنا جميعًا لافتتاح مدرسة لك والعجيب أن «نديم» لم يثر حين أدرك أن الهدف أصبح إثارته فقال فى هدوء:

ـ قبل أن أحضر إلى هنا لم أكن متعطلا، ولست أنكر أن البحث عن عمل ضمن همومى، ولا أفهم ماذا يتعبك إذا كان العمل الذى يفيد الناس يمكن أن يفيدنى أيضًا!

ـ يتعبنى أنك تخفى أهدافك الحقيقية، وربما كنت خائفًا أيضًا وبدلا من أن تترك الجمعية لتوفر لنفسك الأمان تريد هدمها قبل أن تمضى!!

وفقد نديم أعصابه هذه المرة كلية واندفع يصرخ :

ـ تقول خائف وماذا يعرف صبى مثلك عن الخوف؟ أما أنا فقد عرفت الخوف ربما قبل أن تولد أنت ولم يعد يخيفنى أن أقول ذلك، ولكن ما يجب أن تعرفه وما يجب أن يعرفه الجميع هنا هو بالتحديد ما الذى أخافه... إن ما أخافه أيها الأصدقاء ولست مستعدًا للتورط فيه هو أن أضيع يومًا واحدًا فى شىء أشك فى جدواه... وبينما يمكنك أنت ـ وتوجه بنظراته إلى حامد الأعسر ـ أن تضيع عشر سنوات أخرى فى البحث عن طريق، لا أستطيع أنا لأننى أضعت بالفعل هذه السنوات، أضعتها فى الريف والمدن وفى كل مكان لا تعرف عنه أنت أى شىء، والشىء الوحيد الذى تعلمته هناك أن عشرات السنين وربما مئاتها تفصل بين أمثالكم وبين الشعب وأى عمل يستهدف تقريب هذه الهوة هو العمل الوحيد الذى لا أشك فى جدواه!!

وبينما تستطيع أية مصادفة سخيفة أن تنتهى بكم جميعًا إلى السجن، وتغرق الناس فى خوف ألعن مما هم غارقون فيه يمكنكم أن تفيدوا من كل من حولكم، ممن يملكون بعض المال، من عجز الحكومة عن معارضة أى مشروع خيرى، أن يكون لكم بعض ثقة الأجانب فى المستقبل التى تدفعهم إلى توطيد أقدامهم عن طريق المدارس والصحف والجمعيات، أعترف بأننى أكثركم خوفًا لكننى لا أخاف سوى الفشل، ولست فى سن تسمح لى بأن أخدع نفسى أو غيرى بادعاءات من أى نوع! وخيم على الجماعة صمت ثقيل، قطعه محمود واصف بقوله:

ـ لست أرى بيننا خلافًا كبيرًا أيها الأصدقاء، ويمكن أن تستمر الجمعية فى نشاطها ويمكن فى الوقت نفسه أن نؤيد «نديم» فى المحاولة التى كانت ضمن أهداف الجمعية! وأنهت كلمات «محمود واصف» الحكيمة تلك الجلسة التى لم يقدر لنديم فيها أن يوضح فكرته بنفس القدر الذى أوضحه بها لمحمود واصف والذى نجح فى أن يضمه إليه ليضم هو بدوره فيما بعد صديقهما المشترك محمد أمين!

وكانت كلمات نديم التى لم تعبر عن فكرته إلا فى صورة سيئة قد أحدثت شرخًا فى الجمعية، واجتذبت إليه أديب إسحق الذى سحرته الطريقة الواقعية، التى يواجه بها نديم الأمور فأصبحا صديقين، وفى الحق أن «نديم» كان أكثر افتتانا بهذا الشاب السورى الطويل القامة، العريض الجبهة، النحيف جدًا إلى الحد الذى تنحنى فيه قامته إلى الأمام كفرع طرى، والذى يطلق لحيته فتجعله أكثر شبهًا بأى قسيس... لو قدر لأى قسيس أن يكون متحرر الروح والفكر والسلوك كهذا الفتى السورى الصغير!!



وبعيداً عن كل شىء، أو بالأحرى مع كل شىء كانت صداقتهما تشق لها مجرى خاصًا يستمد ينابيعه من حبهما المشترك لأشياء كثيرة، ومن تطلع كل منهما فى شغف إلى ما يمتلكه الآخر، وكان نديم فى رأى إسحق يمتلك روح مصر ويعرف نبض قلبها على نحو بدا له على الأقل حقيقيًا وعميقًا، وكان إسحق فى رأى نديم نافذة من تلك النوافذ التى يطل منها على الثقافة الأوروبية والأدب الفرنسى، ويطل منه أيضًا على ذلك الجزء من البلاد الشرقية متعرفًا على مشكلاته، متلمسًا العلل الواحدة، والأدوية الواحدة كذلك، على أن أحاديث الأدب وحدها كانت تلغى بينهما كافة الحواجز وتطلق لسانيهما بأنقى الأحاديث، وحين أطلعه أديب إسحق على ترجمته العربية لروايتى «أندروماك» و «شارلمان» وحكى له تجربته فى تمثيلهما على المسرح أول ما قدم إلى الإسكندرية مع سليم نقاش وقبل أن ينخرطا فى الصحافة، كانت قراءة الروايتين كما كان الحديث عن التمثيل مثيراً فى أعماق نديم لحلم قديم، حلم يرجع إلى تلك الأيام التى كان نديم يعمل فيها بالقصر، ويشاهد روايات صديقه القديم (يعقوب صنوع) الذى كان الخديو يسميه «موليير مصر» قبل أن ينفيه من مصر حين بدأ يهاجمه فى رواياته، ومن جديد كان الحلم القديم يستيقظ وئيداً هذه المرة ويتشكل على مهل مستمداً ملامحه من أحاديثه مع أديب ومن تجربته التى لم تكتمل، ومن ماضى نديم وحاضره، من كل ما مر به واعتبره لغواً وباطلاً وها هو الآن وفى مثل ومضة الحلم يكتشف أن هذا اللغو الباطل يمكن أن يصبح شيئًا جاداً ونافعًا وراح يتذكر رسائله القديمة ومحاولاته الأولى فى الكتابة، كانت كلها تنطوى على تلك البذرة الغريبة، التى هى جوهر هذه الروايات، بذرة الحوار، كانت أفكاره دائمًا تتردد فى صورة حوار بين أشخاص، وحين تأتيه فكرة كانت تأتى فى صورة شخص يتكلم، شخص له ظروف وموقف، ولا يكاد يفتح فمه بكلمة حتى تتداعى بقية الأشخاص، وحين كانت تعوزه الشخصيات كان يقيم الحوار بين الأشياء، وتذكر رسائله القديمة التى أقام فيها حواراً بين الإسكندرية والمحروسة، وكانت الرسالة للشيخ أحمد وهبى، وبين الطريوش والبرنيطة وكانت الرسالة لعبد العزيز حافظ، وبين القطار والسفينة ولم تكن لأحد، وبينه وبين الأدباتية، وكاد يصدق أنه لم يجئ إلى هنا إلا لتحقيق هذا الحلم، إلا ليقيم مسرحًا، وأنه فوق هذا المسرح سيلتقى بهذا الشىء الذى يريد أن يمسكه بين يديه، وإذا كان أديب إسحق لم ينجح، فلأنه لم يقل للناس ما يحبون سماعه، لأنه لا يعرف مثله ما يختلج فى صدورهم، ولكن هذا كله لم يخرج من رأس نديم فلم يكن أبوه ولا أصدقاؤه ولا هو

يمكن أن يسمح بالجرى وراء نزوة جديدة، كانت حياته كلها سلسلة من النزوات، ولم يعد أمامه سوى أن يجد نفسه أو يفقدها إلى الأبد، وأكثر من هذا كله كانت محاولاته الأولى لتأليف جمعية خيرية قد مضت فى طريقها خطوات لا يمكنه بعدها أن يتراجع، وفى ركن من قلبه أودع هذا الحلم الجذاب مواصلاً جهوده لتأليف جمعيته..!

* * *

- لكن لابد أن تأخذنى معك! هكذا قال أديب إسحق لنديم وقتها كان أديب يبدو كطفل عذب، وقبلها كان يستمع وهو غير مصدق إلى نديم وهو يحكى له نتائج اتصالاته بالناس لتأليف جمعيته الخيرية وكيف أقنع بعض القادرين بدفع تبرعات تكون نواة مادية للجمعية، وبعض المدرسين بأن يقوموا بالتدريس فى المدرسة التى ستكون باكورة أعمال الجمعية مقابل أجر رمزى إلى أن تتحسن الأحوال وتاجر سمك بأن يقبل إيجارا معقولا فى بيته الكبير الذى يصلح مقرًا للجمعية، وللمدرسة فى الوقت نفسه، وتجار الكانتو بأن يبيعوا له مواد خشبية بأسعار مناسبة، وبعض النجارين بأن يحولوا الأخشاب القديمة إلى مقاعد وقماطر وسبورات مقابل أجر معقول لمن ليس لهم أولاد، ومقابل تعليم الأولاد لمن كان أولادهم فى سن التعليم، ومقابل وعد من نديم بتعليم صبى أو أكثر أقنع نقاشًا بدهن جدران المدرسة وفراشين ليتناوبا القيام بأعمال النظافة فى أوقات فراغهما من العمل، وسقاء لنقل المياه حتى يتم توصيل أنابيب المياه!! وذهل أديب إسحق وهو يرى ذلك الداعية والمعلم والتاجر والسمسار يخرج ورقة تتضمن برنامجًا دراسيًا حافلاً لمدرسته التى لم تفتح بعد، يهتم باللغة القومية والتاريخ القومى والدين ويهتم فى الوقت نفسه باللغات الحديثة والعلوم الحديثة!

ويطلب من أديب إسحق أن يقول له رأيه، ولم يطلب منه أديب مقابل رأيه سوى شىء بسيط.. أن يأخذه معه!

* * *

ومع نديم أبصر أديب إسحق الإسكندرية التى لم يعرفها أبدًا والتى ما كان سيعرفها ولو عاش بقية عمره فيها، كانت جولة لنصف يوم ومع ذلك فقد كانت كافية لأن تهد أوصال أديب وأن تجعله يكتشف متانة بنيان نديم الذى لا يشى منظره أبدًا بالقوة وأن

يكتشف أكثر غزارة قاموسه الشعبى الذى لم يستخدمه أبدًا فى أحاديثه معه، وكثيرًا ما كانت تند عنه الأمثال والنكات الشعبية التى ما كان ليعرفها لولا ما يعقبها من ضحكات والتى لم يكن نديم يتردد فى اللجوء إليها لإقناع شخص أو إكمال صفقة، ولو لم يكن يعرف «نديم» قبل هذه الجولة لظنه نصابًا وهو ينثر بلا تحفظ الوعود والأمانى.

ـ سوف نعلمهم ونطعمهم كذلك!

ـ نصف التلاميذ على الأقل من الأيتام!

ـ الأعيان يتبرعون بأموالهم لتعليم أولادكم فلم لا تتبرعون بجهودكم.

هكذا كان يقول للفقراء أما الأغنياء فكان يقول لهم:

ـ الفقراء الذين لا يملكون غير سواعدهم تبرعوا بالعمل لترميم المدرسة وإعدادها وخدمتها فلم لا تتبرعون بفضل أموالكم؟

وكان أكثر شىء أثار دهشة أديب هو القدرة الفذة التى لابد أن تكون لدى معدة نديم!

ـ أجل معدتك لابد أنها معدة خنزير!! هكذا قال له أديب إسحق وهو يضع يده على بطنه بعد أن عادا من جولتهما الغريبة، وكان أديب قد بدأ يعتذر عن المشروبات التى يصر الناس على تقديمها لهما، أما نديم فلم يعتذر أبدًا كان يشرب ويتكلم، ويأكل ويتكلم، وحين بدأ وجه أديب يتقلص ألمًا، وحين كاد يفرغ ما فى جوفه فى الطريق اقترح عليه نديم أن يأكلا معًا قليلا من الترمس أو الفول المحروق، واعتذر أديب، ووقف نديم فى الشارع يحادث البائع والزبائن الملتفين حول عربته، ويلتهم الترمس والفول دون أن يمنعه ذلك من الحديث!

ـ لولا إصرار المصريين على تقديم التحية لما تخلفت عنك فى جولاتك.

ـ لولا إصرارهم لما فكرت لحظة فى مشروع الجمعية!

وضحك أديب الذى كان الضحك يزيد من آلام معدته وقال وهو يتمدد على سريره:

ـ مالا أفهمه كيف تجد ما تقوله لكل هؤلاء الناس وتقنعهم به، وضحك نديم قائلا:

ـ ولكنى حتى الآن لا أجد ما أقوله لأبى، فالمشروع كما ترى لن يسمح لى بأن أعيش بجواره قبل شهور.

ـ تريد سلفة أخرى؟!

ـ يعجبنى ذكاؤك

* * *

وقبل أن تتطور علاقتهما إلى حد اقتراض النقود، كان نديم قد بدأها باقتراض الكتب وبعدها طلب منه أديب إسحق أن يشارك فى تحرير جريدتى مصر والتجارة فلبى نديم الطلب الذى كان ضمن أحلامه قبل أن يصبح ضمن وصايا الشيخ جمال الدين!!، وسهر ليلة كاملة ليكتب أول مقال فى حياته، ولم يكن الأمر سهلا كما تخيل فكتابة مقال لصحيفة أمر يختلف كثيرًا عن تحرير الرسائل للأصدقاء، أيمكن أن يكتب شيئًا لا يعجب هذا الفتى الذى يبهره بأحاديثه عن أوروبا وثقافتها وحضارتها؟

ولما كان ذلك أمرًا جائزًا فقد أتعبته كتابته أول مقال كما لم يتعبه شىء فى حياته، وفرح كصبى صغير حين لمح فى عينى ذلك الفتى لمعة إعجاب بعد أن قرأ مقاله.

ـ لم أتصور أن تكتب هكذا! ثم أضاف أديب.

ـ أرجو أن تعذر فكرتى عنك فى هذه الناحية فلم أقرأ لك، وقال نديم بعد أن استرد نفسه وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ أنا أيضًا لم أكن أتصور ذلك!

ـ سأنتظر مقالا آخر.

ولكنه لم يعطه مليمًا على المقال الأول، وفى الحق أنه لم يكن ينتظر، وربما كانت حاجته الشديدة إلى النقود هى التى جعلته يحلم بمسألة النقود، ولم تكن أجور الكتاب وقتذاك شيئًا معترفًا به، ولكن أن يظل المرء يحلم بهذا الأجر أو ينتظره فلا أحد يمنعه من ذلك، ولكن «نديم» من ناحية أخرى كانت تشتد حاجته إلى النقود، وأصبح صمت أبيه عن هذا الموضوع أقسى من كلامه، وكان يبصر أديب إسحق يعذبه كل ليلة بدعوته إياه إلى أن يشاركه السهر فى أحد المقاهى أو فى البيت مبددًا أمواله فى جنون على مائدة الشراب، وعرف منه أن الحزب الوطنى السرى هو مصدر هذه الأموال، وبالتحديد رجل واحد من أعضاء هذا الحزب هو الذى يمد يده إلى أديب إسحق بما يحتاجه من مال هو شريف باشا الوزير السابق، الذى استقال احتجاجًا على تدخل

الأجانب وأبرز المطالبين آنذاك بالدستور بين الذوات والأعيان، كانت الخمر تفك عقدة لسانه فيبوح لنديم بما يجب أو لا يجب أن يعرف من أسرار، وكان يعذبه أكثر بدعوته إياه ليشاركه الشراب حين يكونان فى بيته وفكر نديم أن من حقه أن يطلب من صديقه سلفة كان يمكن أن يبددها بمشاركته الشراب، وشرب معه مرة أو مرتين لا بدافع المجاملة أو الفضول، بل ليفهم «أديب» ذلك الفتى الذى يلوك كثيرًا كلمة «الحرية» إنه إذا كان يشرب أو لا يشرب فلأن تلك حريته، وفى إحدى هذه المرات انفكت عقدة لسانه أيضًا فشكا سوء أحواله وطلب أول سلفة، كان كلاهما يمد الآخر بما يمتلك وبعدها لم يعد فى حاجة إلى الشراب ليفك عقدة لسانه، وفى الحق أن جلساته مع أديب إسحق كانت توفر لهما ضربًا من الحرية كانا معًا فى أشد الحاجة إليه، فحين يعود نديم من جولته النهارية التى يحاول فيها أن يجسد حلمه بجمعية ومدرسة معانيًا من خوف الناس وشكهم وحرصهم وبلاهتهم وذكائهم كذلك، حين يعود يجد الفرصة الوحيدة ليقول أو يسمع كلامًا لا يستهدف سوى التفريج عن القلب!

- متى يبدأ مشروعك العظيم يا صديقى؟

- تسأل عن نقودك؟

- لا، ولو كنت أنتظرها حقًا ما أعطيتها لك!

- لماذا؟

- لأنك مثلى ستظل فقيرًا ولو أعطيت مال قارون.

- قد أخيب ظنونك وأسدد ديونى!

- فى هذه الحالة اذهب وسدد ديونك لأصدقائك القدامى أما أنا فلست أنتظر منك غير شىء واحد لا غير.

- ماهو ؟

- أن تدعنى أراك دائمًا!

- أنت سكران يابنى! قالها نديم فى سعادة

- نعم، وكنت أحب أن تشاركنى الشراب دائمًا، لكن ما يعزينى أنك لست فى حاجة إلى الشراب لأراك على حقيقتك!

ـ وما الذى تعرفه عن حقيقتى؟

ـ أنت تشبه مصر فى كل شىء!

ـ إذا كنت تعنى الديون فهذا صحيح!

ـ أعنى الديون وغيرها، لماذا جئنا إلى هذا البلد؟ لماذا بقى هنا الشيخ جمال الدين أكثر من أى بلد حل به؟ لأنه رغم البلاء العظيم يحمل الأمل العظيم كذلك لنفسه ولمن حوله من البلاد وكذلك تبدو لى أنت ويبدو لى مشروعك الصغير!

ـ لا تسرف فى الشراب يا أديب!

ـ أيها الغبى إن الشراب يجعلك ترى الحقيقة التى لا تراها أبدًا فى صحوك.

ـ ومع هذا فأنت لا ترى أن هذا البلد يحمل للأوروبيين آمالاً أعظم مما يحملها لى ولك لشعبه البائس.

ـ أعرف ذلك وأعرف أنك تعرفه، ولذا قلت ما قلت، إن مشروعك الصغير الذى تصدع رأسى كل يوم بالحديث عنه يحمل إمكانات عظيمة، وأخطر ما فيه أنك لا تصنع للناس ماهم فى حاجة إليه بل تريهم كيف أنهم قادرون على ذلك بأنفسهم تفعل هذا بنفس البساطة التى تشرب بها قهوتك!!

وسكر نديم، والتمعت عيناه اللامعتان، وارتعشت أهدابه المرتعشة ولم يرد!!

* * *

لم يكن شهر إبريل من ذلك العام ١٨٧٩ موعدًا للربيع وحده. ففى الوقت الذى كانت فيه قوى الطبيعة التى ظلت طوال الشتاء حبيسة فى أعواد الشجر، وفى باطن الأرض، قد بدأت تتفجر فى الزهور والثمار، وتنتشر مع الرياح المحملة بحبوب اللقاح وروائح البحر والنماء والطين اللزج، وفى الوقت الذى لم تعد فيه قوارب الصيد تخشى عواصف البحر، ونزع الأولاد ملابسهم على الشاطئ فى دفء أول يوم قائظ، وألقوا بأجسادهم العارية فى المياه! فى هذا الوقت كانت قوى الشعب المصرى التى ظلت طويلا حبيسة فى صدور الناس لا تصعد إلا مع الزفرات، والتى كانت تتلمس طريقها خلال الشقوق والتصدعات، كانت هذه القوة تتهيأ لتحدد ميلادها مع مولد الربيع فى شهر واحد..!

لكن لحظة الميلاد، ولو كان ميلاد حركة وطنية، تسبقها دائمًا لحظة اندفاع الحياة، وهى لحظة تحسها الأم فى أول انتفاضة للجنين وبعدها تصبح حياتها مجرد انتظار للطفل، ويحسها الشعب أيضًا فى حركات شبه عصبية تقع هنا أو هناك فى شكل مفاجئ ولكنها تصبح كافية لأن تجعله بدوره ينتظر..!

وقبيل الربيع بشهر تقريبًا، والشعب يعيش حالة الانتظار تلك كانت الوزارة الأوروبية التى ظلت تعتصر الفلاحين حتى تلطخت يدها بدمائهم قد تحولت إلى الموظفين المصريين تنقصهم من دواوين الحكومة، ثم تحولت إلى الجيش، تنقص رواتب الجند، ثم تؤخرها ثم تكتشف أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك دائمًا فتفضل أن تحل الأشكال بفصل ٢٥٠٠ من الضباط وتسريحهم لكن ليس قبل أن يسلموا مهماتهم، ويتلقى هؤلاء الضباط فى المحروسة لتسليم المهمات، ويقينًا تساءلوا إلى أين؟ كان الريف الذى شرق بالمجاعة قد غرق فى العام التالى بالفيضان، ولم يكن سوى الجوع فى انتظارهم..! وبدفعة اليأس وبعقول المتلمسين طريقهم وسط التصدعات والشقوق، استدارت صفوفهم إلى مبنى وزارة المالية، حيث كان نوبار باشا رئيس الوزارة يتخذ مجلسه فى عربته أمام المبنى، وفوجئ السائق بصفوف الضباط تسد الطريق أمام الخيل، وفوجئ نوبار باشا بمظاهرة الضباط، هل يقف ليتفاهم مع مظاهرة ولو كانت سلمية؟ وأمر السائق بأن يلهب ظهور الجياد، وأمره الضباط بأن يقف! وارتبك السائق واضطربت الخيل وتحطم زجاج العربة، وتحطم النظام، وفوجئ الضباط بأن بداخل العربة رجلاً سمينًا خائفًا، أكثر منهم خوفًا، فضربوه، وحين حاول إنجليزى اسمه «ريفرس ولسن» كان وزيرا للمالية فى وزارة الرجل السمين أن يتدخل لإنقاذه ضربوه كذلك، ولم ينقذ الرجلين من يد الضباط سوى وصول الخديو بنفسه.. واستقالت الوزارة الأوروبية، وشجعت هذه الحادثة الفلاحين فى سوهاج على أن يضربوا مأمورى التحصيل وأن يتحصنوا فى الجبال وفشلت العساكر فى الوصول إليهم ودعوا جميع المطالبين بالضرائب المتأخرة ليتحصنوا معهم، ونشرت جريدة «غازيت دى تريبونو» نبأ الثورة فى الصعيد ونقلته عنها جريدة «التجارة».

وقال أديب إسحق لنديم:

ـ ما الذى يبقيك هنا؟

لم لا تذهب إلى الصعيد وتقود الثورة من هناك؟

كان يضحك... وهو يتكلم

ـ كنت هناك، رأيتهم وهم يموتون!

وكان نديم يتكلم فى أسى وهو يقلب الجريدة فى يده غير مصدق.

ـ الشعب لا تقتله المجاعة، وليست تلك سوى بداية!

وهز نديم رأسه، كان يبدو كما لو كان خائفًا، لقد حدث كل شىء فى بساطة مخيفة وعلى نحو تلقائى، مسببًا لجميع الناس فرحًا عميقًا، وقلقًا عميقًا كذلك، وكان ذلك كله قبل أن يحل الربيع وفى شهر إبريل، وفى اليوم الثالث منه على التحديد جاءت إلى الإسكندرية أنباء عظيمة.

«لقد اجتمع نفر من النواب والأعيان والتجار ورؤساء الأديان والموظفين والضباط فى منزل نقيب الأشراف السيد على البكرى بالمحروسة وأطلقوا على أنفسهم «الجمعية الوطنية» ووقعوا على ما أسموه أيضًا «باللائحة الوطنية» وهى تتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع «ريفرس ولسن» الذى ضربه الضباط مع نوبار باشا، والذى كان مشروعه يعتبر البلاد فى حالة إفلاس، ويلغى دين المقابلة، وكان مشروعهم يقرر أن البلاد قادرة بضماناتهم على الوفاء بديونها، ويطالب بتأليف وزارة وطنية لا يدخلها أجنبى، وتكون مسئولة أمام مجلس النواب وفق أحدث الدساتير»!!

ولم يذهب قلق الناس بل لعله بدأ حقًا بعد وصول تلك الأنباء العظيمة.. كان ذلك عملا رزينًا محكمًا يؤكد أن زحف الطليعة بين الشقوق والتصدعات قد بلغ غايته، وإذا كانت مظاهرة الضباط قد انتهت بإسقاط وزارة نوبار باشا لتحل محلها وزارة برئاسة ولى العهد الأمير محمد توفيق، فلم يكن ذلك يعنى حدوث تغيير ذى بال كانت الوزارة الثانية تضم كسابقاتها وزيرين أوروبيين، ولكن ها هى الجمعية الوطنية تعلن ولأول مرة باسم الشعب عن المطالبة بتغيير حاسم باتر فى نظام الحكم وفى مسألة الديون، إنها تظهر آخر ما لديها، وكان معنى ذلك أن يظهر الأجانب آخر ما لديهم كذلك، وتعلقت أنظار الناس بالمحروسة فى انتظار قلق لاستجابة الخديو، ولرد الفعل لدى الأجانب، وسافر أديب إسحق إلى المحروسة ليتابع من هناك تطورات الموقف، وبقى نديم فى الإسكندرية كان يستعد بدوره ليعلن ميلاد جمعيته بعد أن وفر لها كل مقومات الحياة!!

واكتسب سليم نقاش الذى كان يشرف على طبع جريدتى مصر والتجارة والذى بقى فى الإسكندرية ليتلقى البرقيات من المحروسة، والذى كان يعتبر الوجه الآخر لأديب إسحق الوجه العملى البارد والذى يصلح بجلده ودأبه وحرصه ما يفسده ذلك الروح القلق الحائر المتلاف.

اكتسبت سليم نقاش فى تلك الأيام أهمية زائدة، وأصبحت تلك الحجرة التى تتكدس فيها أدوات الطباعة والأوراق والحبر مكانًا يجتمع فيه ذلك النفر الذى نجح نديم فى تبديد شمله من أعضاء جمعية «مصر الفتاة» ليتابعوا أخبار المحروسة التى تنشرها الصحف والتى قد لا تنشرها.

وفى مساء الثامن من إبريل تحرك سليم نقاش ليبرز لضيوفه وثيقة مهمة كانت فى طريقها إلى المطبعة، وقبل أن يقرأ الوثيقة قال بلهجة هادئة لا تلائم حرارة النبأ:

- لقد وافق الخديو على اللائحة الوطنية، وهذا نص خطابه لشريف باشا ليؤلف وزارة وطنية.

وقبل أن يفتح فمه قال محمود واصف الذى كان يتكئ بجذعه على حافة النافذة فى نبرة ساخرة:

- كما يوافق الغريق على محاولة إنقاذه!

وتساءل محمد أمين وكان يجلس على صندوق خشبى فى جانب الحجرة وقامته الطويلة ترسم نصف دائرة فوق الصندوق:

- المهم ما موقف الأجانب من هذا كله؟

واندفع سليم نقاش بصوته الرتيب يقرأ من الورقة التى كانت فى يده دون أن يبالى بأسئلتهم.

«إنى بصفة كونى رئيس الحكومة ومصريًا أرى من الواجب أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية، لكننى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الملة والأهالى حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها، وكانت قبل ذلك فى غاية السكون والهدوء...».

وانفجر محمود واصف ضاحكًا وتوقف سليم نقاش عن القراءة فى غيظ ورمقه بنظرة محنقة وطوى الورقة فى جيبه محاولا أن يعلمهم أصول الاستماع إلى الأحاديث الخطيرة، ولكن أحدًا لم يبد عليه القليل لذلك وتساءل نيقولا توما:

ـ لم لا تكمل القراءة؟

ـ غدًا تقرءونها فى الصحف!

ـ ولماذا نقرؤها غدًا؟ لقد وافق على ما جاء فى اللائحة الوطنية وكلنا نعرف ما جاء فيها!

هكذا كان محمود واصف يحاول إغاظة سليم نقاش.

وقال نديم الذى كان صامتًا طوال الوقت:

ـ هل تدع هذا الولد يعبث بك؟ استمر فى القراءة ولا تعبأ به!..

وعاود سليم نقاش تلاوة الخطاب بنفس اللهجة الرتيبة وأعاد محمد أمين سؤاله بعد أن انتهى سليم من القراءة.

ـ وماذا عن موقف الأجانب يا سليم أليست ثمة أخبار؟

ـ احتج القناصل على قبول الخديو للائحة! ثم تابع محاولا أن يكون صاحب رأى وليس مجرد ناقل أخبار.

ـ ولست أظنهم سكتفون بذلك!

ـ ما تظن إذًا؟

ـ الرب وحده هو الذى يعرف ولكنى لا أعتقد أن الأجانب يمكن أن يرضوا بأن تنتهى محاولاتهم للتدخل بحكم وطنى لم يكن الشعب نفسه يحلم بأن يأتى على هذه الصورة وفى هذا الوقت!

قال محمود واصف:

ـ وما الذى تعرفه عن أحلام الشعب يا نقاش؟ ثم أضاف مازحًا ولعلك تقصد أن الخديو هو الذى لم يكن يحلم بأن يصبح الحكم الوطنى هو طريقه للنجاة.

وقال نديم:

- لم لا تقدم لنا قهوة بمناسبة هذه الأخبار يا سليم؟ إنها أخبار طيبة رغم كل شيء!

- الخادمة ليست هنا.

- ومتى تأتي؟

فعاد محمود واصف يناكد قائلاً:

- عندما يرجع أديب إسحق!



«المعلم نديم يخطب ويمثل وينشئ الجمعيات»

وكان حلم عبدالله نديم قد تجسد فى أحد عشر شخصًا اجتمعوا فى ١٨ إبريل سنة ١٨٧٩ لتأسيس ما أسموه «الجمعية الخيرية الإسلامية» وفى مقدمتهم محمد أمين ومحمود واصف والدكتور حسن سرى والحاج محمد الكيال والشيخ محيى الدين النبهان و.. و... خليط من ثوار مصر الفتاة وتجار وعلماء حالمين بمستقبل أفضل لبلادهم خليط نجح نديم فى مزجه وفى أن يدس حلمه الصغير ضمن أحلامهم، حلمه الذى أفصحت عنه مجموعة المقالات التى بدأ بها حياته ككاتب، وكان حلمه رغم سذاجة مظهره طموحًا مثيرًا لكبرياء هذه الحفنة من التجار والمثقفين والعلماء، وكان يبدأ من حافة الكبرياء تلك... «إذا كنتم تريدون شيئًا فلا تنتظروه من أحد غير أنفسكم، وإذا كان كل فرد يبدو وحده عاجزًا عجزًا حقيقيًا، فإن تجمع هؤلاء العاجزين والحالمين فى الوقت نفسه بقوة لا يملكونها، هذا التجمع وحده هو مصدر قوتهم، وهى قوة يمكن أن تترجم إلى أى شىء، إلى جمعيات خيرية، وإلى مدارس وإلى صحف، ونجاح مشروع واحد، معناه أنه من الممكن أن يتكرر، وإذ ذاك لن تستطيع أية قوة أن تحول بين الناس وبين تكرار هذه المشروعات فى كل المدن والبلاد، أية قوة تمنع هذه الجرثومة أن تنتشر وتمتد وأن تترجم إلى كافة الصور والأشكال التى تقوم على التجمع».

هكذا كان نديم يتحدث إلى هذه الحفنة... وكان يوضح هذه المرة كل ما عجز عن توضيحه لأعضاء جمعية مصر الفتاة أو قل إنه بدأ يدرك فى وضوح مالم يكن يدرك آنذاك. فخلال مناقشاته مع هذه الحفنة وغيرها كانت رؤياه تتضح وكان حلمه يتشكل ويتجسد، وكان ماضيه كله يقذف أمامه بكل ما يزخر به من حطام ليعيد بناءه وتركيبه، وحين برزت الجمعية الوطنية ولائحتها وحين كان الحديث عن الحرية والدستور والبرلمان يطغى على كافة الأحاديث كان صوت نديم يتحول إلى صراخ، كانت المسافة

الرهيبة بين السفح والقمة لا تزال تتخايل أمام عينيه وكأنه وحده الذى قدر له أن يراها بوضوح فى هذا الوقت!!

ـ لا .. لا قيمة لهذا كله وحده، إنه شىء مهم وضرورى ولكنه وحده لن يصنع التقدم للشعب.

ويقول الدكتور حسين سرى، وكان الاجتماع فى بيته، وكان الغداء وكانت القهوة:

ـ وهل تنكر يا نديم أن سر تقدم أوروبا هو الدستور والبرلمان؟

ـ ... الدستور والبرلمان من ثمرات التقدم أكثر مما هما من أسبابه...

ـ وما أسباب التقدم إذًا؟ كان الشيخ نبهان يسأل.

وأجاب نديم:

ـ العلم أولا.. وهو يؤدى إلى ازدهار الصناعة والتجارة، والصناعة والتجارة الآن لا تقومان على جهود الصانع الصغير والتاجر الصغير، بل على جهود الشركات، وما الشركة فى جوهرها سوى تجمع أفراد نظموا أموالهم وجهودهم وفكرهم فكانت تلك الحضارة التى تحتل الدكاكين والبيوت والأجساد والعقول من غير حاجة إلى إطلاق رصاصة واحدة!

وليس أمامنا سوى أن نمضى فى هذا الطريق، إننا نجتمع الآن لنفتح جمعية أو مدرسة ومن يدرى فقد نجتمع نحن أو غيرنا بعد نجاح تلك التجربة لنفتح شركة أو مصنعًا.

ويأتى الغداء، ولكن يبدو أنه لا شىء يجعل «نديم» يكف عن الحديث، وتأتى القهوة فتزداد شهوته للكلام ، ويصرخ فيه محمود واصف الذى كان حاضرًا هذا الاجتماع:

ـ كفى يا نديم، كفى أنت تؤمن بالتعاون فى كل شىء عدا الحديث! وضحكوا وربما لم يكونوا جميعًا فى درجة واحدة من الاقتناع أو الحماس، ولكن الذى لا شك فيه أنهم أولا وقبل كل شىء كانوا مفتونين بهذه الطاقة التى لا تكل، وبهذا الرجل الذى لا تفقد أحاديثه سحرها مهما كان الموضوع أو الهدف!!

* * *

وعاد أديب إسحق من المحروسة سكران هذه المرة بخمرة النصر فقد أصبح شريف باشا رئيسًا لأول وزارة وطنية وافق عليها الخديو نزولا على إرادة الشعب التى عبرت عنها لأول مرة الجمعية الوطنية، وكان أول شىء سأل عنه أخبار جمعيته.

ـ لا كلام عن الجمعية قبل أن أسمع أخبار المحروسة.

وبدا إسحق كمن أفاق فجأة من نشوة سكره وصب لنفسه كأسًا أخرى من البراندى، كان عامر الجيب بالمال، وتبرع بمبلغ للجمعية.

ـ هذا ليس لك، إنه للجمعية، وسأشرب الآن نخب الاجتماع الأول الذى لم أحضره، ثم أضاف متوسلا:

ـ هذه مناسبة سعيدة يا نديم لم لا تشرب معى كأسًا؟

ـ ستسعدنى أكثر أخبار المحروسة لم لا تسرع بالحديث عنها؟

ورمقه أديب فى غيظ وهو يرتشف فى أناة جرعة من الكأس.

ـ أعرف أى نوع من البشر أنت، تجد سعادتك العظمى فى الجلوس وسط مجموعة من البلهاء والتحدث إليهم.

ـ هكذا ترى الناس وأنت سكران!

وانعكس على زجاج الكأس شعاع الشمس المتسلل من النافذة الغربية وبدا وجه إسحق أكثر إشراقًا وتوهجًا والكأس تقترب من فمه..

ـ أنا أحب الناس أكثر منك، ولكنى لا أطيق بلاهتهم.. بينما تجد أنت متعتك فى الغوص فى تلك البلاهة وتلك ميزتك! وألح نديم مزمجرًا:

ـ ماذا عن الشيخ جمال الدين والحزب الوطنى والجمعية الوطنية؟

كان أديب إسحق قد أفرغ فى جوفه الكأس كلها والتمعت عيناه الواسعتان، وتوردت ملامحه، وغدت لهجته السورية البطيئة أبطأ وأثقل، ولكنه الآن قد غدا فى رحاب الحرية العظمى التى يحلم بها دائمًا، حرية الحديثة عن كل شىء بلا مبالاة.

ـ لم يعد فى المحروسة سوى الحزب الوطنى فالجميع الآن يعملون معًا لتأييد شريف باشا!

ـ والأجانب؟ ما حقيقة موقفهم؟ وتهديدهم بعزل الخديو ؟

ـ من الصعب أن تتنبأ ليس هناك سوى الاحتمالات يا نديم!!

إن إنجلترا أصبحت فجأة تدافع عن الحركة الوطنية وسوف لا تصدق حين أخبرك أن التيمس كانت تعارض فكرة التدخل بأية صورة من الصور إنها تقول «إن الحكومة لترتكب أشنع غلطة إذا هى حاولت أن تخلق لإنجلترا مسئولية جديدة بعد أن تخلصت من ذلك، فلا يصح لمجرد الرغبة فى عدم الافتراق عن فرنسا أن نندفع إلى ارتكاب تلك الغلطة بإرسال مذكرات مشتركة أو غير ذلك، وإن تغيير الخديو لنظاره لم يعرض للخطر مصلحة من المصالح السياسية التى تهم إنجلترا».

أما فرنسا الجمهورية وصحافتها فهى التى تطالب بعزل الخديو وتهدد وتتوعد!! وأطرق نديم قليلا قبل أن يقول:

ـ من الواضح أن إنجلترا لا تريد بقاء الخديو إلا لأنه أتاح لها دون فرنسا نفوذًا خاصًا فى الأعوام السابقة وهى ترى فى بقائه فرصة لبقاء هذا النفوذ إنها لا تقيم كبير وزن للحركة الوطنية ولا ترى فيها خطرًا عليها أو على الخديو!

ـ نبيه أنت يا نديم وكنت أظنك لا تكون كذلك إلا حين تتحدث إلى مجموعة البلهاء التى تغرر بها! وأفرغ أديب فى جوفه كأسًا أخرى.. وبدأ يتأهب ليطير فى الجو ولكنه تهالك على مقعده، وأسلم جسده له نهائيًا.

ـ المقلق يا نديم أن فرنسا تجد فى عزل الخديو فرصتها الوحيدة لإعادة نفوذها فى مصر، وهى تؤلب دول أوروبا كلها حتى لا تدع إنجلترا منفردة بالنفوذ هنا. هكذا تفعل فرنسا الجمهورية، فرنسا الحلم والأمل، فرنسا التى كانت أرض الثوار والأحرار، وتريد أن تحرمنى من الشراب أيها القس المسلم، الشراب الذى يمنح الحرية لجميع البشر دون تفرقة!

ـ لم تعد تخدعنى تلك الكلمات، الجمهورية، البرلمان، الدستور، هناك شىء واحد يحرك الجميع هو المال!

ـ ومع ذلك فماذا تملك منه أنت أيها البائس الذى لايغير سترته الزرقاء الداكنة ولايحلق ذقنه إلا مرة كل أسبوع.

- سوف تملك جمعيتى الكثير منه!

- لم تحدثنى عن جمعيتك!

- ليس قبل أن تتم حديثك عن المحروسة!

- وهل ينتهى الحديث عن المحروسة؟

- لم تحدثنى عن الخديو! ماحقيقة موقفه؟

- أبأس منك قليلا، هذه هى الحقيقة، إنه يقف فى وجوه الأجانب وهو واثق من أنهم أكثر منه قوة، ويحتمى بالحركة الوطنية وهو واثق من أنها لاتثق فيه، وأفراد عائلته يتوزع ولاؤهم بينه وبين حليم باشا فى الآستانة، وابنه ينتظر اليوم الذى يتم فيه عزل أبيه ليرث عرشه!

هل هنّاك بؤس أكثر من هذا يانديم؟

وابتسم نديم قائلا:

- تجعل الخمر منك شاعرًا فذًا، لو رأيت بؤس الشعب لهان عليك بؤس الخديو!

- بؤس الشعب أراه كل يوم ممثلا فيك، وهو بؤس تاريخى، ولكن هذا نوع فريد من البؤس يانديم، والسقوط لايكون مروعًا إلا حين يصيب من يكونون فى القمة ومع ذلك فمن يدرى قد لايسقط وقد ينقذه خلاف أعدائه، وقد ينجح شريف باشا فى مواجهة العواصف، وليس هناك سوى الاحتمالات يانديم ولذا أسأل عن مشروعك الصغير!

وفى الحق إن «نديم» كان يفكر وهو يحكى لأديب إسحق عما يتم فى مشروعه بأنه قد أمسك فى نهاية الأمر بشىء حقيقى فى يديه، شىء صغير ولكنه صلب قد يتأثر بما يحدث فى المحروسة لكن لا إلى حد العدم، وقد يفقد الخديو عرشه، ولكنه هو لن يفقد هذا الشىء الذى أمسك به بعد كل هذه السنين!

* * *

الزمن يمضى فى طريقه، متصلا دائمًا، منذ دبت الحركة فى هذه الأفلاك ولن يتوقف إلا إذا توقفت هذه الحركة، والأحداث وحدها هى التى تبدأ وتنتهى وإذ ذاك يصبح للزمن معنى غير ذلك الاستمرار الأبله اللامبالى، إنه يصبح بطريقة ما زمننا، إنه يصبح بداية أو نهاية لشىء طيب أو ردىء فنحبه أو نكرهه، ننساه أو نذكره نفتح أو

نغمض أعيننا عليه فنراه فى لون عواطفنا السعيدة أو الحزينة. وهكذا أصبح لشهر يونيو من عام ١٨٧٩ أكثر من معنى وأكثر من لون.. كان بداية ونهاية، وكان قبل كل شىء شديد الحرارة كعادته حتى فى الإسكندرية. وأصبحت الشوارع بيضاء بلون الجلابيب البيضاء والسترات البيضاء الحريرية والقطنية، وبدت البيوت وكأنما ركب لها فجأة كل هذا العدد من النوافذ والأبواب التى فتحت جميعها لتستقبل الهواء الرطب القادم من ناحية البحر بعد أن ظلت معظم الشتاء مغلقة كأنها جزء من الحائط الأملس جزء خشبى لا غير وسهرت الدكاكين والمقاهى والبارات، وأصبح لليل صوت بشرى بعد أن لم يكن يسمع فيه غير صوت الرياح والعواصف والأمطار والموج. وفى مساء ٨ يونيو سنة ١٨٧٩ وفى أكثر من مقهى كان الناس يتحدثون عن شىء حدث فى صباح ذلك اليوم، فى ذلك المنزل الذى كان يمتلكه تاجر سمك وأصبح نديم يدعوه للجمعية الخيرية الإسلامية، وفسر بعضهم الحادث بأنه نتيجة لعودة عبد الله نديم إلى الإسكندرية. فقد كان حديث المدينة وهو صبى فكيف لايصبح حديثها مرة أخرى بعد أن أصبح رجلا ناضجًا، وكان بالنسبة لمن سمعوا به دون أن يروه حادثًا لايخلو من الغرابة فلم تعرف الإسكندرية ولاغيرها من المدن آنذاك رجلا يخطب فى مكان عام أمام عدد من رجال الجيش ورجال الإدارة وحشد كبير من المواطنين، ويتكلم فى الأمور العامة مفرقًا بين عهدين وبين طريقين ملوحًا بأن هذا الحفل بداية لعهد جديد!

* * *

وفى «أوتيل أوروبا» حيث يجلس الذوات والأعيان كان «حسين فهمى» وهو موظف كبير بالمحافظة حضر الحفل بحكم وظيفته، واختير عضوًا فى مجلس إدارة الجمعية بحكم الوظيفة أيضًا، كان يجلس وسط مجموعة من الذوات، وجسده السمين يضغط على سترته الحريرية البيضاء فتتكسر، وبيده منشة يداعب الهواء شعرها الأسود الفاحم بينما تخنق أصابعه الغليظة عنق الكلب الأبنوسى الأبيض الذى يصنع يد المنشة!

وقال لمن حوله معلقًا على الحفل الذى حضر جزءًا منه فى هذا الصباح:

ـ كان من الضرورى أن أذهب بعد اعتذار المحافظ.

ـ يقولون إنه ألقى خطبة بارعة! كان موظف أقل درجة يتبع حسين فهمى كظله هو الذى ألقى بالسؤال.

وابتسم حسين فهمى مخفيًا ضيقه:

ـ كان أكثر براعة وهو صبى، كان يمتعنا بنكاته، لقد رأيته مرات فى منزل شواربى بك، ولكنه الآن يصبح ثقيل الظل حين يلبس ثياب الوقار، لقد خلق نديم ليضحك الناس لا ليثقل عليهم بمواعظه وتغير تيار الحديث فجأة:

ـ يسمون مدرسته ملجأ الأيتام.. وكان تابع آخر هو الذى تكلم وانفجر حسين فهمى ضاحكًا وهدر بصوت تمزقه الضحكة العريضة الصاخبة:

ـ يدعى أنه يريد أن يعين الأيتام، والحق أنه يريد أن يعيش على حسابهم!

ـ أنه لايريد مجرد العيش سوف يتاجر على حسابهم.

ـ ومن يتركه يفعل ذلك وماذا نفعل فى مجلس الإدارة؟ لقد نبهنى المحافظ إلى مراقبة الشئون المالية!

فى مقهى كليوباترا كان يجلس «حامد الأعسر» ضمن مجموعة من أعضاء جمعية مصر الفتاة الذين بقوا فيها، كان بعضهم قد حضر حفل الافتتاح وبعضهم لم يحضره، وكانوا يتحدثون فى نفس المساء وقال أحدهم لحامد الأعسر:

ـ كنت تتهمه بالخوف، لو سمعت خطبته لما خامرك شك فى شجاعته!

وتدخل شاب آخر حضر الحفل:

ـ هذه ليست شجاعة، الشجاعة أن تقول للأعور ياأعور. لا أن تلعب بالكلمات وتحتمى بالكنايات.

وقال حامد الأعسر الذى لم يكن قد حضر الحفل:

ـ أعرف «نديم» أكثر منك، أنه رجل ماهر فى لعبة الكلام، وهو مستعد لأن يواجه الأخطار من أجل فرصة تتيح له أن يستعرض مواهبه فى تلك اللعبة، وهذا ماتوفره له الجمعية أنه مثل «البلياتشو» الذي لايبالى بأن يدق عنقه فى لعبة خطرة من أجل الحصول على تصفيق الناس.

ـ ونقودهم! كان يعقوب زخارى هو الذى أكمل هذه العبارة.

ـ لو سمعت خطبته ماقلت هذا الكلام، الناس لا حديث لهم إلا عنها...

لقد سمعه خمسمائة شخص على الأقل!

ـ إذا كنت تعنى الجالسين وحدهم فهذا صحيح.

وعاد حامد الأعسر يصرخ: وهذا كل مايحلم به نديم.. أن يتحدث الناس عنه طيلة يوم كامل أو أسبوع ولايهمه أن ينتهى كل شىء بعد ذلك.

ـ سمعت أن أديب إسحق سوف ينشر الخطبة كاملة فى جريدة مصر!

ـ لأنه مثله مجنون بالكلمات المرصعة.. وهذا كل مافى الأمر.

وحين نشرت خطبة عبد الله نديم كاملة فى جريدة مصر قرأها الشيخ محمد العشرى الذى كان أستاذًا لنديم وأعاد قراءتها لمجموعة من زملائه الشيوخ، وكان كل مافتته فيها قدرة عبد الله نديم على تطريز الكلمات بالآيات القرآنية!

وأدنى الصحيفة من عينيه وراح يقرأ لهم:

«فافتتحنا هذه المدرسة للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربًا فى الأرض، ولعلاقة النوع جعلناها حرة مطلقة لمن يتعلمون فإذا اجتمع تلميذ بآخر مع اختلاف مايعبدون، قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، فقد أطلقت المعارف من قيد قوم على مظهرهم حذرين، رأوا أن الفقراء لايستحقون دخول روضة علمهم المكين، فانطلقوا وهم يتخافتون، ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين».

وكانت أقداح القرفة قد دخلت لتوها تتعثر بها خادمة صغيرة عجفاء فأبعد الشيخ العشرى الصحيفة جانبًا، وقال الشيخ محمد جاد وهو يرشف من قدح القرفة بصوت مسموع ويزيح إلى الوراء عمامته وقد استشعر حرارة مفاجئة من القدح الساخن:

ـ مايعجبنى أكثر من الخطبة نظام المدرسة ذاته، إنها تشبه مجتمعًا صغيرًا يفكر نديم فى أن يصبح خديويًا له، وضحك الشيخ إبراهيم السرسى ووضع القدح على منضدة كانت أمامه حتى لايسقط من يده التى تضعفها ارتعاشة مرض عصبى ملازم، ولم يكن قد حضر الحفل أو سمع الخطاب كله وتساءل عن هذا النظام.

ـ لقد أقنع أحد الأطباء بأن يتطوع لعلاج التلاميذ مجانًا، وأقنع بعض الأغنياء بأن يتبرعوا بنواة صندوق مفتوح لتدبير كسوة للتلاميذ وطعام لهم.

ـ ولكنه كان يندد بالأغنياء فى خطابه منذ لحظة!

ـ يندد بمن لم يستجيبوا له وهم كثيرون!

***

وعلى نحو ماكان نديم هو الآخر لايصدق ذلك الصدى الذى أحدثه خطابه فى الإسكندرية، وضبطه أديب إسحق وهو يقلب الصحف التى صدرت خلال الأسبوع، وكلها تنوه بخطابه وتنشر فقرات منه وتتحدث «عن الفاضل الأريب الشاعر الأديب الكاتب الخطيب عبد الله أفندى نديم».

وكان أديب إسحق قد فاجأه بزيارة بيته لأول مرة ولمح أعداداً متناثرة من صحف مصر والتجارة والإسكندرية على مقربة من نديم

- وأخيراً كسبنا قارئاً مضموناً.. قالها أديب إسحق وهو يجلس بجوار نديم.

- إذا داومت على نشر خطبى فأبشر بآلاف القراء!

- تريد الحق يانديم؟ خطبك تفقد نصف قيمتها حين لاتسمع منك، قال نديم مقلداً لهجته السورية:

- وجريدتك تفقد كل قيمتها بدون خطبى ومقالاتى!

- سوف يركبك الغرور يانديم! قالها بمرح.

- لم تكن قد جئت بعد حين كان يركبنى الغرور ويهز قدميه، أما الآن فثق أنه قد بدأ يبحث عن حمار آخر.

- إعجاب مجموعة البلهاء التى اتسعت فجأة قد يعيدك سيرتك الأولى..

- أو تظن ذلك حقاً؟

- لا... إننى أثق بك يانديم وأعتقد أنك خيراً ستجد ذاتك الحقيقية.

وكان نديم قد فكر فى تلك الليلة المثيرة أنه وجد ذاته أخيراً.. وأثارته كلمة أديب إسحق فتساءل فى لهفة:

- كيف يعرف إنسان حقاً أنه وجد ذاته؟ لقد بحثت عنها ضمن أشياء كثيرة، وفى كل مرة كنت أكتشف أننى أطارد السراب!!

- ومع ذلك فقد لاتصدق إذا قلت لك أين تجد ذاتك.. ذاتك الحقة؟؟

- لا تحاول أن تعبث بى يارجل!

ـ موهبتك الحقة يانديم فى التمثيل، أنت ممثل بالفطرة، ولو عثرنا عليك قبل أن نغلق مسرحنا أنا وسليم نقاش لما اضطررنا إلى إغلاقه..

ـ لقد فكرت يومًا فى ذلك لكن لا كممثل.

وتابع أديب حديثه دون أن ينتبه لما قاله نديم:

ـ لو قدمنا للجمهور مسرحية من تأليفى ومن تمثيلك، ومن إخراج سليم نقاش فأى ربح كنا نجنيه!

وصمت نديم، لم يقل له إننى أقدر منك على تأليف مسرحية وإننى حلمت طويلاً بذلك، ضايقه أن يفكر فيه كممثل لاغير.

قال نديم محولا غيظه إلى ناحية أخرى:

ـ الربح فقط هو كل مايهمك!

ـ ويهمك أيضًا أيها المفلس الأبدى! إذا كنت تريد حقًا أن تسدد ديونك!

ولم يضق نديم هذه المرة، فلم تعد تقلقه مسألة الديون هذه وخاصة ديونه لأديب إسحق، أنه يكتب فى صحيفته وقرر بينه وبين نفسه أن هذه مقابل تلك، أما ديونه الأخرى فلم تعد تزعجه كثيرًا ليس لأنه أصبح قادرًا على سدادها، بل لأنه من ناحية كان يجهل قيمتها كما يجهل أصحابها لكثرتهم، ومن ناحية أخرى كان يشعر أنه يتعامل مع المجتمع جملة لا تفصيلا، أنه يأخذ من بعض الناس ويعطى بعضهم هكذا كان طوال عمره، وتبقى المسألة رهنًا بإحساسه الخاص بأنه يعطى أكثر مما يأخذ أو على الأقل بقدر مايأخذ، ولكن كلمة أديب إسحق أو ربما زيارته، أشعرته ربما لأول مرة بمدى بؤسه، كان يزور أديب إسحق، ويرى جمال الأثاث وأناقته وبعينى أديب إسحق أبصر حجرته فهالته صورتها فلكثرة زواره أفردوا له حجرة خاصة هى حجرة للنوم ولاستقبال الضيوف وللطعام وللقراءة، ولكل مايحتاجه شخص مثله، ولكن لم يكن فيها متسع للنظام أو الذوق أو الفخامة فبجوار السرير النحاسى ذى القوائم الأربعة كنبتان يضمهما إلى بعضهما فيصبحان سريرًا آخر يتسع لمن ينام عنده من الأصدقاء وبداخلهما تجويف يضم كل كتبه، ومنضدة تتحول إلى مكتب حين يدنيها



من الكنبة وتحت السرير أدوات القهوة التى يصنعها بنفسه لضيوفه الكثيرين، ولم يكن ثمة مرآة!

وكانت محاولات زوجه لأن تجعل من بيتها شيئًا مثل بقية البيوت قد انتهت بالفشل، وغرقت فى هموم الأولادِ وتسلت بها أيضًا، كانت الأشياء مكدسة ومختلطة تنقصها النظافة كما ينقصها الترتيب، وكان نديم وسط هذه الأشياء لايفترق عن أى شاب أعزب إلا فى شىء واحد لاغير، هو أنه يحمل هموم المتزوجين، ولكنها كانت أقل همومه فلقد كانت مجموعة البلهاء «على حد تعبير أديب إسحق» زوجه الثانية، وربما كانت عشيقته لو أنه يعرف العشق، وهاهى زوجه الثانية تنجب فجأة مالا يحصى من الأولاد، وهاهو أبوه الذى عانى طويلا من مسئولية أحفاده الشرعيين قد فوجئ ذات يوم بأرملة مكدودة تسأله عن ابنه «لقد قالوا لها إن رجلا اسمه عبدالله نديم سيفتح مدرسة لليتامى وسوف يعلمهم مجانًا وسوف يطعمهم ويكسوهم، وانتهى بها السؤال والتجوال إلى مخبز أبيه، وكان أيامها ضائقًا به وساخطًا عليه.. ولم يكد ذلك الاحتفال الرائع الذائع قد تم وأصبح حديث المدينة.. ولم تكد الأرملة العجوز تلوك اسم ابنه حتى صرخ فى وجهها لتغرب عن وجهه، وعادت الأرملة تتكفئ فى طريقها وقالوا لها مرة أخرى، ليس هذا هو الرجل الذى تقصدين، ووصفوا لها البيت مرة ثانية وصفًا دقيقًا فى حى المنشية، وكانت بائسة بؤسًا خليقًا بأن يجعلها تعاود الكرة غير عابئة بأية نتائج، وفى البيت طالعها نفس الوجه ذى اللحية المغبرة بدقيق الفرن فأجفلت قليلا، وكادت تهم بالرجوع ولكنها فوجئت بالوجه يبتسم، ويخاطبها فى لطف ويستفسر عن طلبها فى مودة ويرسل معها صبيًا فى الحارة ليوصلها إلى ابنه فى المدرسة التى احتفل بافتتاحها منذ أيام قليلة وهناك التقت لا بنديم وحده بل بعشرات مثلها من الأرامل وقد جلسن فى ساحة المدرسة ونديم يقيد الأسماء، وينثر فى هذا الجو الكئيب أملا حلوًا بابتسامته ومداعباته».

وكان نديم قد حكى القصة لأديب إسحق وهو يضحك بعد أن دخل أبوه وحيا الضيف السورى، الذى كان يسمع اسمه وشرب معه القهوة، ولأول مرة كان راضيًا عن ابنه مستشعرًا هو الآخر أملاً غامضًا فى أن ابنه قد وجد أخيرًا طريقًا صالحًا، وأنه قد ودع إلى غير رجعة ضياعه القديم، وكان تذكر نديم لهذه القصة وحكايتها لأديب إسحق هو وحده الذى خفف من شعوره ببؤس حياته وبؤس حجرته.

وانتبه نديم من سرحته القصيرة حين أخبره أديب إسحق أنه سيسافر غداً إلى المحروسة وتساءل نديم:

ـ هل ثمة أخبار جديدة؟

ـ هناك توقعات لأخبار خطيرة يانديم وإذا صح ماتنقله التلغرافات فالخديو معزول لا محالة!

وسافر أديب إسحق إلى المحروسة وبعدها بأيام تدخلت ألمانيا فى الموقف واحتج قنصلها على تأييد الخديو للحركة الوطنية، وتتابعت احتجاجات الدول التى لم تحتج من قبل: النمسا.. إيطاليا وفى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ صدر فرمان سلطانى بعزل الخديو إسماعيل وتولية ابنه الأمير محمد توفيق خديوياً على مصر، وهكذا كان شهر يونيو بالنسبة لنديم كما كان بالنسبة لغيره بداية ونهاية.

***

مع رياح الخريف فى نفس العام ١٨٧٩ ذوت آمال الناس فى الإسكندرية المحروسة، وفى كل مكان قدر لها فيه أن تتفتح، وحين كانت السحب تتجمع فى السماء، التى كانت صافية ومشرقة طوال الصيف، كانت سحب أخرى تتجمع فى نفوس الناس، وتلقى بظلها الثقيل فوق الوجوه وفى أعماق العيون، وبدأت الشوارع تفقد لونها الأبيض وتعود رمادية داكنة، واختفت نوافذ البيوت وعاد الهمس، وذوت ذكريات الصيف كأنها ذكريات حقبة بعيدة من الدهر، وحين كان الناس يلقون نظرة على صحف الصيف لم يكونوا يصدقون عيونهم، ففى شهرى يوليو وأغسطس أخذت البلاد جرعة من الحرية لم تظفر بها فى أى عهد من العهود، كان الأمير محمد توفيق الذى أصبح خديوياً لمصر قد كلف محمد شريف باشا بتأليف الوزارة، وظل الخديو الجديد ينتظر وصول فرمان الخديوية من الآستانة طبقاً للتقاليد حتى يمارس سلطاته بطريقة رسمية، وكان شريف باشا ينتظر بدوره وصول نفس الفرمان حتى يتقدم للخديو الجديد بلائحة الدستور التى أعدها فى أواخر عهد الخديو إسماعيل طبقاً لمطالب الجمعية الوطنية وطبقاً لأحدث الدساتير فى العالم المتمدين وحال عزل الخديو السابق دون اعتمادها، وظلت اللائحة تنتظر اعتماد الخديو الجديد الذى انعقدت حوله آمال الشعب كله، وفى فترة الانتظار تلك لم تنتظر الصحافة شيئاً لتقول للناس كلمتها!!

كانت جمعية «مصر الفتاة» السرية قد خرجت إلى النور متأثرة بالظروف الجديدة، وأصبحت جريدة «مصر الفتاة» لسان حالها فيما كانت تهمس به فى المنشورات السرية، وأصبحت هى الأخرى تدعو إلى إنشاء المدارس، وكان نديم الذى انتظرت مدرسته طوال عطلة الصيف قد أصبح محررًا يكتب للناس ما ظل حبيسًا فى صدره طوال السنين.

وكان الدستور حلم الناس، وكانت الحرية التى يكفلها أملهم، وكانت المقالات كلها تشرح الحلم وتجسد الأمل، وكان نديم هذه المرة ضمن الشراح. فماذا كانت تعنى كلمة الحرية لنديم؟ نديم الذى لم ينحرف بصره لحظة عن المسافة المروعة بين السفح والقمة، والذى قطعها مرات عديدة ذهابًا وجيئة، والذى كانت رواية الحكايات ضمن مواهبه، أجل ماذا كانت تعنى الحرية عنده؟ وقرأ الناس هذه القصة تحت عنوان «العصر الجديد» فى جريدة مصر فى ١٨ يوليو سنة ١٨٧٩:

«رأى الحكيم جمعا من الناس ينادون: واعجباه. إنا أمة عظيمة ولا قوة لنا، أرضنا مخصبة ولانجد القوت، ونحن فى سلم خارجى وحرب داخلية، فمن هو ذلك العدو الخفى الذى يسلب أموالنا؟ ثم رقى أحدهم مرتفعًا فى ذلك المحفل وقام فيهم خطيبًا، فقال ارفعوا فى هذا المقام لواء وادعوا إليه، الذين يخدمون الهيئة الاجتماعية بالأشغال النافعة يظهر لكم العدو المخفى، فانقسم الجمع قسمين، وكان السواد الأعظم فى جانب اللواء إلا أن عليهم علامات التعب والعناء والفقر والشقاء، وعلى أولئك أمارات العز والسعادة والهناء، ولما تقابل الفريقان، قالت الفئة الكثيرة للفئة القليلة، مابالكم انفصلتم عنا وأنتم منا، فقالوا نحن لم نوجد لنشتغل ولكن لنعتنى بأموركم، فنادت العامة رويدكم أنتعب وتنعمون، ونغرس وتجنون، فما لكم لاتتألفون أمة منفردة لنرى كيف يكون قوامكم؟»

ويحتدم النقاش بين الفئة القليلة والفئة الكثيرة ولايحسمه إلا خطيب الجماعة حيث يقول:

«ياقوم لايحسن بنا الاكتفاء بالنجاة من الظالمين، بل يجب علينا وضع الحدود لمنع وجود غيرهم، إن العناية الإلهية قد منحت لجميع الناس أعضاء متساوية، وجعلت لهم حاجات متماثلة فصرحت بذلك أنها تمنح لهم حقوقًا متوازية، ولما كان الإنسان مساويًا لغيره من بنى نوعه، وجب أن يكون ما يأخذه مساويًا لما يعطيه، وبذلك يتبين لنا أن الحرية ليست إلا العدل».

كان هذا الكلام بعض مايقرأ الناس فى هذا الصيف، ثم قرأ الناس فى الوقائع المصرية فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٦٩ نبأ قبول استقالة وزارة شريف دون ذكر لأى سبب، وتولى الخديو الجديد بنفسه سلطة رئيس النظار، وفى آخر يوم من نفس الشهر خرجت نفس الجريدة ببيان طويل يتضمن قرارًا بنفى الشيخ جمال الدين من البلاد، وفى هذه المرة ذكرت أسبابًا جاء فيها «أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا» وفى آخر سبتمبر من نفس العام عهد الخديو إلى رياض باشا بتأليف وزارة جديدة بعد أن أرسل الخديو لاستدعائه من أوروبا التى ذهب إليها حين عصفت به الحركة الوطنية، وكان وقتها وزيرًا فى نفس الوزارة التى طالبت الجمعية الوطنية بإقالتها!.. وروع الناس، وذهلوا، وصمتوا حينًا، و تكلموا أحيانًا، وبدا كلامهم كما بدا صمتهم نوعًا من رد الفعل الأبله الذى لايعنى شيئًا، وقال نديم لأديب إسحق وهو غارق هذه المرة غرقًا حقيقيًا فى الشراب وهو يرى فى وجهه الذبول واليأس معًا:

ـ إنك بهذه الطريقة لن تكون ذا غناء لنفسك أو لغيرك يابنى!

ـ أغرب عن وجهى يانديم، لماذا لاتذهب وتجمع صبيانك وتقول لهم مافيه غناء لهم وللناس!

ولكنه نديم ماكان ليتركه، كان يحبه وكان يأسى له، ويدرك مدى ما يعانيه شخص مثله حين يجد كل القلاع التى كان يحتمى بها تنهار فجأة!! وبدأت بقية القلاع تنهار وتتصدع فجريدة «مصر الفتاة» تغلق نهائيًا وتلحق بها «مرآة الشرق» وتتوالى الإنذارات على جريدتى مصر والتجارة ويحكم إغلاق الطرق فى وجه جريدتى «النحلة» و«أبونضارة» وكانتا تتسربان من الخارج بنقد حاد لاذع وتتوزعان سرًا بين أفراد الجيش والشعب!..

وكانت كل هذه الصحف قلاع الحرية آنذاك وصوتها ونبضها الحار، وتلفت نديم حواليه فلم يبصر سوى الحطام، وفوجئ بأنه هو وحده لم يصبح حطامًا بعد، ربما لأنه كان أقل شأنًا من أن يحاول أحد تحطيمه، وربما لأن أحدًا مهما بلغت نذالته لا يفكر بأن يغلق مدرسة لتعليم الأيتام، صحيح أن «نديم» جعل منها فى ذلك الخريف شيئًا أخطر من كونها مجرد مدرسة، لقد أعلن عن محفل أسبوعى للخطابة، وكان ذلك فى٢٢ أغسطس سنة ١٨٧٩.

وبعد أيام قليلة من استقالة شريف باشا ونفى الشيخ جمال.. وفى فناء المدرسة التى كانت مجرد بيت نجح نديم طوال أشهر الصيف فى أن يجعل منه شيئًا يشبه المدرسة، ومن حديقته شيئًا يشبه الفناء!..

اجتمع الناس ليروا هذا المجنون الذى لايزيد أن يجد العبرة فيما يحدث لغيره. كان بعضهم قد سمع خطابه الأول وبعضهم قد سمع عنه، أو قرأ له، وكان بعضهم يريد أن يعرف ماذا يمكن أن يقوله بعد هذا كله؟

ومن المؤكد أن عددًا من الناس ذهبوا؛ لأنهم من أقرباء التلاميذ لا غير وعددًا آخر ذهب؛ لأنه لم يكن لديه مايشغله فى هذا المساء، كانت هذه حالهم قبل أن يستمعوا إلى خطابه الذى جاء عنوانه: بأى سبب ظهر الفرق بين الغرب والشرق؟ أما بعد أن استمعوا إلى إجابة نديم على السؤال فكنت تسمع هذه التعليقات:

ـ لقد ترك نديم السياسة جانبًا فياله من داهية!

ـ لو كنت تفهم معنى السياسة ما قلت هذا الكلام، فما نحن فيه سببه تفوق الغرب، وماقاله نديم يشرح أسباب ما نحن فيه.

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٩ أصبح ماقاله نديم فى فناء المدرسة حديث القراء فى كل مكان تذهب إليه جريدة «التجارة» التى نشرت الخطبة كاملة، وكان هذا السؤال يمثل جانبًا من هموم المتعلمين فى ذلك الوقت إن لم يكن كل همومهم، وكان المتعلمون فى الأزهر يرددون بعض الأجوبة، والمتعلمون فى باريس يرددون أجوبة أخرى.

وكان الشيخ جمال الدين قد قال كلمته فى هذا الموضوع وكان «نديم» يقدم جوابه هو الآخر بعد أن استمع إلى أجوبتهم، ويبحث لإجابته عن مكان فى عقول الناس، وكانت هذه الخطبة تحمل معالم رؤيا لم تتضح بعد، ولكنها كافية لأن تغضب المتعلمين فى الأزهر وفى غيره؛ لأنها تطرح أوروبا جانبًا، ولم تطرح الأزهر جانبًا كذلك، رؤيا كانت تبحث عن الصلات الخفية والحقيقية بين حضارة أوروبا وحضارة العرب، وكان جزء من الخطبة يتحدث عن أبى عبد الله الخوارزمى وكتابه فى الجبر والمقابلة، وثابت بن قرة الذى ترجم كتاب الأصول الهندسية بأمر الخليفة المنصور، وابن سينا الذى اعتنى بحل كتاب بطليموس الشهير بالمجسطى وشرحه فى تعاليم الشفاء، وابن السمح وابن الفرغانى وابن رشد وابن الخطيب، ونصر الدين الطوسى وفى نهاية الخطبة تساءل

أليس أولئك الأئمة من العرب المسلمين؟ أليست هذه العلوم هى الموصلة لأسباب المعالى وبسواها تكون بين الإنسان والحيوان نسبة كلية هى الجهل الذى أعمى القلوب وقوى شوكة العداوة؟؟

وكان جزء من الخطبة يتحدث عن أسباب أخرى يمكن أن تجد صدى لدى أجزاء من هذا الحشد، الذى ملأ فناء المدرسة، وكان هو «نديم» القادر على انتزاع الضحك من هذا الحشد، وهو يصور لهم أخطاء التربية فى البيت وفى الكتاب وفى المدرسة فى مقارنة بديعة بين تربية النشء عندنا وعندهم!!

وحين حل موعد الخطبة الثانية، واجهت «نديم» مشكلة المكان الذى ضاق بالأعداد التى توجهت إلى المدرسة قبل الموعد بساعات، وكان الجمهور هو الذى حل المشكلة حين ارتضى الجلوس بلا مقاعد عدا الصفوف الأمامية التى يجلس فيها كبار القوم، وحين ارتضى الوقوف حين لم يجد مكانًا للجلوس، وغطى ذوو الجلاليب سور الفناء، وتكفل صوت نديم وحده بحفظ النظام، وكانت الخطبة الثانية أشبه بلغز شغل الناس بحله طيلة أسبوع كامل، كانت حكاية ممتعة عما سماه نديم «مملكة الحيوان والإنسان» وكانت تعليقات الجمهور كلها أسئلة هذه المرة عما يقصد نديم بالثعلب والذئب والأسد؟ وما المقصود بالطمع والذل والحسد؟ ولم تكن فى خطبته مجرد صفات بل ذوات تتكلم وتناقش، وما الحلول التى اقترحها نديم على لسان «ملك الملوك» ليسود الوفاق والعدل هذه الممالك التى يصف نديم أحوالها بقوله على لسان زعيمها، «ولم أزل أسمع من كل أمة شكواها، وأعدها بكشف ظلمها وبلواها حتى كثرت لدى الرقاع وضاقت بالمظاليم البقاع».

ونشرت الخطبة الثانية فى جريدة مصر، وهكذا أصبح هذا اللغز حديث الناس خارج الإسكندرية كما كان حديثهم داخلها، وكان هذا كله جديرًا بأن يلفت إليه عيون المسئولين وآذانهم، ولكن أحدًا ماكان يجرؤ على أن يمد يده إلى مدرسة تعلم الأيتام مجانًا، ولاتتقاضى من الحكومة مليمًا، وهكذا وجد نديم أن هؤلاء الصبية الذين حرموا الرعاية والحماية، وفكر أن يصبح هو لهم راعيًا ومعينًا قد أصبحوا هم رعاته وحماته، وحين كان يسير فى شوارع الإسكندرية فيرى الناس يشيرون إليه ويهمسون، ويرى أصحاب المقاهى والدكاكين يتوددون إليه ليجلس قليلا، ويرى ماتبقى من الصحف تشير

إلى خطبه وتنقل فقرات منها بمزيد من الاحترام والتقدير، كان يشعر بأن جزءًا من نديم القديم ينتعش فيه ويزدهر، وبأنه أمسك أخيرًا فى يديه بشىء حقيقى ولن يدعه يفلت منه!!!

وإذا كان نديم قد وجد نفسه أخيرًا بين جدران تلك المدرسة فقد وجد شعب الإسكندرية هو الآخر فى محافل الخطابة الأسبوعية وفى نديمه شعلة متبقية من تلك النار التى أضاءت فى الصيف وأطفأتها رياح الخريف، وكان حريصًا على شعلته أكثر من حرص نديم عليها، وهكذا أصبحت محافل الخطابة مكانًا يتواعد الأصدقاء على اللقاء فيه كل أسبوع، كما كان حل ألغاز قصصه مباراتهم المفضلة والآمنة فى الوقت نفسه، كما أصبح الاستماع إلى خطبة نديم فرصة مناسبة للاعتذار عما لاتحب من الأعمال والمواعيد، وفرصة للقاء من تود من الشخصيات المهمة والكبيرة، التى كانت تذهب بدوافع مختلفة ووجد فيه باعة الترمس والفول السودانى واللب والمشروبات الساخنة والباردة سوقًا صغيرة ورائجة!!

وأما الأطفال فقد كانت سعادتهم لاتنقضى بحركات وجهه ويديه وسارت الأمور سيرها الطبيعى فى مدرسة نديم وفى محافله، وألف الناس رؤية هذا المنظر الذى كان غريبًا وكئيبًا فى بدايته، منظر التلاميذ الأيتام وهم فى طريقهم إلى المدرسة أو منها، كان التعليم وقتذاك وقفًا على أبناء القادرين من المصريين وأبناء الأجانب، وكان منظر التلاميذ على قلته هو أحد مناظر الثراء والوجاهة، ولكن منظر هؤلاء الصبية الذين لم يستطع نديم أن يقدم لهم آنذاك أكثر من التعليم وبعض الطعام منظرهم وهم يحملون حقائبهم التى صنعت فى الغالب من نفس قماش ثيابهم كان جديرًا بأن يفتح عيون الناس ويثير تساؤلهم عن حقيقة ما يفعله هذا الرجل منذ حل بمدينتهم، ولكن تساؤلاتهم قد انتهت بعد أن ألفوا هذا المنظر يتكرر، وإن بقيت بالنسبة لخطبه المتجددة دائمًا، والتقى نديم بأديب إسحق بعد أن عاد من المحروسة فى آخر مرة ذهب إليها بعد استقالة شريف باشا. ولن يكن يعانى هذه المرة من السكر، بل كان يعانى من يقظة حادة ارتسمت على ملامح وجهه الأبيض الذى تظلل نصفه لحية سوداء!!

- لن تصدق إذا قلت لك إنهم فى المحروسة يتسلون أيضًا بحل ألغازك ولم يبتهج نديم لهذا، بل قال فى سخرية:

- معنى هذا أنه لم يعد هناك مايفعلونه ياأديب:

- لقد عادوا إلى الجحور القديمة وبدأت لعبة المنشورات!

- كيف وجدت المحروسة بدون جمال الدين؟ لم تقل لى كيف وجدتها!

- لم تعد المحروسة التى نعرفها، وأصبح مقهى الأزبكية مكانًا للعمد والخواجات وتجار القطن!!

* * *

وبعد أسابيع من هذا اللقاء لم يجد أديب إسحق هو الآخر مايفعله لقد أغلق رياض باشا جريدتى «مصر والتجارة» بعد أن فشلت إنذاراته فى أن تجعل الجريدتين تخففان من لهجتهما الحادة فى مهاجمة الأجانب، وكانت حكومة رياض باشا قد أعادت سلطة المراقبة الثنائية وخولت لها سلطات دونها سلطات النظار فى مراقبة الشئون المالية والإدارية، وأسفر النفوذ الأجنبى هذه المرة عن وجهه فى غيبة ممثلى الحركة الوطنية، واكتظت الإدارات الحكومية بالموظفين الأجانب على نحو أعاد للناس ذكرى الوزارة الأوروبية وقال أديب إسحق لعبد الله نديم ذات ليلة:

- أنا مسافر بعد أيام إلى باريس ومن هناك سأصدر جريدة «مصر» من جديد!

- كيف وأنت فيما أعلم لاتملك نقودًا؟.. ثم تابع بعد أن لمح على شفتى أديب ابتسامة غامضة: ويمكن لو بقيت أيامًا أن أدبر لك..

وانفجر أديب ضاحكًا:

- أيها المفلس الأبدى أنها فرصة العمر لك، فديونك لى سوف تسقط بغيابى فى باريس، وقد أموت هناك؛ فتسقط إلى الأبد.

- لكن...

- لقد دبر الحزب الوطنى كل شىء ابتداء من سفرى إلى توزيع الجريدة فى مصر كما توزع المنشورات! ومن هناك سأعرف كيف أجعل رياض باشا يندم مر الندم على إغلاق صحيفتى، وستبقى أنت هنا تحكى ألغازك ليتسلى بها الناس.

ووجد نديم نفسه فى بداية هذا الشتاء الذى كان قاسيًا مثل أى شتاء عرفته الإسكندرية وحيدًا وحدة حقيقية، لقد انتهى الأصدقاء الكبار فجأة، الأصدقاء الذين يتحدون ذكاءه وغروره ويتيحون له أن يعرف على نحو حقيقى من هو؟ كان أديب يفتنه

على نحو شخصى بذكائه الحاد وقلمه وثقافته، وهاهو الآن وحده فى الإسكندرية بل فى مصر كلها، لقد ذهب الشيخ جمال الدين، وغدا يرحل أديب إسحق، وكأن كل ماحدث خلال السنين الأخيرة كان مجرد حلم عابر، لم يعد هناك غير الصحف التى تسبح بحمد الخديو، ولقد علم من أديب إسحق أن الشيخ محمد عبده ذلك الفتى الصموت الذكى المغلق كصندوق الأسرار، والذى كان يلتقى به فى ندوة الشيخ جمال الدين فتثيره كلماته القليلة كما يثيره صمته الطويل، هذا الفتى الذى كان يفكر يومًا فى اغتيال الخديو إسماعيل بنفسه، قد رشح أخيرًا ليكون محررًا للوقائع المصرية لسان حال الحكومة، كيف يمكن للمرء أن يضع ثقته فى شخص أو شىء؟؟

- ضعها فى مجموعة البلهاء، فى هؤلاء الصبية اليتامى الذين يحتمون بك وتحتمى بهم!

هكذا قال نديم لنفسه بعد أيام وأسابيع ظل خلالها يواجه السؤال اللعين، وبدأ يتلمس صداقة الحشد الذى يجتمع كل أسبوع فى فناء مدرسته، تاركًا تفاصيل العمل ومشاغله الإدارية لهذين الصديقين اللذين كانا يحملان عبء جمعية «مصر الفتاة» وأصبحا يحملان عبء الجمعية الخيرية الإسلامية» محمد أمين، ومحمود واصف، كانا ينظمان الشئون المالية والإدارية والاتصالات والاجتماعات والندوات والمحافل، وكان نديم قد تفرغ تمامًا للحشد وللتلاميذ، كان يدرك بحسه العملى الذى نما خلال حياة لم تكن رافهة أو وادعة والذى صاحبه فى ارتفاعه وهبوطه المتكررين، أن عليه أن ينتظر هذه المرة كما انتظر فى مرات سابقة قبل أن يخطو خطوة جديدة [illegible]

وبدأت ملامح الحشد الأسبوعى تتضح بدأ يصبح مصدرًا للصداقات الجديدة، وحقلا للمناقشات المثيرة، ومعينًا لاينضب للتبرعات، وأهم من هذا كله يفجر فى داخله تلك القدرة التى كان يدركها بشكل غامض وبدأت الآن تصقل وتهذب، ويكتشف أنها أروع قدراته كلها على الإطلاق - أنه فعلا «خطيب الشرق» و «خادم الإنسانية» و«محيى الوطنية» وفناء مدرسته «سوق عكاظ» و «معرض باريس للأدب» أخيرًا بدأ يصدق ماتقوله الصحف، التى ظلت تنشر خطبه التى لم تكن آنذاك شديدة الخطر، إنه يتكلم عن «التعاون» و«التعليم» وإنه يدعو إلى إنشاء «جمعية خيرية قبطية» على غرار «الجمعية الخيرية الإسلامية» إنه يدعو الأقباط لذلك كما دعا المسلمين، وإنهم يستجيبون لدعوته فيلقى فى ليلة الافتتاح بخطاب رائع مثير يذكر الناس بخطابه الأول خطاب يطرزه هذه المرة، بآيات من الإنجيل كما طرز خطابه الأول بآيات القرآن فيصيب

القساوسة بنفس الدهشة التى أصاب بها شيوخه فى جامع الشيخ إبراهيم، وأن صورة الجسد مهما يكن دينه أو جنسه أو ثقافته تصبح مصدرًا لتلك القدرة التى تذهله هو نفسه قبل أن تصيب الحشد بالذهول أين تكون هذه القدرة حين يعنفه أبوه (وكان لايزال يعنفه أحيانًا) فلا يجد كلمة ترد بها عليه؟ حين تعاتبه زوجه؛ لأنها لاتجد ماتقول لأولاده حين يمضى يوم أو يومان دون أن يروا أباهم؟ حين يحاول أن يكتب مقالا لجريدة «المحروسة» التى صرح بها لسليم نقاش بعد سفر أديب إسحق والتى أصبح يكتب كل حرف فيها؟؟ إن هذه القدرة مرهونة بهذا الحشد لا بشىء غيره لايكاد يقف أمامه، لايكاد يبصر مئات الوجوه، والرءوس والثياب تغطى وجه الأرض، مايكاد يسمعها تلغط فى انتظاره وتظل حتى بعد أن يطل عليها تلغط وتتكلم، وقد يقول كلمة أو كلمتين دون أن تكف عن اللغط ولكن ـ ودون أن يدرى كيف يحدث ذلك ـ يسود الصمت وترتفع الوجوه، وكأن مئات من الأيدى اللامنظورة قد امتدت فجأة فجذبتها إلى الوراء بيد، وأسكتتها بالأخرى، ويحس بمئات العيون وهى تودع فى نفس اللحظة آلاف المرئيات التى كانت تجتذبها منذ قليل ويختفى العالم بالنسبة لها وله.. وإذ ذاك فقط تأتى تلك القدرة تتفجر، الكلمات كلها ملك له، إنه لايختار لاينسق لايفكر كأن كل شىء أعد من قبل، الحشد يصبح جزءًا منه، أو ربما العكس ثمة دائرة مثل دائرة الكهرباء.. لقد اتصلت الدائرة وسرى التيار إلى الحد الذى يستحيل فيه أن تعرف أين البداية والنهاية أين مصدر القدرة؟ إنه لا يحاول أن يقنع الناس بشىء، يكفى فقط أن يتكلم أن يرفع صوته عاليًا، ليسمعوا الصوت.. صوتهم وكأنهم يتذكرون أشياء كانت فى رءوسهم أنه يصبح مجرد رأس لهذا الحشد، رأس ينظم تجاربه وخبراته وينطق بما فى ضميره، ولكن كل هذه الروعة وهذا السمو ينتهيان حين يتفرق الحشد وحين يصبح من جديد وحيدًا، إن الحشد هو الحشد، إنه يملأ فناء المدرسة ولكنه لن يملأ أبدًا لحظات الوحدة، لن يستطيع أن يضع يده فى يده كما كان يفعل مع أديب إسحق ويتسكعان فى الشوارع فى نهاية كل سهرة ويهمسان بكل، شىء وبأى شىء، وقد ينتهيان إلى مسجد أو كنيسة فيدخلان ويصليان كل صلواته، ويتحدثان عن الله أو الناس بلا خوف ويشعران أن فى أعماق كل منهما من التسامح والمحبة مايغرقان فيه كل خلاف بينهما فى الدين أو الوطن، ويحسان أنه فى كل فرد وفى كل مجتمع وفى كل دين وفى كل موطن شىء صاف وعميق، شىء يمكن أن يلتقى حوله الجميع، شىء عبر عنه أديب إسحق بتلك الكلمة التى لاينساها نديم أبدًا:

«ان فى قلب أعدى أعدائك مكانًا للحقيقة»!!!

«وإذا كانت صداقة الحسد لاتملأ لحظات الوحدة فإن العلم لايملأ المعدة، والطعام لايغنى عن الثياب»

هكذا كان يفكر عبد الله نديم كل صباح وهو واقف فى فناء المدرسة يرقب تلاميذه وهم يتكدسون فى جوانب الفناء بحثًا عن مكان تصل إليه الشمس!

كان شتاء الإسكندرية قد حل منذ أسابيع، وإذا كان بعض الناس يعرفون مقدم الشتاء حين يهطل المطر وإذا كان بعضهم لايحسون به إلا حين يلح عليهم ذووهم بارتداء ملابس ثقيلة، فإن الفقراء دائمًا يكونون أول من يدرك مقدم الشتاء، فأجسادهم هى التى ترتعش أول ارتعاشة فى فصل الخريف، وعن صدورهم تنبعث أولى نوبات السعال، وهم أول من يتلمس أشعة الشمس ويدرك قيمتها، فهى الشىء الوحيد الذى يمنحهم الدفء بلا ثمن، وهم يخافون الليل، ويستيقظون مبكرين فى انتظار الشمس التى تتأخر دائمًا فى ليالى الشتاء، وحين تأتى تخفيها الغيوم، وإذا كانوا تلاميذ صغارًا فهم يكونون أول من يذهب إلى المدرسة، لأنهم حتمًا سيلتقون بأول شعاع فى فنائها الفسيح حيث تكون بيوتهم فى العادة مدفونة داخل حارة ضيقة أو فى أسفل بيت قديم!!

وكان نديم يبصر كل صباح أغلب تلاميذه وهم يتداخلون بعضهم فى البعض الآخر بجوار سور الفناء وأسنانهم وأطرافهم كلها ترتعش وتصطك فى لحن جماعى مثير، وكان قد فعل الكثير من أجل أن يفتح لهم مدرسة، وأن يقدم لهم وجبة طعام بين حين وآخر، وكان يسأل نفسه:

ـ هل بمقدروه أن يفعل شيئًا آخر؟ وماهو؟

لقد كان منذ شهور قليلة عاجزًا عن أن يقدم شيئا لأولاده كان أبوه هو الذى يطعمهم ويطعمه هو كذلك، وكان يستدين لنفسه وهو الآن يتسول من أجل هؤلاء! فأى طموح بل أى جنون قاده لأن يفتح عل نفسه كل هذا البلاء!! ولكن متى كان عاقلا؟ إنه لم يكن كذلك فى يوم من حياته فلماذا يحاول الآن أن يكون كذلك؟

إنه يحرر جريدة المحروسة كلها دون أن يتقاضى مليمًا من سليم نقاش، ويتسول من الحسد الذى يفد إليه كل أسبوع ليستمع إلى خطبه، وكان عامل تلغراف وأدباتيًا، ووكيلا

لدائرة توتنجى بك ومعلما لأبناء عمدة، وهاهو الآن مدير مدرسة وخطيب الشرق وخادم الإنسانية فأى عمل آخر لم يقم به بعد؟ وفى صباح بارد هبطت عليه الفكرة كأنما لأول مرة، إنه لم يشتغل بعد بالتمثيل، وقفز درجتين من السلم، وضحك الأولاد الذين كانوا فى الفناء واستمر يضحكهم بكلماته وحركاته كأنما ليقنع نفسه بأنه يمكن أن يصبح ممثلا ناجحًا!!

ولم يدهش الأولاد فلم تكن تلك أول مرة يضحكهم فيها، وفوجئ بأن الفكرة لم تكن جديدة عليه، لقد حلم مرات عديدة بأن يؤلف ويمثل، وتذكر أديب إسحق وأسفه؛ لأنه لم يلتق به قبل أن يغلق مسرحه، وأعاد التحديق إلى مجموعة التلاميذ، التى كانت تحيط به وبدا له أن كل شىء مهيأ ولأول مرة لتحقيق فكرته، إنه يدربهم على الخطابة فلم لايدربهم على التمثيل ويصبح فناء المدرسة مسرحًا، وسليم نقاش بخبرته لايزال هناك وليس أمامه سوى أن يصبح هو المؤلف الذى توهم أنه كامن فى جلده، وحلم بالمتفرجين والتذاكر والنقود وبملابس التلاميذ المرتجفين من البرد، وأخيرًا بتحقيق حلمه بأن يصبح كاتبًا للروايات المسرحية وممثلا مثل يعقوب صنوع! أكان يفكر لحساب الأولاد أم لحسابه؟ هؤلاء الأوغاد الصغار إنه لايحاول أن يصنع لهم شيئًا إلا وصنعوا له أعظم منه!!

* * *

واختفى أسبوعًا واسبوعين وثلاثة، وحين أبصره سليم نقاش كاد يصرخ فى وجهه فلم يكن قد كتب كلمة واحدة طوال هذه المدة مع أن صحيفتى «المحروسة» و«العصر الجديد» تعتمدان على قلمه. ولكنه احتجز صراخه حين رأى «نديم» يضع أمامه كومة من الأوراق.

- ماهذا؟

- ألا تعرف القراءة؟

- أحب أولا أن أعرف أين كنت طوال هذه المدة لقد فتشت عنك المدينة كلها!

- اقرأ وأنت تعرف!!

وأخرج سليم نقاش من جيب سترته منظارًا مسحه بطرف منديله كما مسح شفتيه بطرف لسانه وعكف ساعة كاملة يقرأ الأوراق التى كانت أمامه رافعًا رأسه أحيانًا

ليطلب من نديم قراءة كلمة، أو ليسأل عن معناها، مرسلا ضحكة قصيرة أو طويلة ماسحًا أنفه الطويل الضخم بمنديل آخر كان مكورًا فى جيبه، ثم رفع رأسه إلى نديم الذى كان صامتًا طوال الوقت، محاولا أن يفهم شيئًا من ملامح وجهه الجامدة وقال لنديم مرة ثانية:

- ماهذا؟

وحاول نديم أن يوضح له بلهجة من يعتذر عن ذنب ارتكبه أن كل مايهمه فى الموضوع أن يودع الأفكار التى يكتبها فى مقالاته فى شكل تمثيلى ليجمع بعض النقود للمدرسة ممن يتفرجون على هذه الرواية، وأنه لم يطمح إلى أن يكتب شيئًا مثل الروايات العظيمة، التى كانوا يؤلفونها، وأنه إذا استطاع أن يقدم بعض العون فى... وقاطعه سليم نقاش وهو يبتسم ابتسامة متراخية:

- كفى، لماذا تجيب على شىء لم أسأل عنه؟

- وما الذى تسأل عنه؟

-- هل تظن الناس بلهاء حتى يدفعوا نقودهم لرؤية رواية تشتمهم فيها؟

- لم أشتم أحدًا يانقاش!

- إنك لم تترك فيما تسميه رواية «الوطن» تلك، طبقة أو طائفة إلا ورحت تقذفها بالأحجار، لم يسلم أحد من لسانك، الأغنياء والأتراك والموظفون والفلاحون والحكومة وحتى الفقراء لم يسلموا من لسانك حتى الخديو الذى تمدحه فى نهاية الرواية لم يسلم من تعريضك به!

- إنه مجرد نقد لبعض الأوضاع فى قالب فكاهى!

- تظن أنك تستطيع خداع الحكومة بهذا القالب الفكاهى،

وتتذرع بمساعدة التلاميذ، وتحاول أخيرًا أن تجرنى معك فى هذه اللعبة.

- لن أجبرك على شىء يانقاش!

وواصل سليم نقاش: وبدلا من أن تستمر فى كتابة مقالاتك للجريدة كما وعدتنى، تندفع فى جنون إلى محاولة قد تنتهى بغلق فمك وغلق مدرستك إلى الأبد! إذا كنت تريد حقًا أن تساعد التلاميذ فمزق هذه الأوراق.

– لاتخف يانقاش فالمسألة أهون من أن...

ـ ومن يجرؤ الآن على نقد الأوضاع التى تنقدها هل تظن نفسك أقوى من شريف باشا ورجاله، الذين أصبحوا لايقولون كلمتهم إلا سرًا وفى منشورات تهدد حاملها بالهلاك!

ـ وإذا علمت أن الخديو نفسه سيحضر تمثيل هذه الرواية؟

فبهت سليم نقاش، وظل لحظات يحدق فى نديم دون أن يفتح فمه بكلمة:

ـ لا أصدقك... وإذا كان أحدهم قد خدعك فلا شأن لى بهذا!

ـ لاتقلق وانس هذا الموضوع، ودعنى أسألك ما رأيك فيما قرأت كرواية للتمثيل؟ ثم أضاف: أنت تفهم فى هذا يانقاش.

ورغم هذا الإطراء ابتسم سليم نقاش فى دهاء وقد تذكر أن «نديم» كان يعتذر عنها منذ لحظات وقال:

ـ رديئة، ولكنها قد تضحك الناس ثم استدرك (أعنى إذا مثلت) الروايات لابد أن تشتمل على حب وخيانة وصراع، ولكن لاأحد هنا يفهم ذلك، ولاأنت نفسك، ولهذا فقد تعجب الناس.. أجل قد تعجبهم!

* * *

– ورجع نديم إلى مدرسته وتلاميذه ومجموعة الأوراق التى يسميها رواية الوطن، لم تكن هذه أول مرة يستنجد فيها بنفسه فتنجده، وانتقى من مجموعة التلاميذ التى كان يدربها على الخطابة أوفرهم استعداداً وراح يشرح لهم الموضوع، وكانت أول

صعوبة واجهته حين أفهمهم أنهم سيتأخرون كل يوم عدة ساعات بعد الظهر، إنه اكتشف أن بعض صبيانه يؤدون أعمالا تساعدهم على المعيشة بعد انصرافهم من المدرسة، ولكنه كان يندفع كالمجنون لتنفيذ فكرته!!

ـ سأدفع لكم ما تأخذونه مقابل هذه الأعمال! سأدفع لكم أكثر.

ـ لكن...

ـ وسأتصل بمن تعملون عندهم حتى لا تتأثر علاقتكم بهم وسأشرح الأمر لأقاربكم!

ومضت أيام غرق نديم خلالها فى تدريب التلاميذ، وفوجئ نديم لا بمواهب التلاميذ وحدها، بل بموهبته هو كذلك، كانت السنون الطويلة التى فكر فى أنه أضاعها هباء، سنوات التشرد والضياع والتصعلك فى بلاد الله الواسعة، تؤتى كل ثمارها المباركة، وكان الاطفال فى الشوارع المجاورة للمدرسة، الأطفال الذين كانوا يجيئون للتفرج مرة واحدة فى الأسبوع قد أصبحوا يجيئون كل ليلة تجتذبهم أضواء «الكلوبات» القوية، ويتسلقون نوافذ المدرسة ليروا التلاميذ وهم يتدربون، ويسمعون كل ليلة «نديم» وهو يلقى بتوجيهاته ويصيح ويحرك يديه وملامح وجهه فى أوضاع بدت لهم غريبة ومضحكة.

ـ سالم.

ويلتفت تلميذ صغير غارق فى جلباب ريفى واسع ويختفى رأسه تحت لبدة من الصوف ندت من طرفها خصلة من شعره النافر.

ـ يجب أن تنسى أنك سالم، من الآن اسمك «أبو دعموم» من الآن أنت فلاح... وأنت الآن تشكو إلى «أبو الزلفى» من الضرائب وهو يبادلك الشكوى، ولابد أن يكون ذلك بلهجة تعبر عن الضيق والسخط.

أبو دعموم: أدحنا متحرحرين ياخى فى المال والمقابلة والسدس ومصاريف الرى والسهوم والمصلح والشخصية وعوايد البهايم والوطنية والأغنام والنخيل والدخولية!

أبو الزلفى: لا وفاتك ياخى عادة الحكيم والمهندس والمزين والطوافة وقواسة المدير وخدامينه، وطلوع البهايم للشغل والبنات للقطن والأولاد لتنقية الرز والحطب للوابورات وعليقة خيل القواسة وتبنهم!

أبو دعموم: لا.. ولاتنساش شيخ البلد واخد البهايم فى غيطه والنسوان فى دواره والأولاد تجرى وراه ويروح يداين من الخواجات ويجى يقول هاتوا يا فلاحين، وأولاده دايرة ترقع فى أصداغنا وخدامينه بتلطش فينا، ونسوانه بتسفخ لنسواننا!

ـ أستاذ... أستاذ...

كان أبو دعموم هو الذى يرفع أصبعه وهو يتلوى داخل ثوبه الفضفاض مشيرًا إلى ضرورة انصرافه لدورة المياه فيشير إليه نديم بالانصراف، ويمضى وسط ضحكات زملائه متعثرًا فى ثوبه، ويتجه نديم مرة أخرى إلى «أبو الزلفى» ناصحًا ومتوعدًا وعاركًا أذنه.

ـ يجب أن تفهم ما أقوله لزميلك... أنت تتكلم كما لو كنت تقرأ فى كتاب المطالعة بينما أنت تذكر أشياء توجع قلب الفلاح فلابد أن تذكرها كما تذكر شيئًا مؤلمًا!!

* * *

وكان نديم يرتدى ثياب كل شخصية ويمثلها أمامهم مرة أو مرتين... وبرع التلاميذ فى تأدية أدوارهم بأسرع مما توقع نديم، وذاع الخبر فى الإسكندرية، ودهش سليم نقاش لاستمرار نديم فى تلك اللعبة، وأعاد تحذيراته!!

ـ كن عاقلا يا نديم!..

ولم يكن نديم مجنونًا حين فكر فى روايته، وربما لم يكن عاقلا كما كان فى هذه الأيام!! كان قد بدأ يلمح بوادر تصدع فى العلاقة بين الخديو من ناحية ورياض باشا من ناحية أخرى، وأصبح واضحًا لأصحاب العيون النافذة أن رياض باشا يعتمد على شىء واحد لاغير هو ثقة قنصلى إنجلترا وفرنسا به، تلك الثقة التى استحقها عن جدارة فى الماضى وراح يدعمها الآن غير عابئ حتى بالخديو نفسه، وأعلن الخديو الذى لم يكن الكتمان أحد صفاته لمن حوله ضيقه باستبداد رياض باشا الذى لايعرف



حدوداً يقف عندها، وحاول الخديو فى رحلته إلى الصعيد والوجه البحرى فى ذلك الشتاء أن يكسب الناس حوله.

ولم تنجح هذه الرحلة إلا فى كشف هذا التصدع وتعميقه، وانتهز نديم الذى كان يعرف من قديم بركة كل تصدع فى السلطة هذه الفرصة، وتقرب من الخديو، وطلب أن تكون الجمعية تحت رئاسة ولى العهد، وشجعه قبول الطلب على أن يتمادى فى مطالبه، وأفهم أن القصر يبارك جهوده فى خدمة الوطن، وفهم هو من تلقاء نفسه أن القصر لن يغضب من رواية تصور الظلم الواقع على الشعب ما دامت تضع فى الخديو أملها فى رفع الظلم! ثم طلب أن يحضر الخديو تمثيل الرواية، ولم يفاجأ هذه المرة بقبول طلبه!!

فوجئ فقط بأن «سالم» الذى يمثل شخصية «أبو دعموم» قد تأخر يومين عن المدرسة وعن التدريب على المسرحية، وسأل عنه زميلا يسكن قريبًا من بيته فعلم أنه مريض، ولم يفكر فى البحث عن تلميذ آخر وحتى إذا احتاج الأمر لذلك فلابد من زيارته، أولاً للاطمئنان على أذكى تلاميذه، ولم تكن تلك أول مرة يزور فيها تلميذا فى بيته، ولكنها أول مرة يزور فيها تلميذًا بلا أب، فقد كان يدرك مدى الحرج الذى يسببه له بتلك الزيارة إذا لم يكن هناك رجل غير الصبى فى البيت كله، ولكن حين يتعلق الأمر بسالم وبدوره فى هذه المسرحية المهمة التى قد يحضرها الخديو بنفسه، فالأمر يستحق المجازفة، وهناك أدرك نديم أنه جازف فعلا، كانت أمه وحدها هى التى فتحت الباب لنديم، وكانت الحمى الشديدة التى جعلت الصبى يهذى تحت حرارتها هى التى جعلت الأم و«نديم» معًا لايقيمان وزنًا كبيرًا للتقاليد، التى كانت لاترحب بمثل هذه الزيارة، وسأل الأم عن أقارب الصبى وفهم من كلماتها القلقة ومن أول نظرة ألقاها على ما فى البيت من أثاث أنهم لابد أكثر بؤسًا منها... وأن الأسرة الصغيرة كانت تعيش من عمل الصبى بعد الظهر ومن بعض مساعدات من خال الصبى المقيم بالمنصورة، وقد فهم هذا فيما بعد، ولكنه فى هذا اليوم خرج مسرعًا ليعود مرة بطبيب المدرسة، ومرة أخرى بدواء للمريض ومرة ثالثة ليعود بطعام يناسب المريض، وكان هذا كله أكثر مما تحلم به أرملة مسكينة كهذه، وحارت كيف تشكره لم تكن قدمت له حتى فنجانًا من القهوة!

وحين بدأ رجلها الصغير يفيق من أثر نوبة الحمى ويتعرف على أستاذه ويفهم ما حدث ويبتسم فى وهن حين سأله نديم عن صحة «أبو دعموم» الآن، حينذاك فقط تذكرت موضوع التحية التى كانت قد نسيتها، وعادت تعتذر وترجوه أن يبقى قليلا، ولكنه أصر على الخروج ووعد بأن يزوره مرة أخرى!!

* * *

ـ هل يزوره مرة أخرى؟

ـ لا.

كان نديم هو الذى يحدث نفسه، كان وقتها فى السادسة والثلاثين من عمره أب لأربعة أطفال، ومدير مدرسة، وكاتب فى الصحف، وكما يزعمون خطيب الشرق! هل نسى شيئًا؟ وصاحب جوقة للتمثيل كذلك!؟ فهل يستطيع رجل هذا شأنه أن يخدع نفسه؟ قد يحاول خداع الخديو، أما أن يخدع «نديم» فلا!!

إنه يعرف نفسه جيدًا، يعرف أنه بقى فى هذا البيت أكثر مما ينبغى، ولاطف الصبى أكثر مما يجب، وسمح لمشاعره نحو الصبى والتى كانت حقيقية أن تتدفق وأن تتجاوز الحدود، وأن أم الصبى التى كانت فى مثل سنه تقريبًا جميلة إلى حد لم يستطع معه أن يمنع نفسه من رؤية وجهها فى كل مرة سقطت من فوقه طرحتها الرقيقة وما أكثر ما سقطت فى لحظات الجزع والقلق من أجل صبيها المريض حتى ما عادت تبالى بأن تعيدها إلى مكانها، كانت جميلة ذلك الجمال الذى لايستطيع الفقر مهما بلغ أن يمسه، وقصارى ما يفعله أن يضيف إليه لمسة شحوب وهزال ليغدو أرق ليصبح قادرًا على أن يثير لا الإعجاب فقط ولا مجرد الرغبة بل الحنان والعطف أيضًا، ولم ينس الطريقة التى كانت تنظر بها إليه نصف نظرة، أو تنظر بها إلى شىء هو فى طريقه، ولقد رأى فى عينيها وفى أقل وقت ممكن رعشة الأمل والجزع والتساؤل والحيرة والامتنان، وكان من الصعب أن ينسى هذه المرأة التى لايعرف لها اسمًا! ولا أن ينسى ذلك الشعور الذى جعله يسرع الخطى فور خروجه من البيت، وكأنه يخشى أن يراه أحد، وقتها لم يحس ببرودة الجو ولم يحجب عنه الظلام الذى فاجأه وغمر الكون ما فى الكون من جمال!!

إنه يعرف نفسه، ولهذا قرر غير متردد ألا يزور الصبى مرة أخرى دائمًا كان يحلم بالحب ويفتش عنه بقدر ما يخافه، وفى كل مرة التقى به لم يكن يعنى له غير العذاب، سخرت منه خادمة فى فرن أبيه، وفى القصر، فى المرات القليلة التى كان يلتقى فيها صدفة بإحدى الجوارى وهو يسلم أو يتسلم برقية عاجلة، كن يتندرن بشكله، ولايرين فيه غير شىء مضحك!

وفى المحروسة فتحت له الباب مرة ابنة صديقه عبدالعزيز حافظ، ولمح فى وجهها نفس الانطباعة التى أصبحت لاتخفى عليه وحين حاول أبوها أن يعرض عليه بلباقة فرصة الزواج بها تجاهل العرض، وحين طال شوقه للمرأة تزوج، كانت تلك هى الطريقة لكى تحبه امرأة، أن تتزوجه أولا وبعدها قد تكتشف أنه يستحق حبها، وحين بدأت تحبه، كان هو قد بدأ ينسى الحب، وها هو يكتشف أن الرجل لاينسى الحب حتى ولو كان فى السادسة والثلاثين من عمره وأبًا لأربعة أطفال ومدير مدرسة.. إلخ ولكن أى شىء أحب فى هذه المرأة، أى شىء حدث خلال هذه الزيارة القصيرة التى لاتريد أن تنتهى، مئات الأشياء، مئاتها، ولقد راح يذكر لأحد غير نفسه لما شك أحد فى جنونه! يكفى أنه لم يجد تلك الانطباعة التى كان يظنها جزءًا من قدره، لم تكد تسمع اسمه حتى دعته للدخول، هى تعرف عنه الكثير دون شك! ولقد تخطت خلال هذه الزيارة القصيرة حدود الخوف والريبة والحيطة والتحفظ، وقالت له فى بساطة شديدة:

- أين وضعت زجاجة الدواء؟ ثم أضافت فى شبه تأنيب:

- كانت فى يدك! وضحكا معًا بلا أدنى تحفظ حين اكتشفا أنها كانت لاتزال فى يده!!

وكانت الانطباعة التى لمحها بعد أن أحكمت الطرحة وهى تودعه جديرة بأن تجعله أسعد رجل ورغم ذلك لم يغير من قراره، ولكن قراره نفسه لم يمنعه من أن يرسل زملاء سالم للسؤال عنه، ومن إرسال بعض الإعانات المدرسية هذه المرة، وحين رجع سالم إلى المدرسة، لم يمنعه هذا القرار من أن يستمع بدقة مذهلة إلى كل كلمة قالها يمكن أن تشى بأثر زيارته تلك، وحين أفهمه الصبى أن أمه تشكره جدًا وتتحدث للجميع عن هذه الزيارة أسعده ذلك بقدر ما أقلقه!

ولكن «سالم» أصبح بشكل ما أعز تلاميذه، وأصبح نديم يجد فى اهتمامه بالصبى سعادة لاتوصف، وازداد تعلق الصبى به، ومن المؤكد أنه يحكى لأمه ما يفعله من أجله، وكانت أحاديث الصبى معه تحكى رجع الصدى هناك، أن أمه هى الأخرى بدأت تهتم بأخبار المدرسة. وأخبار الرواية، وأخيرًا بأخبار نديم نفسه، إنها تسأل ولدها عنه، وتكرر شكرها بلا مناسبة، إن الصبى يتحول إلى مرآة شفافة يتبادل خلالها رجل وامرأة كل ما يقدران عليه من الإشارات خلال مجتمع لم يكن يسمح لهما بشىء أكثر!!

* * *

كان نديم قد ذاق طعم النجاح فى محافل الخطابة! وقد ذاق طعم الشهرة فى كل مجتمع حل فيه أو طرد منه! ولكن بعد أن مثلت رواية «الوطن» كان فى حاجة إلى أن يلمس فى كل لحظة شيئًا صلبًا: يد صديق أو حافة منضدة، أو ذراع مقعد ليتأكد من أن ما يحدث، ما يراه، ما يسمعه، شىء حقيقى وليس مجرد حلم غريب سيصحو منه بعد قليل!!

فى الماضى حلم بأشياء كثيرة وكبيرة لم تتحقق، وفى الحاضر حلم حلمًا واحدًا صغيرًا، وكانت الجمعية الخيرية ومدرستها أول تجسيد له وها هو حلمه الصغير ينتشر على نحو مثير، إنه يخرج من هنا كل ليلة من نفس فناء المدرسة، الذى أصبح مسرحًا يتسع لمئات المتفرجين يخرج مع المئات، يصبح ضمن أحلامهم وأحاديثهم وضحكاتهم وفى كل ليلة يأتى آخرون من الإسكندرية ومن البلاد المجاورة لها ليتفرجوا على صبيان نديم وقد أصبحوا «أبو دعموم» الفلاح الذى يئن من الضرائب و«مظهر أفندى» الموظف الذى لايفيق من السكر، والسيد على الذى يعشقه الرجال و«أبو رجب» الصياد الذى تتحكم الريح فى رزقه، و«عزت بك» الذى تعلم فى أوروبا ولم يفد أحدًا بعلمه وكل الشخصيات التى تمثل طوائف الشعب وطبقاته!!

ولأول مرة يرى الناس أن شكاواهم ومواجعهم، التى كانوا يهمسون بها فى حذر قد أصبحت حديثًا يردده كل ليلة صبيان نديم على مرأى ومسمع من المئات.

والحل؟.. لقد همس به يومًا لأحد عشر رجلا فى الإسكندرية وهاهو الآن يصيح به كل ليلة على المسرح أمام طوائف الشعب وطبقاته كان هو الذى يمثل دور «الوطن» صورة رجل بائس زرى الهيئة يمر به الناس فى عرض الطريق فلا يرون فيه إلا مادة

للسخرية!! وشيئًا فشيئًا تشق نداءاته طريقها إلى قلوبهم فيقف البعض ويواصل البعض سيره أو سخريته، ولكن الوطن أيضًا يواصل نداءه يواصل حلمه، وكلمة من هنا وكلمة من هناك، يتبلور الحلم حلم الخلاص له وللناس، ويتسلل إلى قلوب من يمرون به، وفى الوقت نفسه إلى قلوب من يتفرجون، يتسلل وسط الضحكات..!

* * *

الوطن ـ وابلوتاه، ضاعت الإنسانية وصارت الناس بهائم ، العلم عبارة عن المعارف والصنايع لا ورق القبانى!

أبو رجب ـ احنا ناس شغاله يا عم ونجيب المعارف منين؟ ما تجول للى عندهم فلوس وبايتين يركوا عليهم زى الفراخ!

الوطن ـ يا ولدى المعارف فى المدارس والورش وإذا كنتم تبتدءوا يتبعكم الأغنياء فإنهم عمى عن طريق التقدم إلا بمرشد والفقراء هم أصل كل شىء!

أبو رجب ـ تعالى يا حاج رزيجه نلم عشر فليكيه نشاورهم.

* * *

وفى الوقت الذى كان فيه نديم مشغولا بجمع النقود التى تدرها روايته مناقشًا أعضاء مجلس إدارة الجمعية فى الطريقة، التى ينبغى أن تستغل فيها هذه النقود، مؤكدًا ضرورة البدء بشراء ملابس شتوية للتلاميذ الفقراء، متنازلا عن النسبة التى رأى بعض الأعضاء أنه يستحقها من دخل روايته كمؤلف لهذا الغرض، فى هذا الوقت كان مسرح روايته يمتد ويتجاوز فناء المدرسة. ففى كل شارع وفى كل حارة وأحيانًا فى بعض البيوت كان من الممكن أن تتعثر بمجموعة من الصبيان أو التلاميذ يمثلون رواية «الوطن» لابنصها لكن بروحها، كانت هذه الروح تسرى فى المدينة، وكان ثمة صبى صغير ـ أطول الصبيان قامة ـ يلعب دائمًا دور الوطن الذى يستنجد بالمارة لينقذوه، ليعيدوا له مجده القديم العظيم، وقد تتغير الكلمات قد تزيد أو تنقص، ولكن الرواية كانت شديدة البساطة، وكانت مهلهلة إلى الحد الذى يسمح للأطفال بدورهم أن ينافسوا «نديم» فى تأليفها!!

وفى المدرسة كان التلاميذ قد نسوا أسماءهم القديمة، وأصبحوا لايعرفون إلا بأسماء الرواية، وكان شيئًا مألوفًا أن يشير التلاميذ إلى نديم حتى بعد أن يخلع ثيابه القديمة الرثة التى يمثل بها قائلين: هاهو الوطن قد جاء أو ذهب!!.

وكانت الصحف هى الأخرى قد نسيت «خطيب الشرق» وراحت تتحدث عن نديم «ممثل الشرق» كذلك.

ووقتها علق حامد الأعسر فى مقهى «كليوباترا» دون ضغينة هذه المرة:

- أيكون الشرق ضيعة ورثها نديم عن أبيه؟!

* * *

أما الشيخ «محمد العشرى» الذى كان قد رأى الرواية فى المدرسة والذى كان يتمتع رغم بلوغه الستين بصحة جيدة تساعده على أن يستمر فى التدريس بالجامع الأنور، وأن يستمر فى إنجاب الاطفال، وكان أصغر أبنائه قد التحق بمدرسة نديم، وكان الشيخ العشرى قد أعجب برواية نديم وتحدث عنها إلى كل رفاقه من المشايخ، وتصور كل شىء إلا أن تتحول الرواية إلى دروس فى كراسة ابنه وحين زاره أصدقاؤه من المشايخ راح يقرأ لهم وهو يخبط كفًا بكف:

- انظروا، هذا درس الإنشاء، اكتب رسالة إلى «أبو دعموم» تشرح له فيها العيوب التى لاحظتها على شخصيته ووضح له ماذا يفعل لكى يتخلص منها؟

وضحك الشيخ إبراهيم السرسى وراح ينظر فى الكراس ليتحقق مما سمع، ولكن الشيخ العشرى راح يسحب من حقيبة ابنه كراسًا آخر وهو يقول: هل تصدق؟ هذا كراس الحساب! وراح يقرأ بصوت مرتفع ليسمع الجميع:

يقول «أبو الزلفى »: واللا الداهية التقيلة اللى هو الصريف لما يفضل الواحد يديله يوم ٢ جنيه ويوم ١٠ ريال ويوم ٣٠ بريزة ويوم ١٠٠ قرش وبيجى آخر السنة يقول وصلنى منك ٧٠ قرش وفاضل عليك ١٠ جنيه!

- ما حقيقة المبلغ الذى وصل الصريف؟ وما المبلغ الذى حاول أن يستغفل فيه «أبو الزلفى»؟ ولماذا يستغفله؟

وقال الشيخ محمد جاد دهشًا: إنه يجمع بين درسى الحساب والإنشاء! وعقب الشيخ السرسى ضائقًا: ولكن هذه اللغة العامية كيف يجعل منها رءوس موضوعات للإنشاء؟

وصمت المشايخ فجأة وقال الشيخ العشرى:

- فى هذا معك حق ولابد أن أكلمه، لابد!

يقع «بار تريسته» قريبًا من حى الجمرك، وهو واحد من المشارب التى ظهرت أولا فى الأحياء الخاصة بالأجانب ثم انتشرت إلى الأحياء التى يختلط فيها الأجانب بالمصريين فى العمل والسكنى ثم تغلغلت أخيرًا فى الأحياء الشعبية.

وفى بار تريسته حيث يلتقى المصريون والأجانب، كان يسهر فى العادة بعض موظفى الجمرك من المصريين!

وفى تلك الليلة صاح «رفعت» وهو موظف نحيل عصبى ميسور الحال يغطى إهماله فى العمل، بنوبات كرم مفاجئة يدعو فيها رؤساءه وزملاءه إلى الشراب فى هذا البار! صاح رفعت وسط رفاقه:

- الليلة ستشربون جميعًا على حسابى كأسًا فى صحة عبدالله نديم، قال الخواجة الذى كان يمسح المنضدة بفوطة فى عنقه والذى كان يسمع بالاسم لأول مرة وقد ظنه زبونا جديدًا وفد على البار:

- من يكون عبدالله بك نديم؟ أحب أن أتشرف.

صاح شاب قصير أكرت الشعر كان يجاور رفعت:

- أولاً عبدالله نديم ليس بك ولا حتى أفندى إنه خوجة، أتعرف معنى خوجة يا خواجة؟

وضجت الجماعة بالضحك، وضحك الخواجة مجاملا، وهز رأسه مؤكدًا أنه لم يفهم شيئًا.

قال «رأفت» أطول الموجودين قامة موضحًا الأمر للخواجة:

ـ إنه معلم بمدرسة الجمعية الخيرية وألف رواية يهزأ فيها بخمارتك كل ليلة، ويقول إنك تسرق أموال الزبائن فما السبب؟ لابد أنك خدعته مرة يا خواجه وبعت له خمرًا رديئة.

ـ من يذق خمر تريسته مرة لايسلوها طوال العمر!

ويسأل رأفت:

ـ كم تدفع يا خواجه لو جئتك بعبد الله نديم هنا؟

ـ الخواجه يقدم المشروب والزبون هو الذى يدفع!

ـ أنت خواجه مغفل لو دخل نديم خمارتك لتحدثت عنها الإسكندرية كلها أكثر مما تتحدث الآن عن روايته!

وقال رفعت الذى أعجبته الفكرة جدًا:

ـ ادفع جنيهًا! وحدجه رفعت بنظرة تاجر خبير:

ـ مجىء نديم هنا يساوى عشرة جنيهات على الأقل.

ـ نديم لايساوى عشرة مليمات. هكذا تكلم ذو الشعر الأكرت.

ـ لو كنا نبيعه، لكن مجيئه يساوى الكثير، إن «حسين بك فهمى» مستعد أن يدفع عشرة جنيهات كاملة لمن يدخل «نديم» بار تريسته لقد سمعته بنفسى يقول ذلك فى أوتيل أوروبا وسط مجموعة من الذوات.

ـ ولكنه عضو فى الجمعية الخيرية مع نديم.

ـ وهذا ما يحنقه، إنه يقول كان بالأمس يتسول منا واليوم يشتمنا فى روايته ويسرق الأموال باسم الأيتام ويسكر بها فى بيته!

ـ ولماذا لايقول هذا فى الجمعية؟

ـ يريد أن ترى الجمعية «نديم» متلبسًا حتى يصدقوه:

ـ ليس المهم أن يحضر بل المهم أن يسكر!

ـ المهم أن يدخل برجله ولن يسأل الناس لماذا جاء؟

ـ مجيئه ليس سهلا.

ـ كم تدفعون لو جئتكم به؟ أنا أعرف كيف أجر قدمه!

راقت الفكر «لرفعت» ووعد بأن يهيئ للجميع ليلة مرح كاملة، وبدأت المسألة تتضح فى رأس الخواجه الذى رأى فيها فرصة للكسب والشهرة معًا، ووقف يتأمل الشلة فى فرح صبيانى فصرخ فيه رفعت:

ـ لم تقف كالأبله، لم لاتحضر الطلبات؟

واندفع الجميع يرددون: واحد روم، براندى، كونياك، نبيذ، نبيذ، وصاح رفعت واحد نديم وضحكوا جميعًا، وعلى مقربة منهم كان يجلس أحد الخواجات يحتسى كوبًا من البيرة لم يكن يعرفهم وماكانوا يعرفونه، ولكنه كان يتابع حديثهم باهتمام يدل على أنه يعرف العربية وأهم من هذا كله لم يكن يضحك.

***

قال سليم نقاش لنديم: صحيح أنهم لم يغلقوا مدرستك ولا فمك ولكن ماذا أفدت منهما ما دمت تفكر فى كتابة رواية ثانية، وأنت لم تكتب مقالا واحدًا منذ شهر للمحروسة، أهذا وعدك لى؟ لو كان أديب إسحق هنا أكنت تفعل معه ذلك؟

ـ كانت الروايات فكرة أديب إسحق هل قلت لك ذلك؟

ـ الآن ستقول لى كل مالا أحب سماعه ثم تابع بلهجة الناصح:

أنت لاتفكر فى العواقب يا نديم!! أنت لاتسمع ما يقال عنك!

ـ ماذا يقال عنى؟

ـ أنصار رياض باشا وعلى رأسهم المحافظ نفسه يؤكدون أنه لن يدعك تفلت، أنت لست أعظم من حسن موسى العقاد أكبر تاجر فى مصر وكل ما فعله أنه احتج على إلغاء «المقابلة» فنفاه رياض باشا إلى السودان!

ـ هل قال لك أحد إن أنصار الخديو سعداء بالرواية وأنها ستعرض أمام الخديو على مسرح زيزينيا قريبًا؟

ـ أنت تلعب لعبة خطرة يا نديم، قد يتفق الخديو ورياض غداً لأى سبب ولحظتها لن ينفعك أحد، أنت تحنق الجميع عليك، أنت لم تترك لك صديقاً!

قال نديم وهو يشعل سيجارة ويعطى لسليم أخرى:

ـ رياض باشا هو الذى لم يترك له صديقاً، فالخديو يعانى منه قبل الجميع، والذوات يلعنونه منذ ألغى (المقابلة) ومنذ زاد ضرائب الأطيان العشورية التى يملكونها، وهذه فرصة العمر لكى..

فقاطعه سليم نقاش:

ـ ويلعنونك أيضاً لاتنس ذلك.

ـ أعرف، ولولا سخطهم على الحكومة لما اكتفوا بلعنى! ألم أقل لك إنها فرصة العمر لأكتب رواية ثانية وثالثة؟

ـ اكتب ما تشاء ولتحل بك المصائب!

* * *

ولكن المصائب لم تكن قد حلت به بعد، كان يعيش أجمل أوقات حياته، أجملها كلها، نعم هناك من يلعنونه! ولكن كم يكون عددهم حيال هذه الكتل التى لاتزال تتدفق كل ليلة على مدرسته، وكان يكفى أن يسير فى شارع لترتفع رءوس بعض الناس وترتسم على شفاههم بسمة ويغمغمون بكلمة أو كلمات، وكان يسير دائماً فى حشد من أصدقائه أو صبيانه، الذين أصبحوا أصدقاء وزملاء على المسرح، وكانت الرسائل تنهال عليه من أصدقاء قدماء، وطلاب صداقات وحالمين بجمعيات على غرار جمعيته من أنحاء البلاد وراح يذكر الأيام التى مرت والأيام التى تمر، أحقا أنه عاش تلك الأيام الغريبة التى تذكره بها الرسائل وأنه قطع ذلك الطريق الطويل إلى حيث يتوهم البعض أن جهوده فى خدمة الوطن هى كل ما تبقى لهم من آمال كما تزعم رسائلهم، أيمكن أن يكون قد نجح إلى هذا الحد فى التغرير بمجموعة البلهاء كما كان يقول أديب إسحق؟

ولكن ألهذا وحده أنت سعيد يا نديم تلك السعادة الحارة النادرة..؟ هكذا سأل نفسه ولم يجب، كان يدرك فقط ويحس!! وكان ما يدركه، يشعر به، يتأبى على الكلمات، التى كان يظنها ثروته الحقة، ولكنه اكتشف أخيراً أعظم ثرواته، كانت تلك

الزيارة الوحيدة التى أبصر فيها أرملة شابة جميلة قد أصبحت مع الأيام كنزه الأعظم، لقد حلم طوال حياته بالجمال والحب، ولم يلتق بهما معًا إلا فى هذه الزيارة التى مضت كما تمضى الأحلام الحلوة القصيرة، ولكنها كانت حقيقة هذه المرة، حقيقة لم يجرؤ نديم على أن يتركها تفلت من يده، أو تنسى من خياله، وبعبقرية نادرة ما كان لها أن توجد إلا من توقه الأعظم إلى أن تحبه امرأة جميلة، أمسك بطرف الخيط الرقيق حين أحس أن فى الطرف الآخر يدًا تمسك به، وتحولت لغة الإشارات خلال الصبى الذى أصبح أكثر شفافية من أية مرآة إلى لغة.. لغة مهر فى خلق شفرتها عامل التلغراف القديم!

ولم يعد لديه شك فى أن الأرملة الجميلة تحس به وتفهم لغته! ولكن أى شىء كانت تحمل هذه البرقيات وفى أية صورة تصل؟ كانت تحمل أى شىء، وتصل فى أية صورة مؤكدة إصرارها الحاد على ألا تصبح تلك الزيارة مجرد ذكرى شاحبة وما دام هو يسأل الصبى عن أحواله فقد يمنحها الفرصة لتشرح دائمًا أحوالهم، وكانت بذلك تمنحه بدور الفرصة ليقدم لها العون تارة والعزاء والمشورة تارة أخرى، والنصح والعزاء فيما لايستطيع أن يقدم فيه غيره!

ولكن ماذا كانت تقدم له؟

«السعادة.. سعادته الخاصة الدافئة!»

ـ هل تتزوجها؟

ـ لا...

كان جزء من عقل نديم يسأل وكان جزء آخر يجيب، وهل كانت تنقصه زوجة ثانية؟ إنه يعرف ما ينقصه، وقد التقى به فجأة حين لم يعد يبحث عنه، وكان يحتاج إلى شجاعة لم يكن يملكها ليطرحه جانبًا، ويمضى فى طريقه، ففى تلك الزيارة أضاء فى حياته شعاع، وبرفق شديد وذكاء أشد وضعه فى ذلك الإطار الذى يسمح له بأن يبقى، إلى متى؟

لم يفكر فى هذا طويلا، فلم يكن يستطيع أن يجزم بأى شىء بالنسبة لمستقبله هو، كان يدرك أن الطريق الذى أسلم نفسه له يجعل من حياته ذاتها مجرد مغامرة.. مجرد قدر لايدرى شيئًا عنه. وإذا كان القدر نفسه هو الذى أضاء فى طريقه هذا الشعاع

فلن يطفئه أبدًا، لقد ربط مصيره بهذا الحشد الذى يلتقى به فى كل ليلة وقد أعطى الناس وأخذ منهم، ولكن الحب كالصداقة لايملك أن يلتمسها لدى هذا الحشد، فلأى سبب إذًا يرفض شيئًا يمكن أن يكون له وحده! ما دام قد وضعه فى ذلك الإطار الذى يصبح فيه بدوره وكأنه عمل من أعماله الخيرية!! المهم أن يبقى فهل يبقى؟

* * *

كان أحمد سمير شابًا فى بداية العقد الثالث من عمره، مدرسًا بالجمعية الخيرية القبطية التى افتتحها نديم، وكان قد رأى «نديم» وفتن به فى مطلع العام ١٨٨٠ وتطوع للتدريس معه فى مدرسة الجمعية الخيرية، وأصبح هو ومحمود واصف ومحمد أمين المثلث الذى يحمل أعباء الجمعية كلها، وإذا كان الأخيران يريان فى نديم رفيق كفاح فقد كان هو يرى فيه أستاذًا ونابغة قل أن يجود الدهر بمثله، وكان يتبعه كظله دون أن يجد نديم فى ذلك ما يضايقه!

وفى هذا اليوم الذى توجه فيه إلى بيت نديم أبصر أحد الخواجات يغادر البيت ونديم يودعه خارجه وسأل أحمد سمير وهو يستشعر الخجل والفضول معًا عن الخواجه:

ـ إنه الخواجه «موريس» رجل فرنسى.

وصمت نديم وجلس بجوار أحمد سمير الذى ظلت ملامحه الطفولية تعكس فضوله فأضاف نديم:

ـ إنه صديق قديم يمتلك تجارة وأرضًا، ويأتى إلى هنا كل شتاء ويحب الشرق والمصريين.

ـ تعنى أنه يحب مصالحه هنا.

ـ شىء من هذا وشىء من ذلك ولكن..

ورفع أحمد سمير وجه الطفل إلى نديم الذى عاود صمته الغريب.

ماذا... أنت تخفى شيئا؟

ـ هل تصدق؟.. وحكى له باختصار ما رآه الخواجه «موريس» وسمعه فى بار تريسته، ثم أضاف: هل تصدق؟ إننى شديد الثقة فى الخواجه لكن..

وفوجئ نديم بأحمد سمير يقول:

ـ لايدهشنى ما قاله الخواجه لكن يدهشنى أنك لاتصدقه! وتطلع نديم إلى أحمد سمير الذى كان يعامله كأحد تلاميذه..

ـ لست أجهل أن «حسين فهمى» خنزير سمين لكنه يعرف أننى تنازلت عن حقى فى تأليف الرواية للجمعية، وكان يرجونى أن أشترىَ لنفسى سترة تليق بمدير مدرسة إنه يعرف كل شىء.

ـ لا أدرى كيف أوضح لك! أحيانًا لم أكن أحب أن أقول لك كل ما أسمع حتى لا... لكنك يا نديم أصبحت رجلا لامعًا، وهذا ما يضايقهم ويدفعهم إلى محاولة تشويه سمعتك.

ودق قلب نديم بشدة وسأل: وما الذى تسمعه؟ قل كل شىء سمعته.

وبدأ الاضطراب واضحًا على وجه أحمد سمير واضطرب نديم أكثر منه!!

ـ إنهم يرددون أنك تسعى للشهرة ولايهمك إلا أن تتقرب للخديو لتحصل على منصب فى الحكومة، وأنك تسرق من أموال روايتك بالاتفاق مع محمد أمين ومحمود واصف.. المشرفين على الشئون المالية.

ـ أهذا كل ما سمعت؟

ـ وهل هذا قليل يا سيدى؟

وفوجئ أحمد سمير بنديم يتنفس الصعداء ويخرج سيجارة ويعطيه أخرى وقال نديم:

ـ دعهم يقولون، لن أبقى هنا بعد الانتهاء من عرض الرواية أمام الخديو، ولن أتركهم يغرقوننى فى المهاترات!

ـ أين تريد الذهاب؟

ـ لم أفكر يومًا واحدًا أن أفتتح جمعية وأظل فى حراستها، لقد أطلعتك على رسائل عديدة يطلب أصحابها أن يكون للجمعية فروع فى بلادهم أما هنا فأعتقد أن الأمور ستمضى بجهودكم!!



وفكر أحمد سمير الذى كان إيمانه بنديم لايقف عند حد أن هذا دليل جديد على عظمته فالعظيم يمضى فى طريقه ليؤدى رسالته لايبالى بما يقوله الناس عنه! وكان قد قرأ هذا فى بعض الكتب.

* * *

كانت الحجرة بسيطة ولكنها أنيقة تنم عن الثراء والذوق الفرنسى معًا، وكان نديم يتحدث مع الخواجه موريس، الذى كان فى العقد الخامس من عمره، وإن كان يبدو أصغر سنًا من نديم دقيق الملامح أزرق العينين أشقر الشعر ينضح صحة وحيوية، ودخلت زوجته تقدم بنفسها القهوة، لم تكن الخادمة لمثل هذه الأمور، كانت تعرف «نديم» منذ عرفه زوجها منذ سنوات فى إحدى زيارات نديم للإسكندرية، ومع أن المرات التى التقى فيها نديم بهذه الأسرة كانت قليلة إلا أنها كانت كافية لتوطيد علاقته بها، ففيها صحب نديم الخواجه وزوجته إلى زيارة الأحياء الشعبية والأماكن الأثرية والريف، ووجدا فى نديم دليلا ذكيًا إلى الحياة المصرية ووجد هو فيهما دليله إلى أوروبا التى كان يتوق لمعرفة كل شىء عنها، وكان الخواجه موريس الذى قدم أصلا للتجارة رجلا واسع الأفق، إنسانى النزعة محبًا لأن يفتش فى بلاد الشرق عن ثروات أخرى غير المال!

وحين عاد فى بداية هذا الشتاء وجد صديقه «نديم» قد أصبح رجلا ذا شأن ، وتابع نشاطه، ونقل إليه ما سمعه عرضًا فى بار تريسته وفكر نديم أخيرًا أن يزوره قبل أن يقوم برحلته إلى الأقاليم، وقبل أن يسافر هو إلى باريس كعادته كل عام، وكان نديم قد شرح له فكرة الجمعيات حين دخلت زوج الخواجه بالقهوة فشرح لها بدوره فكرة نديم باختصار لتشاركهم الحديث وأوضح الخواجه فى نهاية حديثه لزوجته:

ـ يريد أن يصنع شيئًا يشبه الشركات فى أوروبا ولكنها شركات وطنية لصناعة التلاميذ فى المدارس فإذا نجحت هذه الخطوة أمكن أن تمول الجمعيات مشروعات للصناعة والتجارة!!

قالت الزوجة:

ـ وفى بلاد كمصر يمكن أن تكون هذه الجمعيات نواة لتكوين رأى عام سياسى!

وأوضح نديم أن فى البلاد حزبًا سياسيًا سريًا هو الحزب الوطنى أما فكرة نديم فجوهرها أن يتجمع صغار الموظفين والتجار والحرفيون وبقروشهم يمكن أن يضعوا أساسًا اقتصاديًا للتعليم وللصناعة وللتجارة فى بلد حكومته ستظل مشغولة لسنين طويلة بمشكلة الديون!!

قال الخواجه وهو يقدم لنديم علبة سجائره:

- ما حكاية حزبكم الوطنى لقد وقع فى يدى أحد المنشورات السرية التى يوزعها!!

وتساءل نديم: وما رأيك فيما تضمنه؟

- إنه يفتح على نفسه جبهة واسعة فهو يندد بتدخل الأجانب وبطريقتهم فى تصفية الديون، ويندد باستبداد الحكومة القائمة ثم يشير إلى مبدأ استقلال القوميات فيثير سلطان تركيا.

- وأى هذه الجبهات يمكن أن تهادن؟

- ليس هذا هو السؤال! السؤال الأهم هو: بأية قوة يمكن أن يحارب الحزب فى هذه الجبهات كلها هل ينتظر الحزب حقًا عون الرئيس فون بسمارك كما ذكر المنشور؟

- الشعب كله يؤيد الحزب!

- ولكن الحزب فيما أسمع يمثل جماعة الأعيان والذوات الذين يعارضون قرار لجنة التصفية فى مسألة «المقابلة» بصفة خاصة.

- وغيرها، هكذا أضاف نديم ثم أوضح..

أنت نفسك ذكرت ما تضمنه المنشور وهو يتجاوز مسألة «المقابلة» وتدخلت زوج الخواجه التى كانت لاتزال تتابع الموضوع باهتمام:

- وهذا يؤكد ما كنت أقصده، فمثل هذه الجمعيات يمكن أن تنظم الشعب ليقف وراء الحزب الوطنى!

وابتسم الخواجه موريس قائلاً لزوجه:

- أنت تؤيدين رأيى فى حاجة الحزب إلى قوة تسنده، ثم التفت إلى نديم متسائلا:

هل تعمل متعاونًا مع الحزب الوطنى؟ ثم أضاف مبتسمًا أم هذا من أسرار بلادكم؟

- ليس فى الأمر أية أسرار، إننى أؤيد أهداف الحزب ولكننى لست منه ثم ضحك قائلا لست من الأغنياء!

- الأغنياء فى أوروبا يقومون بما تحاوله أنت هنا، فلم لاتحاول؟

- أعرف، ولكن ظروفنا تختلف، فالأغنياء هنا إما أتراك لايهمهم كثيرًا أمر الوطن، أو أعيان مرتبطون بالأرض، أما عندكم فالتجار هم الذين يؤسسون الشركات ويخاطرون بأموالهم.

- وأنت لم لاتخاطر؟ لم لا تتجه بدعوتك للأغنياء؟

كانت زوج الخواجه هى التى تسأل، فأجابها نديم:

- لأننى أعرفهم، لأننى قضيت حياتى معهم!!

* * *

كانت هذه الأسرة معينًا متجددًا من الخبرة لنديم، ولم تكن صلته بالأجانب تقف عند حدود هذه الأسرة، ولكن ثقته وحدها هى التى كانت تقف عند حدودها، كان يعرف عددًا من الأجانب يمارسون السرقة والاستغلال فكرًا وعملا ومن خلال هذه العلاقات كانت فكرته عن أوروبا وعن حضارتها تأخذ شكلها الواقعى وتتخلص من ضباب الوهم وعقد النقص، وكان إعجابه بزوج الخواجه موريس أعمق حوافزه للإصرار على أن يكون للتلميذات مكان فى مدرسته، كان مفتونًا بتطلعها وذكائها وحرصها على أن تكون ندًا لزوجها فى كل شىء، ولكن هذا كله لايتجاوز حدود عقله، أما قلبه فقد كان لايزال مدينًا بأحلامه وسعادته للشرق وتقاليده. كان هذا شيئًا لا حيلة له فيه، ومع أنه كان يسعده أن زوج الخواجه تنفذ إلى عقله وتقدره فإن الأرملة الجميلة وحدها هى التى نفذت إلى قلبه، ولم يكتشف مدى تعلقه بها، بهذا الوهم إلا حين قرر أن يسافر للأقاليم، كان الخديو قد شاهد الرواية، وتبرع بمائة جنيه للجمعية، وبمبنى المدرسة البحرية للمدرسة، وطلب من نديم أن يمد للجمعية فرعًا بالقاهرة، فجعله تحت رئاسة صديقه القديم محمود سامى البارودى الذى كان ناظرًا للأوقاف آنذاك، أهناك شىء آخر يمكن أن يقوم به نديم قبل أن يحمل حقيبته ويسافر؟ نعم.. أن يفتتح مدرسة جديدة «بكوم الثقافة» تبرع بنفقاتها أهل الحى ولن يكلفه الأمر سوى خطبة رائعة مطرزة أيضًا بآيات القرآن الكريم، يشكر فيها أهل

الحى، ويخص بالشكر مواطنين هما: متولى محمود وحسن عبدالله وقطعًا سيكون الاسمان ضمن سجعة بارعة، أثمة شىء آخر؟ نعم.. أن يخبر أباه وأسرته بأمر رحلته التى لن تطول مثل رحلاته السابقة!

ـ الأمر لايختلف كثيرًا بالنسبة لنا، لم يكن أحد يراك وأنت هنا.. كان أبوه هو الذى يقول ذلك ثم أضاف فى نبرة خفيضة:

ـ والله يوفقك!

وهل يملك الآن أن يرفع صوته فى وجه رجل يجالس الخديو ويرأس أحد النظار جمعية بالقاهرة هى أحد فروع جمعيته؟ رجل كان لايستطيع أصحاب المتاجر القديمة والمقاهى القديمة والذوات القدماء والشعراء الذين كانوا يملئون ليل المقاهى بالسمر والسهر، أن يصدقوا أنه هو نفس الصبى القديم البائس الزرى الهيئة الذى اقترح أحد الذوات ذات ليلة أن يغسل هو وملابسه فى البحر قبل أن يجلس بينهم، كان نديم إذ ذاك فى الأوج أوج الشباب، وكانت شهرته دونها بكثير شهرة المحافظ نفسه، ولم يكن الغرور وحده هو الذى جعله يسأل نفسه وهو يهم بالسفر مرة أخيرة:

ـ ألم ينس شيئًا بعد يمكن أن يفعله لمدينته قبل أن يسافر؟

والآن ما الذى يمنعه من أن يسافر؟ لقد أوضح لمعاونيه ماذا يفعلون فى غيبته؟ محافل الخطابة تستمر، والممثلون الصغار سيتحولون إلى خطباء صغار، لقد تدربوا ولم يعد واحد منهم يرهب الحشد أو يخافه، لاينبغى أن ينسى الناس موعد الخطبة الأسبوعى و«أبو دعموم» أنجب التلاميذ وأشجعهم سيكون فى مقدمة الخطباء، لقد أفهمه منذ أيام أنه مسافر وظل ينتظر ردًا على هذه الإشارة كلمة أو حتى دعاء بالسلامة! ألا تعنى غيبته عن المدينة أى شىء؟ صحيح أنه لم يكن يراها فيما عدا تلك الزيارة التى بدأت تشحب صورها وذكرياتها ولكنه كان دائمًا معها، مع أبسط المشاكل وأتفه الشئون. وحين صمت الصبى صمت المقبرة سأله نديم بانفعال لم يملك منعه :

ـ ألا تريدون شيئًا قبل أن أسافر؟ ألا تحتاجون شيئًا فى الأيام القادمة؟

ـ أشكرك، لانحتاج شيئًا!

كان الصبى هو الذى يشكره هذه المرة، وكاد يسأله:

ـ هل أمك مريضة أو غائبة؟

ولكنه لمْ يجرؤ وأحس لأول مرة أن الصبى الذى أمامه رجل.. رجل حقيقى وأنه يفهمه وينفذ إلى قلبه، وصمت نديم وكاد يبكى، لحظتها كان فى الأوج.. أوج ألمه وأساه!!

* * *

حين بدأ نديم رحلته كان صيف عام ١٨٨٠ يوشك أن ينتهى.. وحين عاد كان الشتاء يوشك أن يبدأ، كانت رحلة خريفية مباركة انتهت بافتتاح فروع للجمعية الخيرية فى دمنهور ودمياط والمنصورة وميت غمر وشبراخيت، وكانت أخبار فتوحاته قد سبقته إلى الإسكندرية فقد كانت الصحف تنشر أخبار هذه الغزوة الموفقة أولاً بأول مع فقرات من خطبه البارعة، التى طار صيتها فى كل مكان، وكانت عودته كما كان سفره فرصة ليتجدد الحديث عنه لا فى المقاهى هذه المرة بل داخل البيوت وحول مواقد الفحم، ورغم الشتاء كان «حسين بك فهمى» لايزال يخنق بأصابعه الغليظة الكلب الأبنوسى الرابض فى مقبض منشته، ويؤكد لسماره وهو يصب أقداح البراندى وبلهجة الرجل الخبير الذى لاتخدعه الظواهر:

ـ ليس نديم سوى شحاذ ومهرج، لقد أردنا أن نجعل منه رجلا محترمًا ولكن التصعلك فى دمه، فى الماضى كان يتصعلك بأشعاره وأزجاله ونوادره واليوم يفعل الشىء نفسه باسم الإصلاح والتعليم، إنه يعرض السلعة التى تطلبها السوق دائمًا، لقد نجح فى خداع الكثيرين ولكنى لم أخدع فيه قط!!

أما المحافظ فقد كان يتوسط حلقة أخرى من كبار الموظفين ويتكلم بلهجة أهدأ قليلا.. لهجة رجل مسئول يزن كلماته:

ـ انا لا أتهم بدون دليل ولكنى أسأل فقط مجرد سؤال ما معنى أن يجعل نديم أمانة الصندوق فى فروع الجمعية بالأقاليم فى يد حفنة من أولياء نعمته القدامى وأصدقائه مثل محمود الغرقاوى بالمنصورة؟ وإذا كنا نراقب أذنابه هنا فمن يراقب الآخرين هناك؟

وكان نديم يستعيد فى رأسه وهو يتماثل للشفاء، وفى اللحظات التى تخلو فيها حجرته من الزوار أحداث رحلته الأخيرة، منذ أيام كان يفكر فى الموت، وها هو الآن يفكر فى الحياة، كم تبدو الحياة جميلة وحلوة للناقهين والقادمين من دنيا المرض؟ وكم

يبدو رائعًا أن يجد المرء الطعم الحقيقى لشربة ماء، ولقدح القهوة وللسيجارة؟ وكم تبدو مختلفة أحداث حياتنا حين نراها مرة كختام لتلك الحياة ثم نراها مرة أخرى كجزء من سلسلة ممتدة لايعرف نهايتها غير الله؟ ولم يكن يحب أن يتفلسف حين يتعلق الأمر بشئون الحياة الواقعية، ولكنه يبدو أنه حتى الأمور الواقعية تهرب أحيانًا من الطرقات ومن البيوت والحقول والدكاكين والمقاهى لتقتحم عقل المرء وأحيانًا فراش مرضه فلايستطيع أن يمنع نفسه من السؤال والجواب!!!

كان يظن أنه يفهم الناس كما يفهم الفلاح الأرض والتاجر والسلعة، وكان يظن وقد أحرز فى الإسكندرية انتصارًا لم يكن يحلم به أنه لن يفعل شيئًا أكثر من أن يواصل انتصاراته، ولكنه فى تلك الرحلة فهم الكثير ليس فقط عن البلاد التى زارها بل عن الإسكندرية ذاتها، فهم سر انتصاراته فيها، فهم أنه مدين بهذا النصر لهذا المثلث الذى لايشعر به أحد «محمد أمين ومحمود واصف وأحمد سمير». وحين عاد وهو لايزال تحت وطأة المرض حاول أن يشرح لهم تلك الحقيقة فسخروا منه!

قال محمد أمين:

اعذروه فيما يقول، فهو مريض!

وقال أحمد سمير بصدق وبحرارة:

ـ أنت تؤكد عظمتك فالعظيم الحقيقى ينكر عظمته ويشيد بغيره «وكان قد قرأ هذا أيضًا فى بعض الكتب» وعقب محمود واصف متهكمًا:

ـ هذه طريقة العظماء فى تسخير غيرهم!

وكان نديم حين قال لهم ذلك يفكر فى الموت وبأن كل شىء يجب أن يبقى وأن يستمر، وأن الأمور كلها مرهونة برجال مثلهم، كان ذلك بعض ما اكتشفه فى تلك الرحلة!! إنه من السهل أن تثير حماس الناس وأن تلهبهم حين تنطق بصوت مرتفع الكلمة التى ظلت تتردد طويلا فى حلوقهم دون أن يجرءوا على النطق بها، وأن تظل تعتقد وقد أوضحت لهم طريق خلاصهم أنهم سيمضون خلفك إلى نهاية الطريق! ولكن ما أن ينفض الجمع ويتفرق الحشد الذى يملأ ساحة المسجد أو المدرسة أو الخيمة، حتى يعود كل منهم إلى إطاره القديم، مجرد فلاح خلف محراث، أو بائع تحركه أيدى الزبائن الممتدة بالنقود أو موظف تحركه أوامر الرؤساء، هنا فى

الإسكندرية كان قد نجح فى أن يمسك بالحشد مرة كل أسبوع، أن يتعرف عليه، أن يسمع صوته ويحاوره، أن ينتزعه من إطاره أن يصنع أمامه النموذج والمثال، أما فى تلك الرحلة فلم تكن هناك سوى فرصة أو فرصتين ليلتقى بأناس لن يراهم مرة ثانية، ويعرف أنه سوف تطبق عليهم من جديد تلك القبضة القاسية التى لاينفلتون منها إلا وهم فى حماية الحشد، أما هذا العدد القليل الذى يبقى حوله مفكرًا ومتسائلا عما ينبغى أن يفعل؟ ودافعًا بعض النقود.. هذا العدد نفسه لايلبث أن يتكشف عن مخاوف جديدة ومطامع جديدة ومشاكل ربما لم يكن يثيرها أبدًا وهو داخل القبضة القاسية.

* * *

- سمعت أن الحكومة لاتنظر بعين الرضا إلى جمعياتك!

كان تاجر بدين هو الذى قال فى دمياط، وكان قبلها قد دفع جنيهًا كاملاً كتبرع للجمعية، فكان من حقه أن يظفر بإجابة شافية قال نديم ملاطفًا:

- من قال ذلك؟

- ليس من الذوق أن أبوح باسمه، إنه من رجال الإدارة وقاله كنصيحة!

- لكن المدير نفسه شرف حفل الدعوة إلى إنشاء الجمعية.

- ولكنه لم يحضر هو أو غيره من رجال الإدارة أى اجتماع آخر!

- لأن ما بعد ذلك هو عملنا نحن لاعملهم.

* * *

وفى ميت غمر تدخل فجأة رجل حاد الصوت والملامح يرتدى سترة بيضاء مع أنه شديد السمرة، وكان الحديث حول طريقة اختيار رئيس للجمعية ومجلس الإدارة!

قال الرجل الذى لم يكن يعرف اسمه:

- الحاج مسعود ينبغى أن يكون رئيسًا للجمعية!

وتذكر نديم أن الحاج مسعود هذا قد تبرع أمس أمام المأمور بيت قديم ليكون مقرًا للجمعية، وأعتقد أن الرجل لابد من رجاله.

- الانتخاب مبدأ أساسى فى نظام الجمعية.

- هذه شكليات، رئاسة الحاج مسعود ستسهل لكم مشاكل كثيرة.

ـ ما دمت واثقًا من ذلك فثق أنه سينجح فى الانتخاب.

ـ الانتخاب يسبب مشاكل وخلافات!

ـ ليس مع أناس عقلاء مثلكم!

* * *

وفى شبراخيت بدت الأمور تسير على ما يرام لولا أن اعتذر الشيخ شربينى فى آخر لحظة عن البقاء فى الجمعية.

ـ لماذا؟

ـ لن أبقى فى الجمعية ما دام أحمد الزلفى قد انضم لها.

ـ الخلاف القديم بين أسرتيكما ستحله الجمعية.

ـ الجمعية قد تثيره، والمأمور نفسه عجز عن حله.

ـ لكنكما متفقان بالنسبة لمبادئ الجمعية، ويمكن أن تتركا مسائل الخلاف لتحل مع الوقت!

ـ أنا أعرف أكثر منك أحمد الزلفى، لا خير يرجى منه.

ـ لكنه أبدى تعاونًا والمصلحة العامة فى حاجة إليكما معًا.

ـ قلت كلمتى وانتهى الأمر!

* * *

وهكذا اكتشف نديم ضراوة المعركة التى تنتظره، وحقيقة النصر الذى أحرزه فى الإسكندرية، إنه لن يكون فى كل مكان، ولابد أن يلتمس فى كل بلد مثلثًا بشريًا كهذا الذى تركه فى الإسكندرية، وإذا كان هو يستهدف الكثرة، الشعب المقهور الذى تعتصره القبضة القاسية فلابد أن يكون ثمة نواة تتجمع حولها هذه الكثرة مرة ومرات حتى تكتشف تلك القوة التى يمنحها التجمع، فتحافظ عليها كما يحافظ المرء على سلاحه! وبعدها لم يضيع نديم وقته كله فى إلقاء الخطب المطرزة بالآيات والأحاديث والأمثال، بل راح يندس فى قلب المدينة يجلس فى المقاهى، ولا يتردد فى قبول الدعوات إلى البيوت، حيث يمكن أن يتحدث إلى أقل عدد من الرجال، ولم يكن يبحث عنهم داخل

طبقة أو مهنة أو وظيفة بل كان يعتقد أن الرجل الذى يبحث عنه قد يكون فى أى مكان وفى أية مهنة أو وظيفة!

* * *

وقابل «إبراهيم عشماوى» فى المنصورة وفى بيت صديقه القديم محمود الغرقاوى، كان تاجر قطن وأفلس وانتهى إلى أن يعمل سمسارًا لدى الخواجات، الذين سيطروا على هذه التجارة وكان يعرف «نديم» منذ وقت ولكنه لم يكن يرتاح إليه ! قال لنديم وهو يرمقه بنظرة لايزال فيها بعض السخط القديم:

ـ ليس المهم أن تفتح الجمعيات بل المهم أن تبقى.

ـ وهذا ما أقوله.

ـ تقوله حقًا ولكنك لا تعمل له!

وانتبه نديم كأن شخصًا دفعه فى ظهره: كيف ذلك؟

ـ لكى تستمر الجمعية ينبغى على الأقل أن يستمر الأعضاء فى دفع اشتراكاتهم وتبرعاتهم.

وهز نديم رأسه موافقًا.

ـ من الذين يمكنهم أن يستمروا فى الدفع أكثر من غيرهم؟

قال نديم محاولا أن يبدو هادئًا: القادرون طبعًا.

ـ يعنى الذين لن تخدمهم الجمعيات مثل غيرهم.

ـ نعم.

ـ أنت تزور الغرقاوى لأنه صديقك القديم ولكن فى المدينة كثيرًا من الأعيان فلم لا تزورهم أيضًا.. لم لا...

ـ فى الحقيقة....

ـ دعنى أتم حديثى... أنت تتحدث عن الفقراء دائمًا وتقول إنهم أصل كل شىء ولكن أين يوجد الرجل الفقير وكيف يأكل رغيف خبزه.. إنه يزرع فى أرض الغنى أو

يبيع فى «دكانه» أو يسوس خيله، إنه متعلق به، أنت تقول خطبتك وتمضى ولكنه يعود ليجده فى انتظاره لم تثر عداء الأغنياء للجمعيات بتجاهلك لهم وبخطبك التى لا تحسن اختيار كلماتها حين يتصل الأمر بالأغنياء؟

ـ أدرك كلامك لكننى أعتقد أن الفقراء وأوساط الناس....

ـ لا تعد لى خطبتك فقد سمعتها كلها، أنت تنصح الفقير بأن يقتصد ثمن سيجارة كل يوم، والموظف مصاريف ليلة فى المقهى والسكارى ثمن كأس من الزجاجة، ومع أنى لا أثق بجدوى هذه النصيحة، فلم لا تحاول أن تتصل بالأغنياء؟... ليسوا جميعًا من الوحوش يا نديم، ولو كانوا كذلك لأكلوك منذ زمن بعيد! وهنا وهناك كان يلتقى بمثل هذا الرجل الحاد الجرِىء الذى يصدم فكره، وهنا وهناك كانت فكرته عن الناس تتعدل، وكذلك فكرته عن نفسه، هل تغير الناس عما كان يعرفهم؟ نعم! إن الشخص الواحد يختلف حين يختلف حديثك معه، ولو ظل طوال حياته يسلى الناس ما عرفهم ولا عرف نفسه، كان أديب إسحق يتهمه بأنه ينجح فى التغرير بمجموعة البلهاء، ويبدو أنه لم ينجح إلا فى التغرير بنفسه. ما الذى يريده؟ إصلاح البلد؟ إنه لا يحتاج فقط إلى عشرات الرجال من أمثال محمود واصف ومحمد أمين، بل أيضًا إلى عشرات السنين لاكتشافهم ، كان يبصر كل يوم إلى حلمه الصغير وهو يتمزق وسط الخلافات الصغيرة والتفاهات.، وأدرك أية خدمة رائعة أداها رياض باشا للشيخ جمال الدين وأديب إسحق بنفيهما.

ـ من تظن نفسك يا نديم؟ لم لا تذهب وتربى أولادك ما دمت قد أنجبتهم؟

ولكنه تأخر قليلا فى إلقاء هذا السؤال، إن حلمه الصغير يتمزق فى بلد، وفى بلد آخر يصر بعضهم على أن يجمع أشلاءه، وفى بلد ثالث يوقظه بعضهم من النوم ليقولوا له:

ـ لقد حلف شيخ البلد بالطلاق أن تنام الليلة فى بلدتنا.

وكان قد ترك بلدتهم نفسها؛ لأن رجلا آخر حلف بالطلاق ألا يبيت فيها...!

إنه هنا فى الريف فى المدن الصغيرة، وليس فى الإسكندرية .

ويبدو أن المرء ينسى بسرعة، و كان من المؤكد أن الإسكندرية أنسته بدواى تمامًا. لم يكن رجال الإدارة أو الذوات هم فقط خصومه بل ميراث مئات السنين من الغباء

والبلادة والغلظة والتفاهة هو ألعن الأعداء، ورغم هذا كله فقد كان يدرك يومًا بعد يوم أنه لا أحد غيره يصلح لهذا البلاء، وأن الجمعيات تفتح فى النهاية، والروح تعود حتى للأشلاء الممزقة. والحشد المروع الذاهل يثير فى دمه تلك القوة التى يلتمسها أحيانًا دون جدوى، وحلمه الصغير يتجسد على نحو ردىء، ولكنه لا يريد أن يريحه ويموت، لقد سدت أمامه طرق العودة، ومادام الأمر كذلك، ما دامت الحياة ترفض كل محاولة لتقسيم الناس وتصنيف الأشياء فلم لا يفعلها ويطرق أبواب الأغنياء ، هل يمكن أن تصبح الأمور أسوأ أو أقسى؟

وإذا كان الفقير يعمل حساب الغنى، فالغنى يعمل حساب الحكومة وفى بيوت الأغنياء وفى عيونهم كان الشك يطالعه، كان الحديث يبدأ عن الجمعيات ولكنه حتمًا ينتهى إلى حديث عن الحكومة والأحوال العامة، وكانوا أكثر سخطًا من الفقراء وأكثر خوفًا كذلك، وقال له «نعمان بك» أحد أثرياء المنصورة بلهجة الرجل الخبير:

- ما الهدف الحقيقى لجمعياتك يا نديم؟ وقدم له فى الوقت نفسه سيجارة كأنما ليخفف من وقع السؤال، وفى هدوء أجاب نديم:

- نفس هدفكم.. ونفس هدف الحكومة، إيجاد نهضة فى البلد..

- أتظن حقًا أن الجمعيات هى التى ستحقق النهضة؟

- إذا حظيت بمعاونة الكبراء أمثالكم فلست أشك...

وقاطعه «نعمان بك» وقد قرر أن يصل لغرضه مباشرة:

- ولو كان هدف الجمعيات هو هدف الحكومة فلم لا تعتمدها؟.. لم لا تمد لها يد العون؟

- ربما لأن ظروف الحكومة المالية...

وقاطعه نعمان بك مرة أخرى: وربما لأنك تهاجم الحكومة وتنقد الأوضاع فى رواياتك التى يلعب عليها الخديو ورياض باشا لعبة شد الحبل، لست أحب أن أشارك فى هذه اللعبة فقد يأتى يوم تصبح فيه جمعياتك مثل مصايد الأسماك، ووقتها ماذا سيخسر شخص مثلك، قد تنفى أو تسجن ولن تكون فى حال أسوأ من حالك!!

وسمع نديم كلامًا له نفس المعنى بلهجة أرق، وبلهجة أقسى فى بيوت غيره من الأغنياء!



ولكنه كان يمضى فى طريقه، لم يعد يبالى بشىء، ففى كل مكان وبين جميع الطبقات كان يكسب أنصارًا وأعداء، ولم يقف مرة واحدة ليعد هؤلاء وهؤلاء، أو يحسب حساب الربح والخسارة لقد أدرك أن هذا عمله وقدره، وحيث كان يذهب كانت الموجة التى أصبحت تتحرك بحركته تقلب المدينة أو القرية فتطفو على السطح آلاف الوجوه المتعبة والشاحبة، تنفلت مرة واحدة من القبضة التى تطحنها كل يوم، لتنظر إلى رجل نحيل مرهق عالى الصوت، ذقنه لم تحلق منذ أيام، وعيناه متعطشتان إلى النوم، وجفونه مقرحة ووجهه شاحب، ولكنه لا يكاد يبدأ فى إلقاء خطبته حتى تدب فيه روح عاتية ، لا تلبث أن تدب فيهم، إنه يوقظ فى أعماق كل منهم حلمًا واقعيًا غريبًا يستطيع كل منهم أن يحلمه وأن يحققه، وأنه ليطلب من كل منهم تضحية صغيرة تبدو سهلة وعذبة وهو ينطق بها فى فورة الحماس، قرش من هنا وقرش من هناك، وتتجمع القروش لتصبح مدرسة أو مشغلا أو شيئًا يجعل الحياة أفضل، وكلمة السر فى هذا الحلم أن نفعله كلنا معًا، أن توفير القرش ليس معجزة أو لغزًا، إننا ننفثه فى الهواء مع الدخان، ونغيب به عن الوعى مع أنفاس «الجوزة» أو الخمر ونسهر به فى المقهى، ونهلك به صحتنا، فلم لا نفعل به شيئًا أفضل؟

ولأول مرة يصبح لآيات القرآن معنى واضح فى أذهان الفلاحين ويكتشفون لدهشتهم أن القرآن والأحاديث تتكلم بهذا الوضوح عن مشكلاتهم ويصبح للشعر نفس المعنى، أما الأمثال والحكايات والنوادر فلا تسأل عنها «نديم»، إن المسامر القديم لم يمت بعد، ولقد أمتع الأغنياء فلم لا يمتع الفقراء أيضًا؟ ولم لا تقول إنه هو الذى يستمتع؟ أن الحشد فرصة أناس للخلاص من القبضة الحديدية لحظة من الزمان. وهو أيضًا فرصته. أنه يخطب لا ليؤسس الجمعيات. بل ليستريح من العناء الذى يبذله فى تأسيسها!! وحين عاد إلى الإسكندرية، وحين بدأ المرض يداهمه كان يخشى أن يموت قبل أن يقول كلمة شكر للمثلث البشرى الذى ينتظره فى الإسكندرية وحين قالها لهم سخر الأوغاد منه! وحين اشتدت عليه وطأة المرض حلم حلمًا واحدًا قصيرًا.... إن رياض باشا أصدر قرارًا بنفيه، وأنه تزوج الأرملة الجميلة وسافر بها إلى بلاد مجهولة، وحين أفاق من حلمه أبصر أولاده، يلعبون حوله وزوجة تعد له الدواء، وكان مرضه فرصتهم الوحيدة لكى يجدوه بينهم، واستشعر مع العرق الغزير خجلا غزيرًا كذلك! كان الأولاد وعلى رأسهم «محمد» أكبرهم فرحين به، مكتشفين لوجوده، خائفين من أن يسترد عافيته ويمضى بعيدًا عنهم، إنه يعنى بالأيتام وغيرهم وفى سبيل ذلك يوشك

أن يجعل من أولاده يتلمى! وضمهم إلى صدره وراح يعدهم بأشياء كثيرة، وكان التغرير قد أصبح جزءًا منه، كيف ينسى أنهم الشىء الوحيد الحقيقى فى حياته؟ ولو قالوا له غدًا إن الجمعيات التى افتتحها قد انفضت بسبب مشكلات الأعضاء التى يعرفها جيدًا لما أصابته الدهشة! ولكن الدهشة كانت تصيبه فى تلك الأيام بسبب بقائها، وبسبب الرسائل التى عادت تنهمر، سبب زيارات الناس وسؤالهم عنه، وبسبب إصرار الصحف على تمجيد «خطيب الشرق» و «مؤسس الجمعيات» و «باعث النهضة» وأيضًا بسبب من أن جوقة التلاميذ التى كانت تمثل معه فى رواية «الوطن» قد جاءت لزيارته عدا تلميذ واحد هو «أبو دعموم،» حين سألهم عرف أنه متخلف عن المدرسة منذ أسبوع ولم يكن أحد ممن زاره يعرف السبب!!

وكان لا يزال فى دور النقاهة حين أخبره سمير أن «رياض» باشا وصل إلى الإسكندرية، فدبت فيه حيوية جديدة، وكان ثمة فكرة تشارك الآلام العبث به طوال الأسبوع الماضى كله، حتى لقد فكر بسببها أن يسافر إلى المحروسة لمقابلة رياض باشا شخصيًا، إنه واثق تمامًا من أن رياض باشا لا يستريح له ولا لجمعياته، فهو لا يثق بالشعب، ولا بشىء لا يصدر عنه، ويعلم أنه يحارب حربًا خفية، وهذا وحده دليل على أنه لا يجرؤ على أن يعلن الحرب على جيش الأيتام الذى يقوده نديم، ولا على مشروعات خيرية أو رواية تشيد بالخديو، فلم لا يحاول الإفادة من ذلك الموقف؟ لم لا يقابله ويلتمس تأييد الحكومة للجمعيات! ويقينًا أن رياض باشا أذكى من أن يرفض التماسًا كهذا، فهو لن يضمن فقط أن يكف نديم لسانه وقلمه وألغازه بل سيكسبها جميعًا إلى وصفه، ولن يكون مدح رياض باشا عملا أسوأ من مدح الخديو نفسه، لقد أصبح نديم بعد تلك الرحلة الخريفية - ودون أن يعنى بالتفكير فى ذلك - سياسيًا بارعًا لا تهمه سوى النتائج، ففى مطلع هذا الشتاء لم تكن ثمة بارقة أمل تلوح فى الأفق! فالحزب الوطنى كان لايزال مختبئًا فى جحوره قانعًا بتهريب جريدة «مصر» التى يصدرها أديب إسحق فى باريس والتى أصبحت متخصصة فى لعن رياض باشا وحكومته، والنواب عادوا إلى حقولهم وقراهم، وراحوا يدبرون شئون زراعتهم، وأصبحت الجمعية الوطنية والدستور ذكرى عزيزة وشاحبة والمراقبة الثنائية تمد أصابعها من خلال مئات الموظفين الأجانب إلى كل قرش فى الدولة لتعتصره لصالح أصحاب الديون الأجانب، والفلاحون البائسون ذاهلون عن كل شىء إلا حين يدعوهم نديم إلى التجمع فيذكرون فجأة خلافاتهم التى مضت عليها عشرات الأعوام،

والأغنياء تدفعهم مخاوفهم إلى ثورة واحدة، لا غير تلك التى يشنونها على جمعياته وكأنها مصدر الخطر الوحيد، كان هذا هو الوضع فى مطلع هذا الشتاء، وكانت هناك مجموعة من الدور القديمة قد كتبت عليها لافتات بخطوط تتفاوت جودة ورداءة «الجمعية الخيرية الإسلامية» فى بعض البلاد، وكان كل ما يهم «نديم» أن تبقى هذه الدور، وأن تمتد رحلة اللافتات فى كل البلاد، وأن يرى الناس ولو مرة واحدة القدرة الكامنة فى مجموعة القروش حين توضع فى صندوق، والقدرة الكامنة فى صدور الرجال حين يطلقها الحشد، والذكاء الكامن حيث يثيره النقاش، ولم يعد يخاف من الخلافات الكامنة والأحقاد القديمة، لقد بقيت جمعياته رغم كل شىء، والطريق الذى اختطه طويل يحتاج إلى سنوات طويلة، يحتاج إلى أموال الأغنياء وجهود الفقراء، ويحتاج إلى بعض من الثقة والأمن، ولو نجح فى أن يستمر رغم كل شىء فأى شىء أفضل يطمع فيه وسط كل هذا البلاء والذهول؟

وحين شرح فكرته تلك للمثلث البشرى وافقوا جميعًا على أن يقابل رياض باشا وألا يدع الفرصة تفلت من يده، فقط أبدى محمود واصف تحفظا واحدا حين سأل:

- أليس من الجائز أن تفقد تأييد الخديو؟

- وهل يجرؤ الخديو أن يحارب جيش الأيتام الذى أولى نجله شرف قيادته؟ لقد تورط الخديو فى تأييدنا ولست أظنه....

فزمجر «محمود واصف» مقاطعًا:

- كان الخديو متورطًا فى تأييد الشيخ جمال الدين وتخلص من الورطة بنفيه!

وفكر نديم ساخرًا «لست أطمع فى أن يقدم لى الخديو هذه المكرمة».

ثم حاول تغيير اتجاه الحديث فقال:

«إذا نجحت الخطوة الأولى نفكر فيما يترتب عليها».

ولحظتها فكر أحمد سمير أنه قد قرأ لبعض العظماء «إن الغاية تبرر الوسيلة» وحاول أن يذكر اسم هذا العظيم فلم يستطع!

* * *

فى ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠ خرجت الوقائع المصرية تحمل فى صدرها مقالا عنوانه «حكومتنا والجمعيات الخيرية» وكان المقال الذى كتبه الشيخ محمد عبده صديق نديم

القديم، ورئيس تحرير الوقائع يصوغ بأسلوب رصين نتائج المفاوضات السرية التى تمت فى أوتيل أوروبا بين «رياض ونديم» والتى انتهت بإقرار الحكومة لقانون الجمعية وبإشراف ديوان المعارف على مدارسها، وبتقرير إعانة سنوية قدرها ٢٥٠ جنيها، ويتبرع رياض باشا بمبلغ ٢٥ جنيهًا سنويًا من جيبه الخاص!

وهكذا أصبح نديم جزءًا من الحكومة ، وأصبح بمقدوره أن يحول أحد البيوت إلى مستشفى للمرضى، وبيتًا آخر إلى مكتبة عامة للقراءة، وبيتا ثالثا إلى دار ضيافة للقادمين على الجمعية، وأصبحت اللافتات التى تحمل اسم الجمعية وملحقاتها من أبرز ملامح المدينة!!!

وكان لايزال يدرس ويخطب، ويغلق فم سليم نقاش بين وقت وآخر ببعض المقالات! ويتم رواية بدأها اسمها «العرب»! ويغطى أكاذيبه القديمة التى وعد بها أولاده وهو مريض بأكاذيب جديدة.

ولم تعد الدوائر التى تلتف حول أحمد رأفت المحافظ أو حسين فهمى تثير موضوع نديم بخير أو شر!

ورأى بعض الذوات فى الإسكندرية أن التبرع لنديم ببعض من المال قد يكون واقيًا لبعض الشرور إن لم تكن فيه فائدة! وقال حامد الأعسر ليعقوب زخارى ذات ليلة:

ـ قلت لك لا فائدة! لقد اشترى رياض باشا من تبقى من الرجال ! اشترى الشيخ محمد عبده و «نديم» بثمن بخس.. الأول ليكتب مقالات «عن العفة ولوازمها » وعن «احترم قوانين الحكومة وأوامرها» وعن «وخامة الرشوة.».. والثانى ليفتح مدارس تعلم التلاميذ كيف يقرءون مقالات الشيخ «محمد عبده»، أما من كنا نرى فيهم خيرًا من مشايخ الأزهر فهم الآن قد تركوا الأمر لمقلب القلوب ومصرف الأمور، أما قضية الدستور فقد انتهت بنهاية «مصر الفتاة»!

وكان نديم قد فكر فى أن يبدأ رحلة جديدة للأقاليم واصل فيها مد لافتات الجمعية إلى بلاد جديدة.، وليدق بعض المسامير فيما يوشك أن يسقط من اللافتات القديمة، وأن يستغل تعويذة رياض باشا فى استخراج نقود الذوات والأعيان من جحورها التى تختبئ فيها! وكان أيضًا قد سأل مرة ومرات عن «أبو دعموم» بعد أن واصل غيابه عن المدرسة، ومع أنه خلال مشاغل الرحلة الأولى وخلال مشاغل العودة

كاد ينسى الموضوع قليلا إلا أن غياب «أبو دعموم» بدأ يثير اهتمامه به أيكون مريضًا مرة أخرى؟ ووصى أحد زملاء «أبو دعموم» بالسؤال عنه فى بيته وفكر ألا يتردد هذه المرة فى زيارته، كانت صورة الأرملة الجميلة قد شاقته وعادت تفاصيل الزيارة الوحيدة التى كانت تفر منه أحيانًا تنبض فى رأسه حارة دافقة، وعادت مئات الأشياء التى يمكن لو تحدث عنها أن تصمه بالجنون تواصل حديثها له... كانت فرحة بوجوده.كانت أول امرأة جميلة تراه على حقيقته، وتذكر وكأن ذلك يحدث لأول مرة ، أنهما تكلما كثيرًا جدًا، وأنها كانت تشجعه بالاستماع وبالسؤال وبالجواب. وأنها كانت سعيدة تلك السعادة التى تعبر عنها طريقة الكلام أكثر مما يعبر الكلام ذاته، كان نديم إذ ذاك فى قمة انتصاراته، والانتصار العظيم كالفشل العظيم كلاهما فرصة ملائمة للوقوع فى الحب.

وذهل نديم حين أخبره التلميذ الذى أرسله بأنه لم يجد أحدًا فى البيت وأنه فهم من بعض الجيران أن الأسرة كلها قد سافرت مع أحد أقاربها إلى إحدى قرى الدلتا!

سافرت؟ تقول سافرت؟ هل سمعت جيدًا ما قالوه لك؟ وتنبه نديم فجأة إلى أن صياحه روع التلميذ قليلا كما آثار دهشته فصرفه فى الحال، وظل يبتلع صراخه.

كيف سافروا دون أن يخبروه؟ وكيف يعرف مكانهم وكيف؟

ومع عشرات الأسئلة التى انهالت فجأة رأى القصة كلها فى ضوء جديد!! رأى لأول مرة أنه كان فى هذا الموضوع كله آبله وسخيفًا وغير معقول بالمرة، لم يكن هنا، ولم يجرؤ على أن يكرر الزيارة ولم يفكر جديًا فى شىء أكثر من أن ينعم بذكرياتها وبطيف الأرملة الجميلة التى لم يعد أمامه سوى أن ينساه، ولم يقدم سوى المعونات ومن الجائز أنها لم تفهم حقيقة شعوره، صحيح كيف تفهم؟ كيف ظن أنها كانت تقرأ الترجمة الدقيقة لما ظنه قد أصبح لغتهما المشتركة؟ ولكن كيف فهم هو؟ وكيف ظن أنها حقًا... وتوقفت خواطره عند هذا الحد.. توقفت على حافة هذه الهوة التى انفتح عنها هذا السؤال أيمكن أن تكون المسألة كلها وهما؟ كل هذه السعادة وهذا الشعاع الرقيق الذى أضاء فجأة! هل يمكن أن يراه مرة ثانية.. الأم أو الابن.. أن يتأكد من أن....!

ولم تكن أمامه أية فرصة ليتأكد من شىء! لم تكن هناك سوى تفاصيل الزيارة الوحيدة فراح ينقب ويعيد التنقيب واستغرقه شعور غريب بأنه سيلتقى يومًا بهذه

الأرملة الجميلة، وبتلميذه ، بأذكى تلاميذه، وإذا كان من دأبه أن يبحث عن أشياء كثيرة فلتكن هذه المرأة ضمن ما يبحث عنه، لقد تحقق له الكثير مما لم يكن يتوهمه يومًا فلم لا يتحقق له هذا الحلم، وحتى لو كانت قد تزوجت فيجب أن يتحقق من شىء واحد لا غير، من أن ذلك الشعاع الذى أضاء فجأة لم يكن وهمًا ومن أنها كانت تحبه وتفهم لغته!!

* * *

كانت تلك هى رحلة نديم الثانية للأقاليم، وكان ذلك هو اليوم الثانى من فبراير سنة ١٨٨١ وإذا كان شتاء الإسكندرية قارسًا أو عاصفًا أو ممطرًا فإن شتاء الدلتا فيه كل هذه الصفات ويزيد عليها أنه شتاء موحل، وفى ذلك التاريخ لم تكن فى مدن الدلتا فضلا عن قراها شوارع مرصوفة، أو معبدة، وكان الشتاء بمعنى من المعانى هو الوقت من السنة الذى يصبح فيه اجتماع الناس... فى مكان عام كفناء مدرسة أو أحد الأجران أمرًا متعذرًا وحين أفهم «محمود واصف» هذا الاعتبار لنديم قال له:

- أنت لا تعرف الفلاحين، إنهم يقضون نهارهم وأحيانًا ليلهم وسط أوحال الحقول ثم هناك المساجد ويمكن..

- لست أفكر فى الفلاحين وحدهم، أفكر فى أن صحتك لم تحتمل رحلة الخريف فكيف..

- لا تخف، لا يمرضنى شىء مثل البقاء طويلا فى مكان واحد وتحركت الموجة التى يحدثها نديم بحركته، وطفت على السطح مئات الوجوه الشاحبة والمتعبة، ونظرت إلى الوجه المرهق دائمًا الجائع أبدًا إلى النوم والراحة، ولولا أن الأغنياء فى هذه الرحلة فتحوا بيوتهم قليلا. ومدوا موائدهم أحيانًا، وسمحوا لبعض القروش بأن تغادر جحورها الآمنة لقلت الجائع أيضًا إلى الطعام!

واستمعوا إلى نفس الصوت يتكلم هذه المرة بلغة مختلفة، إنه لا يوقظ فقط حلمه القديم بل يتحدث عنه وقد أصبح حقيقة واقعة، إن لديه كنزًا من تجربة الخريف، وجعبته ملأى بالأجوبة، وخفت حدة الشكوك والمخاوف، وانتهز لسانه الفرصة فغدا أكثر جرأة فى الإشارة إلى المشكلات والآلام التى كانت، وقتذاك طافحة، وتلك نغمة

يحبها الناس فى كل مكان ووقت، ولم يصب أحد بالدهشة حين كان يختم الخطبة بالثناء على الخديو مؤسس الجمعيات، ورياض باشا حاميها ومعينها، كان الناس يفهمون، وكانت الصحف تفهم فتتجاهل نشر الأجزاء الحريفة من خطبته، كانت الجمعيات هى كل ما تبقى وسط الحطام، وكذلك كان نديم، فأحاطوهما بالأمل والخوف، وكان الأعيان فى الدلتا لا يخفون دهشتهم، وهم يتابعون الموجة التى تنحسر هنا لتمتد هناك وراء نديمهم القديم، الذى لم يفقد أبدًا جاذبيته القديمة وسحره، كان قد أصبح نديم الشعب، وفى الحق أن الكثيرين لم يروا فيه مجرد رجل يفتح لهم أبواب الأمل فى شىء أفضل، بل وجدوا فيه تسلية مجانية لا تقتضيهم الجلوس فى مقهى لسماع الشاعر، ولم يترددوا فى الإفادة من قدرته - التى بدت لهم مذهلة فى الإقناع والحديث - ليفض نزاعًا بين أسرتين أو بلدين، أو ليعيد زوجة غاضبة لزوجها وأولادها أو ليحسم خلافًا طال بين شريكين فى أرض أو تجارة!!

وحين كان يسأل نفسه ما عملك يا نديم؟ هل هذا جزء من عملك؟ كان يجد الإجابة فى حياته كلها ومتى عرفت عملك؟ متى عملت فى شىء واحد كسائر مخلوقات الله؟ ولم يتردد هو الآخر فى الإفادة من هذا كله، ومن اجتماع الناس حوله فى أى مكان، فى فرح أو مأتم فى شارع أو مقهى، كان يتغلغل فى حياة الناس، ويكتسب تأثيرًا ونفوذًا ويتخطى كل الحدود والقيود، ورفع فى كل مكان يذهب إليه تلك اللافتة التى تكتب بخط جيد أو ردىء «الجمعية الخيرية الإسلامية» وتحتها بخط صغير «فرع دسوق» كان هو نديم ابن الشعب، كان فى مكانه الحقيقى لأول مرة، واعتقد كما اعتقد فى مرات سابقة أنه قد وجد أخيرًا ذاته، وفى الثانى من فبراير سنة ١٨٨١ وفى مدينة ميت غمر انداحت تلك الموجة التى كان يثيرها نديم كأنما ابتلعتها الأرض، كان ثمة خبر غريب ينتشر فى المدينة، ردده تاجران قدما من المحروسة فى صباح ذلك اليوم، وكان نديم فى بيت العمدة حين وصل الخبر «يقولون إن تمردًا حدث فى الجيش، وإن الجيش أخرج ثلاثة من كبار الضباط بعد أن سجنوا فى قصر النيل».

- من هم الضباط الثلاثة؟ ولماذا سجنوا؟ وكيف أخرجهم الجيش؟

وهز الرجل الذى نقل الخبر رأسه مؤكدًا أنه لا يعرف شيئًا..

وبعد لحظة تذكر اسم أحد هؤلاء الضباط :

- عرابى... اسم أحدهم عرابى.. سمعتهم يرددون هذا الاسم فقط!

وصرخ العمدة: آذهب واحضر لى التاجرين اللذين كانا فى المحروسة!

ـ لا أعرف. لقد سمعت فقط.

ـ اذهب واسأل من سمعت منهم!

ـ الناس كلهم يتكلمون.

ـ أسأل كل الناس... لماذا تقف أمامى كالأبله؟

ومضت ساعات مخبولة، دار خلالها حوار كهذا بين العمدة وبين كل من دخل عليه من معاونيه أو خفرائه، وتبادل مع نديم أسئلة كثيرة لا معنى لها، وانطلق الجميع يبحثون عن التاجرين، لم يكن فى الصحيفة التى صدرت فى ذلك اليوم أى خبر، وجىء بالتاجرين إلى بيت العمدة، وكانت الحجرة قد غصت بالناس، كانا مروعين وكأنهما ارتكبا حادثًا بصدد أن يعترفا به، وهدأهما العمدة وقدم لهما قدحين من القهوة، ولم يفكر أحد أن يسألهما عن اسميهما، كانت الأسئلة تنوشهما من كل جانب عن أسماء الضباط المسجونين ولماذا سجنوا؟ وكيف أخرجوا؟

ـ ما هذا أيها الرجال؟ دعونى أستوضحهما الأمر!

فى البداية كان كل منهما يريد أن يترك للآخر فرصة الحديث أو بالأحرى فرصة التورط فيه،. وكأنما ساورهما الشك بدورهما فى حقيقة ما روياه بعد أن رأيا العاصفة التى آثاراها .. ! ولكن بعد القهوة وبعد تدخل العمدة الحاسم انتهى الحديث إلى أن يصبح شرفًا يتنازعانه، وكأنما أدركا فجأة الأهمية البالغة لمن ينقل للناس خبرًا كهذا !! وبدأ التاجر الطويل الذى يلبس جلبابًا بنيًا غامقًا ويعتم بلاسة تخفى نصف جبهته، يروى الحادث على مهل وبصوت ضجت الحجرة بانخفاضه، فتدخل زميله الذى كان أعلى صوتًا وراح يروى الحادث بهدوء ، ولكنه اكتشف فجأة أنه لا يعرف شيئًا أكثر مما قاله هذا الصباح، ومما تناقله الناس!..

لماذا سجن الضباط؟ كيف له أن يعرف؟ وكيف أخرجوا ؟ كيف له أن يعرف أيضًا؟ وكأنما اكتشف الناس أنفسهم بلاهة أسئلتهم وبرز الجانب الفكه فى الموضوع حين نشبت مباراة بين التاجرين فى تذكر اسمى الضابطين الآخرين مع «أحمد عرابى» الذى كان اسمه سهلا كأنما وجد ليتذكره الناس، ونجح التاجر القصير فى أن يتذكر اسم «على فهمى» فى نهاية الأمر، أما الضابط الثالث فقد أصر على أن اسمه مؤلف

من مقطع واحد لاغير هو «حلمى»..! وهكذا لم يعرفوا الاسم الحقيقى «لعبدالعال حلمى» إلا بعد أيام...!

وكأنما تنبه الناس فجأة إلى أن معهم رجلا ينبغى أن يتجهوا إليه بأسئلتهم، ولكن «نديم» كان أكثر منهم حيرة واعتصامًا بالصمت، وقال للعمدة حين سأله رأيه فيما سمع:

ـ لست أدرى، وهل سمعنا شيئًا يمكن أن نبدى فيه رأيًا وانتهى اهتمام الناس بالتاجرين إلى أن أحدًا لم يشعر بانصرافهما، وفور هذا النبأ الغريب سافر نديم إلى المحروسة..

* * *

كان نديم فى طريقه إلى الإسكندرية بعد أن أمضى أسبوعًا فى المحروسة، وكان يرقب من نافذة القطار المدينة الكبيرة وهى تغرق فى ضباب ذلك الصباح من شهر فبراير سنة ١٨٨١ وغرق هو فى نفسه محاولا أن يفهم هذا الشىء الذى أثاره وروعه كما أثار الناس وروعهم فى كل مكان، وكان بمقدوره أن يلحظ أن الركاب يتحدثون عن نفس الشىء.، ولكنه كان عازفًا عن مشاركتهم الحديث، فلم يفعل فى الأيام الماضية شيئًا أكثر من الأسئلة والأجوبة، وكانت تلك أول فرصة ينفرد فيها بنفسه محاولا أن يلتمس طريقه بعد هذا الحادث الذى كان بمثابة زلزال قلب كل شىء، قلب حتى المقاييس والمعايير، لقد اتضح له فى المحروسة أن هذا الحادث ما كان ليقع لو لم يكن ثمة تنظيم قوى فى الجيش، وكانت البراعة التى تم بها هى آية هذا التنظيم القوى المحكم، لقد قدم الضباط الثلاثة عريضة لرياض باشا يطلبون فيها إقالة ناظر الحربية عثمان رفقى وتعيين ناظر حربية من أبناء الوطن، ويطالبون بتعديل القانون الذى وضعه، والذى كان يحول دون ترقية الجنود المصريين من تحت السلاح إلى درجة ضباط بقانون آخر يحقق العدالة بين المصريين وغيرهم من الأتراك والشراكسة، ولم يكن معقولاً أن يفكر الضباط فى شىء كهذا دون أن يكونوا قد فكروا مرارًا فيما يمكن أن ينتظرهم آنذاك، فى الموت ولا شى أكثر، لقد نظم الضباط مظاهرة قبل ذلك فى أواخر عهد الخديو السابق، ولم يموتوا لسبب واحد لا غير هو أن المظاهرة كانت ضد الوزارة الأوروبية، ولم تكن سلطة الأجانب معززة بأى سلاح، ولم ينجح الخديو فى السيطرة على المظاهرة مع أنه كان مجردًا من سلطته إلا أنه احتضن مطالب الضباط



فأصبحوا سلطته، ولم يكن لهذا كله سوى معنى واحد، هو أن سلطة أى حاكم تعتبر لا شىء. إذا جرد من سلاح الجيش أو حب الشعب، وفى تلك الأيام كان نديم يعتقد أن الضباط لابد قد فهموا هذا الدرس، وكاد يظن فيما أعقب هذا من أيام أنهم نسوه، ولكن ما حدث منذ أسبوع يؤكد أن لا شىء ينسى تمامًا، قدم الضباط مطالبهم، ولم تجرؤ الحكومة على رفضها صراحة؛ لأنها كانت تفهم أنهم لم يقدموا على خطوة كتلك إلا وهم مستعدون لما بعدها، لجأت إلى الخديعة لتتخلص من زعماء الضباط فى حركة مفاجئة ولتخيف من وراءهم، ولكنهم كانوا متوقعين كل شىء حتى الخداع.، فأنقذوا من السجن بالقوة وهكذا انكشفت فجأة كل الأستار، ولم ينجح فى تغطيتها أن يجيب الخديو مطالب الضباط كلها، ولا أن يعلن الضباط ولاءهم للخديو ولا أن يعين الخديو محمود سامى البارودى الذى كان يعطف على مطالبهم منذ البدء ناظرًا للحربية، كان ذلك كله خداعًا سخيفًا لا يستر الحقيقة، التى كانت تتضح على نحو مروع فى وجدان الناس وفى عقولهم وإن اختلفت وسائل التعبير، كانت الحقيقة أن الجيش أدرك طريقة فذة لتحقيق مطالبه، ليس أمامه سوى أن يتحد ويتجمع. لا شىء أكثر ولا شىء أخطر من ذاك. فيصبح الخديو مجرد رجل يمثل دور الحاكم، وفى أى وقت يمكن أن يسدل الستار فينصرف النظارة ولا يبقى أمامه سوى أن يخلع ملابس الدور، ومن المؤكد أن الخديو قد بدأ يدرك نفس الحقيقة، ويدرك أن بقاء سلطته ورهن بأن يسلب الجيش السلاح الخطير سلاح الوحدة والتجمع، وكذلك أدركها الأتراك والشراكسة، وأدركها الأجانب، وأدركها الأعيان وأدركتها طبقات الشعب وطوائفه، ولم يكن إدراكها مشكلة، ولكن المشاكل كانت تكمن فى الطريقة التى سيواجه بها كل هؤلاء هذه الحقيقة! ماذا سيكون موقف الأجانب؟ لقد سمع فى المحروسة أن القنصل الفرنسى «البارون دى رنج» كان مؤيدًا لمطالب الضباط فأين سيقف قنصل إنجلترا؟ كانا متحدين حين لم يكن هنا غير قوتهما أما الآن فهل يبدأ الصراع التقليدى؟ والخديو كانت خلافاته مع رياض حديث المحيطين بهما، ولقد سمع فى المحروسة همسًا لا يكاد يصدقه، أن الخديو نفسه كان يشجع الضباط على تقديم مطالبهم معتقدًا أنها قد تخلق موقفًا يضطر رياض باشا إلى الاستقالة فيتخلص منه كما تخلص الخديو السابق من الوزارة الأوروبية مستغلا تمرد الضباط. ولكن الأمور أفلتت من يده وجرت على غير هواه، فهل يتفق أخيرًا مع رياض باشا لمواجهة الخطر الذى أصبح مشتركًا؟ وبأى سلاح يمكن أن يواجها الجيش ليجرداه من وحدته؟ وكيف

يبقى الضباط متمسكين بوحدتهم التى هى سلاحهم الحقيقى؟ ومن يضمن؟ أحد غير نديم يدرك فظاعة أن تطلب من الناس أن يتحدوا، وأن يتجمعوا.. ربما يضمنه خوفهم، إدراكهم أن هذا التجمع هو السبيل الوحيد لأشياء كثيرة، ضمنها حياتهم نفسها!!

لكن كيف يمكن أن تستمر تلك اللعبة الغريبة؟ رجل يمثل دور الحاكم وهو يدرك أن السلطة لم تعد فى يده. ورجال يمثلون دور المحكومين وهم يعرفون الطريق لفرض مطالبهم.

وأدرك على نحو قاتم أن عهد الاستقرار قد انتهى بعد أن تمزق ذلك الستار الرقيق الذى يخفى الناس خلفه حقيقة نواياهم، وبعد ذلك لا تجدى أية محاولة لستر تلك النوايا، كان رغم الظلام واليأس قد اختط لنفسه طريقًا، طريقًا تحدده مجموعة اللافتات التى كان يمضى ليعلقها على واجهات بعض الدور فى المدن والقرى. وكان يحلم للافتاته برحلة بعيدة المدى داخل القطر كله، وكان واثقًا من أن الشعب بأكمله يهب حاملا تلك اللافتات التى ستصبح أعلامه وسيكتشف قوته، كان طريقًا طويلاً حقًا، ولكن لا تكتنفه المخاوف وتساءل لماذا يخاف؟ لماذا أصبح يبحث عن الطريق الآمن الذى لا تحوطه الأخطار؟ هل يخاف على جمعياته؟ إنه يعرف أن الأغنياء أكثر الناس خوفًا. فهل أصبح واحدًا منهم؟ كانت الجمعيات ثروته إذا كان لابد أن نعتبره صاحب ثروة. لكن أى شىء يصيب جمعياته؟ وكان بمقدوره أن يدرك أنه سيصيبها الكثير لو فشل الضباط، لو تمكن الخديو منهم، وقتها سيخلو قلب الخديو وحكومته من كل رحمة حتى بالأيتام، إن ما حدث ليس شيئًا هينًا، كان يدرك فى مرارة معنى ما حدث وكان ما يعذبه أنه لا يعرف شيئًا عن حقيقة هؤلاء الضباط لقد سمع الكثير عنهم، وكان بمقدوره أن يثق فى شجاعتهم فى ضوء ما حدث وأيضًا فى حكمتهم، ولكن كيف له أن يطمئن.. إن هذه الحركة يمكن أن تكون طريقًا لأشياء كثيرة، ويمكن أن تختصر عشرات السنين ويمكن.. ولكن هذا كله رهن بحقيقة هؤلاء الرجال.. بما فى رءوسهم، ورهن بموقف الشعب بمختلف طبقاته. ورهن بالأجانب ومصالحهم المعقدة.. رهن بكل ما لا قبل له بمعرفته!!

* * *

لقد تشاجر مع صديقه القديم الشيخ محمد عبده بعد أن قرأ مقاله عن «القوة والقانون» الذى يندد فيه بحركة الضباط بمنطق بارد، لم ير فى مطالبهم سوى أنها هتك لحرمة القانون إذ ليس من حقهم أن يطالبوا بعزل ناظر الحربية!

- وهل من حق هذا الناظر أن يقرر قوانين جائرة؟

- وهل تقاوم الخطأ بخطأ أكبر؟ من حقهم أن يتظلموا من القوانين لا أن يطالبوا بعزل ناظر الحربية.

- يتظلمون لمن؟ للناظر الذى وضع القانون أم لمجلس النظار الذى أقره أم لمجلس النواب الذى لا وجود له.. أنت تتكلم كما لو كنت تجهل كل الظروف والملابسات، كما لو كنت تجهل حقيقة الأتراك القذرين هؤلاء!

وتخلى الشيخ محمد عبده عن هدوئه وكأنما نسى أن «نديم» ضيفه وقال فى غضب:

- أنت الذى تنسى الظروف والملابسات ، تنسى أن ما حدث سوف يؤدى إلى حالة من الفوضى هى أفظع من كل المظالم التى تتحدث عنها، هى كل ما يتمناه الأجانب!

- لا أظن أن الأجانب يحلمون بحال أحسن مما هم فيها فالبلد كلها تدار لحسابهم.. لا أفهم لم تقول هذا الكلام؟

وصرخ الشيخ: لأنى أؤمن به، أنت تعرف أننى أهاجم النظار فى جريدة الحكومة ولست أبالى بأحد.

وفكر نديم: حقًا فيما لا خطر فيه، وآثر أن يقفل الحديث فى الموضوع!

* * *

كان الشيخ محمد عبده يدرك نفس الحقيقة المروعة التى أدركها نديم.. حقيقة أن عهد الاستقرار قد انقضى، وأن الطرق الطويلة والبطيئة، والتى تحتمى بالزمن لتبلغ غايتها قد أغلقت، ولكنه كان يفسر هذه الحقيقة لصالح الحكومة التى أصبح جزءًا منها، ولكن ألم يكن نديم بدوره قد أصبح جزءا من الحكومة ؟ كان جزء صغير منه هو الذى التصق بها، أما بقية نديم فقد كانت تجرى خلف اللافتات وتعبر الجسور وتغوص فى الأوحال، ولقد لمحت هذه البقية الأمل الكامن فى هذه الحركة.. الأمل فى أن تتحدى الصعاب وتمضى فى نفس الطريق الذى قد يختصر عشرات السنين، وبقدر هذا الأمل كان خوف نديم وكانت حيرته وكان عذابه!! وإذا كان صديقه القديم قد

رأى هذه الحقيقة من هذه الزاوية فكيف يمكن أن يراها الآخرون؟ كيف يراها الحزب والوطنى؟ والنواب والأحرار من شيوخ الأزهر والفلاحون؟ والتجار؟ لقد سافر إلى المحروسة ليبحث عن بعض الأجوبة فعاد بما لا يحصى من الأسئلة!

* * *

وفى الإسكندرية التقى بمزيد من الأسئلة، الأسئلة التى تنم كلها عن الإحساس بهذه الحقيقة المروعة، التى ما عاد إلى إخفائها من سبيل! وبدا أنه حتى شئون الحياة اليومية لم يعد من السهل أن تتابع سيرها الرتيب المألوف، فلا الدروس ولا محافل الخطابة ولا الحديث عن الجمعيات، لا شىء من هذا كله كان يريد أن يواصل سيره الطبيعى.

وقال أحمد سمير لنديم: نسيت أن أقدم لك مجموعة الرسائل التى وصلت فى غيبتك! وكان نديم قد تعود أن يسأل عن الرسائل التى تصل فى كل مرة يسافر فيها. ولكنه نسى هذه المرة وراح يفتح الرسائل فى لهفة وكأنه سيجد فيها أجوبة لأسئلته، وبدأ كالعادة بقراءتها من الذيل ودهش حين وقعت عيناه على توقيع تلميذه الغائب «أبو دعموم» ونحى جميع الرسائل جانبًا كان يظن أنه نسى هذا الموضوع تمامًا، وها هو يكتشف لفرحته الغامرة أنه لم يكن ينتظر الآن سوى هذه الرسائل..

لم يكن يقرأ الرسالة، كان يلتهمها.. ثم عاد يقرؤها ويقرؤها، وحتى حين حاول أن يقرأ غيرها اكتشف أنه لايزال يقرؤها، وكان يعتقد أن الزلزال الذى هز كل شىء، وأزاحة عن مكانه، قد مس قلبه، ولم يعد فيه مكان لغير الحيرة والقلق، ولكنه الآن سعيد سعادة حقيقية، سعادة لم ينقص منها ذرة واحدة إنه عرف أن الأرملة الجميلة تعانى العذاب بل ربما كان ذلك أحد أسبابها، كان يدرك ما ينطوى عليه موقفه من قسوة لعينة، ولكنها لم تكن المرة الأولى التى يواجه فيها الهول الكامن فى قلبه أو فى قلوب الناس. لقد وثق الآن فى شىء واحد لا غير هو كل ما كان يحلم به وينتظره، وثق فى أن الأرملة الجميلة كانت تحبه، وكانت تفهم لغته لم يقل له «أبو دعموم» شيئًا من هذا فى رسالته، ولكن ما قاله لم يكن له معنى سواه، لقد قدم خاله الذى كان موظفًا

صغيرًا بالمنصورة، وأفهم أمه أن رئيسه الذى ماتت زوجه مستعد لأن يتزوج بها فترعى أطفاله الصغار ويرعى صبيها، وأنها رفضت وقاومت ولكنه أجبرها على الزواج وأفهمها أن حياتها وحدها فى الإسكندرية أمر لا يليق.

ولم تمض سوى أسابيع على هذا الزواج حتى اكتشف الصبى نوع الرعاية التى تنتظره حين رأى زوج أمه وهو يضربها كل ليلة حين يعود مخمورًا بعد منتصف الليل، فانتقل إلى بيت خاله ليكتشف بعد أيام قليلة أنه قد خسر أمه وخاله إلى الأبد فقد كانت زوج خاله تفرغ همها فى الصبى، وهو نفس الهم الذى تعانيه من خاله حين يرجع من السهرة، التى يسكر فيها مع رئيسه وحين بدأ الصبى يفكر فى الهرب، كانت أمه هى التى طلبت إليه أن يكتب لأستاذه، فلو أمكنه أن يعيده إلى عمله بالإسكندرية أو إلى عمل يطمئن إليه فيه فستكون مطمئنة وراضية بعذابها حين تعرف أن ولدها فى رعايته، فهى لم تنس بعد ما فعله من أجلهما، وهى... .. وهى.. كانت رسالة منها كتبها أبو دعموم بخطه وفى النهاية أفهمه أنه يترقب عودته إلى المنصورة ليلقاه هناك، ولينقذه من هذا العذاب!! وهل كان ينتظر شيئًا أكثر؟ ها هو الصبى يعود، والأمل يتجدد ، فى أى شىء؟ كان نديم يسأل نفسه، فى السعادة، سعادته الخاصة التى لا تعنى أحدًا غيره فى هذا العالم، سعادة اليقين العذب الهادئ بأن القلب الذى توهم يومًا أنه يخفق بحبه لايزال يخفق، وأنه خلال الصبى سيسمع وجيبه وهمسه، وسيحقق أمانيه . وأن ما أبصره فى تلك الزيارة القصيرة لم يكن وهمًا، وأنها ستبقى الشىء الوحيد فى الدنيا الذى يحس أنه له وحده!!

واتخذ هذا الشعور الخاص بالسعادة مكانه فى حياته المزدحمة ، واتسق معها كلها وائتلف.. اتسع مع حبه لأسرته ولجمعياته ولتلاميذه وللناس. واتسق حتى مع حيرته وقلقه، وأضفى عليها كلها نوعًا من البهجة والسرور، ولم يفكر لحظة فى الصواب والخطأ، فقد كنت الأرض التى يقف عليها نقية وصافية ولم يكن (حتى هذه اللحظة) يفكر فى أن يخطو إلى أبعد منها خطوة واحدة!!

* * *

ولم يطق أن يبقى طويلا فى الإسكندرية، وكأنما كان يريد أن يرى ماذا فعل «زلزال المحروسة» فى أرض الله الساكنة فى الريف والمدن الصغيرة!

وروع نديم حين وجد «حادثة قصر النيل» فى مدن الدلتا تحطم الإطار الذى حاول جاهدًا أن يراها فى داخله. بل تحطم جميع الأطر المعقولة التى يمكن أن تكون لها، كان الشعب بكل طبقاته وأفراده يندفع فى جنون ليصبح داخل هذا الإطار. كان الجميع يحاولون أن يجدوا فيما حدث معنى بالنسبة لهم، وكأنه لم يحدث إلا لأجلهم وكانت الأسئلة التى لا تزال تبحث فى رأسه عن أجوبة تصنع هنا وهناك إجاباتها بسهولة غريبة. وكانت الحقيقة المخيفة التى تنطوى عليها حادثة الضباط تعلن عن نفسها فى تلك البلاد فى سذاجة مرعبة!

وعبثًا كان يحاول أن يقنع من يلتفون حوله فى كل مكان أنه فوجئ مثلهم بحادثة قصر النيل، كانت نظراتهم تقول له فى تطلعها المريب، أيها الماكر؟ هذا معقول؟ كنت تعرف كل شىء حدث. وتعرف كل ما سيحدث، قل لنا متى سينجاب هذا البلاء : السخرة والضرائب اللعينة. والديون، وأدوات الجلد والتعذيب؟ قل لنا كيف يبدو عرابى هذا؟ يقولون إن النساء لم تلد أطول ولا أعرض ولا أجمل منه! وأنه فلاح ابن فلاح، ولا يترك فرضًا، ولا تفارق المسبحة يده ولم يجرؤ على أن يقول إنه لم يلتق به مرة واحدة!! ولم يجرؤ على أن يرفض الاستماع إلى «عرائضهم» التى يزمعون إرسالها إلى عرابى، بل لم يجرؤ على رفض كتابتها، ولم يكن فى هذه «العرائض» أفظع مما رأته عيناه، ولكن الشىء المخيف فعلا أنهم كانوا فى الماضى يعانون فى صبر واستسلام، أما الآن فكل واحد يتوقع نهاية البلوى بعودة البريد!

ولفه الرعب، فليس هناك أفظع من أن ترى أحلام شعب مغلول تنطلق فجأة من قيد مئات السنين دون أن تبصر طريقها، وكانت حادثة «قصر النيل» التى لم يكن هو قد وجد لها معنى واحدًا يطمئن إليه، والتى كانت أشبه بحركة الحياة فى جنين قد كبرت فجأة وأصبح لها أبناء وأحفاد. وورثة شرعيون، تلك الحركة التى كان هو يخشى أن تجهض فى أية لحظة، والتى لم يعرف بعد هل ستصبح بشرًا سويًا أم مسخًا؟

* * *

وفى المنصورة وفى بيت صديقه الغرقاوى، فوجئ بالشيخ «أحمد أبو سعدة» بين مستقبليه، وفوجئ به مرة أخرى يتقدمهم، وهو يهم بمعانقته ويقول:

- لقد جئت لك لأننى لست مثلك أنسى رجلا أكلت معه خبزًا وملحًا. وتعانق الرجلان أمام الجمع الذى كان يعرف أكثر ما كان بينهما، وسلم نديم على الآخرين، وعاد ليجلس بجوار «أبو سعدة» الذى راح يكمل عبارته:

- لقد زرت الجميع يا نديم ونسيتنى؟

ولم يقل له نديم «ولم جئت الآن فقط» لكنه قال بلهجة غامضة:

- وهل معقول أن أنسى ما بيننا يا رجل؟

واختلجت فى عيون الجالسين نظرة متربصة، وقال الغرقاوى - محاولاً تسوية الأمر-:

- الأشياء الطيبة هى ما يجب أن نذكره يا رجال!

وقال أبو سعدة - وقامته القصيرة البدينة تهتز كلها، وبلهجة رجل مصمم على أن يضع حدًا لكل شىء فى وضوح حاسم - :

(الأب يتشاجر مع أولاده، ونحن أولاد اليوم، وما فات مات)، ثم مال على رأس نديم قائلا:

- هات رأسك أقبلها!

وقلب نديم الموقف كله إلى مزحة حين جعل «أبو سعدة» يخطئ هدفه وقال له:

- لا.. انتظر .. رأسى الآن كرأس أولياء الله الصالحين. لا تقبل مجانًا، إنها رأس جمعية لها فى كل بلد مقام، فكم ستدفع للجمعية؟

- مالى وعيالى كلهم للجمعية!

- مالك فقط هو ما نريده، أما عيالك فحلال عليك!!

ـ ولكن مالى لن أدفعه هنا يا نديم. لابد أن تزور «بدواى»، وأن تأخذ المال فى بيتى، وأن تفتح بها فرعًا للجمعية!!

* * *

وفى منزل «نعمان بك» بالمنصورة التقى بعدد من وجهاء المدينة وذواتها، وفى هذه المرة رحبوا بنديم وتلطفوا معه ذلك التلطف الذى يبديه الكبراء عادة لمن هم دونهم، ولم يكن ثمة مكان للخوف فى حديثهم أو فى عيونهم، ولا حتى للسخط، وحين عرج الحديث إلى حادثة «قصر النيل» تحدثوا عنها بتلك الثقة والبساطة التى يتحدث بها شخص عن شىء قام فيه بدور كبير، ولا يريد أن يبرز هذا الدور حتى لا يتهم فى تواضعه ..! وكتم نديم دهشته حين تردد اسم الحزب الوطنى، وكأن الضباط كانوا فقط ينفذون أوامره.

وقال صفوت بك وهو يتحسس أطراف شاربه:

ـ بالطبع لم يكونو ليجرءوا على حركة كهذه لولا أن سلطان باشا أعطاهم إشارة الأمان.

ـ تأييد فرنسا للحزب هو الذى حمى الحركة .

وتردد أسم سلطان باشا وسليمان أباظة والشريعى وكبار أعضاء الحزب، وكأنهم أصدقاء شخصيون لكل الموجودين، مرة واحدة ذكر اسم رياض باشا كرجل هالك لا محالة، أما دين المقابلة فقد أكدوا أن إعادته ستكون المطلب الثانى للضباط الذين سيجعلونها ضمن قانون جديد لتصفية الديون مثل الذى أقرته الجمعية الوطنية السابقة! وتحدثت عنه منشورات الحزب!

ـ والدستور؟

كذلك تساءل نديم الذى لم يمنح أية فرصة كريمة للحديث، وتطلعوا ناحيته وكأنهم تذكروا وجوده فجأة، وقذفه نعمان بك بسيجارة بينما كانت يده الأخرى تدس فى أنفه شيئًا من «السعوط» كان فى صندوق مفضض صغير.

ـ وهل من ينكر الدستور؟

قالوها بلهجة من يقول: وما شأنك أنت بهذا؟

وكأنما ذكرهم وجوده بموضوع الجمعيات، وإذ ذاك فقط أخذ الموضوع طابع الفكاهة.

وطلب «أمين بك» من نديم أن يذكره بالآية الكريمة التى فيها «حق معلوم للسائل والمحروم»!

وخرج نديم فى تلك الليلة يمسح بمنديله - رغم برودة الجو - عرقًا غزيرًا باردًا كذلك.

* * *

وفى أحد الشوارع الضيقة التى لم يكن نديم يتردد فى اختراقها، لأنها أقصر فى الوصول إلى غرضه توقفا قليلا مع صديقه القديم «محمد كمال» للتفرج على دائرة من الصبيان والكبار تلتف حول صبيين لم يتضحا لأول وهلة، كان نديم خلال هذه الجولة فى مدينة المنصورة يتوقع بين وقت وآخر أن يلقى صبيه بمبنى الجمعية. وحين طال انتظاره له أصبح يفتش عنه فى وجوه المارة، وحين أبصر الدائرة تمنى لو يجده بينها، وحين أصبح هو وصديقه جزءًا من الدائرة أبصرا الغلامين بداخلها، كان أحدهما قصيرًا مقطوع الذراع يرتدى جلبابًا أزرق، وكان يضحك الحلقة بهذه العبارة التركية التى انتشرت وقتذاك بين الجمهور كما انتشرت كل تفاصيل حادثة «قصر النيل».

- «إيه زمبللى هرف لر» ومعناها فلاحون شغالون بالمقاطف.. مقلدًا خسرو باشا وهو يمر بأبواب السجن، الذى أودع فيه الضباط، وفجأة يقتحم السجن صبى جسيم مقلدًا البكباشى محمد عبيد فيضرع إليه خسرو باشا بذراعه الوحيدة متوسلاً ومقبلاً قدمه، ومحاولاً أن يبعد عنه «ماسورة» البندقية التى لم تكن سوى ذراع مكنسة قديمة، أما السجن فلم يكن أكثر من عربة يد مقلوبة فى جانب الطريق بداخلها ثلاثة أطفال يمثلون دور الضباط الثلاثة، وفى النهاية تصفق الحلقة لمحمد عبيد وخسرو باشا معًا! ولم يجد صبيه بينهم، ومضى بعد أن صفق لفرقة الأطفال وقال له محمد كمال:

- ما رأيك لو كتبت رواية عن تلك الحادثة؟

وأجاب نديم فى توتر: تكون ظريفة فقط حين يمثلها الأطفال فى الشوارع:

ـ والكبار؟

ـ لقد مثلوها فعلاوجاءت سخيفة كما ترى.

ـ أنت متشائم يا نديم، من الصعب أن تحكم.

ـ ومن الصعب أن تنتظر شيئًا آخر بعد كل هذا الوقت!، ثم أضاف فى سخط: لقد سمعت أن الخديو يعد قانونًا لتحسين أحوال الضباط.

ـ أتظن أن ثورة الضباط قامت لهذا فقط؟

ـ الله وحده يعلم، لكننى أتكلم عما أراه، لقد أصبحت حادثة الضباط كسفينة سيدنا نوح كل واحد يريد أن يضع فيها ما يسعى لإنقاذه، أما فكرة الجمعيات فتعانى بسبب الجنون الذى أصاب الناس، توشك فكرتها الأساسية أن تضيع بين صبر الفقراء الذى نفد فجأة، وغرور الأغنياء الذى برز فجأة كذلك، وتوقف نديم أثناء سيره وقال لصديقه مؤكدًا كلامه بيديه وملامح وجهه، كانت فكرة الجمعيات المهمة ألا ينتظر أناس العون إلا من أنفسهم أما الآن ـ واستأنفا السير ـ فالجميع ينتظرون أن يحقق الجيش أحلامهم، والجيش ينتظر أن يحسن الخديو أحواله، والخديو ـ مالم يكن أبله حقًا ينتظر أول فرصة ليتخلص من الضباط وتتهمنى بالتشاؤم!

* * *

وفى قرية «بدواى» التى توجه نديم لزيارتها تلبية لدعوة الشيخ «أبوسعدة» وفى الطريق إلى بيت العمدة.. الطريق الذى يعرفه نديم جيدًا.. كان موكب نديم الذى بدأ به وحده وبرفقته صديقه محمد كمال والشيخ قاسم، الذى كان فى انتظاره، كان الموكب يتعاظم فى كل شارع، وينضم إليه فى كل منعطف أكثر ممن يتخلفون عنه، ولمح نديم خلال المظاهرة التى كانت ترحب به وجهًا ما كان له أن ينساه فى زحمة الوجوه.. وجه «حسنين الأعرج». كان يحاول جاهدًا أن يصل إليه وأن يلفت نظره، توقف نديم مرحبًا بالرجل الذى صرخ يومًا فى وجهه، وأشار له الشيخ قاسم أن يستمر فى سيره فالرجل، وحرك يده حول رأسه حركة تعنى أنه قد فقد صوابه، ولكن «نديم» كان قد اقترب من الرجل:

- أريدك .

- أنا طوع أمرك .

- تذكرنى؟

- نعم

- أريدك بعيدًا عن هؤلاء!

وانتحى به نديم جانبًا غير مبال برجاء الشيخ قاسم أن يتركه.

- يقولون إنك تعرفه!

- من؟

- عرابى! يقولون إنه يعطى كل مظلوم حقه

وهز نديم رأسه موافقًا، ثم تابع: ما الذى تريده منه؟

- أرضى التى أخذها العمدة، هل نسيت الموضوع؟

- لا.. ولم يجرؤ على أن يقول له إنه فى طريقه إلى بيت العمدة ليتغذى عنده.

ووضع نديم يده فى جيبه ثم وضعها فى يد حسنين الأعرج فاختلجت يده وملامح وجهه ثم دعا له بطول العمر!

أمام قصر الشيخ «أحمد أبوسعدة» تبددت المظاهرة التى كانت تحيط بنديم ولم تسمح البوابة الضخمة بالمرور إلا لعدد قليل منها، كان كل شىء كما هو إذا استثنينا ما أصاب الناس من جنون، وكان فى استقبال نديم إلى جوار العمدة عدد آخر من أعيان الريف بعضهم من النواب السابقين ومن عمد القرى المجاورة، ولم تصك سمعه تلك اللهجة المتعالية لذوات المنصورة، كانوا يتكلمون، وكان أغلب كلامهم أسئلة نمت عن شىء واحد لا غير هو أنهم جميعًا باتوا يظنون أن «نديم» هذا الرجل ذو شأن مع أنه بسيط إلى الحد الذى يمكنهم فيه أن يتخذوا منه دليلاً وسط هذا الطريق، الذى بدأت تضطرب معالمه، ولم يحاول هذه المرة أن يساهم كيف انتهوا إلى هذه الفكرة، ولم يبذل أقل مجهود لتصحيحها، بل حاول أن يستفيد منها لصالح جمعياته التى أصبح يخاف عليها الآن أكثر من أى وقت مضى!

وأعدت مائدة ضخمة فخمة، أقبل عليها العمد بعد أن تخلصوا من قفاطينهم الجوخ وتحلقوا حول خروف صغير وقف على المائدة وكأنه بصدد أن يمشى، ولكنه كان مطهوًا بطريقة فذة لا تكلف الأعيان أدنى مشقة فى انتزاع شرائح اللحم من هيكله المثبت إلى المائدة بحيث يقاوم طعنات السكاكين والشوك التى يوجهها الأعيان بطريقة بدائية!

ولعن رياض باشا هنا كما لعن هناك، وألمحوا إلى أن زيادة الضرائب العشورية كانت ظلمًا فاحشًا لا يقل عن إلغاء دين المقابلة، وأشاروا إلى أن إلغاء السخرة كان خطأ جسيمًا كاد يؤدى إلى الإضرار بمحصول الأرض.

- لو أنه نفذ !

- لو نفذ لمات الشغالة جوعًا قبل أن يموت الزرع!

- ولكن شغالة الفلاحين هؤلاء كانوا يفضلون الموت جوعًا مثل الكلاب على أن يعملوا فى السخرة!

- لولا نظام السخرة لظلت نصف أرض الدلتا بورًا كما كانت.

- قطعًا سيطالب الجيش بإعادته؟

وتطلعوا الى نديم كأنما ينتظرون رأيه فى هذه المسألة، وأدرك نديم ذلك فتخلص بسرعة من قطعة اللحم التى كان ينتزعها من ضلع الخروف وقال ضاحكًا:

- ولماذا يطالب الجيش بإبطال قانون لم ينفذ فى يوم من الأيام؟ وضحكوا جميعًا من ظرف هذ الرجل الذى لا نهاية له..!

* * *

من خلال هذا كله: الزيارات والولائم واللقاءات والأسئلة والأجوبة، من فوق أرض الريف والمدن، من فوق سفينة نوح تلك، كان يحاول نديم أن يتبين طريقه، لقد كان واثقًا من أنه أمسك بشىء حقيقى، ولكن هذا الزلزال المروع أفلت كل شىء من مكانه، وفك جميع القيود حتى قيود الأفاعى والشياطين، ولم يعد أحد يعرف مكانه أو طريقه، ولم يعد شخص يطيق أن يستمع كلمة تقتضيه أقل قدر من التبصر والروية، ولعن فى سره

أولئك الضباط الحمقى الذين لم تنجح ثورتهم حتى الآن إلا فى تعقيد هذه المجموعة من الخيوط، التى لم يكن ينقصها التعقيد، والتى كان ينسجها على مهل وفى صبر، وقبل أن تتحول الى قطعة من النسيج القوى الذى يتحمل الشد والجذب!

وراح يفكر فى حياته كلها، وفى ضوء تلك اللحظة، أبصر خلال الأعوام الطويلة تكرارًا لعينًا لموقف واحد تعس، موقف رجل لا يكاد يمسك بشىء حتى يفلت منه، وراح يفكر هذه المرة فى شىء يمكن أن يبقى طويلاً فى يده.. شىء يمكن أن ينفذ فكرته (التى لا يزال يراها طريق الخلاص الوحيد) من ذلك الجنون والخلط والاضطراب، وأن يحملها إلى الناس ليس فقط فى محافل الخطابة والجمعيات بل إلى كل مكان يمكن أن يخلو فيه المرء بنفسه، أو بغيره، شىء يتيح له أن يقول كلمته باحتراس، وفى ظل هذه الظروف التى تنذر بتغير لا يدرى أحد مداه أو طريقته، وراح يبحث ويبحث، وكان فى طريقه إلى الإسكندرية حتى التقى بهذا الشىء، الذى سيدعوه فيما بعد «التنكيت والتبكيت».

التنكيت والتبكيت

- أن تكون مسئولاً عن مجلة يا نديم أمر يختلف عن كتابة مقال بهذه الصحيفة أو تلك، فهل فكرت فى الموضوع جيداً؟

- نعم.

كان سليم نقاش يتنقل بين آلة الطبع اليدوية الصغيرة والأحواض الخشبية، التى رصت فوقها الحروف الدقيقة، وثيابه ملطخة بالحبر، وملامح وجهه الضخمة لا تخفى ضيقه بنديم الذى يبدو وكأنه أصبح موكولاً بإزعاجه بما يطرأ على رأسه من سخافات آخرها تفكيره فى أن يصدر مجلة خاصة به.

- ولماذا المجلة يا نديم مادمت تستطيع أن تكتب ما تشاء فى «المحروسة» «والعصر الجديد» وأنت مستريح من المتاعب التى ستجد نفسك غارقًا فيها!

- أية متاعب تعنى؟.. قالها نديم بضجر :

- لو كنت تفهم فى أمور الصحف ما ألقيت بهذا السؤال الأبله !

- وهل كنت أفهم فى أمور الروايات؟

وحدجه سليم نقاش بنظرة مغيظة وانصرف إلى عمله، ثم قال دون أن يعنى بالنظر إليه:

- الكلام مع غبى مثلك لا يجدى !

- لو كنت غبيًا حقًا ماجئت لأخذ رأيك!

وابتسم سليم نقاش ابتسامة لم تمح أثر الغيظ من كل وجهه.

- ولم لا تتعاون معى إذًا فى صحيفتى؟ ويمكن لو... فقاطعه نديم محتدًا وقد نفد صبره فجأة:

- لأننى أفكر فى شىء مختلف يا نقاش، مختلف تمامًا.

- مرحى بك أيها العبقرى وتقول إنك جئت تطلب رأيى.

- هناك أشياء تفهمها أنت، وأشياء أفهمها، ولن أستغنى أبدًا عن معاونتك!

قال سليم نقاش الذى كان يواصل العمل أثناء الحديث وقد ترك ما بيده كلية هذه المرة:

- لماذا لا تقول منذ البدء أنك لا تستغنى عن المطبعة؟

وعنك أيضًا: صدقنى!

واستمر سليم نقاش كأنه لم يسمعه :

- و بالنسبة للمطبعة يمكنك أن تطبع مجلتك فى أى وقت مادمت ستدفع ثمن الطبع!!!

وساد الصمت فجأة وترك سليم نقاش ما بيده وجلس إزاء نديم على مقعد عبارة عن نصف برميل مقلوب، ووشت نظراته بفضول غريب.

- لم تقل لى ما الأشياء التى تفهمها أنت؟ كيف تريد أن تكون مجلتك؟ كنت أحمق فلم أستمع لحديثك عنها منذ البدء!

وفى بطء راح نديم يتكلم وبدا كأن الكلمات تعوزه، وتساءل لست أدرى كيف أوضح لك، كم شخصًا تظنهم يقرءون المحروسة، أتظنهم ألفًا.. ألفين... ثلاثة آلاف، الذين يمكنهم القراءة فى مصر كلها لا يتجاوزون بضعة آلاف!

هذه هى المشكلة، أفكر فى مجلة يستطيع شخص أن يجلس فى دائرة صغيرة أو كبيرة ويقرأ بصوت مرتفع فلا تنفض الدائرة قبل أن ينتهى من القراءة!



وضحك سليم نقاش ضحكة قصيرة نمت عن خيبة أمله ثم استدرك خانقًا ضحكته..

. ولكن هذا يتوقف على ما تكتبه فى مجلتك!

. أعرف، وأفكر فى كتابة شىء يستهوى الدائرة، شىء بعضه مكتوب باللغة العامية، شىء يستطيع كل فرد فى الدائرة أن يحكيه فى بيته ولأصدقائه دون أن ينسى جزءًا منه، شىء يمكن أن يضحكهم قليلا فلا يلومونه لأنه أضاع وقته فى الدائرة، بل يلومونه لو أنه نسى مكانه فيها، شىء يحمل للناس ما أود أن أقوله وما ينبغى أن يسمعوه!!

وصمت نديم وكأنه أوضح كل شىء، ولم يبق إلا أن يسمع رأى سليم نقاش، الذى اعتصم هو الآخر بالصمت!

. تريد شيئًا مثل مجلة «أبو نضارة» شيئًا يودى باللغة العربية أولا ثم يودى بك فى النهاية! هكذا تكلم سليم نقاش أخيرًا.

.. وحين يكون أمامك شعب يصاب بالعمى حين ينظر إلى الحروف و الكلمات، ألا يستحق أن تفكر فى مصيره كما تفكر فى مصير لغته التى يمكن أن يسعى هو لإنقاذها حين يدرك أنها وسيلة إنقاذه؟

. وحق يسوع يا نديم لم أجد فى حياتى كلها شخصًا مثلك يكره الطرق الآمنة والمألوفة، ولتفعل ما يحلو لك مادمت ستدفع لى نفقات الطباعة، ثم أضاف متسائلا:

. هل فكرت فى أن المجلة ستحتاج إلى مال للطباعة والورق؟ أما أنا فلن أتقاضى منك مليمًا واحدًا لكى أعلمك أسرار المهنة.. وتحولت تقطيبة وجهه إلى ابتسامة متراخية، وهو يتابع فهذا جزء من رسالتنا للمصريين!

* * *

وفى الحقيقة أن «نديم» قد فكر طويلا فى الموضوع، صحيح أنه لم يكن بائسًا فى هذه الأيام وأن راتبه الذى كان مقداره عشرة جنيهات قد كفل له مطالبه، التى كانت دائمًا متواضعة، ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام صاحب مال مدخر، وحين فاتح ثالوثه المخلص فى موضوع المجلة، واستغرقه الحديث عن الوسائل والأهداف طيلة الوقت كان

محمود واصف هو الذى باغته بالسؤال عن المال، الذى كان يعرف أكثر من غيره أن «نديم» لا يملك منه شيئًا، لحظتها أطرق نديم قليلا، ثم قال:

ـ أظن أن الدكتور حسن سرى ورستم بك العلايلى يمكن أن يمولا المجلة، كنت قد لمحت لهما بفكرتى فأظهرا...

وزار محمود واصف مقاطعًا :

ـ منذ لحظات كنت تتحدث عن شىء صلب، شىء لا يفلت من يديك والآن تبحث عمن تسلمه هذا الشىء !

ـ إنهما كما تعرف ..

ـ أعرف شيئا واحدًا يا نديم هو أنه إذا نجحت فكرتك فسوف يتصرفان غدًا أو بعد غد على أساس أن المجلة ملك لهما، بل ربما ظنا أنك أنت ملك لهما كذلك!

ـ كيف يمكن إذًا تدبير المال اللازم؟

ـ متى كنت قادرًا على هذه المشكلة؟ ما كنت بدونى تساوى مليمًا واحدًا!!

ـ لكن كيف؟

ـ وهل كنت أخبر أحمقٍ مثلك بمبلغ أدخره لزواجى؟

ـ مستحيل، قد يفشل الموضوع كله وحينئذ...

ـ يكون هذا من حسن حظ المسكينة التى كانت ستصبح زوجتى.

* * *

وحصل نديم على تصريح بمجلة أسبوعية اسمها «التنكيت والتبكيت» بنفس الأسلوب الذى حصل به من قبل على تأييد الحكومة لجمعياته ومدارسه، وربما لم يبذل آنذاك نصف الجهد الذى بذله فى محاولته السابقة، كانت الحكومة فى ذلك الوقت مشغولة بهمها الثقيل الذى يزداد ثقلا مع الأيام، وإذا كان الشعب بطبقاته قد اختلفت نظراته لحادثةِ «قصر النيل» التى أصبحت من بعض الوجوه تشبه مرآة لا يطالع الناظر إليها

غير صورته، فإن القصر بحاشيته من ناحية، ورياض باشا وحكومته من ناحية أخرى وقعا فى خطر اختلاف النظرة ذاته وفشلت الحادثة فى أن تقرب بينهما، فبينما عجز رياض باشا عن تفهم المعنى الحقيقى للحادثة ولم ير فيها إلا مجرد تهور ما كان يجرؤ الضباط الفلاحون البلهاء على القيام به لولا تأييد البارون دى رنج وظن أنه عالج الموقف أعظم علاج حين أدى ارتماؤه تحت قدمى إنجلترا إلى تغيير القنصل الفرنسى...!

كان الخديو وحاشيته التركية أكثر إدراكا للمعنى الخطير الكامن فى هذه الحادثة التى نمت عن ميراث مئات السنين من الكراهية للجنس التركى كله، فراح الخديو الذى لم يجرؤ على مواجهة هذه الكراهية بشكل مباشر، والذى كان يظهر دائمًا عن طريق رسله ووسطائه للضباط غيرها.. راح عن طريق الأمير يوسف كمال يلجأ إلى أسلوب المؤامرة والخديعة بهدف التخلص من زعماء الضباط وإحداث الفرقة بينهم، يفعل هذا من وراء حكومته التى كانت تجد نفسها فى أحرج الظروف بعد كل مرة ينجح فيها الضباط فى كشف هذه المؤامرات واحدة بعد الأخرى.! وإثبات أن القصر وراءها بالتدبير وبالمال....! وفى الظروف التى بلغ فيها هذا الانقسام أشده نجح نديم فى أن يظفر بتصريح لمجلته، ونجح أيضًا فى أن يبصر طريقه الجديد الذى بدأت تتضح فى ضوء هذا كله دروبه ومعالمه!

* * *

وغرق نديم بين الأوراق التى يريد أن تصبح بعد أيام أو أسابيع ما يسميه «التنكيت والتبكيت»، وراح يكتب ويشطب ويعيد الكتابة والشطب فى شقة صديقه أحمد سمير التى كانت تحتل الطابق الأول من نفس البيت بعيدًا عن ضجيج أولاده ومشاكلهم التى تقاسمها بصبر ورضا أبوه وأخوه عبدالفتاح، الذى كبر وتقدم ليشارك أباه فى تحمل أعباء الأسرة، بعيدًا عن مشاكل المدرسة والجمعيات التى تقاسمها محمد أمين ومحمود واصف، أما أحمد سمير الحالم بأن يصبح يومًا كاتبًا صحفيًا فقد ترك «نديم» فى شقته وراح يدبر مع سليم نقاش أوراق المجلة، ويتلقى على يديه أسرار المهنة، التى كان

سليم كاهنها الأعظم ليحمل بدوره عبء الإشراف على طبع المجلة وتصحيحها!

ورفع نديم رأسه عن كومة الأوراق أمامه حين شعر بالباب يفتح ويغلق وبأحمد سمير يدخل بقامته المديدة وابتسامته الحالمة دائمًا، ألقى على كومة الأوراق نظرة كلها فضول وتطلع :

- متى أستطيع إلقاء نظرة طويلة؟ وجلس بجوار نديم..

- حين انتهى أعدك بأن تكون أول من يقرؤها .

- وهل فى نيتك حقًا أن تفرغ منها؟

وضحك نديم وقال:

- لابد من إعداد مادة تكفى لعددين أو ثلاثة على الأقل.

- تريد أن تنفرد بكتابتها؟

- وحتى لو أردت فهل تظننى أقدر؟.. ثم تابع وهو يشعل سيجارة ويقدم أخرى لأحمد سمير:

- سأفتح أبواب المجلة لمن يوافقنا فى المشرب.. أريدها مكانًا يلتقى فيه الكتاب والقراء جميعًا. أريدها جمعية خيرية كبيرة تتسع للشعب كله ويصبح لها فرع فى كل بيت..

وبدأ وجه نديم فى تلك اللحظة وكأنه يبصر حقًا جمعيته الكبيرة، يشاهد الدوائر وهى تتجمع، وتتفرق لتتجمع من جديد، دوائر يتوسطها رجل فى يده نسخة من المجلة يحرص عليها حرصه على مكانته فى الدائرة. دوائر تتسلى بتنكيته وتبكيته، وتكتشف وهى لاتزال تضحك أنها هى وليس أحدًا آخر موضوع التنكيت والتبكيت، دوائر تستوعب حلمه، وتحمله فى حركتها الممتدة واللامتناهية، حلمه الذى ينسجه هنا ولأول مرة فى صفاء لا يبدد جنون الناس وصخبهم، لم يتصور يومًا أن يسحره الهدوء، وأن يدير ظهره للحشد، الذى كان يفتنه ويمنحه أعظم قدراته، ولو تكلم فى هذه اللحظة.. لو وجد الشجاعة الكافية لقال لصديقه (الذى كان ينظر فى شبه ذهول إلى تلك

الاستغراقة التى أخلد إليها نديم) لقال له: لست أريد أكثر من هذا المكان الهادئ والأرملة الجميلة، وأظل أكتب لكم وأكتب تنكيتًا وتبكيتًا يحمل إلى كل الدوائر والحلقات ضحكة حلوة صافية، ضحكة تغسل هموم القلب، وتزيل الغشاوة عن العيون، التى عميت فجأة عن طريق خلاصها وراحت تنتظر النجدة من غير نفسها، ولست أريد شيئًا أكثر من أن تكون معى الأرملة الجميلة المسكينة، لماذا يضربها هذا السكير القذر بدلا من أن يحنو عليها ويلاطفها، كم تبدو جميلة حين يذهب عنها الخوف! حين تجد دفء الأمان والحنان، وعبر النافذة البحرية تسللت خفقة هواء بارد تنسمها نديم فى شغف، وتحركت فى أعماقه شهوة جارفة للحياة.. للإمساك بها فى أية صورة من الصور.. كانت الأرملة الجميلة أنقى وأرق هذه الصور، ولم يجرؤ أحمد سمير على أن يخدش الصمت الذى فرضه نديم بتلك الاستكانة الراضية! وكان نديم هو الذى بدأ ذلك الخدش حين راح يحكى لصديقه قصة «أبو دعموم» وحدها، وبعد أن حذف أروع جزء فى القصة، كان يريد أن يسكب عواطفه الجياشة فى شخص أو شىء، وتساءل فى نهاية القصة التى بدت لأحمد سمير كلغز فلم يكن يفهم اهتمام نديم بمصير مثل هذا الصبى، وهو الذى لا يكاد ينظر إلى أبنائه، تساءل نديم: أى شىء يمكن أن يكون قد حدث له؟ أى شىء يمكن أن يمنعه من لقائى بالمنصورة مالم يكن قد ألم به مكروه؟

ـ كان أولى بأمه أن تهتم بمصيره بدلاً منك.

ـ وهل تملك هى مصيرها؟

ـ كان يمكنها ألا تتزوج!

ـ حقًا ؟

ـ أجل.. يمكن أن يرغموا فتاة على الزواج أما أرملة؟

ـ وفكر نديم: هل يمكن أن يفهم هذا الصبى الغر فى مثل هذه الأمور؟

ولاذ نديم بالصمت من جديد، ويبدو أن سنة من النوم أخذته وحين فتح عينيه ضبط «أحمد سمير» متلبسًا بقراءة كومة الأوراق، لم يغضب نديم، سأل «أحمد سمير»:

ـ ما رأيك؟

لحظتها فقط بدا الارتباك على أحمد سمير، كان ما قراه شيئًا يختلف عن كل ما عرف من الصحف والمجلات، كانت الصحف مكانًا للأخبار وللمقالات، ولم يكن ثمة مكان لغير المقالات، وفى أحيان قليلة قصيدة من الشعر، أما هذه فلم يكن فيها إلا مقالة اكتشف فى نهايتها أنها إحدى حكايات نديم التى تشبه الألغاز، أما بقية العدد فقد كان مجموعة من الحواريات التى تدور كلها بين محتاج جاهل (فلاح) ومحتال طماع (خواجه) وبين «زعيط ومعيط» ويدور بعضها فى «سهرة الأنطاع» وبعضها فى «أحد المقاهى» وبعضها فى بيت «عمدة ريفى»، وكانت شيئًا فيه «رائحة من رواية الوطن» وكأن الشخصيات نفسها قد تركت مسرح زيزينيا وراحت تتجول فى الريف والمقاهى وبيوت الأعيان، كانت شيئًا يشبه حياة نديم نفسها وقد أخذ نديم جزءًا من هنا وجزءًا من هناك وأفرغه فى كومة الأوراق هذه، واستجمع أحمد سمير شجاعته وقال لنديم هذا الرأى، وكأنه يود أن يسأل :

أهذا حقًا ما كنت تريده؟

كان صيف عام ١٨٨١ قد بدأ، وكانت حادثة «قصر النيل» قد أصبح عمرها أربعة أشهر حين بدأ شهر يونيو من نفس العام وهو زمن كاف بالنسبة لأية حادثة لكى يجردها من عناصر الإثارة والغموض، وأن يفصح عن معالمها وأن يهيئ لها مكانًا داخل أو خارج الذاكرة، وكان الفلاحون البائسون الذين أرسلوا «عرائضهم» لعرابى قد ملوا الانتظار، وأما الأعيان من مالكى الأرض فقد كان مجرد بقاء الحكومة وعلى رأسها رياض باشا طوال هذه الشهور جديرًا بأن يجعلهم يتذبذبون هنا وهناك، ويندمون على ما فرطت به ألسنتهم فى أشهر الشتاء. وفى مدينة الإسكندرية حيث تبدو الأمور الخافية أكثر وضوحًا، وحيث كانوا يعلمون أن الصراع الدائر والمستور بين الضباط والحكومة والخديو بحاشيته ذلك الصراع الذى تتداخل أطرافه كالأخطبوط لا يزال محتدمًا تحت السطح الساكن، ولا يستطيع أكثر الناس حكمة أن يتنبأ بنتيجته، فى الإسكندرية بدأ رجال الإدارة يرون فى مجرد بقاء الأحوال انتصارًا لهم، وبدأ التجار

والموظفون يخفون انتظارهم لنتائج هذا الصراع فى البحث عن شىء يديرون حوله أحاديثهم فى المقاهى خلال سهرات الصيف الممتعة.. وفى ٦ يونيو سنة ١٨٨١ وفى هذا الجو المشحون بالانتظار والقلق واليأس والأمل صدر العدد الأول من مجلة «التنكيت والتبكيت».

يوم الأحد

على نحو هادئ وربما فى شهر أو شهور بدأ يوم الأحد، وهو اليوم الذى تصدر فيه مجلة «التنكيت والتبكيت» يبرز خلال أيام الأسبوع، وإذا كان الأحد هو اليوم الذى يذهب فيه المسيحيون إلى الكنيسة، فقد أصبح يعنى بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين ولليهود كذلك شيئًا جديدًا منذ ذلك التاريخ...!

فالشعب المصرى رغم اختلاف نظرته إلى شئون العقيدة لم تختلف يومًا نظرته ولا حاجته إلى النكتة التى كانت وسيلته للتعبير عن أفراحه وعن همومه كذلك، وربما لم يكن نديم قد فكر فى هذا كله بقصد وتدبير حين اختار هذا الأسلوب لمجلته، ولكن «نديم» نفسه كان قد أدرك على نحو مباشر كيف اتفقت نظرة الناس إلى حياته رغم اختلافاتهم حين كانت هذه الحياة نكتتهم المفضلة، وكأنه قد أصبح نوعًا من العملة، وإذا كان قد اختار هذا الأسلوب فلأنه كان هو، ولا شىء أكثر، ولم يحدث سوى تغيير بسيط فى دوافع النكتة وأهدافها، كانت قد أصبحت «تنكيتًا وتبكيتًا»...!

وكان حامد الأعسر قد أدرك نصف هذه الحقيقة، حين طالع العدد الأول من مجلة نديم، وكان يذهب أحيانًا إلى المقهى «كليوباترا» برفقة زميله يعقوب زخارى، وكانت نغمة السخط التى بدأ يرددها فى الماضى قد حلى وقعها فى أذنيه، فأصبحت تسليته المفضلة ووجد فى مجلة نديم أعظم تبرير.

- قلت لكم من البداية لا فائدة فيه ليس نديم سوى مهرج، ملأ كراريس التلاميذ بتهريجه، وحول الخطب إلى تهريج، واليوم يفعل الشىء نفسه بالصحافة! فأى أمل ترجونه منه؟

وحين لمح نظرة شك فى بعض العيون راح يقرأ لهم حوارًا تحت هذا العنوان «تخريفة»:

ـ لست أنا الذى أقول ذلك إنه هو...!

واستمر يتلو بصوت مرتفع الحوار بين الأب والابن وكان الأب عائدًا لتوه من المقهى الذى يستمع فيه إلى قصص الشاعر على الربابة :

ـ أبوك رزئ بمصيبة عظيمة.. فقال الابن:

ـ هل مات أخى؟

ـ كان أهون.

ـ هل هدم البيت؟

ـ كان أهون.

ـ أصدر عليك حكم بالسجن؟

ـ كان أهون.

ـ ما الذى أصابك يا والدى؟

ـ الليلة أخذوا عنترة أسيرًا فهات الكتاب وخلصه وإلا قتلت نفسى.

ـ أتتكدر من حكاية مكذوبة وقصة كلها تخريف.. فصرخ الأب:

ـ أنت تشتم عنترة يا ابن الـ ... ونزل عليه بعصاه. فخرج الولد وهو يسب الجهل، فقابله أحد الجيران وسأله عن حاله فقص عليه قصته مع والده فقال الجار:

ـ طالما قلت لأبيك فضك من عنترة وتعال اعمل زغبى فما سمع كلامى، فضحك الولد من سخافة عقل الاثنين و قال: لاشك أن الجنون فنون! وكان صوته أثناء القراءة قد اجتذب بعض الجالسين عدا من كانوا حوله، وطلبوا إليه إعادة القراءة.

وكانت نتيجة التجربة مثيرة له هو شخصيًا. كان بعض من جاءوا من أنصار عنترة وبعضهم من أنصار خصومه، واتفق الفريقان لأول مرة ضد نديم، ووجد حامد الأعسر نفسه لأول مرة أيضًا يدافع عن نديم!

* * *



فى فروع الجمعية، فى القرى والمدن، كانت حواريات نديم الأخيرى تجمع الناس الذين طال انتظارهم له، وطال شوقهم إليه، كان نديم هو الذى جعلهم يكتشفون أن آيات القرآن الكريم والأحاديث والأشعار يمكن أن تعبر عن حياتهم ومشكلاتهم وليس فقط عن الجنة والنار وأبطال ماتوا من سنين، وحياة ليس إلى رجوعها من سبيل، وهاهو الآن يفعل أدهى الأمور فيجعل من الصحف التى كانت - مثل المنشآت والعصى، والثبات الأنيقة - جزءًا مكملاً للأفندى فى ذلك العصر والتى كانت تتحدث عن أشياء لا تعنى سوى الحكومة ولا يفهم فيها غير الأفندية والبكوات، ويجعل من مشكلات حياتهم اليومية، والدائمة الموضوع الوحيد المتكرر فى كل حوارياته، ويتيح لكل من يعرف القراءة ويملك ثلاثة قروش أن يضمن لنفسه ولاء الدائرة التى تلتف حوله لتسمع وتضحك وتفكر فى نهاية الأمر، ولم يتردد بعض من يملكون هذه القدرة فى الإفادة من هذا الولاء فى قضاء بعض مصالحه، ولم تبخل الدائرة بدفع ثمن أقل بكثير من فرصة الاستماع والضحك وفرصة إعادة القصة أو الحوار لمجتمع آخر واكتساب اهتمام الآخرين بأيسر السبل! واقتحمت حواريات نديم كل مكان، دروس التلاميذ، والمقاهى وجلسات السمر فى البيوت، وكانت بالنسبة لمن عرفوه فرصة لتجديد ذكرياتهم، والاعتقاد بأن هذا الرجل لن يتركهم فى حالهم وإذا قد قبع فى الإسكندرية فلأنه مصمم على أن يواصل رحلته وسعيه إلى مدى بعيد، وبالنسبة لمن لم يعرفوه كان سؤالا ملحًا ومضنيًا من هو؟ وما الذى يريده؟ وكانت الإجابة انتظارًا مستمرًا ليوم الأحد! واعتقد الأعيان والذوات أنهم قد استراحوا منه بعد أن تلهى بهذه الأوراق، التى كانوا بدورهم يتلهون بها أحيانا فيضحكون حين يصور الحوار جهل الفلاح أو سذاجته ويلعنون «نديم» وحين يصور غباء الأعيان سفههم فيما يسميه «سهرة الأنطاع» أو «غباء التقليد» كانوا يضحكون وينتظرون بدورهم يوم الأحد!

* * *

وفى أوتيل أوروبا كان «حسين فهمى» يعتقد بعد قراءة أولى سريعة للمجلة أن «نديم» قد هدأ أخيرًا وهمد بعد أن فشلت رحلاته للأقاليم، وأنه عرف أخيرًا مكانه الحقيقى، كانت تسليات وإن كان هو شخصيًا يعتقد أن تسلياته تفقد نصف قيمتها حين تتمسح بمشكلات الناس، وكان يبشر بآرائه تلك وسط مجموعة من جلساته وجسده البدين يهتز كلما تطوع أحدهم بتذكيره ببعض الحواريات، ولكن أحدهم تطوع بتذكيره بشىء آخر لم يكن حوارًا.

- «مجلس طبى على مصاب بالإفرنجى» أتقصد هذا؟

- نعم

- إنه كلام ثقيل الظل مثل كلام نديم حين يكون جاداً.

- إنه تنديد بالحكومة وبالمراقبة الثنائية.

واهتز «حسين فهمى» فى ضيق، فلم يكن قد أتم قراءة الموضوع ولم يفهم منه شيئاً كهذا، وتساءل:

- كيف؟ وهل يجرؤ؟

وأدرك التابع النحيل الذى كان يظن أنه يقدم لسيده فرصة ذهبية يخفف بها غيظه من نديم نوع الحرج الذى وقع فيه... فقال متراجعاً:

- ربما أكون قد أخطأت الفهم.. ولكن هذا ما بدا لى..

ولم يفكر «حسين فهمى» فى أكثر من الفرصة التى سنحت، وجىء بنسخة من المجلة، وراح التابع النحيل يقرأ ويقرأ ثم يقف ويتساءل من يكون المصاب الجميل فى هذه القصة؟ ومن هم أهله الذين أهملوه؟ وأسلموه لمن أغواه وجعله يسقط فريسة المرض؟ ولماذا يسمى المرض بالداء الإفرنجى؟ إن الأمر يصبح واضحاً حين يقول المريض لأهله معاتباً: إنكم تركتمونى لصاحبى فعرضنى لمن لم أعرف طبعه ولإعادته ولا لغته ووكل بى من يسلك بى سبيل الغواية حتى أصبت بالداء الإفرنجى فلم أعبأ به فى أول الأمر و ..

وفى تلك اللحظة فقط لام حسين فهمى نفسه؛ لأنه لم يهتم بقراءة الموضوع جيدا وخشى أن يسبقه أحد بهذا الكشف الرائع إلى المحافظ وانتبه إلى تابعه وهو يقرأ «وكنت أغالب هذا الإفرنجى حتى أصل إلى مقرى فأعالج نفسى بحشائش تربتى وعقاقير أرضى من يد أطباء بلادى وصيادلة ديارى».

- أيكون لهذا كله معنى سوى التنديد بالمراقبة الثنائية وبقانون التصفية؟

كان التابع النحيل هو الذى يسأل وحين صمت الجميع راح يبحث عما يؤيد اتهامه، ما رأى أطباء بلده؟ إنهم يطلبون من أهل المريض «أن يعنوا بخدمته وتطهير أعضائه وحفظه بحيث لا يتركون الغرباء يتولون خدمته، ولا يمكنون الأجانب من الوصول إليه

خوفًا من إفسادهم العلاج وسعيهم فى إتلافه أكثر مما صنعوه»!! إنه يذكر الأجانب صراحة هنا يا سيدى..

* * *

وفى مكتب المحافظ راح حسين فهمى يبرهن على ذكائه ويقدم أدلة الانحراف، وهى هذه المرة مكتوبة وليست كلامًا فى الهواء، وقال المحافظ، وهو يقلب نسخة أخرى من المجلة كانت فوق مكتبه ويثبت منظاره السميك على عينيه:

- لكن ليس عملنا هو أن نحاسبه على ما يكتب، هذا عمل مراقبة المطبوعات، ثم تابع وهو يضرب بيده على المجلة والمكتب معًا:

ومع ذلك فلو كنت تحمل على كتفيك رأسًا حقيقيًا لفكرت فى طريقة أخرى، طريقة لا تجعل منه شهيدًا أو ضحية يتفجع عليه أولئك الحمقى الملتفون حوله، طريقة تدمر غروره الملعون وتدمغه كلص ومهرج!

وخيم على الرجلين صمت ثقيل قطعه المحافظ :

- هل تصدق؟! إنه يريد أن يعيد تمثيل رواية «الوطن» بمناسبة ذكرى جلوس الخديو على العرش! إنه يستغل كل مناسبة ليسرق ليزيد المطبوع من مجلته، ليثير المشاعر ضد الحكومة فى ظروفها الراهنة الصعبة، ونكتفى نحن بالتفرج على هذا كله!

- بمقدورنا أن نستغل هذه المناسبة، وأعتقد أن افتعال مشاجرة بالمسرح يمكن أن يكون سببًا كافيًا لإغلاقه إلى الأبد.

- تظن ذلك؟ الأمر يستحق التفكير قليلا، ويتوقف على من تعتمد عليهم! لا نريد محاولة بلهاء كتلك التى انتهت بسخريته من صديقك السكير فى بار تريسته!! لا نريد محاولة تنتهى بإحراجنا بدلاً من إحراجه!! ولا تفعل شيئًا قبل أن تخبرنى به.

ومع ذلك، ورغم انخراطهما فى التفكير والتدبير فلم ينس أحدهما موعده مع «التنكيت والتبكيت» فى صباح كل أحد.

* * *

لم يكن الحاج محمود المحلاوى صاحب منسج كبير، ولكنه كما يؤكد أهل مدينة «المحلة» صاحب قلب كبير حقًا، وحين ألحق ذلك الصبى النحيل المدعو «سالم» بالعمل فى منسجه لم يكن ذلك لأنه فى حاجة إلى عمله بل لأن الصبى، الذى كان يبحث عن عمل والذى عرف فيما بعد أنه كان هاربًا ويتيمًا، كان هو الذى يحتاج إلى مكان يأوى إليه ورغيف خبز يأكله، وربما كان السبب الحقيقى أن الصبى أعجبه، وكما قال الحاج لبعض أصحابه «دخل قلبى» وفى الحق أن حرفة النسيج وقتذاك كانت تعانى كغيرها من الحرف وربما أكثر من غيرها، فقد كانت المنسوجات الأوروبية الأجود وأحيانًا الأرخص تملأ الأسواق، ولكن ماذا يضير الحاج محمود من بقاء صبى لن يتقاضاه أجرًا سوى طعامه ومسكنه..!

وفوجئ ذات يوم بالصبى يقرأ فى مجلة اسمها «التنكيت والتبكيت» ولم يدهش إلا لسبب واحد.. كيف يشترى الصبى بالقروش القليلة التى كان يمنحه إياها بين وقت و آخر مجلة للقراءة، وطلب منه أن يقرأ له فيها، وأصبح هو الذى يدفع له ثمنها كل أحد ليتمتع بحواريات نديم، وسأل الصبى لم لا تذهب لأستاذك؟ وكان الصبى قد حكى له جزءًا من قصته:

ـ إذا كنت قد ضقت بى.

ـ لا.. لست أقصد شيئًا كهذا، لكن مادمت تحبه ومادام.

ـ إنه لا يبقى فى الإسكندرية، إنه يطوف بالبلاد، ولا يبقى فى بلد! وحين أردت لقاءه فى المنصورة كان قد ذهب إلى قرية مجاورة، وكلما سألت عنه فى مكان أجده فى غيره!!

وقرأ له الصبى فى يوم أحد إجابة عن سؤال كان عنوان مقال طويل هذه المرة وكان السؤال: «بأى سبب ماتت صنائع الشرق وافتقر أهله؟ وبأية وسيلة تحيا وتعود؟»

وحين استمع الحاج محمود إلى إجابة السؤال الأول هز رأسه موافقًا وسأل الصبى:

ـ قبل أن يعمل أستاذك مدرسًا أتعرف ماذا كان يشتغل؟

ودعاه للاستمرار فى القراءة بعد أن هز رأسه نفيًا.. ثم دعاه لأن يعيد له ما قرأ بعد أن سمعه لأول مرة، وكان ذلك فى اليوم التالى ومعه بعض التجار والنساجين من أصدقائه وقرأ الصبى بصوت مرتفع:

«فإذا اجتهدنا فى مساعدتهم على أفكارهم الحسنة لزمنا أن نسعى فى عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها، فإذا طرأ عليهم عمل من الأعمال كان أمره مفوضًا لمجلس الرؤساء من الطائفة يساوم من يشاء، ويأخذ ما يشاء ثم يوزع فيه من العمال بقدر ما يحتمل وعندما يطرأ غيره يوزع فيه من لم يكن فى الأول وهكذا، وهذا العمل يلزمه رأس مال يديرونه به فعلى رؤساء الطائفة أن يفرضوا على كل صانع من السهام على قدر قوته واقتداره، والمجموع يكون فى صندوق تدور به الأعمال، وعندما توزع الأرباح يحجز المجلس من كل صانع جزءًا يضيفه لسهامه حتى يصبح ذا ثروة من حيث لا يشعر!

وإذا تمت هذه المبادئ. وعقدت جمعيات الطوائف، وفتحت صناديق الاقتصاد اختصتهم الحكومة بأشغالها لما تراه فيهم من الثقة والنشاط، وظهرت الصنائع فى عالم الوجود بحالة لا يتصورها العقل، فإن العقل المصرى ينبه بالإشارة، وإذا لم يحدث ذلك فلا نلبث أن نرى أهل الصناعة (وهم السواد الأعظم) خدمًا للمتمولين (وليتهم منا) يصرفونهم كيف شاءوا، ونفقد رجالنا بلا حرب ولا وباء وتعدم الهيئة الاجتماعية قوتها بتعذر التحصيل من فقير لا يأخذ من سيده إلا القوت».

- كلام لا يقوله إلا رجل لا يعرف السوق ولا الصنعة.

- من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار !

- ومع ذلك فأعتقد أن الأمر ممكن لو توافرت الثقة.

- لو توافر المال، الصناع لا يجدون قوت يومهم.

- الثقة! إذ ماذا يمنع الأغنياء من ذلك؟

- وماذا يدفعهم الى ذلك، المشكلة خاصة بأهل الصناعة لا بهم!

- ورغم ذلك فلا يبدو أن ثمة حلاً سوى ما يقوله هذا الرجل!

وقال الصبى هذه المرة:

- وما رأيكم لو كتبت له؟

- تكتب له ماذا ؟

ـ رأيكم فى هذا الكلام!

وبدا لهم الموضوع كمزحة، وبدا للصبى كفرصة، كيف لم يفكر فى أن يكتب له مرة أخرى، فالخطاب حتمًا سيلتقى به!

وكتب له رسالة قالوا فيها كلامًا كثيرًا لا يخرج عن هذا السؤال: من أين المال؟ ولهذا السبب ولغيره ظلوا يرقبون دائمًا يوم الأحد!

* * *

وغرق أحمد سمير فى أكوام من الرسائل، وكان يحلو لسليم نقاش أحيانًا أن يلقى على بعضها نظرة، ويتعجب هذه المرة من جنون الناس لا من جنون نديم: وأصبح أحمد سمير خبيرًا فى قراءة الخطوط وحل ألغازها.

وأثر المقال الأخير عن أسباب تدهور الصناعة فى الشرق اتفقت لأول مرة الخطوط الرديئة والحسنة على سؤال واحد:

ـ من أين المال؟

وكان بعضها يزيد: هل ترك لنا قانون التصفية مليمًا؟

وكان بعضها يسخر قائلاً: إذا كنت تجهل الأمور فى هذا البلد فتفرج على رواية «الوطن» لتهلم كيف يعيش الشعب!

وأحس نديم وهو يقلب الكومة بنشوة جارفة! ها هو حلمه يتسلل إلى عيون الناس ويوقظهم ويثير تساؤلاتهم، وراح يقلب الكومة من جديد ويقرأ كل شىء عدا الأسماء إذ ماذا كانت تعنى بالنسبة له الأسماء؟ ها هو أخيرًا يتحدث إلى الحشد الأكبر.. إلى الشعب، وها هو صوته يصل إلى كل مكان وإلى كل طائفة! وهل هى القضية التى يؤمن بها تشغل الناس وتقض مضاجعهم!

ـ ولكن ما يقولنه صحيح يانديم.. وهل كنت تجهل؟

كان محمود واصف هو الذى يسأل وقد رفع رأسه منذ قليل عن كومة الأوراق، وكان نديم قد سمع الكلام نفسه فى أكثر من مكان ومن أكثر من شخص!

ولم يجب على سؤال محمود واصف.. فقط قال له سأكتب مقالا آخر عن نفس الموضوع وسأرد فيه على كل شىء، المهم أن تشرف أنت الآن على تدريب التلاميذ على الرواية الجديدة.

ـ العرب ؟

ـ نعم، والقديمة كذلك.. سنمثل الروايتين معًا !

* * *

وقبل كل الناس قرأ محمود واصف المقال وهو فى المطبعة، كانت القضية تشغله جدًا، وكان يهمه أن يرى الطريقة السحرية التى يمكن أن يجيب بها نديم على سؤال كان يعتقد أنه لا جواب عليه، وكان إيمانه بفكرة نديم ينطوى على بذرة شك قاتلة، وأن دعوة نديم لا تفتقر إلى الصواب أو المنطق بل إلى ما يمكن أن نسميه بلغتنا المعاصرة «الواقعية» كان قد قرأ رسائل القراء، وكان واثقًا أن المال يمكن تدبيره أما الثقة فكيف يمكن تدبيرها، وكان الناس لسنين طويلة قد فقدوا الثقة فى الحكومة وفى الآخرين وفى النهاية فى أنفسهم.. وراح يقرأ المقال ولكنه لم يكن مقالا.. كان «مجلس أنس» !

وأفضت المذاكرة «بمجلس الأنس» إلى تقاعد الأغنياء وموت صناعة البلاد، فقال البعض ما حل وثيق العروة إلا فقد المال والثروة، فلو كان بيدهم تجارة وبضاعة لملأوا الشرق بمحسنات الصناعة، وما ألزمهم السكوت إلا احتياجهم إلى القوت، فقمت وقلت: إذا فرضنا أن بمصر وإسكندرية وطنطا ألف إنسان من المغرمين بالشراب وألفى رجل من المتغزلين بهاتكات الحجاب، وثلاثة آلاف ممن يفضلون الحشيش على ألحان، وخمسة آلاف من أصحاب الشغف بالغلمان، وأردنا أن ننظر لما يجمع من مصرف هؤلاء فى هذه السبل المضلة من غير تغال لرأينا مجموع مايصرفونه فى الملاهى كالآتى تقريبًا، ألفا سكران فى ثلاثة أنصاف بيرة كل ليلة باعتبار النصف بقرش ميرى فمجموع ما يصرف فى العام ٣١٦٠٠٠٠ قرش، وألفا رجل من عاشقى الغيد ينفق كل منهم من ماله فى كل شهر ثمانين قرشًا فمجموع ما يصرفونه فى ١٢ شهرًا ١٩٢٠٠٠٠ قرش، وثلاثة آلاف من الحشاشين يصرف كل منهم قرشين كل ليلة فمجموع ما يصرفونه سنويًا ٢١٦٠٠٠٠ قرش، وخمسة آلاف من المتغلمنين يصرف كل منهم خمسين قرشًا فى كل شهر فمجموع ما يصرف فى العام٣٠٠٠٠٠٠، ومجموع ما يصرف فى الأقسام الأربعة عبارة عن ٩٢٤٠ جنيهًا، ثم نفرض أن بقية أهل البلاد تصرف نصف المقدار،

وبعض الأعيان والمتسترين يصرفون مقدار النصف أيضًا فيكون المجموع ١٨٤٨٠ جنيهًا وهذا خلاف ما يصرف فى المجالس الخصوصية والهدايا والمعاجين والقمار والنمرة، وخلاف من يشرب «عشر كبايات» بيرة أو عشرين «تعميرة»، أو يقيم فى بيت الفحش شهرًا أو يتخذ له مجلس ولدان كل ليلة، فإذا فرضنا أننا فى احتياج إلى معامل «فابريقات» نحيى بها الصناعة وضربنا العظيم منها فى الصغير فى خمسة وعشرين ألف جنيه لافتتحنا فى سنة سبعة معامل للصناعة وإذا استخدمنا فى كل معمل مائة من تلامذة مدارسنا فى الكتابة والترجمة والتوكيل لوزعنا فيها ٧٠٠ من أهل المعارف، وإذا استخدمنا فيها ٥٠٠ من العملة فى كل معمل كان المجموع ٣٥٠٠، وبضميمة أهل المعارف إليهم يكون المجموع ٤٢٠٠، ثم نصرف النظر عن أرباح هذه المعامل، وعما يزيد من أهل الخير، ونقول إننا إذا أدمنا على ذلك عشر سنين يكون مجموع المعامل سبعين معملا، ومجموع من يستخدم فيها من أهل المعارف٧٠٠٠ ومن العملة ٣٥٠٠٠، ومجموع ذلك ٤٢٠٠٠ رجل، تشغل خمسة ملايين فى إعداد ما يلزم لصناعتهم من المزروعات وغيرها، وتصريف ما يصنعونه بالبيع والشراء والتسفير والشيل والجر والتوسط غير ذلك مما تقتضيه تلك الأعمال، وهذه ثروة لم تبلغها مملكة من الممالك فى مدة عشر سنين ثم، هذه الثروة تكونت من اثنى عشر ألف ضال فى وسط خمسة ملايين من الناس مع صرف النظر عن أرباح المعامل من أول سنة إلى العاشرة، فقام أحد النبهاء وقال: إن المبلغ يصرف الآن من أهله فلم يفتح هذه المعامل من يأخذه؟ فقلت له: لو كلفت نفسك بالسعى إلى جمرك الإسكندرية، ووقفت من دفاتره على مقدار مايدخل من المسكرات لعلمت أن فى أوروبا ألف معمل تشتغل على ذمة الشرق، ولم يفتحها إلا حساب القرش والقرشين الذى قدمته لك، أو تفضل معى نزر البير والخمارات وقهاوى الحشيش، وبيوت المومسات لتعلم أن العدد الذى قدرته لك لا يبلغ عشر ما تراه.

ورفع محمود واصف عينيه عن الأوراق، لم يكن الموضوع قد انتهى، ولكنه كان فى حاجة إلى أن ينفض عينيه قليلا من هذا الحلم المروع، ولم يكن فيما كتبه نديم جديد سوى الأرقام، ولكنها كانت كافية لأن تجعل الموضوع واقعيًا إلى حد كبير، وكان «محمود واصف» قد سمع «نديم» مئات المرات يردد فكرة «القرش والقرشين» ويضع كل أمله فيمن يملكونها لا أكثر، وها هو حلمه يتخطى حدود الأحاديث والخطب والحشود الصغيرة، ويتخطى حدود الأحلام فهل يمكن؟ هل يستطيع أن يصبح شيئًا أكثر؟ لقد كان هو يؤمن بأن الجمعيات لم تنجح إلا بسبب شخصية نديم وحدها لا لأى سبب آخر،

ولآخر مرة كلن نديم يبدو متعبًا وضائقًا وراغبًا فى أن يحرر فكرته من حركة الجمعيات التى تثقلها مئات الأشياء، وفى أن يدفع بها إلى الشعب.. إلى الصناع والحرفيين والتجار فى كل مكان لتنجح أو ليستريح منها، ولم تمت بذرة الشك فى نفس محمود واصف ولكنها تنتظر بدورها يوم الأحد!!

* * *

وفى هذه المرة غرقوا جميعهم فى أكوام الرسائل، وغرق معهم حتى سليم نقاش الذى تساءل فى غيظ موجهًا حديثه لنديم :

- كم أحمق تظنهم يسمعون تنكيتك ؟

واكتفى نديم بهز رأسه نفيًا، وكان الغدد يفوق كل تقدير.. ودار رأس نديم وتعبت عيناه من الخطوط التى يتطوع أحمد سمير بفك ألغازها..

- كيف كنت تحل رموز التلغراف؟ كان محمود واصف يتساءل بينما كان نديم يفكر فى الجنون الذى يصيب الناس كلما حاول أن يخاطب عقولهم أو لعله مخطئ فالناس لم يفعلوا أكثر من أن يستعملوا لغته.. كانت الرسائل كلها تنكيتًا وتبكيتًا !

كان بعضها يناقش إحصائية نديم فيزيد أرقامًا هنا وينقص أرقامًا هناك، وكان بعضها يناقش معنى الإحصائية بالنسبة للناس، وكان يتساءل: كيف تطلب النجدة من هؤلاء الهلكى والبائسين بينما هم فى حاجة إلى من ينجدهم؟ وناقشها البعض بالنسبة لنديم نفسه وكان يتساءل: كيف وصلت إلى هذه الإحصائية الدقيقة؟ كن شجاعًا وقل لنا كيف عرفت هذه الأرقام؟ واستشهد أحدهم بهذا البيت:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها.

ودافعت رسالة بتوقيع «إسكندرانى» عن نديم بهذه الطريقة «كنت أصدق ما أسمع عنك من أنك سكير وأنك تهتم بصبيانك لأشياء تتجاوز أمور التعليم، وأنك لاتجيد الخطابة إلا بعد «تعميرة» ثقيلة، ولكنى بعد قراءة مقالك الأخير أيقنت أنك برىء من هذا كله براءة الذئب من دم يوسف، ولو كنت تفهم ماتعنيه «تعميرة» الحشيش بالنسبة لمن يشقى طوال نهاره ولا يجد الراحة إلا فيها، لما جرؤتَ على هذا الطلب الذى يؤكد سذاجتك وأيضًا براءتك» !!

وكانت ثمة رسائل أخرى تناقش الموضوع بجدية، وطلب نديم من أحمد سمير أن ينحيها جانبًا فصنعت كومة هزيلة إلى جانب التلال الأخرى، كانت أكثر هذه الرسائل من المحروسة، ودمنهور، والمحلة ومراكز الصناعة القديمة، وكانت تتساءل: لم لاتفعل هذا عن طريق الجمعيات؟ لم نسيت جمعياتك؟ وضاق صدر نديم بهذا السؤال.. أتكون المسألة قد انتهت به وبهم إلى تقاذف المسئولية مثل الكرة؟ ولعن نفسه ولعنهم، ولكنه ظل ينبش ويهدم تلال الأوراق، وينظر إلى حلمه وهو يتمزق بين الجد والهزل، ولكنه فى النهاية كان سعيدًا، بمنظر أكوام الرسائل وهى تتبعثر لتجتمع من جديد وحين تساءل محمود واصف: ألم أقل لك؟ «شخط» فيه قائلا: ما الذى كنت تنتظره؟ أن يتم كل شىء فى أيام أو أسابيع؟ ثم تابع وهو يشعل سيجارة وكأنه يحدث نفسه:

- يجب أن تواصل الجمعيات طريقها وأن تتبنى الفكرة.

- تعنى أن تعاود رحلتك فى البلاد

ورمقه نديم بطرف عينيه

- وماذا فى ذلك ؟

- والمجلة ؟

- أكتب لها من أى مكان أحل به

- هل فقدت عقلك ؟

- لا

كان نديم يجيب بجد، فانفجر الجالسون بالضحك.. ثم تساءل بنفس النبرة الجادة:

- هل انتهيت من تدريب التلاميذ على الرواية ؟

- لا

قالها محمود واصف بغيظ ثم أردف بنفس الغيظ:

- هل تعتقد أنك التقطتنا من الطريق يا نديم ؟

ولم يجب نديم.. فقط نصحه بأن يدرب التلاميذ وألا يضيع الوقت.

* * *

أما نديم فقد أصبح من حقه وحده أن يضيع الوقت، لقد غدا رجلاً ذا شأن، مفكرًا يجابه المشكلات، ويضع الحلول، صاحب مجلة، يحتل ركنًا فى مقهى «الإسكندرية» حيث تجلس شرذمة من كتاب الصحف مصريين وشاميين !

وهناك كان يلتقى بكاتب شامى هو «أمين شميل» كان قد أثار جدلاً مع نديم بشأن مقاله «إضاعة اللغة تسليم للذات» وكان من الطبيعى أن يثير معه جدلاً آخر حول اقتراحاته لإنهاض الصناعة، وهل أصبح وراء نديم شىء غير الجدل ؟

وكان نديم فى تلك الليلة يرتدى سترة زرقاء أنيقة تليق برئيس تحرير، يدخن، ويتحرك فى جلسته تلك الحركة السريعة كأن شيئًا ما يتحرك تحت جلده أو تحت ثوبه، وكان الجدل قد تطور من الجزئيات إلى الكليات شأنه دائمًا بين الناس العظام، وكان نديم يقول مؤكدًا :

- لا... ليست المسألة شرقًا أو غربًا أو مسلمين وغير مسلمين.

- وكيف تراها إذًا ؟

كان أمين شميل هو الذى يسأل بصوته الهادئ العميق، وكان قد قرر منذ لحظة رفضه لما سماه الحلول الجزئية وأن نمط الحياة الشرقية هو سبب المأساة، وأن العلاج هو أن نتحول إلى النمط الغربى ولو أدى إلى استعمال لغة الأجانب أنفسهم !

- المسألة فى جوهرها مسألة تقدم وتأخر وهو أمر لا تكمن علته الأساسية فى الدين، أو الأرض، أو الجنس، أو اللغة، وتستطيع أنت أن تحقق التقدم فى أى بلد أو ملة أو أمة إذا عرفت جوهره واتبعت طريقه.

- البلاد الحارة لم تصنع تقدمًا حتى الآن، والأجناس الـ.. كان أحد أتباع أمين شميل هو الذى يتكلم، فقاطعه نديم:

- لقد عرفت البلاد الباردة والأجناس التى تسكنها أدوارًا من التأخر ألعن من تلك التى عرفناها.

وتدخل الشيخ حمزة فتح الله صديق نديم القديم قائلا:

- التقدم الحقيقى فى العودة إلى الدين.

- الدين بكل أنواعه هو علة التأخر، ولم تنهض أوروبا إلا بعد أن تحررت من سيطرة الكهنة.

كان نفس التابع القصير المفتون بآراء أستاذه أمين شميل هو الذى يتكلم.

وحاول نديم تهدئة الموقف فقال :

ـ كل دين فى أوله يكون حاملا لجوهر التقدم ثم يأتى بعض رجال الدين فيفسدون الأمور.

وتساءل «صالح مجدى» عما يعنيه نديم بجوهر التقدم، كان شاعرًا عجوزًا، ولكنه كان يكره الكلمات غير المحددة، وكان تلميذًا لرفاعة الطهطاوى، وكانت الأسرة العلوية قد تقاسمت دواوين شعره الحاد كالموسى ففاز محمد سعيد باشا المشجع لأن تكون مصر للمصريين بأبواب المديح فى هذا الشعر بينما انفرد الخديو إسماعيل الذى شاء أن تكون مصر للأتراك والشراكسة بأبواب الهجاء المقذع المرير، ولم يبادر الخديو بقتله لأنه كان واثقًا من أنه سيموت من تلقاء نفسه فى وقت قريب، ولكن العجوز الماكر لم يمت إلا بعد أسابيع من هذه السهرة !

وصمت نديم لحظات اندفع خلالها الشيخ حمزة فتح الله صارخًا فى وجهه:

ـ الدين الإسلامى صالح لكل زمان ومكان !

كان نديم لايزال صامتًا يفكر فى جوهر التقدم، ولم تكن تلك أول مرة !

كانت الفكرة شغله الشاغل القديم وقد أجاب مرة على هذا السؤال فى إحدى خطبه، ولكن متى قنع سؤال كهذا بجواب واحد؟ كانت تتخايل لعينيه معالم رؤيا تتضح مع الأيام، وكانت فكرة التقدم الإنسانى كله تشغله خلال قراءاته فى التاريخ، كانت تتجرد من كل أثوابها المؤقتة، كان ينظر إلى التقدم كسائح أبدى يتنقل عبر البلاد والأزمنة والأصقاع ويتكلم شتى اللغات ويبنى الأهرامات والمدارس والحصون والتماثيل ويكتب ويخطب ويشتغل بتحنيط الأجساد، ويقيم المعابد والمحاكم وقد يطرد ويضرب ويمرض ويسجن ولكنه لا يموت أبدًا، ولايستقر طويلاً إلا حيث يتوافر شيئان لعلهما ما يسأل عنه الرجل.

ـ العلم والحرية !

ـ فقط ؟

ـ التقدم قوة وهما سبيلها وتأتى بعد ذلك تفاصيل كثيرة !

- ليس هذا هو السؤال! إن السؤال المهم هو من يملك هذه القوة ؟

- الكثرة.. الشعب أقصد! وهذا ماينبغى أن يميز التقدم فى عصرنا.

- وحين تكون القوة فى يد حكومة مستبدة ؟

كان صالح مجدى يواصل الأسئلة، كان عجوزًا لا يبالى بشىء.

- يسعى الشعب للحصول على قوته، كان نديم يتكلم وكأنما انتقلت إليه عدوى الشجاعة من العجوز اليائس.. وتابع نديم :

يجمع الشعب قواه المبعثرة، يجمع قروشه القليلة ليتعلم، ليبنى المصانع وحين يجد قوته يجد حريته !

* * *

وقال «حسن رضوان» لنديم وهو يمضى معه فى الطريق إلى بيته، وقد استمع إلى مناقشة تلك الليلة دون أن يشترك فيها.

- ألا يعنى انضمام الجيش إلى صف الشعب لأنه قد استرد قوته ؟

- قطعًا إنه يعنى الكثير لكننا كنا نتحدث عن اكتشاف الشعب لقوته الذاتية، قوته هو !!

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يسمع فيها نديم مثل هذا السؤال من «حسن رضوان» الذى كان يرتدى الملابس المدنية حين يتصل بنديم رغم أنه ضابط فى الجيش وضمن تنظيم الضباط الذى يقود الصراع الخفى الدائر بين الجيش والحكومة؛ وكان قد أفهم «نديم» أن الضباط ينتظرون اللحظة الملائمة ليضربوا ضربتهم، وأن مسألة الدستور أصبحت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت، وأنه يجب أن يضمنوا تأييد الشعب كله لحركتهم، وأنهم ينظرون إلى نديم كرجل قادر على أن يفعل لهم الكثير من خلال جمعياته ومجلته وأتباعه، وكان قد طلب من نديم أن يسافر للقاء عرابى بنفسه سرا فى المحروسة، وطلب منه نديم أن ينتظر حتى ينتهى من عرض روايته فى ذكرى جلوس الخديو على العرش، وفى الحقيقة أن «نديم» كان يعطى نفسه الفرصة قبل أن يتخذ قراره النهائى، كان يدرك معنى أن يصبح الجيش وهو القوة التى تحمى الاستبداد فى يد الشعب، كان يدرك الآمال العظيمة، ولكنه كان أيضًا يدرك المخاوف العظيمة والأخطار التى يمكن أن تتعرض لها سفينة نوح وهى تواجه الأنواء والعواصف، لقد سمع

الكثير عن اتصالات الضباط برجال الحزب الوطنى من كبار الذوات، وكانت فرنسا قد احتلت تونس منذ شهور دون أن تحرك تركيا ساكنًا، وإنجلترا تتحرش وتنتهز الفرصة والخديو بدوره ينتظر ويكرر محاولاته اليائسة، وكان خوفه الأعظم من أن يغرق حلمه فى رسائل التنكيت والتبكيت لماذا ينتظر الناس دائمًا من يتحمل عبء حياتهم؟ من الذى يصنع التقدم حقًا القلة أم الكثرة؟ لماذا كانت الرسائل الجادة تصنع كومة هزيلة ؟

كانا فى طريقهما إلى البيت، وكان الظلام يغرق الشوارع عدا ذبالات من الضوء الشاحب تترامى تحت أعمدة مصابيح الغاز الواقفة كأنها تنتظر العائدين إلى بيوتهم. وكان رجل عجوز يدفع أمامه عربة يد محملة بالترمس كان فى طريقه إلى البيت، وعرف «نديم» وهو يمرق تحت مصباح جانبى فنادى على الترمس وقال لنديم:

- مساء الخير يا «أبو الندمان»! لماذا لا تأخذ منى هدية للأحباب، وابتسم نديم وحمل قرطاسًا من الترمس أبى البائع فى البداية أن يأخذ ثمنه..

وقال نديم لحسن رضوان وهو يودعه:

- قطعًا سأقابله، حين أفرغ من تمثيل الرواية! واختفى فى الظلام الشاب الوسيم الفارع الطول المدعو حسن رضوان.

* * *

وقبل أيام من إعادة تمثيل رواية نديم وصله رسول من دمنهور يدعوه لحضور حفل افتتاح مدرسة الجمعية الخيرية، وعلى عجل أعد حقيبة ملابسه الصغيرة، وانتقى مجموعة من التلاميذ لتمثل فى حفل الافتتاح أحدث حوارية كتبها نديم، وصرخ محمود واصف:

ولكن هذه المجموعة هى التى تستعد لتمثيل الرواية.

- درب غيرهم، جمعية الخطابة ملأى بالتلاميذ النجباء.

- لكن ما الضرورة لأن تصحب هذه الفرقة معك وتعطل جهدنا بعد كل هذا التعب؟

- لنقدم لهم المثل، لنريهم البضاعة، لنقول لهم: لسنا نرضى بتلاميذ أقل من هؤلاء! هذه أفضل الطرق.

- نعم أفضلها لقتلنا.

* * *

وفى دمنهور، وعلى المحطة وفى الشوارع، استقبل نديم وفرقته استقبال الغزاة، ومع أقداح القهوة وأثناء تناول الطعام. كان الحديث فى جملته تنكيتًا وتبكيتًا، وكان مجلس الأنس قد شملت بركته جميع المجالس، وحاول نديم فى كل أحاديثه أن يؤكد أن الفقر الحقيقى هو الذى يصيب عقول الناس وإرادتهم، وانتهى حديثه بهذا السؤال: كان الفقر فى أوروبا قبل أن يكون هنا فبماذا تقدمت أوروبا؟

وترك تلاميذه الجواب بتمثيلهم ذلك الحوار الذى نشر بآخر عدد من المجلة.

وجلس بجوار المحافظ محمد بك سعد الدين، وبجوارهما حشد من أعيان الريف والمدينة يرقبون فى شغف ودهشة صبيان نديم.

- بماذا تقدمت أوروبا؟ كان تلميذ يسأل أستاذه.

وكان (الديكور) يمثل بشكل ساذج فصلاً به مجموعة من التلاميذ ورد الأستاذ (وهو تلميذ أطول قامة):

- بالبحث فى علوم الصناعة والفلاحة والملاحة والسياسة. وعبث بعض الأولاد فى الفصل فأخرستهم نظرة الأستاذ.

- أين تلقن تلك العلوم ؟

وجه السؤال تلميذ آخر.

- فى المدارس على يد أساتذة غير متشيعين !

وساد الهدوء حتى بين المتفرجين..

- إلى من يتشيع الأستاذ ؟

- لذاته أو جنسه أو مذهبه أو وطنه.

وتقبض وجه المحافظ (ربما لم يقرأ المجلة) وحين سأل التلميذ: وما ضرر تشيعه لوطنه ؟ أشعل المحافظ سيجارة بعصبية.

- إذا تشيع لوطنه تشيعًا يؤدى إلى استقباح غيره كره التلميذ السياحة والرحلة والوقوف على حقائق الوجود وتمدح بما يراه فى وطنه وإن كان غير ملائم للزمان.

وعلى وجوه الصفوة من الأعيان كان نديم يبصر مع كل سؤال وجواب الدهشة والقلق والحيرة والإعجاب فى الوقت نفسه.

ـ وماذا علينا لو اجتمع أمراؤنا ووجهاؤنا وعقدوا جمعيات تفتح مدارس للصناعة فى المراكز العظيمة ليكون التقدم من طريقين لا من طريق؟

ـ لا أضمن لك هذه الأمنية الآن فإن الانهماك فى اللذات والحرص على الأبهة، واستخدام الفقراء بلقمة أو شربة أو ثوب يحول بيننا وبينها.

وسرت همهمة غيظ فى صفوف الأعيان ونفخوا فى الهواء دخان سجائرهم بحدة، وبصق أحدهم على الأرض.

ـ أراك يائسًا من مساعدة الأغنياء على أحياء الصناعة.

ـ إن شئت فانظر إلى نفسك وإلى العظيم منهم، تجد ثوبه وفرشه وأمتعته من مصنوع بلاد غيره، ترى العظيم منهم يبيع رطل القطن بقرشين ويشتريه مشغولا بجنيه ولو صنع فى بلاده لانتفع به جملة صناع وربح منه ماخسره الآن، ومع ذلك فأنا أجاريك فى أفكارك وأنتظر معك زمنًا ليقيم أحدنا الحجة على رفيقه بما يراه.

وغرقت همهمات الصفوة حين ضج فناء المدرسة بالتصفيق، ونجحت خطبة نديم المليئة بمقتبسات «التنكيت والتبكيت» فى أن تجرف الموجودين جميعًا فى جو عاصف من المرح وانتهت بدعوتهم للتفرج على روايته، ولبى الدعوة بعض الأهالى من الأعيان وغيرهم، كان نديم أظرف الخصوم وأقدرهم على انتزاع السخيمة، وأبرق نديم إلى الإسكندرية ليحجزوا بعض المقاعد فى المسرح من أجل ضيوف دمنهور !

* * *

كان نديم متعبًا منذ عاد من رحلة دمنهور، وكان قد أغفى قليلا ليستريح قبيل حفلة المساء فى مسرح زيزينيا حيث تمثل رواية «الوطن» حين أيقظه أحمد سمير وفتح عينيه فى دهشة وغيظ:

ـ ما الذى جرى لك ؟

ـ التلاميذ الذين سيمثلون الرواية.. كان أحمد سمير يتكلم باضطراب وهز نديم رأسه مستوضحًا.

ـ لم يجيئوا بعد ليتدربوا التدريب الأخير.

ـ تريدنى أن أبحث لك عنهم، لم لا تسأل فى بيوتهم؟

ـ محمود واصف ذهب وقالوا له فى كل البيوت إنهم خرجوا منذ الصباح. إنه يبحث عنهم الآن فى الشوارع وأرسلنى لك.

وبدأ نديم يدرك الموقف، وتساءل:

ـ ما الذى يمكن أن يكون قد حدث؟

ـ لا أدرى

ـ اذهب الآن وأحضر التلاميذ الذين كانوا معى فى دمنهور من بيوتهم.

ـ ماذا يقول آباؤهم ؟

ـ اذهب قلت لك، وسأكون فى المسرح بعد قليل

التلاميذ الغائبون يسأل عنهم آباؤهم

ـ اذهب ودعنى أتصرف.

* * *

وفى المسرح لم يجد نديم أحدًا من التلاميذ قد وصل، كان الوقت يقترب من الظهيرة، وسأل نديم بائع التذاكر إذا ما كان قد حجز بعض المقاعد للضيوف القادمين من دمنهور فقال:

ـ لم أحجز شيئًا فالمسرح سيكون شبه خال هذه الليلة.

ـ لم؟

ـ لم أبع سوى عشرين تذكرة.

ـ كيف حدث هذا؟ لقد أعلنا عن الرواية فى المجلة وفى الصحف؟

ـ هذا ما حدث !

ـ ما معنى هذا كله؟ أيمكن أن تكون ثمة علاقة بين الحادثين؟ يستطيع شخص أن يغرر بالتلاميذ، لكن هل يمكن أن يغرر أحد بالمدينة كلها؟

كان الوقت يمر، ونديم واقف فى ذهول لايدرى كيف يتصرف؟ ومشى فى الطريق دون أن يدرى إلى أين؟ يجب أن ينتظر التلاميذ: هذا إذا أتوا !

ماذا يقول لآبائهم؟ من حسن الحظ أن أكثرهم بلا آباء، وتوقف من جديد قريبًا من المسرح... بعض الناس يحيونه فلا يراهم إلا بعد أن يعودوا ليسألوا عن حاله.. ماذا

يقول لهم؟ هل يطلب منهم أن يتكرموا بحضور الرواية.. نديم الذى كانت مشكلته الدائمة البحث عن مقاعد تصبح مشكلته البحث عن جالسين! ماذا يقول ضيوف دمنهور حين يرون المسرح خاليًا فى ليلة كهذه؟

وتساءل فى مرارة أين الحشد؟ واكتشف ـ وكأنما لأول مرة ـ أنه كان يضع ثقته فى لاشىء، لم يكن ثمة غير أفراد أو جماعات صغيرة تعبر الطريق، والغريب أن أكثرهم يعرفونه ويصرون على تحيته قبل أن يواصلوا سيرهم. هل يسخرون منه؟ هل يعرفون ورطته؟ وأنهم جميعًا ودون اتفاق ـ إذ من المستحيل أن تتفق مدينة ـ إنهم جميعًا تآمروا عليه، ولم يجرؤ على أن يسأل واحدا ممن يصرون على تحيته عن سبب ذلك! كانوا جميعًا قد أصبحوا فجأة بعيدين عنه، أنت لاتسأل من تحبه ـ هذا إذا كنت تحبه حقًا ـ لماذا تهملنى؟ أنت لاتفعل ذلك إلا حين تكون واثقًا من نوع الإجابة وإذ ذاك تفعلها لتهيئ لنفسك أجمل فرصة، أما نديم فلم يعد واثقًا من شىء ولقد كان مستعدًا فى تلك اللحظة الغريبة لتصديق كل ماكانوا يقولونه عنه وأى شىء يبدو الآن بعيدًا أو غير ممكن، ولكن تلك اللحظات التى خالها نديم دهرًا لم تدم إلا إلى حين تقدم رجل ليسأل «نديم»:

ـ ألم تبق لديكم أية تذاكر؟ (لم يكن يعرفه فهل جاء ليهزأ به) ثم أضاف الرجل معتذرًا عن سؤاله: معى ضيوف من طنطا يودون رؤية الرواية، وربما لم يفطن الرجل لدهشة نديم الذى فطن لشىء بدا له كمعجزة.. إن الرجل يتكلم بنبرة جادة.

ـ لم نبع سوى عشرين تذكرة ما الذى تريده ؟

ـ ما الذى تقوله؟ لقد سمعنا أن الأوراق كلها قد بيعت لحساب ضيوف من دمنهور وغيرها من البلاد.

ـ من الذى قال ذلك؟ وهزه نديم بعنف:

ـ الناس كلهم، اسأل أى شخص؟

وطلب نديم مقعدًا، ودخن مائة سيجارة، وكان أسعد خلق الله وهو يكتشف تفاصيل المؤامرة فيما بعد، ويعرف أفرادها واحدًا واحدًا، وكيف ضللوا التلاميذ الصغار

وأفهومهم أن الحفل تأجل بسبب تأخير نديم فى دمنهور، وأطلقوا فى المدينة شائعة نفاد الأوراق، لم يتآمر عليه الحشد! بل تآمر أعداؤه! كل شىء يحتمل ويمكن تدبيره طالما أن الناس لم يخذلوه أو يخونوه !!

لاتزال هناك ساعات قليلة كافية لتدبير الموقف، لقد عاد أحمد سمير بفرقة دمنهور، فطلب منه أن يذكرهم بأدوارهم على عجل!

- لا أحفظ الرواية.

هم يحفظونها

- وأنت لم لا تكون معنا ؟

- سأدعو بعض الناس لمشاهدة العرض لن نترك المسرح خاليًا أمام الضيوف !

وكان يكفى أن يقف نديم فى أى شارع ليلتقى على الأقل بمائة شخص يعرفونه، ودعاهم جميعًا لمشاهدة الرواية.

- والتذاكر؟ هكذا سأله الرجل الواقف بالباب.

- ياغبى إنهم مدعوون، ليس لدينا وقت لنشرح المسألة للمدينة كلها حتى يأتى الناس ويشتروا التذاكر !

ومرت الليلة العصيبة، وبسؤال التلاميذ عن أوصاف الشخص الذى أخبرهم بتأجيل الرواية عرفوا أنه موظف تحت رئاسة حسين فهمى، وبسؤال أحمد سمير عرف أنه أشار عرضًا بنبأ برقية نديم، التى طلب فيها حجز عدة مقاعد لضيوف دمنهور أمام حسين فهمى كذلك، كل القرائن تشير إلى أن حسين فهمى كان وراء التدبير، وأن الشائعة بدأت من «أوتيل أوروبا» ولكن لم يكن ثمة دليل واحد قاطع!

ولم يدهش أصدقاء نديم لحقارة المؤامرة بقدر ما دهشوا لهدوء نديم، كان سعيدًا لا مباليًا، كان قادمًا لتوه من رحلة غريبة، رحلة أخالها طالت مائة عام، رأى فيها لأول مرة كيف تبدو الحياة لو تخلى الناس عن شخص أعطاهم كل حياته، رأى فيها الوجه الحقيقى للخيانة والفشل.

فأى شىء بعد يمكن أن يثير خوفه أو رعبه أو دهشته؟

- ولكن الناس لم يدركوا الحقيقة بعد!! يجب أن يفهموا كل شيء.

كان محمود واصف يصرخ بعد ليلة عصيبة لعن فيها «نديم» واليوم الذى رآه فيه ألف مرة، وبكى فيها أحمد سمير كما لم يبك من قبل!

- سأكتب كل شىء.. سأشرح الموقف للناس!

- أنت لا تملك دليلا واحدًا.

- لن أذكر أسماء! لا تهمنى الأسماء!

وخرجت المجلة تحمل للناس مقالا كتبه نديم من دم قلبه عنوانه «متى يستقيم الظل والعود أعوج» وانفجر الموضوع كله لا فى الإسكندرية وحدها بل فى كل مكان ذهبت إليه المجلة!

وأعلنت الحرب بين نديم وخصومه وإذا كان المقال لم يذكر صراحة أسماء الخصوم فقد كان أعوانه يذكرونها فى كل مكان، وكان صمت المحافظ وحسين فهمى معناه اعترافهم بكلام نديم كما كان دفاعهما عن أنفسهما يحمل نفس المعنى وإذ أدرك الارتباك حسين فهمى وكاد يدركه الندم! أنقذه ذكاء المحافظ، وحين تساءل عن الحل قال المحافظ: ليس هناك أيسر منه.. ثم رمق حسين فهمى من تحت منظاره:

- لقد أدخل نديم إلى المسرح مائة رجل بدون تذاكر أليس كذلك؟.

- نعم ليتفادى الحرج أمام الضيوف بسبب الشائعة.

- أيها الغبى هذا ما يزعمه نديم، أما الحقيقة..

ورفع حسين فهمى رأسه مستفسرًا.

- الحقيقة أنه باع لهم تذاكر مزورة ليضع ثمنها فى جيبه وبهذا يكون ثمة سبب معقول لأن يكون نديم نفسه هو مدبر تلك الشائعة.

- لكنه لم يكن هنا كان فى دمنهور

ولكن أعوانه كانوا هنا، وانتهز هو فرصة سفره لدمنهور لتكون المسألة أوقع وليبعد الشبهة عن نفسه!

وحين بدت الحيرة على وجه حسين فهمى البدين وانهال على عنق كلبه الأبنوسى خنقًا وتمزيقًا صرخ المحافظ فى وجهه:

ـ لا تقف كالأبله، أريد أن يردد مائة شخص هذه القصة وفى الجمعية سأطالب «نديم» بدفع ثمن التذاكر أو تقديم استقالته.

ولكن الناس الذين دعاهم من أصدقائه ويمكن أن يشهدوا بأنهم دخلوا مجانًا..

يشهدون أمام من أيها الغبى؟ إن كونهم من أصدقائه يكفى لإدانتهم بالتواطؤ معه!!

* * *

فى غبار أية معركة ولحظة احتدامها لايعرف أحد من الناس ولا المتقاتلان أنفسهما من المنتصر والمنهزم؟ ويحتاج الناس كما يحتاج المتقابلان إلى بعض الوقت من نهاية المعركة لمعرفة الأرباح والخسائر والأصدقاء والأعداء وعمق الجراح، ولكى تتوافر لدى كل منهما الشجاعة على أن يبصر وجهه فى أية مرآة! وأكثر من هذا كله هما فى حاجة إلى وقت كاف ليبدأ إحساسهما الحقيقى بآلام المعركة، ولم تكن أول معركة يخوضها نديم فى حياته ولكنها كانت أكثرها ضراوة وحساسية، ولقد وضح هذا لكل من قرأ مقاله «متى يستقيم الظل، والعود أعوج» وفشلت رسائل القراء هذه المرة فى تضميد جراحه وحين قال له «حسن رضوان» بعصبية هذه المرة:

ـ ما الذى تنتظره بعد هذا كله؟

أكد له أنه لم يعد ينتظر شيئًا.

ـ إنهم يتبعون معك نفس الأسلوب القذر.. المؤامرات ! إنها سلاح الضعيف فهل نتركه يسترد قوته ؟

ـ تقول لى هذا الكلام ؟

ـ لست أنا الذى أقوله.. إخوانى كلهم يقولونه

ـ وهل هم يتابعون مثل هذه الأشياء ؟

ـ يارجل أنت ملء عيونهم !

* * *

وعاد نديم من رحلته تلك القصيرة الغامضة التى لم يعلم بها سوى محمود واصف عاد شخصًا آخر، وسأله محمود واصف حين انفرد به.

- هل قابلت عرابى نفسه ؟

- نعم

- كيف بدا لك ؟

- لا أدرى كيف أشرح لك.. لأول وهلة صدمنى هدوؤه وبطؤه كأنه ذاهب لينام أو كأنه مستيقظ منذ لحظة، لم أصدق أنه الرجل الذى يسيطر على جيش بأكمله ويواجه بيقظة مذهلة كل هذه المؤامرات !

- وما الذى كان يريده منك ؟

واستطرد نديم وكأنه لم يسمع سؤاله:

لقد فوجئت بأنه يعرف كل شىء قمنا به، قال لى: إن الخلاف بين الخديو والحكومة لم يعد فرصة لأى شىء، لقد زار الخديو مدرستك فى نهاية العام وطلب منك إعادة تمثيل روايتك، ولم يمنع هذا أنصار الحكومة من أن يعملوا على فشل الاحتفال، وإذا بقى لهذا الخلاف من جدوى فإنه سيجعل الخديو لا يقف بشكل جدى فى وجه حركة تستهدف الإطاحة برياض باشا !

- وما الذى تنتظرونه؟.. هكذا سأله متعجلا فابتسم فى تثاقل ولمعت عيناه ببريق حاد وقال ضاحكًا:

- كنا ننتظرك !

لم أصدق أن هذا الرجل المهيب يمكن أن يقول «نكتة» وضحكت.. واستمر عرابى يقول وقد أخرج من محفظته الجلدية منشورًا قدمه لى: اقرأ هذا، لم أكن أداعبك، وحين فرغت منه استمر يقول: نريد توقيعات الأهالى على هذا المنشور.

وكدت أصرخ فى وجهه: ولم هذا؟ الشعب كله يؤيدك، ولكنى قلتها فى هدوء وازدادت بسمته اتساعًا.

ـ اعرف ولكن هذا ضرورى حتى لاتبدو حركتنا عسكرية.. سنواجه كثيرًا من المتاعب ويجب أن نكون مستعدين، لحظتها خيل لى أنه أبله حقًا إذا كان هو كل ما يفكر فيه، ولكنه لم يكن أبله ويبدو أنه قرأ فى عينى مالم أبح به لحظتها فراح بنفس الابتسامة يوضح الأمور «أنت تعرف أننا نريد القيام بحركة لم تحدث من قبل فى هذه المنطقة، لقد ظل الجيش لآلاف السنين الوسيلة الوحيدة لاستبداد الحكام واليوم سيخرج عن تقاليده ليصبح وسيلة شعب لتحقيق نظام دستورى لا وجود له فى أى بلد حولنا، وهذا وحده كاف لأن يثير ضدنا الجميع، لن يرحب الأجانب بأية حركة يمكن أن تؤدى إلى منع سيطرتهم على البلاد، إنهم يصدرون لنا مصنوعاتهم وربما كان الدستور من أحدث المصنوعات الأوروبية ولكنهم لن يصدروا لنا هذا النوع من السلع، وأما السلطان الذى حارب الحركة الدستورية فى تركيا ولم يتورع عن نفى زعيمها مدحت باشا. فلا يمكن أن يرحب بالدستور فى بلد تابع له وقد تثير حركتنا جنونه! وأملنا كله متعلق بالصراع بين القوتين، قد يؤيدنا السلطان إذا اطمأن إلى أننا القوة التى يمكن أن توقف نفوذ الأجانب قد يفعل ذلك بعد أن رأى نتيجة تهاونه فى تأييد تونس ولأنه ساخط على ارتماء الخديو تحت قدمى إنجلترا، وتمكينه للأجانب فى مصر آملا أن يكون تأييده طريقًا لتأكيد نفوذ تركيا القديم..! وبالنسبة للأجانب نأمل فى أن يحول الصراع التقليدى بين فرنسا وإنجلترا من أن تتدخل الدولتان، وقد يريان فى حركتنا فرصة لإضعاف النفوذ التركى فى مصر، وهو مايجدان فيه مصلحة لهما دائمًا، إن الطريق كما ترى صعب ومحفوف بالمخاطر وآمالنا تتعلق بخلافاتهم، وسيجدون جميعًا فى خلافاتنا أعظم فرصة، ولهذا تدرك أهمية أن يقف الشعب صفًا وراء الجيش فى حركته، لا ينبغى أن تخيفنا المخاطر عن المضى فى طريقنا فأمامنا على الأقل احتمال النجاح أما إذا توقفنا فليس ثمة سوى الموت لنا والذل والبؤس للشعب كله، ولن يكون هذا أبدًا مجرد احتمال».

وأشعل نديم سيجارة، ورمق محمود واصف متسائلا:

ـ مالا أفهمه حتى الآن كيف فتح لى هذا الرجل قلبه بهذه البساطة فى أول لقاء؟ إما أن يكون هذا الرجل شيطانًا، ويعرف كل شىء يحدث فى هذا البلد وإما أن يكون أبله ! وفى الحالتين يرحمنا الله !

ـ هل أنت خائف يا نديم؟ بدأت تخاف ؟

ـ نعم، أقولها بصدق، لقد رأيت بعينى الرجل الأمل العظيم والهول العظيم كذلك ! أنت لاتخاف إذا كانت حياتك لاتعنى شيئًا.

ـ وهل تظنها أصبحت تعنى؟ واستطرد نديم كعادته حين يتدفق حتى فى الحديث:

ـ كنت دائمًا أبحث عن شىء حقيقى، شىء أمسكه بيدى هاتين ولا يضيع أبدًا ويبدو أن مثل هذا الشىء لا وجود له فى حياتنا، ولم أشعر إلا الآن بجراح المعركة الصغيرة التى واجهتنا فى الإسكندرية، إن طعم الجراح لايختلف، وكذلك طعم الخوف، وأنت تحتاج إلى نفس القدر من الشجاعة لكى تعيش أرخص حياة ممكنة فى هذه الدنيا، فلم لا نجرب شجاعتنا فى شىء أعظم !

كانت عينا نديم تلمعان بطبقة رقيقة من الدموع وكأنه يخاطب شخصًا غير مرئى أو لعله يبصر صورة الحشد، كان يبدو وكأنه يهمس بإحدى خطبه، والتفت فجأة إلى محمود واصف: «إن الشجاعة كلمة غريبة حقًا، ولست أشك فى أن عرابى هذا ـ الذى يفكر فى شىء لم يحدث فى هذه المنطقة ـ لم يجرؤ على هذا التفكير إلا لأنه أكثر خوفًا منى ومنك، وهذا يحدث للإنسان مرة واحدة، حين يكتشف أن النصر أقل ثمنًا من الهزيمة، وأن الكرامة تتقاضى المرء أقل بكثير مما يتقاضاه الذل والمهانة، وحينذاك يمتلئ رعبًا؛ لأنه لايطيق مرة أخرى هذه الخديعة التى عاشها طوال حياته، إنه يمضى ولا تستطيع أية قوة فى الأرض أن توقفه، إنه لايلتفت إلى الوراء حتى لا يرى صورة الأبله الذى كانه، إنه لا يتوقف إلا حين يواجه الموت، إن عدالة الموت وحدها هى التى يحنى لها رأسه».

وصمت نديم، وصمت أيضا محمود واصف، لم يجد القدرة على أن يقول له كلمة واحدة !! كان يود أن يسأله عن أشياء أخرى كثيرة يعتقد أنه تحادث فيها مع عرابى، شكوك ومخاوف، كان نديم يبوح بها له، ولكنه يسأل، كما أنه لم يخبره إلا اليوم! وفى هذا اليوم أيضًا اخبره نديم بشىء قد نسيه لقد حضر اجتماعه بعرابى رفيقه على فهمى، ولكن الغريب أنه ظل طوال الوقت صامتًا.

* * *

ولكن ما الذى كانت تعنيه الآن معركة الإسكندرية بالنسبة لنديم؟ لاشىء! إنه لايبغى فيها نصرًا ولا يخشى هزيمة، وذهل الناس وهم يقرءون فى يوم واحد وفى عدد واحد من مجلة «التنكيت والتبكيت» خبر استقالة نديم «من الجمعية الخيرية» وحوارية رائعة جديدة ليست بين «زعيط ومعيط» هذه المرة ولا بين الشخصيات العديدة التى ابتكرها نديم وأصبح الناس ينتظرونها صباح كل أحد، بل مع نديم نفسه، حوارية كان عنوانها «إياك أعنى يا نفس فاسمعى وعى» جمع فيها حزمة الأراجيف التى ظلت الإسكندرية كلها تلوكها خلال الأسبوع، وفى ضراوة، وفى لمحة الضوء التى تراءت له فى لقائه مع الرجل الذى قرر أن يمضى دون أن ينظر إلى الوراء، وفى شجاعة الرجل الذى اكتشف مجانية الشجاعة ! راح يمزق الحزمة فوق رءوس صانعيها، ونيابة عن نديم شعر كل الناس بالخوف على هذا المجنون الذى لم تعرف المدينة مثيلا لجنونه، وأصبحت لا تعرف مثيلا لشجاعته !

- إذا كان هذا الأحمق لايفكر فى مصيره، فهلا يفكر لحظة فى مصير أولاده ؟

كان حامد الأعسر هو الذى يتساءل فى مقهى كليوباترا وقد أدرك أن نغمة السخط التى حلت له فى الشهور الأخيرة لن تجد لها مكانًا بعد الآن فى آذان من حوله!

إنه لم يفكر يومًا واحدًا فى مصير أولاده! هكذا تكلم أحدهم.

لست أعنى أولاده الذين يرعاهم أبوه، بل أعنى هؤلاء اليتامى الذين نسوا موت آبائهم!

سمعت أنه سيسافر إلى الأرياف.. هكذا تكلم آخر.

ولكن استقالته من جمعية الإسكندرية تعنى انقطاع صلته ببقية الجمعيات.

إنها يمكن أن تعنى كذلك نهاية أمر الجمعيات فى الأقاليم فهم هناك لا يعرفون غيره!

أنتم تخرفون جميعًا، غدًا يستقبلونه فى الجمعيات استقبال الأبطال فى الوقت الذى لا يجرؤ فيه أحد ممن هنا أن يضع قدمه هناك.

* * *



كان نديم يجهز حقيبة سفره، وحقيبة أخرى ملآى بصور عديدة للمنشور الذى سيجمع عليه توقيعات الأهالى، والذى وقع عليه فى الإسكندرية كل أصدقائه، ولأول مرة استشعر الجميع قلقًا غامضًا لهذه الرحلة، التى كانت تختلف عن أية رحلة أخرى وانخفضت أصواتهم لدرجة الهمس، واختصر حديثهم لمستوى الإشارات والعبارات القصيرة المتقطعة، واحتجزت العواطف عدا ما تبوح به النظرة أو النبرة، ولم تعرف أسرته سوى أنه ينشد الراحة فى الأرياف، وكانت المجلة قد نشرت خبرًا صغيرًا بهذا المعنى، ولم يفترق الأمر بالنسبة لأولاده، أما بالنسبة له فقد اكتشف وجودهم على نحو مروع، وودعه تلاميذه فرادى على نحو خفف قليلا من ضراوة إحساسه بأبنائه، متى كان أبًا لحفنة صغيرة من الأولاد، ومع نسمة رطبة مبللة بمياه البحر استشعر حنينًا جارفًا لمدينته ولمقاهيها وسهراتها وحشودها التى تسللت واحدًا واحدًا لتكون فى وداعه..! كانوا جميعًا قد قرءوا كل ما كتب ومست قلوبهم النبرة الحزينة الصادقة فى آخر مقال له. «اتبع الحق وإن عز عليك ظهوره» كان يبدو وكأنه رسالة لأهل الإسكندرية وانتهى إلى أن يصبح رسالة للناس كلهم.

كان يبدو كدفاع ضد الظلم الذى أحاط به، وانتهى إلى أن يصبح دفاعًا عن كل مظلوم واحتجاجًا على كل ظلم! كان آخر صرخة حزن خاصة أرسلها نديم على نفسه فى تلك اللحظة الغريبة التى كان يدرك فيها أنه يسلم نفسه ولأول مرة إلى ذلك المخلوق الكبير الغامض. الذى كان طوال هذه السنين يتعرف عليه، هذا المخلوق الذى يسمونه مصر! ونادرًا ما يحس الناس بوضوح لحظات تحولهم، لكنه هو كان يحس لا من داخله فحسب بل وفى أكوام الرسائل التى انهالت عليه بعد الحادث الأخير، ما الذى يبقيك هناك؟ تعال إلينا. ليست الجمعيات شيئًا آخر سواك. كان الشعب يتوجه «كرائد للدعوة إلى الإصلاح بالتعليم والتعاون والاتحاد. وكمؤسس للجمعيات» واكتشفه الشعراء المجيدون والمبتدءون، كموضوع جديد مثير، وكفرصة لنشر أشعارهم ورسائلهم ووجدها هو فرصة لملء عدد من المجلة لم يكن قد وجد الفرصة لتحريره، وكان يدرك أن حلمه القديم يدخل الشرنقة ليتحور مخلوقًا آخر لا يزحف فى بطء بل يطير بجناحى هذه القوة الجديدة التى تتحرك، وتنبض، كان كيانه كله يستشرف ذلك التحول المخيف، وحين تذكر فجأة أحمد سمير أنه نسى أن يقول له شيئًا مهمًا لم يبد عليه الاهتمام

وهز رأسه متسائلا، وحين طلب منه أن ينفرد به قليلا لم يجد أى داع لذلك كان حولهما عدد من الأصدقاء ولكنه أصر، وهل بقيت فى حياته أسرار.

أتذكر تلميذك القديم «أبو دعموم»؟

وانتفض نديم رغمًا عنه وتساءل فى لهفة:

هل جاء هنا؟

لا.. أمه التى جاءت.. وصرخ نديم:

ما الذى تقوله؟ ودهش أحمد سمير وتماسك نديم.

جاءت إلى المدرسة، سألت عنك، أخبرتها بسفرك وبأنك كنت مشغولا على ابنها، اطمأنت قليلا. سألتها عنه قالت لا أعرف، لقد هرب بعد أن ضربه زوجها مرة.. ظننت أنه جاء إلى هنا، كانت هى التى تطلب منه ذلك لم تطق الحياة بعيدًا عن ولدها، خرجت تبحث عنه بعد أن طال انتظارها له. انفصلت عن زوجها، وحين لم يسعفها أخوها بالبحث عن ابنها، جاءت هى تبحث عنه، كانت متأكدة أنه هنا! كيف تبحث عنه فى كل البلاد؟ وكيف تعيش بدونه؟

أيها الأحمق وكيف تركتها تذهب؟

لم أكن أعرف متى تعود؟ ولم ترض بالبقاء مع أهلى أو أهلك!

كيف كانت؟ المسكينة!! كيف بدت لك؟ وأين ذهبت؟

متعبة وبائسة.. و.. وجميلة إلى الحد الذى عجبت فيه كيف يتخلى عنها رجل! ولا أعتقد أن الرجال يمكن أن يتركوها فى حالها فى أى مكان تذهب إليه!

ومع ذلك فقد تركتها أنت وتركتها أنا وتركها زوجها وتركها ابنها، ليصبح بمقدور أى قواد لعين أن يغدق عليها عواطفه ونقوده هل يمكن أن يخفى شيئًا عنه؟ ولم؟ وأكمل له القصة الناقصة لم يكن قد بقى شىء يخافه، كأنما كان يريد أن يتخلص من كل أحزانه الخاصة، وأن يبعدها عن قلبه، لقد تأخرت كثيرًا تلك الأرملة الجميلة، وربما لو جاءت قبل أيام، لكانت كل ما يكفيه فى هذا العالم، وكل ما يغنيه، ولكنها مضت تبحث عن ابنها، وابنها (فى أى مكان) يبحث عنها، وغدًا سيخرج هو للبحث عن شىء مخيف هائل عظيم ولو وجده، لو أمسك به، لغفر لنفسه جبنه وعجزه ولأصبح قادرًا على أن ينظر

إلى الوراء وأن يطلب من تلك الأرملة مهما كان مكانها فى الحضيض أن تغفر له، وفى تلك الليلة.. وقبل أن يبدأ رحلته بكى كما لم يبك فى حياته، كان يريد أن يتخلص من كل دموعه، وكل ضعفه، كان يستشعر أن الأيام القادمة لا مكان فيها للدموع!!

* * *

ولكنه كان يبكى فى كل مكان ذهب إليه، وخطب فيه، كان يتصور أن الإسكندرية وحدها هى التى تهتم بقصته، ولكن الحماس الجنونى الذى قوبل به فى كل مكان. والأحاديث والخطب التى استمع إليها أكدت له أنه كان آخر من يعلم مكانته عند الناس، كان ذلك فى أوائل أغسطس سنة ١٨٨١ وفى أوائل رمضان سنة ١٢٩٨.

وفى أية مدينة أو قرية حل بها كان الناس يسهرون حوله فى ليل الصيف القصير الجميل، ولم يحدثهم هذه المرة «حديث القرش والقرشين» وإنما راح يقرأ لهم ذلك المنشور، الذى كان يحمل منه أعدادًا كثيرة « إن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم، ولم يكن مقصدها مؤديًا إلا إلى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع أراض كثيرة للأجانب، ووجود كثير منهم فى إدارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة، وأن سكوتنا وإضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى، وعزموا على منع كل ما من شأنه الإجحاف بحقوقكم. وذلك لا يتم إلا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة. فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة إليكم فى ضمن هذه النشرة، والكتابة المقصود بها أن أكون نائبًا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد».

أحمد عرابى

ويفسحون الطريق لأولئك القادرين على كتابة أسمائهم ثم يأتى دور حملة الأختام المربوطة فى عروة صداريهم، ثم يمدون إبهامهم فى حركة لا شعورية وتعودوها فى كل مرة قدموا فيها أختامهم!

ولكنهم لم يفعلوا لنا شيئًا! لن يأخذونا، هكذا كان يتساءل البعض فيرد الآخرون الأكثر خبرة ودراية:

لو كانوا يقدرون لأخذوه هو! أنه ينتقل أمامكم بحقيبته أنه لا يفعل شيئًا خفية أن العمدة والمشايخ ختموا أمامكم فما الذى تخافونه؟

ويشعر نديم برواسب الخوف والحذر، فالفلاحون لم يوقعوا بأختامهم منذ مئات السنين إلا صكوك عبوديتهم وأنهم يحملونها كما يحمل السجين قيده، ولقد كانوا لا يصدقون منذ شهور أنه لا يعرف عرابى، ولكن بعضهم الآن لا يصدق أنه يعرفه، ويلجأ نديم إلى أكثر الوسائل إقناعًا.. أنه يخطب ويكتب.. ويصيب بالذهول أولئك الذين يسمعونه ويقرءونه .. كأنه كان ينتظر هذه الفرصة منذ سنين طويلة ليشعل تلك النار فى طول البلاد وعرضها، ولا يصدق الفلاحون آذانهم وهم يجدون المجلة، التى كانت تسلخهم بالتنكيت والتبكيت قد أصبحت تسلخ أسيادهم وتهدهد عليهم فى رفق.

تعال فانظر إلى سلم رفعتك، ومنبع ثروتك أخيك (استغفر الله) خادمك، إلى الفلاح، وانظر إلى ثوبه الذى لا يصل ركبته ورغيفه الذى لا تكسره بقوتك، ومشه الذى تعاف النظر إليه»

«وتفرج عليه وهو يقطع يومه فى رمى سباخ وإطلاق ماء، وتنقية حشيش، وعزق أرض وقطع حطب وحش برسيم، وجمع قطن وحمل تبن وسوق ساقية، ويصرف ليله فى خفر غيط وحراسة جرن وسد مقاطع، فاكهته الخيار والجميز، وخضارة الرجلة، وسلاطته الجلوين، وسماطه الأرض، وخبزه الشعير وخشافه ماء النيل محلى بالطين، ومسامرته محاسبة شيخ البلد، ورحلته الجسور، وسياحته فى بحور العمليات، وتاريخه بهيم عاش ومات لا يشعر به إنسان»

ولكنهم لم يأخذوه بعد!

كان فى طنطا منذ يومين، سمعته بأذنى هاتين ورأيته

ولم يكن يمكث فى بلد أكثر من الوقت اللازم لجمع التوقيعات وإلقاء خطبة أو خطبتين تصيب الناس بالذهول!..

ولكنى رأيته فى المحروسة فى بيت عرابى نفسه يخطب فى وفد العربان والصعايدة!

كاذب أنت لقد رآه أخى فى أسيوط يخطب فى مسجدها الكبير وقد سمع خطبته المسلمون والمسيحيون جميعًا وكان ذلك منذ يومين!

ولم الشجار؟ جائز أنه كان هناك وعاد إلى المحروسة فى نفس اليوم.

فى نفس اليوم؟ هل هذا معقول؟

ولكن كل شىء كان معقولا فى تلك الأيام الغريبة اللافحة، لقد فصل نديم من الجمعية الخيرية ولكنه كان فى المنصورة يفتتح فرعًا لها باسم جمعية الصنايع والفنون الخيرية. وكان يخطب ويقدم الخطباء. وكان ناظر الحربية محمود سامى البارودى قد أقيل من منصبه وولى مكانه صهر الخديو داوود يكن، ووضع الناس أيديهم على قلوبهم وراح يصدر أوامره بعدم اجتماع الضباط ويمنع عرابى من استقبال زائريه، ويبعث بجواسيسه هنا وهنا، ولكن أوامره لم تكن تنفذ وضرب جواسيسه كل مكان تسللوا اليه، وأنزل الناس أيديهم من على صدورهم، وراحوا يلوحون بها فى كل مكان يصل نديم إليه، ويؤكدون بها الإيمان، ويفركون بها عيونهم وهم يلتقون حول رجل يقرأ عليهم ما يكتبه نديم فى مجلته.

«أليس الرجل منكم كالرجل منا؟ فما بالكم لا ترضون بثلاثين صنفًا من الطعام ونرضى بالخبز والملح، ولا تقنعون بالألوف ونقنع بالقرش الواحد؟ أخلقتم من الذهب وخلقنا من التراب، أم ولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيدًا لكم؟ أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات؟ ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع والفقراء هم الأمة»

صحيح نحن الأمة.. هكذا قال فلاح فخور كان يستمع إلى الشيخ قاسم يقرأ لهم مقال نديم فى قرية بدواى.

وسأله آخر عن معنى الأمة؟ فنظر إليه شذرًا وقال له:

الأمة هى أنت وأنا وكل هؤلاء الفلاحين، متى تفهمون يا ...

لكن رياض باشا سيقتله.. أقسم إنه سيقتله.. وربما فعلها أحد المديرين الأتراك القذرين فى الريف.

كان محمود واصف يخاطب أحمد سمير فى عصبية:

وحتى لو لم يفعلوا ذلك فسيموت من تلقاء نفسه، أن رسائله تصلنى من كل مكان، وخطه أصبح رديئًا حتى ليخيل لك أنه يكتب وهو مغمض العينين، وكنت أظن أن العيد سيفرض عليه إجازة إجبارية ولكنه لم يجئ فى العيد. وحالة أولاده تحزن القلب!

* * *

وقال ضابط كانت تربطه بحسن رضوان صداقة وكان يعرف صلته بنديم: ولكن صاحبك هذا يثير بمقالاته وخطبه ثائرة الأغنياء فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى تكتل الجهود، أنه لا يخدم أحدهم بهذا الجنون الذى يندفع إليه!

وأجاب حسن رضوان فى ضيق:

أن ما يقوله حقيقى هل تذكر؟

المسألة ليست بحثًا عن الحقيقة، المسألة أننا فى حاجة إلى تأييد الأعيان قبل غيرهم!

الأعيان هم الذين فى حاجة إلى قوة الجيش وبدونه ما خرجوا من جحورهم، هل تذكر؟

* * *

وبلا قصد طالت لحية نديم، لم يجد الوقت ولا موسى الحلاقة، وتراكمت على سترته طبقات من التراب المعجون بالعرق، ولم يعد ثمة فارق لونى بين قميصه وسترته، وكان خليقًا بثيابه التحتية أن تحرمه النوم بسبب ما امتصته من التراب والعرق وما ادخرته عبر رحلته الطويلة من حشرات القرى والمدن، ولكنه كان ينام لو وجد المكان أو الوقت، ولم يستيقظ مرة واحدة من أول نداء، وأشفق عليه محمود الغرقاوى فأعلن سفره سرًا إلى بلدة مجاورة وتركه فنام يومًا كاملاً لا يتحرك.. وفى الصباح زاره وفد من التجار كانوا يعرفون أنه لا يزال فى منزل صديقهم ووقعوا على المنشورات وقال أحدهم:

أنت تكتب عن الفلاح كأنه البائس الوحيد فى هذا البلد.

فعلا ليس هناك أبأس من الفلاح.

وشكوا إليه ما انتهت إليه أحوال تجارة العطارة فى البلد وقالوا له يستطيع الفلاح أن يأكل حشيش الأرض أما فى المدن فلا نجد ما نأكله!

ويكتب نديم مقالا حارًا عنوانه التجارة البائرة، وفى الإسكندرية يضحك محمود واصف وهو يقرأ المقال قبل أن يطبع.

ما الذى يظنه نديم فى نفسه؟ صاحب هذا البلد، المسئول عن رزاياه، مدير شئونه لقد ذهب لمهمة محددة لم لا يفعلها ويعود!

ولكن متى عرف نديم لحياته مهمة محددة؟ لقد جرب أن يضع لنفسه إطارًا أو هدفًا، ولكنه كان يكتشف دائمًا الفرق الهائل بين ما يريده وبين ما يكونه، إنه دائمًا يكون شيئًا مختلفًا أكبر أو أصغر. ولكنه لم ينسجم يومًا واحدًا داخل هدف محدد ولقد استشعر فى هذه الرحلة نوعًا مخيفًا من الحرية أتاح له ولأول مرة من أن يحس الجراح القديمة والثارات القديمة التى كانت تضمدها الأطر والأهداف، فراح يغسلها كلها وينشرها على الناس ليبرأ، كان يظنه نسى، ولكن المرء لا ينسى أبدا لقد كان يوما مجرد صبى بائس ودفعه القدر إلى بيوت الأغنياء ولم يجد مبررًا واحدًا معقولا لغناهم أو لفقره، ولم يبخلوا عليه بشىء حين كان نديمهم ولكنهم لم يحتملوه حين فكر أن يصبح شيئًا آخر غير مسامرهم القديم، لم يبخلوا عليه بالمال، ولكنهم بخلوا بالكرامة، ولم يغفروا له نشأته، وخيل إليه غروره وكبرياؤه العنيفان أن الثأر الحقيقى لن يكون فى أن يصبح غنيًا بل فى أن يخوض حربًا ضارية يقود فيها جيش الفقراء. ومن خلال الجمعيات راح ينظم هذا الجيش المهلهل، وفجأة وجد تحت إمرته جيشًا حقيقيًا مدججًا بالسلاح، وحين أفرغ أمام قائده الفعلى سخائمه القديمة من هذه الطبقة البليدة المتحجرة لمح فى عينى القائد الحذر بسمة تأييد.

لكن ليس الآن يا نديم، تمهل قليلا!

هكذا همس عرابى بصوته العميق المتئد

ولكنه أدرك أن قائد السلاح ليس أقل منه سخيمة وكراهية.

فراح يهاجم أعداءه القدامى على هذا النحو المخيف!

وحين اتصل به فى ميت غمر ذلك الرجل القصير الصموت الذى رآه مرة واحدة «على فهمى» وأخبره أن رياض باشا كان قد استصدر قرارًا بنفيه وأنه هو الذى أوقف القرار قائلا:

إن «نديم» منا معشر الجهادية وإن لم يحمل السلاح» ضحك وطلب منه ملابس أحد الجنود؛ لأن ملابسه قد اتسخت وليس لديه وقت لغسلها.

ولكنا نريدك فى المحروسة أنت وحقائبك وبسرعة.

نعم. وخفق قلب نديم.

ولكنهم كانوا يريدونه هنا فى المدن والقرى، كانت أخبار مسيرته وانتقالاته موضوعًا للرهان ولقارئى البخت وضاربى الرمل.

سيأتى غدًا فى بلدنا

سيأتى فى بلدنا نحن، ويتشاجر الكبار قبل الصغار.

وكانت لحيته الطويلة ترشحه لأن يقتنص كل زبائن المشايخ القدماء ومريديهم، وأن تمنح الناس نفس الحرية المخيفة فى تفسير قدرته وطاقته ومهمته كذلك.. طبعًا لم يكن يعرف الجميع حكاية المنشورات.

إنه ولى من أولياء الله.

وهل يلبس أولياء الله سترة «وبنطلون»؟

إن أولياء الله يتشكلون فى كل صورة!

وهل يدخن أولياء الله السجائر؟

أنه يباح لهم مالا يباح لغيرهم، إنهم أحيانًا لا يصلون أمامنا لأنهم يصلون فى الكعبة الشريفة، إن التكليف يرفع عنهم، وكان هذا كله ينطبق على نديم من بعض الوجوه.

كان هو نديم الذى يستطيع كل محتاج أن يجد لديه بعض حاجاته.. حتى عشاق الأزجال لم يبخل عليهم بما يحبون، لقد ألف لهم قطعة ونشرها فى مجلته، قطعة يستطيع أن يرتزق بها الأدباتية، ويتغنى بها الصغار والكبار، ويجدون فيها التسلية والعبرة، وفى كل مكان ذهب إليه كانوا يستقبلونه بها:

أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان ممعاه ولاحق الدخان

شرم برم حالى غلبان

يا ما نصحتك يا بنجر وقلت لك أوعى بعجر
فضلت تسكر وتفنجر لما صبح بيتك خربان

شرم برم حالى غلبان

وقال له محمود الغرقاوى الذى كان معه فى ميت غمر: نمر أولا بالمنصورة لتغير ثيابك هناك فليس معقولا أن تذهب بحالتك هذه إلى المحروسة، وكان قد ترك بعض ثيابه المتسخة بمنزل الغرقاوى، ولكن الرجل أحضر له ملابس جديدة مناسبة، وحين أشار نديم إلى ثيابه القديمة ضحك الغرقاوى قائلا:

لم ينجح أحد فى تنظيفها!! ثم أضاف بعد أن لاحظ تردد نديم:

فيم تفكر؟ سوف أضيف ثمنها لديونك القديمة

* * *

كان ذلك كله فى الأسبوع الأول من سبتمبر سنة ١٨٨١، ولم يعد سرًا لدى الخديو أن الجيش يستعد للقيام بمظاهرة تطلب عزل رياض باشا وتشكيل مجلس نواب، وزيادة عدد الجيش!!

ولم يعد سرًا فى الجيش أن الخديو والحكومة يبذلان أقصى جهد لإحباط المحاولة، وكانت شارة الخطر بالنسبة للجيش ذلك القرار الذى أصدره داوود يكن ناظر الحربية بأن ينقل الآلاى الثالث من المشاة «آلاى القلعة» إلى الإسكندرية ليأخذ مكانه الآلاى الخامس بالإسكندرية وحدد يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ موعد لتنفيذ المظاهرة، وقبيل الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كان الخديو يدخل قصر عابدين من أحد أبوابه الخلفية وحوله نفر من حاشيته كان عائدًا للحظته من محاولة أخيرة يائسة حاول أن يجرب فيها هيبته الشخصية فتحدث إلى ضباط الآلاى الثالث بالقلعة، وجرب الوعد والوعيد.

ولكنه أبصر لأول مرة فى حياته فتحات البنادق تحدق فيه وتحدق به وكأنها عيون جوفاء لا تبصر هيبته أو جلالته، عيون لا تبصر حتى ضعفه، عيون لا تختلج ولا تطرف ولا تقوى على التحديق فيها عيون بشرية، وتقدم داخل القصر ليرى فرقة الحرس التى يقودها على فهمى الرجل القصير الصموت الحذر، الذى ظنه سيبقى وفيًا له، ليراها قد تركت أماكنها وانضمت إلى الآلايات الثلاثة التى اصطفت فى نظام بديع فى ساحة القصر، كانت الآلايات تقف بنفس النظام الذى تعودت أن تقف به لتقدم له الولاء

وليتفقدها حضرته، إن شكل النظام لا يتغير، ولا أحد يستطيع أن يلمس فى ذلك الأصيل المروع الفارق بين الولاء والثورة.

فالجنود والخيل والمدافع والسيوف والشارات والأزرار النحاسية والنجوم كل شىء كما هو، وبإحساس الطائر الذبيح الذى يلمح كل شىء كما هو. فى تلك اللحظة الخاطفة التى تعقب مرور السكين الخادع على عروق العنق. أنه يقف وينفض تراب الأرض عن جناحيه، ويسير كأن شيئًا لم يحدث، وربما يلمح حبة فيهم بالتقاطها، بنفس الإحساس تقدم الخديو وصاح فى ذلك الجندى الوسيم الجسيم، الذى يتقدم الصفوف ويرفع سيفه ليغمد السيف ويترجل عن حصانه وصاح فيمن حوله من الضباط ليعودوا إلى أماكنهم.

ولم يكن بمقدور أى من الذين حول الخديو أو حول عرابى أن يحس روح الفكاهة النادرة فى هذا الموقف، فالزمن ليس مجرد وهم أو خيال، وكان كلا الرجلين الواقف على الأرض والراكب على حصانه ينوء بعبء مئات السنين من السلطة والنفوذ، ومن الخضوع والمذلة، ولم يكن بمقدور أى منهما أن يضحك من هذه الفكاهة التى بدت فى حوارهما الغريب:

ما أسباب حضورك بالجيش هنا؟ .. (كان يعرف الأسباب)

جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة.. وهى طلبات عادلة (لا يزال يقول يا مولاى ويبرر مطالبه بأنها عادلة)

وما هذه الطلبات؟.. (تقدمت له مرات عديدة)

هى عزل رياض باشا. وتشكيل مجلس نواب وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرامانات السلطانية!

كل هذه المطالب لاحق لكم فيها وأنا خديو البلد وأعمل «زى ما أنا عاوز»!

ولم يضحك أحد فى ذلك الأصيل المروع.

نحن لسنا عبيداً ولن نورث بعد اليوم.



لقد نطقها الفلاح الضخم المتخفى فى «بدلة» ضابط كبير تلمع على كتفيه وصدره النجوم والسيوف البرنزية، انزلقت من فمه مثل غيرها من الكلمات، انزلقت أمام المصريين والقناصل على السواء، ويقينًا لم يحس الخديو ولا عرابى نفسه فظاعة الرحلة الشاقة عبر مئات السنين التى قطعتها هذه الكلمة لتصل فى هذا الموعد لتخرج من فم هذا الفلاح ولتدخل أذن هذا الخديو، مئات السنين من القهر والظلم ومئاتها من الصبر والألم، مئات السنين تعهدت هذه الكلمة، أرضعتها، جمعت حروفها المتناثرة، ألفت معانيها من آلاف الصرخات ومن حبات العرق ومن شهقات الموتى، من ظلام الليالى السوداء، ومن كئوس الخمر، ومن أضواء المخادع الشاحبة ومن صرخات المتعة، ولن يزعم عرابى وحده أو الخديو وحده أنهما مسئولان عن مولد تلك الكلمة الغريبة، وكأنما فوجئنا معًا بها، فى ذلك الأصيل المروع، وكانت سهلة إلى الحد الذى فكر فيه عرابى «ما الذى حبسها فى صدره وصدر آبائه كل هذه السنين؟».

وربما فكر وهو على صهوة فرسه فى ذلك الأصيل أن يقول كل ما شاء من كلمات، ولكن الخديو لم يكن هناك ليسمع، لقد حملته الكلمة الفظيعة إلى داخل قصره، كانت الشمس الغاربة فى ذلك الأصيل تتعب عينيه، وكان وجه عرابى مكسوا بظلال ذلك اليوم المهيب، وتقدم قنصل بريطانيا ليفاوض ذلك الضابط الجرىء الأبله، بينما كان الخديو يدور فى حجرات القصر ليطمئن إلى أن كل شىء كما هو ولينسى هذا الكابوس المخيف، وكان من الطبيعى أن تحس هذه الصفوف المتراصة من الجند بوطأة الزمن، صحيح أنهم لم يسمعوا تلك الكلمة الفظيعة التى نطقها ضابطهم، ولكن الوقت الطويل كان جديرًا بأن يكون مناخًا ملائمًا للظنون والمخاوف، وهناك فى الخلف بين الصفوف كان يدور ذلك الرجل الذى عاد منذ أيام بحقيبته ملآى بالتوقيعات كان يدور بين الجند، مداعبًا مشجعًا قارئًا لهم قول الله:

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله..»

الله هو الذى يقول: قاتلوا الطائفة الباغية ولو كانت من المؤمنين، أنتم تنفذون قول الله.

حقًا. الله هو الذى قال ذلك! لماذا لا يفهمون أقوال الله إلا حين تخرج من فم هذا الرجل عبد الله نديم؟

وحين غربت شمس ذلك اليوم، كان الخديو قد أجاب طلبات الجند، ولم تنم المحروسة، وطير الخبر إلى كافة البلاد، ولم ينم نديم ولم يكن حلمًا ذلك الذى أبصر فيه الأرملة الجميلة تسمع بالخبر ويتيقن من شىء.. إنه مهما يكن عذاب تلك الأرملة فلاشك أنها قضت ليلة سعيدة وأنه هو عبد الله نديم قد ساهم بجزء متواضع فى أن يحمل له بعض هذه السعادة!!

كنت فى موقعى، كنت أكتب أول مقال للمجلة بعد الثورة! كان المقال فى يده، ولم يطلب منه عرابى أن يقرأه، فقد دفع إليه بأكوام من الوسائل و «العروض» التى بدأت تتهال عليه من جديد والتى تخصص نديم فى فحصها واختيار المهم منها ليراه!

الجزء الثالث

ويتضمن دور نديم في الثورة العرابية خلال المدة من سبتمبر سنة ١٨٨١ إلى احتلال إنجلترا لمصر في سبتمبر سنة ١٨٨٢

الجــزر والمــد

وقف عبد العزيز حافظ يحدق تحديقا ذاهلا فى الضيف الذى يقف أمام باب شقته.. لقد كان عبد الله نديم.

فى هذه الأيام لم يعد ثمة شىء لا يصدق، ولو كان عودتك قالها عبد العزيز حافظ وسط القبلات والأحضان!

وكان هذا اللقاء بعد أيام قليلة من ثورة الجيش، وفى هذه الأيام التى كان نديم خلالها شبه ملازم لعرابى. لم يكن يتردد فى الانطلاق هنا وهناك لزيارة أصدقائه القدامى، والبحث عن كل ما يمثل قطعة من الماضى، والماضى يصبح غالبًا فى نظر أى شخص يلوح له المستقبل مزدهرا، وآنذاك كان مستقبل نديم ومستقبل مصر كلها يبدو حافلا!

وكان نديم يجد متعة فى مجرد التطواف بشوارع المحروسة بلا غرض سوى أن يرى الناس فى المقاهى والدكاكين.. سوى أن يحس أصداء الثورة فى الكلمات والعيون. كانت تلك هى المحروسة لا الإسكندرية حيث يعرفه الجميع هناك كعبد الله نديم أما هنا فبمقدوره أن يستمتع بكونه مواطنا عاديا، فردا فى ذلك الحشد الذاهل المرح، كان الناس يتكلمون وكأن مئات الأيدى قد رفعت فجأة عن أفواههم، وكان نديم يشرب القهوة فى إحدى مقاهى الأزبكية حين جذب انتباهه هذا السؤال:

ولكنى لا أفهم لماذا لم يعزلوا الخديو، وهو مصدر البلاء؟

وكان الذى يسأل أفنديا نحيفا أسمر يوزع نظراته بين جريدة فى يده وبين دائرة تضم أفندية آخرين وأحد المشايخ! وكان يلقى سؤاله الخطير بصوت مرتفع وبلا مبالاة!

وجاءه الرد من زميل أسرع بإبعاد مبسم «الشيشة» عن فمه!

وجود مجلس نواب حقيقى بمثابة عزل للخديو، ودون أن تساق البلاد لأية مشكلات!

وهل يسمح الخديو بمجلس حقيقى؟ ومن يضمن إلا.. وقوطع المتحدث :

وهل يمكنه الآن أن يسمح أو لا يسمح؟ وجود الجيش أكبر ضمان..

وقال الشيخ وهو يعبث بحبات مسبحته:

لا تنسوا أن وجود الجيش يخلق مشكلة أكبر، فشريف باشا لم يتردد فى تأليف الوزارة، إلا لخوفه من أن تصبح خاضعة لنفوذ الجيش!

وصرخ أفندى قصير كان يرقب النقاش فى صمت:

شريف باشا هو الذى أثار هذه المشكلة وفى غير وقتها، وبدون نفوذ الجيش هل كان أحد سيدعوه ليؤلف أية وزارة؟

كان أولى به أن يخاف على استقلال وزارته من الخديو أو من الأجانب أو من تركيا، لا من الجيش!!

وعاد الشيخ الذى أسكتته المقاطعات يقول:

شريف باشا رجل حصيف وأغلب الظن أنه يريد بهذا أن يفقد تركيا والأجانب معا أية حجة يتذرعون بها للتدخل فى شئوننا!

ولم يهتم أحد بالرد على كلام الشيخ، ولم يشترك نديم فى هذه المناقشة الحامية، ولكنه كان سعيدا بها على قارعة الطريق، مندهشا للبساطة الشديدة التى يناقش الناس بها الأمور، والتى يصدرون بها أحكامهم على كل شىء!! وكانت قصة هذه المناقشة وغيرها ضمن الحديث الطويل الذى بدأ باتصال نديم بعرابى، والذى استمع إليه عبد العزيز حافظ فى ذهول، وهو غير مصدق، ولكن أى شىء لا يصدقه المرء فى هذه الأيام؟ حتى عبد العزيز حافظ الذى كان قانعا بالتفرج على الحياة والتحسر عليها، وراح يسأل «نديم» بعد أن فرغ من حديثه، يسأل بلهجة مريرة:

لكن رغم أن كل شىء يسير على مايرام حتى الآن، رغم أن شريف باشا ألف وزارته، ورغم أن الجيش تعهد بالخضوع للحكومة الجديدة، ورغم أن الأعيان ضمنوا هذا التعهد، وأن الخديو يؤكد فى كل مناسبة رغبته الحقيقية فى الدستور، فهناك شىء يقف فى صدرى من هذا كله!

وينصت نديم، ويهز رأسه مستفسراً بينما يوضح عبد العزيز حافظ:

إن الطريقة التى جرت بها الأمور، ولا تزال تجرى تجعل من عرابى بطلا وزعيما، وتؤكد أن الجيش هو القوة التى تكمن وراء الأحداث، هكذا يحس الناس ، والمصالحات التى تتم الآن للمحافظة على هيبة الخديو، وسلطة الحكومة، تبدو لى كنوع من الخداع الذى يمكن أن ينكشف أمام أول نقطة خلاف حادة بين هذه الأطراف!

ويتطلع عبد العزيز حافظ فى وجه نديم ينتظر اندفاعه وتدفقه، ولكنه لاذ بصمت عميق قبل أن يقول بلهجة مترددة:

طبعا هناك حساسيات، وهناك مشكلات أيضا، ولكنها لا تقاس بما كان يحدث لو سلكت الثورة طريقا آخر!

وبدا على وجه عبد العزيز حافظ أن إجابة نديم لم تشف غليله، ثم إن «نديم» تساءل من جديد!

أليس كذلك؟ وانتظر أن يؤكد عبد العزيز حافظ كلامه، وكأنه هو نديم فى شك من أمر ما قاله!!

وفى الواقع أن «نديم» كان فى شك من أشياء كثيرة، وكانت الأحداث تمضى بسرعة كبيرة لا تترك له أقل فرصة لفحص شكوكه ومخاوفه، وكان هو ولأول مرة يجد نفسه جزءا من حركة عامة كبيرة، تحركها عوامل لا حصر لها، جزءا لم يتحدد بعد مكانه أو هويته، جزءا يحاول أن يعى حركته، وأن يعى فى نفس الوقت حركة الكل!! وإذا كان بمقدور الناس فى المقاهى والشوارع أن يصدروا أحكامهم فى يسر وسهولة، فلم يكن يعذبه هو شىء مثل انتظار الناس منه هذه الأحكام السريعة والبسيطة! أنه يطل على عالم جديد ومعقد، وأن أشياء كثيرة تتصلب فى داخله، وفى الوقت الذى ينعم فيه الشعب كله بحرية الكلام يشعر هو أنه يفقد هذه الحرية!

وقال عرابى لنديم:

أين كنت؟ ثم أضاف مازحا: يجب أن تدرك أنك مجند، وسأطبق عليك أحكام الجيش، إذا لم أجدك فى موقعك!

وقال نديم ضاحكا: كنت فى موقعى كنت أكتب أول مقال للمجلة بعد الثورة كان المقال فى يده ولم يطلب منه عرابى أن يقرأه فقد دفع إليه بأكوام من الرسائل والعرائض التى بدأت تنهال عليه من جديد والتى تخصص نديم فى فحصها واختيار المهم منها ليراه.

وانصراف عرابى لاستقبال وفد من الأعيان قدم لتوه وتمهل نديم قبل أن يندفع لحجرة جانبية يتفحص فيها كومة الرسائل، كان يرمق وفد الأعيان الذين تسد عرباتهم الطريق أمام بيت عرابى، ولا تكاد تنتهى اجتماعاتهم به، بينما انصرف هو للقاء وفود البائسين رسائل وشكاوى وضراعات تحكى ما لم ينسه بعد وما لو قرأه الأعيان فى الحجرة المجاورة لأذهلتهم المفارقة التى كانت تصيب «نديم» وحده بالذهول!

وحين سأله عرابى بعد انصراف ضيوفه عما إذا كان قد اختار شيئا من الرسائل قال نديم:

ـ لا... ليس فيها ما يستحق أن تراه!

ـ كيف؟.. قالها عرابى باستنكار.

ـ إنهم جميعا بائسون، وليس لديك ما تقدمه لهم!

وقال عرابى مازحا:

ـ وهذه الثورة؟ والدستور والبرلمان؟ ألا تقنعك وتقنعهم؟

ـ حسبك اقتناع الأعيان! قالها نديم بغيظ

ـ أيها الأحمق، ماذا أفعل بك؟ سأجعلك تلتقى بهم، إنهم جميعا يعرفونك، ولو علموا أنك هنا الآن لأصروا على لقائك بينما لا تبالى أنت بهم!

وبلا شعور تساءل نديم:

ـ صحيح؟

وابتسم عرابى فى خبث بينما ود نديم لو بلع لسانه!

وفوجئ بعرابى يطلب منه المقال الذى كتبه، وينتحى جانبا ليقرأه!!

* * *

وراق المقال لعربى، وراقه أكثر الأسلوب الذى لا يزال نديم يتبعه، أسلوب الحوار مع أحد تلاميذه، ولكن مصر كلها تصبح مدرسة نديم، وحقوق الوطن تصبح درسه المفضل، وصناديق الاقتصاد تصبح أهم هذه الحقوق ويدعوه التلميذ الذى يدير معه الحوار إلى تبنى المشروع فيقبله مترددا وفى خجل شديد، واعدا بأن ينشر فى مجلته أسماء المساهمين فى المشروع، وبدوره يدعو تلاميذه وأنصاره إلى أن يخطبوا فى مدارسهم وجمعياتهم بهذه الحقوق ويختتم مقاله الطويل الذى استغرق عددًا كاملاً من المجلة بنموذج للخطبة التى يجب أن يحتذيها تلاميذه، وجاء النموذج عرضا لبقا للمخاوف والمحاذير التى يمكن أن تهدد النظام الجديد من الداخل أو الخارج، وشرحًا بارعًا لتوقيها!!

وقال عرابى وابتسامة راضية تحيل وجهه الضخم إلى وجه طفل:

ـ تلك هى الطريقة، ثم تابع وهو يرفع حاجبيه ورأسه فى دهشة مصطنعة:

ـ من المؤسف أنه ليس منك غير نديم واحد!

ـ يمكن أن يكون لديك آلاف.

ـ كيف؟

ـ أقوم بتحرير خطبة الجمعة كل أسبوع، وأطبع منها آلاف النسخ لتوزع على مساجد القطر، فيصل صوت الثورة إلى كل مكان وكل إنسان!

والتمعت عينا عرابى وقال:

ـ فكرة مدهشة، وهل يوافق المشايخ على تلك البدعة؟

ـ سأشرح الفكرة فى مقال تال، وسأعرف كيف أقنع المشايخ!

وقال عرابى منبهًا:

ـ ولكن يجب ألا يشعر أحد أن الفكرة نابعة من الجيش!

ورد نديم مغتاظا:

ـ ولكنها ليست نابعة من الجيش، إنها فكرتى.

ـ من الآن أنت محسوب علينا!

وصرخ نديم مغايظًا:

ـ بل أنتم!

* * *

وفى الحق أن «نديم» كان لا يزال يواجه ذلك الإحساس الذى كان جديدًا على حياته، الإحساس بأنه جزء من كل، كان معنيا بتلمس ذاته من جديد، وبتفحص تلك الحركة العامة المعقدة المدعوة بثورة الجيش، وما يتصارع فيها من تيارات واتجاهات وكان بمقداره أن يهضم أشياء كثيرة، وأن يرى وجه الحق فيها، وأن يبتلغ شكوكه ومخاوفه، ولكن ثمة أشياء كانت لا تزال تقف فى حلقه، ولا يستطيع مثل بقية الناس أن يبصقها فى قارعة الطريق! لقد كان يرقب الدور الذى يقوم به الأعيان منذ بدءوا يؤدون مهمة الوسيط بين شريف باشا وعرابى، وكان واضحًا لكل ذى عينين أن الأعيان الذين ألفوا فى الماضى الجماعة المسماة بالحزب الوطنى، والتى كانت تؤيد سرا حركة الجيش، هذه الجماعة قد أصبحت موضوع شد وجذب بين شريف باشا من ناحية، وعرابى من ناحية أخرى فبينما يريد شريف باشا أن يجتذبهم إلى جانبه، ليصبحوا هم ـ وليس الجيش ـ المتحدثين باسم الشعب، وليسلبوا الجيش صفته كممثل للأمة، وهى الصفة التى بررت قيامه بثورة ٩ سبتمبر ١٨٨١، وحيث يسهل التعامل معهم كقوة مطواعة للحكومة.. بينما يحاول شريف باشا ذلك، كان عرابى بدوره يريد أن يحقق من خلالهم المطالب الأساسية التى أعلنها الجيش منذ بدء حركته! وحتى لا يضطر إلى فرض هذه المطالب بصورة سافرة من جديد!

ولكن هل كانت هذه المطالب تتعرض لأى تسويف يبرز هذه المخاوف؟

لقد طلب شريف باشا أن يسافر الآلاى السودانى بقيادة عبد العال حلمى إلى دمياط، وأن يسافر الآلاى الرابع بقيادة عرابى إلى رأس الوادى، كدليل على بعد الجيش عن أمور السياسة، وليقدم هذا الدليل إلى الوفد التركى الذى جاءت الأنباء بتحركه من الأستانة ليزور مصر، وليحقق فى الأحداث الأخيرة، وجاء الأعيان لإقناع عرابى بهذا المطلب.. ولم يجد عرابى بدًا من أن يستخدمهم بدوره لإقناع شريف والخديو معا بأنه لن يرحل قبل أن يصدر الخديو أمره بانتخاب مجلس النواب، وصدر أمر الخديو بانتخاب المجلس لكن دعوة الحكومة لهذا الانتخاب جاءت على أساس اللائحة القديمة التى كان يعمل بها فى عهد الخديو إسماعيل، والتى تقصر حق الانتخاب على العمد

والمشايخ، وحين أبدى عرابى دهشته لتجاهل اللائحة الأخيرة التى كان شريف باشا نفسه قد وضعها فى أول عهد الخديو توفيق، ولم يجر العمل بها بسبب رفض الخديو لفكرة الدستور والمجلس، قالوا له:

إن الحكومة ستضع لائحة أخرى جديدة ومناسبة لتعرض على المجلس الجديد بعد انتخابه ليقرها! فالمسألة مجرد وقت!!

وتراجع عرابى أمام منطق الأعيان، وصرخ نديم فى أول مرة انفرد فيها بعرابى:

ـ ولكن مثل هذه الانتخابات التى يغيب عنها الشعب لن تقدم للمجلس غير هذه الحفنة من الأعيان!

وقال عرابى بهدوء وهو يعبث بحبات مسبحته:

ـ أعرف... ولهذا فلن يهتموا بمعارضة اللائحة القديمة وتشددنا فى رفضها قد يدفعهم إلى أحضان شريف!

ـ ليذهبوا جميعًا إلى جهنم!

ـ أيها المندفع.. لابد من اصطناعهم.. فهم القوة والثروة! وهم يعطون الثورة وجهها الشعبى.

ـ والشعب كله ألا يعطى شيئًا؟

ـ هل نسيت درس الجمعيات؟ ألم يقل لك أحد الرجال يوما أن الشعب كله واقع فى قبضتهم؟

ـ نعم، ولكن الظروف الآن تختلف...

ـ وتختلف أيضًا بالنسبة لهم، ولنا، إننا نواجه أعداء فى الداخل والخارج، وبدلا من أن يجد الوفد التركى، الحكومة والجيش والحزب الوطنى، صفًا واحدًا نريد أن نقدم للوفد التركى فرصة العمر بخلافاتنا!

وصمت نديم، ولم يكن صمته اقتناعا كله، بل مواصلة للتفكير والموازنة، إنه لا يتصور نفسه منفصلا عن تلك الحركة، ولكنه أيضا لا يتصور أى خير يرجى من مجلس نيابى لا يضم سوى هذه الحفنة من الأعيان التى يتصدرها رجل اسمه سلطان باشا كان أحد الأدوات التى استغلها إسماعيل باشا فى نهب الصعيد، وذهب إسماعيل باشا

وبقيت الأداة لتتصدر الحركة الوطنية فأى أمل يعلق على هذه الحفنة؟ وأى دستور يمكن أن تتبناه؟

* * *

وطلب عرابى من نديم أن يستعد ليرافق آلاى عبد العال حلمى إلى دمياط، ثم يعود ليرافق آلاى عرابى المسافر إلى رأس الوادى، وألمح عرابى إلى الفرصة المتاحة لنديم للقاء الجمهور على أوسع نطاق، وألمح نديم إلى أن الفرصة الحقيقية ستكون للجيش الذى يظفر به كداعية وخطيب، وضحك الرجلان! ولكن «نديم» لمح فى الوقت ذاته ما يمكن أن يصبح لمقالاته من النفوذ بعد أن يرى الشعب بعينيه مكانه من الثورة فى هاتين المرحلتين، وزاد ذلك من تصميمه على ما كان يخالج فكره بالنسبة لمسألة الانتخابات!!

* * *

وعلى طول الطريق من المحروسة إلى دمياط قدر لنديم أن يروى لأول مرة صورة جديدة لذلك الحدث المسمى... ثورة!

ولم تكن تلك أول مرة يبصر فيها نديم وجه الحشد حين يتعاظم فيغطى وجه الأرض، وحين ينبض بشعور واحد فتصبح العيون والأيدى والشفاه والأصوات تعبيراً واحداً عن ذلك الشعور الواحد! ولكن تلك كانت أول مرة على التحقيق يرى فيها هذا الوجه الواحد، والشعور الواحد، والتعبير الواحد، يُسابق القطار الذى استقله نديم مع آلاى عبد العال حلمى فى رحلة شملت الدلتا الفسيحة من الجنوب إلى الشمال يسرع وسط الحقول ويبطئ قرب المحطات، ويتوقف فئ الميادين، ويجفف حبات العرق، ويعقد أكاليل الزهور، ويكسب فرحته فى أكواب «الشربات» التى اشتركت بدورها فى سباق القطار، وما أن يقف نديم ليخطب حتى يكف الوجه الصاخب النشوان عن الحركة وتعكس الملامح توقعًا عذبًا، ودرجة من التذكر، لا تخطئ طريقها أبدًا إلى عينى نديم المرتعشين دائما وكأنهما تعانقان الوجه الآمل المتذكر المنتظر!

ولم يكن نديم يتذكر خطبه إلا حين يقرؤها فى اليوم التالى منشورة فى أغلب الصحف!

وحين عاد نديم ليشارك آلاى عرابى رحلته إلى رأس الوادى! التقى من جديد بنفس الوجه، ودهش حين اكتشف أن وجه الحشد مثل وجه الفرد، ماكر ويعرف التفرقة!

كان هذا هو عرابى زعيم الثورة وبطلها، وغدا الوجه أكثر تعبيرا، وأكثر فضولاً وتطلعًا، أنه لا يترك نافذة أو شرفة أو سطحًا أو فرع شجرة! إنه يهتف ويغنى ويزغرد، إنه يزيح النقاب عن ملامحه النسائية، إن فرحته تتضاعف فيتضاعف الزحام والعرق وأكواب الشراب وأكاليل الزهور!! وإن سرعته تتزايد فيبطئ الموكب، وحجمه يتعاظم فيبطئ القطار، وتتزايد المحطات، وتتزايد الخطب ولكن «نديم» لا يخطب وحده هذه المرة، فعرابى يخطب أيضا ويفاجأ نديم بأن عرابى هذا يوشك أن يبزه كخطيب ولكن الوجه الكبير يحسم الموقف بالرجلين، فيهتف لعرابى كزعيم للثورة، ولنديم كخطيب لها!!..

وتدمع عينا نديم، ولكن أحدا لا يرى الدموع، عرابى وحده هو الذى أحس بها على شفتيه حين قبل «نديم» بعد انتهائه من إحدى خطبه على مرأى من الحشود الزاخرة!

وهكذا حدد أول لقاء بين قادة الثورة والشعب مكان نديم فى الثورة، ولكن عرابى الذى أدرك خلال هذه الرحلة القدرة الخارقة التى يملكها نديم فى التأثير على الجماهير، لم يتردد فى أن يكشف عن الدور الذى لعبه نديم فى التمهيد للثورة بل وفى مظاهرة عابدين، وكان ذلك فى مدينة الزقازيق وأثناء خطبته فى الحفل الذى أقامه له أمين بك الشمسى كبير تجار المدينة، لقد تحول نديم بدوره إلى بطل وأسطورة وغرق فى الحفاوة التى غمره بها أعيان الشرقية!

واكتشف لذهوله أن جمهور «التنكيت والتبكيت» بين الأعيان لا يقل عن جمهورها بين بقية الشعب!

ولم يعد لديه أقل شك فى أنهم جميعا قرءوا العدد الأخير من المجلة، الذى كتب فيه حوارا مع تلميذه عن قضية الانتخابات، وانتظر أن يناقشوه فيما كتب! وتحفز للرد، وتهيأ للمعركة، ولكن أحدا لم يشر بكلمة إلى ما كتب! كانوا سعداء إلى الحد الذى لا يستطيعون فيه أن يوجهوا غضبهم نحو شخص أو شىء!!

سعداء وكرماء إلى الحد الذى دفع وجيها اسمه عباس أفندى الزمر إلى أن يسدد ديون قريته التى تزيد على خمسة آلاف جنيه للمرابين الأجانب لينقذ أرضها من الرهن!

على حين كان البعض الآخر يواصل تقديم الطعام والثياب للفقراء فى كل البلاد التى يزورها عرابى!!

* * *

وتساءل نديم: أتراهم لم يقرءوا ما كتب؟ أم أنهم لا يبالون به ولا بمجلته؟ أم أنه أخطأ فى تقدير حقيقتهم؟ورد عرابى إليه روحه حين قال له فى غضب:

ـ أجننت يا نديم؟ وكانت فى يده المجلة.

وفهم نديم أنه قرأ المقال.. وتساءل فى براءة مصطنعة:

ـ لم؟..

ـ هل هذا وقت تكتب فيه هذا الكلام؟

ـ وما جدوى أن أكتبه بعد ذلك؟

وأكد له عرابى أنه لا يختلف معه حول أشياء كثيرة مما ورد بمقاله، ولكن الوطن الآن فى حاجة إلى تضافر كل..

وقاطعه نديم فى غيظ:

ـ إن أحدا لا يولى الموضوع أقل اهتمامًا!

ـ كنت أظنك رجلا عرك الحياة، وربما لم يتكلم أحدهم معك، ولكن أحدهم ردد لى من ذاكرته فقرات تطعن فيها طعنًا قاسيًا على طبقة العمد والأعيان! وتتهمهم...

وقاطعه نديم:

ـ وهل قرأت أنت المقال؟

ـ نعم!

ـ هل من الخطأ أن أدعو إلى ضرورة تكوين المجلس من فئات تمثل طبقات الشعب؟ هل يصلح الأعيان وحدهم لتمثيل شعب مصر؟ أليس من الضرورى أن يكون معهم علماء وصناع و...

وقاطعه عرابى محتدا:

ـ هل تظن أن أى انتخابات تجرى الآن مهما توافر لها من الحرية، يمكن أن تجىء بغير الأعيان؟!

وفى ضجر أجاب نديم:

ـ أظننى أجبت على هذا السؤال فى مقالى:

واندفع عرابى محنقا:

ـ وفى الوقت الذى يوجد فيه وفد تركى لعين فى البلاد، وفى الوقت الذى تتحرك فيه قطع الأسطول الإنجليزى والفرنسى إلى بلادنا بحجة منع التدخل التركى، وفى الحقيقة إرهابا للثورة، وبينما يجد رجال القصر من الاتراك والجراكسة ـ الذين لا يفرقون فى كراهيتهم للمصريين بين الأعيان وغيرهم ـ فى كل ذلك فرصة ليرجفوا بأحقادهم ضد الثورة! فى هذا الوقت تريد إثارة قضية لن يفيد منها الشعب مثلما يفيد أعداؤه!!

* * *

ومن جديد صمت نديم، وفى هذه المرة أيضا لم يكن صمته اقتناعا كله، كانت بذرة شك قد بدأت تنمو فى ذلك الصمت، وربما لا يكون الوقت حقًا هو المناسب، لإثارة المشكلة، ربما كان من الضرورى أن يصمت، وأن ينتظر، وأن يرقب ما يتمخض عنه ذلك العالم المعقد الذى أصبح جزءًا صغيرًا منه.

* * *

وإذا كان من الضرورى أن ينتظر فما الذى يبقيه هنا وسط المآدب والحفلات؟ ويعود نديم إلى المحروسة ليتابع تحركات الوفد التركى ليسجل الخطب والأقوال والتصريحات، وليرى كيف وقف الشعب كله يسد أمام الوفد كل الثغرات، فالشيخ «عليش» إمام المالكية والرجل ذو النفوذ الروحى الكبير، والسيد توفيق البكرى الذى اجتمعت فى داره أول جمعية وطنية، وفرق الجيش، وجماهير الشعب وكتاب الصحف، جميعهم كانوا أروع تعبير عن الولاء للثورة ولعرابى، ولم يجد الوفد التركى بين صفوف الشعب ثغرة ينفذ منها، ولم يبق الوفد إلا أن يعود من حيث أتى، ولم يبق أمام السفن



الإنجليزية والفرنسية التى اتخذت من مجيئه ذريعة إلا أن تقلع فور سفره من نفس الميناء، ولم يبق أمام رجال القصر الذين رأوا فى وجود السفن الأجنبية فرصة العمر لإرهاب الثورة وهى لما تتشكل بعد فى نظام فراحوا يرجفون ويهمسون إلا أن يصمتوا فى انتظار فرصة أخرى!

ولم يبق أمام نديم الذى رأى أن الوحدة الوطنية آنذاك هى قارب النجاة الوحيد إلا أن يكتب مقالاً عنيفًا ينشر فيه كل ما سجله من آيات هذه الوحدة!! وإلا أن يتابع وصاياه للوطن والمواطنين وسلسلة خطبه النموذجية لتلاميذه وأنصاره!

* * *

مع أن مناورتى الوفد التركى والسفن الأجنبية قد فشلتا فشلاً ذريعًا إلا أنهما كانتا إشارة لا تخطئ لاتجاه الحوادث، فقد بدأت الأنظار تتجه أكثر فأكثر فى متابعة دقيقة للمطامع الخارجية، وأصبح ما تنقله الصحف المصرية عن الصحف الأجنبية من تعليقات على أحداث مصر موضوع المناقشة فى المقاهى والبيوت، وحتى ذلك الحين كانت بعض الصحف الأجنبية تجتهد فى ستر نوايا دولها العدوانية، وتتحدث عن حق مصر فى الحرية وتبارك هذه الحرية ما دامت لا تمس حقوق الدول الأجنبية فى مصر!

وهكذا أصبحت أحاديث هذه الصحف موضوعا للتندر فى كل مكان، وأصبح ما لهذه الدول من حقوق فى مصر موضوع المناقشة فى كل صحيفة!

وكتب نديم عن هذه الحقوق المزعومة على لسان مصر تخاطب أحد أبنائها «وأصبحت بين الغرباء كالأجير والخادم، والمستعبد، فما رأيت من قصر لطيف فذاك للمسيو، ما نظرت من جفالك وأباعد فهذا للمستر، وما بلغك من بنك ومتجر فهذا للخواجا، وما سمعت من رفعة وإنعام فهو للسنيور، وقد صار الإسكافى عندنا مهندسًا والمزين طبيبًا، وخادم الخيل رئيسًا، وذليل بلاده وطريدها عزيزًا ومحبوبًا، وأهلى يجاهدون فى خدمتى فتدركهم جهالة أمرائى بالهزيمة، وأرضى ملكا لأوضاع لا يملكون القوت فى بلادهم، وإدارتى أجنبية محضة فى يد لا يعرف نعتى، ولا ينظر إلى إلا بعين الهوان.

* * *

وقال محمود سامى البارودى صديق نديم القديم وأشهر شعراء مصر آنذاك والذى بقى وزيرا للحربية فى وزارة شريف باشا قال له، لنديم:

ـ لدى مفاجأة سارة لك!

وتطلع نديم ليرى المفاجأة، فقاده البارودى إلى قصره وهناك التقى بالمفاجأة، ولأول وهلة لم يصدق عينيه.. أحقا هذا أديب إسحاق؟ كان الفتى السورى النحيل الذى قدم لتوه من بيروت، التى عاد إليها من باريس بعد أن ساءت صحته هناك، قد ازداد نحولا، ولم يبق منه سوى بريق عينيه، وفخامة صوته، وازداد جلده الأبيض بياضًا! وتعانق الصديقان، ولأول وهلة تجاهل كل منهما الحديث عن صحة الآخر، كان نديم يتفجر حيوية ونشاطا، وانصرف البارودى بعد أن هيأ للصديقين فرصة لقاء طويل فى بيته!

ـ من كان يصدق يا نديم أن نلتقى من جديد، وبالثورة فى مصر؟ ويسعل أديب قبل أن يتابع:

ـ كنت أخشى أن أموت قبل أن أراك، وأرى مصر!

ـ الشيطان لا يرضى بموتك فى هذه السن، فتلك خسارة له لا تعوض!

ـ أيها الملعون، الخسارة الحقة أن تموت أنت قبل أن تزور باريس!

ويضحك نديم قائلا:

ـ لن نكون فى حاجة إلى زيارة أوروبا يا صديقى فهى فيما يبدو مصرة على المجىء إلى هنا! ـ أنت لا تنسى السياسة أبدا، ويعاوده السعال ويخرج من جيبه منديلا يمسح به فمه.

.. ويصمت قليلا، ولا يجد نديم بدا من الإفصاح.

ـ أنت مريض يا أديب، أنت فى حاجة شديدة للراحة يا بنى! وأغرورقت عينا أديب الواسعتين:

ـ أتعرف؟ كنت أخشى أن أموت فى باريس! دعنى انصحك يا نديم، لا تمت أبدا فى الغربة! يمكنك أن تعيش، لكن حين تنوى الموت فعد إلى بلادك!

ويكتم نديم انفعاله، محاولا أن يحتفظ بروح المرح:

ـ لو مت هنا فنحن بريئون من دمك، باريس هى التى قتلتك:

ـ نعم.. باريس.. فتاة حلوة يا نديم اسمها مارجريت هناك هى التى قتلتنى، سأريك صورتها، ويتحرك أديب ليفتح إحدى حقائبه، ويتوقف فى منتصف الطريق ليقول لنديم:

ـ مالم تعشق فتاة فرنسية فلا تتكلم عن الحب لأنك لا تعرفه. ثم تابع وهو يعالج فتح الحقيبة ودون أن ينتظر ردًا من نديم:

ـ ستقول لى إنك اكتفيت بحب مصر! أنا أعرفك!

ويعاود أديب التمدد فوق أريكة جانبية بجوار نديم وبينهما مجموعة من الصور والذكريات، وما تبقى من زجاجة خمر كانت ترقد فى نفس الحقيبة، كان أديب يشرب ويثرثر، ونديم بجواره، نصف متمدد، نصف منتبه!

ـ مالم تشرب معى فى هذه المناسبة فمتى تشرب؟

ـ سعادتى بك توصلنى للنشوة!!

وفى الحقيقة أن «نديم» الذى راح يستمع بنصف عقله إلى أديب كان يعيش بالنصف الآخر مع آخر رسالة وصلته من صديقه أحمد سمير، لقد حكى له فيها ما كان ينتظره، ومالم يكن ينتظره أبدا، لقد كان أحمد سمير الذى ترك الأرملة الجميلة تختفى، هو نفسه الذى وجدها بعد أن عرف كم يحبها نديم!!

عرف بيتها القديم من التلاميذ ثم سأل الجيران عن «سالم» فدلوه على أمه، وكانوا هم الذين ساعدوها على أن تعمل فى خدمة أوربيين عجوزين، وكانت هى التى طلبت مثل هذا العمل لأنها لا تحب العودة حيث كانت، ولأنها اعتقدت أن ابنها لابد وأن يجىء يوما لملاقاة أستاذه، وكانت تفكر فى الاتصال بنديم مرة أخرى ليعرف مكانها وليساعدها على لقاء ابنها حين فوجئت بأحمد سمير يطرق باب حجرتها ليؤكد لها أنه سيكون فى خدمتها حتى يعود نديم أو يعود ابنها!

أى تدبير بارع يحيكه القدر؟ والغريب أن «نديم» الذى لم يكن يحلم بشىء كهذا أصبح لا يخاف فى حياته مثل تلك اللحظة التى يمكن أن يلتقى فيها بهذه الأرملة الجميلة، والتى تتأبى حتى فى أحلامه عن أن تأخذ علاقتها به أية صورة بشرية، كانت ملامحها قد اختفت تماما من رأسه، ولم يبق منها سوى ذلك الارتياح الغامض والنشوة المجهولة!

أهى تنتظره حقًا أم تنتظر ابنها الغائب؟ وماذا يعنى القدر بأن تنشد إنسانته الغالية تلك الأمان فى ظل أوروبيين عجوزين؟

وينتبه نديم حين يسأله أديب ملحا:

ـ فهل كنت مخطئًا لأننى لم أتزوج مارجريت؟

ـ نعم. قالها نديم بلا تفكير.

ـ أنت لم تكن تسمعنى؟

ـ نعم!

ـ أيها الأبله، ألا تريد أن تنسى التفكير لحظة فى الثورة؟ وأطل وجه البارودى من فتحة الباب دقيقًا أنيقًا مبتسمًا:

ـ تأخرت عامدا حتى تشبعا من الحديث، ويشتد بكما الجوع إلى مائدتنا!

وتقدمهما إلى قاعة الطعام، كان يتكلم ويتحرك فى رقة وترفع أصيلين وفى عينيه لمعة حلم لا تخفت أبدا وجلسوا إلى المائدة حيث أعد الطعام تشتهى أن تراه، مثلما تشتهى أن تأكله، وفى كل ما تقع عليه العين فى القاعة من ثياب الخدم، إلى المفارش إلى الأوانى والستائر والسجاد والتحف، كنت تلمح لمسات الجمال والثراء والذوق!

ـ وبالنسبة لمن ذاق طهو باريس أرجو أن يعجبه طعامنا؟ ويبتسم أديب، بينما يسترسل البارودى فى ذكرياته عن باريس وطعامها ونسائها، ويشاركه أديب فى الحديث وينفرد نديم بالطعام ليقاطعهما قائلاً:

ـ من يسمعكما يظن أن كل شىء حسن فى باريس عدا السياسة!

ـ هذا صحيح! قالها البارودى موكدا

وعاد نديم يسأل متهكما:

ـ كيف يأتى الخبيث من الطيب؟

ـ إذا كنت تعنى الاستعمار فهو قديم قدم العالم! قالها أديب بعد أن توقف لحظة عن تقطيع شريحة من اللحم!

قال نديم وقد توقف تمامًا عن الطعام:

ـ أنت إذًا تفرغ حضارة أوروبا من كل معنى من معانى التقدم!

وتدخل البارودى!

- هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة التقدم!

وصمت نديم قليلا، كان همه الأكبر أن يدرس حركة التقدم كظاهرة تاريخية، معناه.. بواعثه.. غاياته.. هل يستقيم كخط أم ينحنى كدائرة؟ كان ذلك همه القديم والعظيم، ولقد بدأ فى تأليف كتاب يناظر بين دورات التقدم شرقًا وغربًا ولا يدرى متى يتمه..

وحين تكلم نديم كان قد قرر أن يحيل الموضوع لنكته فقال موجهًا حديثه لأديب إسحاق:

- أفضل أن يحدثنا عن معنى التقدم، الرجل الذى كان يصدر فى بيروت جريدة باسم التقدم!

ويصرخ أديب إسحاق:

- نجنا يارب من نديم، يشغلنا بمشكلات التاريخ وهو غارق فى مشكلات الحاضر!!

وفرغوا من طعامهم، وبدأ نديم يتهيأ للخروج، وسأله البارودى.

- إلى أين ؟

- إلى أى مكان! ثم أضاف: يمتلك الشحاذ نصف العالم ويضحك أديب قائلا :

- شحاذ الثورة !

ويجتذبه البارودى من يده قائلا:

- ستبيت هنا،ثم تابع - مشيرا إلى أديب - : إنه ضيفك فكيف تتركه؟ وقال نديم ضاحكا :

- هذه أفضل الطرق للتخلص من كلينا !

وفى تلك الليلة لم يناما حتى الصباح، واستخلص منه نديم كل ما لديه من أخبار وتكهنات عن موقف أوروبا من الثورة حتى ذلك الحين !

* * *

وبطريقة ما أصبح نديم محامى الثورة، ودون أن ينتظر توكيلا من أحد، راح يدافع فى كل الجبهات، وبكل الأسلحة! فحين يحاول صحفى فرنسى اسمه «شارم غبريال» فى جريدة «الديبا» أن يشكك فى أصالة الثورة المصرية، وأن يوهم أنها صدى لمؤامرات الآستانة التى تحاول أن تسترد نفوذها فى مصر حينذاك يرد نديم فى مقال عنيف يستغرق عددين كاملين من المجلة ليوضح أصالة الوطنية المصرية التى لا تتعارض بحال مع الولاء الدينى لخليفة المسلمين ما دام يحترم استقلال مصر، بل تقوى بهذا الولاء !

إنه لا يجد مانعًا من أن يستند إلى تركيا وهو يوجه ضرباته لدولة أجنبية، فيكسب تركيا، والأتراك المصريين، وفوق ذلك جانبًا من مشايخ الأزهر يرون فى الولاء لتركيا جزءا من العقيدة !!

ولا يجد مانعا من أن يستند إلى الأعيان المصريين حين يندد فى خطبه ومقالاته بمساوئ العهد القديم فى مصر حيث كانت السلطة المطلقة فى يد الأتراك والجراكسة، فيكسب هؤلاء الأعيان، ويكسب معهم جانبا آخر من مشايخ الأزهر يكرهون النظام التركى القديم ولكنهم ينظرون فى شك كبير إلى جدوى ثورة تعتمد على الجيش لا على العناصر المدنية !

ولكنه فى النهاية يستند إلى فلاحى مصر حين يتحدث إلى الأعيان المصريين عن حقوق هذا الفلاح، وعن الاقتصاد المصرى الراكد وضرورة تحوله إلى الصناعة، وعن الجمعيات باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتجميع نقود تسمح بتمويل الصناعة! وحينذاك يكسب الأغلبية الساحقة من صغار الفلاحين وصغار الصناع والتجار، ويثير الحماسة فى صدور الضباط وصغار المشايخ الذين يؤيدون الثورة بلا تحفظ والمحامى البارع يعرف ماذا يقول، ومتى يقوله؟ فحين يضيق شريف باشا رئيس الوزراء بخطب نديم ومقالاته التى تسرف فى الحديث عن حقوق الفلاحين، وعن عرابى كزعيم يمثل هؤلاء الفلاحين، وحين يهدد ويتوعد!! يستند نديم إلى عرابى نفسه، ولم يبق أمام عرابى إلا أن يضع هذا المحامى فى مكانه الصحيح، فيقترح عليه أن ينشئ جريدة اسمها «لسان الأمة» جريدة لا مجلة، جريدة ليست فى حاجة إلى أسلوب «التنكيت والتبكيت» الذى اقتضته ظروف لم يعد لها وجود.. جريدة تتسع لما يضيق به صدر هذا الرجل الذى لا يعلم إلا الله ماذا يمتلئ به صدره !!

* * *

وحين كان نديم يودع آخر عدد من التنكيت والتبكيت كان يودع آخر أبنائه، ولم يستطع محامى الثورة أن يدافع عنه ضد الموت !

ولم يكن موت طفل سوى حادث مألوف فى وقت، وفى مجتمع كان لا يجتاز عتبات الطفولة فيه غير أقل عدد من الأطفال ولم يكن نديم هناك فى أى وقت مرض أو مات فيه أحد أطفاله !

دائما كان يتلقى أخبار وفاتهم، ودائما كان يقسم لنفسه أن يثوب مرة لقضاياه الخاصة، ودائما كان يشعر بالذنب لموتهم، وأحيانا لحياتهم، ودائما كان يقول لنفسه: أى خير يمكن أن تقدمه للناس وأنت عاجز عن أن تعنى بأولادك؟ ودائما كان يحنث فى إيمانه، وفى هذه المرة لم يعد فى حاجة إلى قسم جديد، كان فى حاجة إلى أن يتركوه لنفسه نديم الذى عاش للناس، وبهم كان لا يرجو شيئا مثل أن يتركه الناس لنفسه بعض الوقت!!

* * *

وفوجئ نديم وهو فى أعماق وحدته،التى لم تخفف منها وفود المعزين ولا عشرات الرسائل، فوجئ بقلبه يدق فى عنف وهو يرى بين المعزين تلميذه القديم «سالم»، وأخيرًا كان موت آخر أطفاله الفرصة الوحيدة لهما معا لكى يتحقق هذا اللقاء الذى ظل أعواما يتأرجح فى كفة القدر !

وفوجئ نديم بكل آلامه، بكل ما يضيق به صدره الذى لا يعلم إلا الله ماذا ينطوى عليه !

فوجئ بهذا كله يتحول إلى مجرد رغبة، رغبة مجنونة وعارمة فى أن يلتقى بأرملته الجميلة، فى أن تكون هذه المرأة هى ما ينتزعه من هذا العالم الغريب الذى لا يمتلك فيه الناس سوى أوهامهم!

فى أن ينجب منها أطفالا لا يموتون ! وفوجئ نديم مرة أخرى بسالم يلوذ بصمت لعين حين انتهى معه بسؤاله عن أمه!

- إنها هنا فى الإسكندرية !

كان هذا كل ما قاله بعد فترة الصمت !

- وما معنى بقاءك فى «المجلة» بعيدا عنها؟

ـ لم تعد فى حاجة إلى !

ـ كيف ؟ قالها نديم بذهول

ـ فيما بعد أوضح لك !

* * *

وكان «أحمد سمير» هو الذى أوضح لنديم كل شىء، وكان ذلك بعد أقسى أيام قدر لمحامى الثورة أن يشعر فيها بمدى فشله العظيم فى كل قضاياه الخاصة !!

« طبعا الناس يتغيرون، لو رأيتها لما عرفت فيها تلك الأيام التى رأيتها ذات ليلة فى لحظة جزع على وحيدها، سالم نفسه لم يصدق أن هذه هى أمه، كيف تتخيل مصير أرملة تخدم لدى أوروبيين؟ أصبحت فى حديثها وثيابها وسلوكها مسخا غريبا، فزع «سالم» من رؤيتها، وطبعا لم توافق على أن تعود معه،ولم يقبل أن يبقى معها، وأشارت إلى أن رجلا يعمل لدى عائلة أخرى أجنبية يريد الزواج منها! لست ألومها، ربما يكون سالم أو أنت قد «تأخرتما» قليلا فى البحث عنها،ولم تفقد جمالها، رغم أنها فقدت براءتها، كانت حجرتها قد أصبحت أنيقة ومليئة بالأثاث، وكانت قد أصبحت شقة أنيقة! وصمت أحمد سمير حين رأى «نديم» يتململ وهو يستمع إليه ويكاد يرجوه أن يصمت» !

* * *

ولكن الحياة تمضى فى طريقها رغم الموت والأحزان ! وينقضى الخريف ويجىء الشتاء، وتصبح الثورة التى كانت مجرد اقتراح عنيف، نظاما، فالأعيان قد احتلوا مقاعدهم فى أول مجلس نيابى بعد الثورة وعرابى الذى تحول فى منفاه إلى زعيم يبث أفكاره بين الجماهير فى رأس الوادى حيث أريد له أن يكون بعيدا عن التأثير فى السلطة قد عاد ليتولى منصب وكيل نظارة الحربية حيث أريد له مرة أخرى أن يكون بعيدا عن التأثير فى الشعب !

وأديب إسحاق صديق نديم القديم قد وجد فى النظام الجديد أكثر من مكان، فهو رئيس قلم الترجمة بديوان المعارف وسكرتير المجلس النيابى الجديد، وأكثر من ذلك تحسنت صحته !

والشيخ محمد عبده الذى كان جزءا من النظام السابق والذى كان لا يزال يجادل فى شرعية الثورة كأسلوب، ولا يمل مناقشة العلاقة بين القوة والقانون، ولا يزال يرأس تحرير الوقائع المصرية، قد أصبح رقيبا عاما على الصحف !

وكانت «التنكيت والتبكيت» قد أصبحت ذكرى حلوة يتندر بها الناس، أما «لسان الأمة»التى اقترحها عرابى على نديم فقد أصبح اسمها «الطائف».. جريدة جديدة تصدر كل أربعاء، وجه آخر من وجوه نديم، وجه جاد وحاسم وعصبى، لا وقت لديه للتنكيت والتبكيت، وجه كرس نفسه لقضية واحدة لا غير بعد أن خسر كل قضاياه الخاصة !!

* * *

ولكن القضية الواحدة التى كرس لها نديم كل وجوده كانت تنزلق من أصابعه،كانت قد أصبحت مشروع لائحة للدستورالجديد وضعها شريف باشا وعرضها على المجلس النيابى تمهيدا لإقرارها:

والتقط الشعب الذى كانت الثورة بالنسبة له لا تزال مجرد وعد، التقط المشروع ليجده يتضمن بندا يقضى بألا يتعرض المجلس لمناقشة أجزاء الميزانية المتعلقة بجزية الباب العالى، والدين العام، كل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات !

وتساءل الناس : وماذا يناقش المجلس إذًا ؟

ـ ما يتبقى بعد ذلك من الميزانية وأوجه إنفاقه داخل البلاد !

ـ وما نسبة المتبقى من الميزانية ؟

ـ النصف تقريبا !

ـ وما معنى ذلك ؟

ـ معناه أن كل ما أقره قانون التصفية الذى وضع فى أعتى ظروف الحكم المطلق سيبقى كما هو !

ـ ومعناه أيضا أن لا أمل فى إلى إصلاح جدى، فنصف الميزانية لا يزيد على أربعة ملايين من الجنيهات !

ـ ولم كانت الثورة إذًا ؟

وكان على الأعيان أعضاء المجلس أن يجيبوا قبل غيرهم على هذه الأسئلة !

أليسوا هم ممثلو الشعب ؟ ألم تنته قضية الثورة إلى أيديهم ؟

وثار الأعيان فى أول الأمر، وتلقف شريف باشا ثورتهم!

ـ خطوة فخطوة !

ـ أهذا ما كنا ننتظره ؟

- اقرءوا بقية المشروع... الوزارة مسئولة أمامكم، لن تفرض ضريبة جديدة، أو يسن قانون إلا بموافقتكم، أين كنا وأين أصبحنا؟

- هذا بالنسبة للمستقبل ! لكن أخطاء الماضى كيف تصفى ؟

ويتدخل الشيخ محمد عبده ليفلسف المسألة: «لقد ظللنا ننتظر حريتنا عدة قرون، أفيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور؟»

وألمح شريف باشا الذى كان على صلة بالمراقبين الأجانب إلى المخاطر والمخاوف، الأجانب لن يسمحوا بأن يمس قانون التصفية، إنه معاهدة دولية! ولامعنى لأن نقدم لهم فرصة التدخل المسلح !

* * *

وقال محمود واصف لنديم :

- أتذكر ما قلته لى يوما عن الشجاعة، بعدأول لقاء لك مع عرابى ؟

وصمت نديم متذكرا:

وعاد محمود واصف يقول: جاء دورى لأحدثك عن الشجاعة ! إنها تواتى الرجل الذى لا يمتلك شيئًا، لتعطيه فجأة كل شىء، وصمت محمود واصف لحظة قال بعدها لنديم الذى كان ينصت باهتمام.

- وبعد ذلك تكون الشجاعة هى أول شىء يفقده الرجل الذى أصبح مالكا لكل شىء !

وابتلع نديم سخرية صديقه، كان يدرك أنه لايسخر منه، ولعله يقصد عرابى شخصيا الذى كان لا يزال يتتبع سياسة المصالحة فى الداخل والخارج، فيحاول عن طريق المراسلات السرية أن يكسب تأييد سلطان تركيا لحركته، ويحاول عن طريق صداقته بلورد إنجليزى اسمه «بلنت» أن يكسب عطف جلادستون رئيس وزراء بريطانيا، ويستخدم اللورد «بلنت» لينشر فى التيمس بيانا بسياسة الحزب الوطنى يتحدث بلهجة معتدلة عن أمانى المصريين فى الحرية، واحترامهم لحقوق الدول مادامت هذه الدول تحترم حقهم فى أن تكون مصر للمصريين!! مؤملا فى كسب الرأى العام الإنجليزى ويحاول عن طريق تساهله فى ميزانية الجيش وتنازله عن جزء من الزيادة المطلوبة لإبلاغ الجيش إلى ١٨٠٠٠ جندى أن يتلافى حدوث أزمة مع المراقبين الأجانب! ولكن محمود واصف لايقصد أبدا «نديم» فنديم لم يمتلك فى الماضى أو الحاضر ما يخاف عليه، مع أن عرابى كان يعتبره أحد جنوده، فلم يحصل على أية امتيازات من التى حصل عليها كبار الضباط أوصغارهم ولم يصبح جزءا من الحكومة، كان مجرد محام،



وهو الآن محام بلا قضية، أو محام فى قضية لا يملك فيها نقضا ولا إبراما، وكان القضاة من أعضاء المجلس قد بدءوا يسفرون عن مدى حكمتهم !! وبدءوا يرددون كلمات شريف باشا صحيح، أين كنا وأين أصبحنا؟ وهل يكون تعريض البلاد لمخاطر التدخل الأجنبى هو باكورة أعمالنا؟؟

* * *

وفى الحق إن قضية التدخل الأجنبى المسلح التى برزت فى أفق الحياة المصرية منذ أول يوم لثورة الجيش، كانت هذه القضية تزداد مع الأيام بروزا، وكانت الصحف المصرية التى تمتعت فى تلك الفترة القصيرة بما لم تكن تحلم به من الحرية فى ظل الرقابة المستنيرة للشيخ محمد عبده، تنقل أغلب ما تنشره الصحف الأوروبية عن ثورة مصر واحتمالات التدخل الأجنبى، ودواعيه ومحاذيره، وكانت طبقات الشعب وفئاته المختلفة التى تقرأ، والتى تسمع، والتى تختلف نظرتها للثورة ومصلحتها فيها، كانت كل فئة تستطيع أن تجد فيما تنشره هذه الصحف ما يؤيد وجهة نظرها !

فكان بمقدور المتفائلين، والمتمسكين بالحقوق الكاملة، والمؤمنين بأن الصراع بين إنجلترا وفرنسا سيحول دون تدخل مشترك منهما أو منفرد من إحداهما، أن يجدوا فى خطاب «لورد جرانفيل» وزيرخارجية بريطانيا الذى نشرته جميع الصحف دليلا لوجهة نظرهم ! وكان بمقدور الحذرين الذين لا يثقون فى نوايا بريطانيا، والمعتدلين الذين ينادون بالتدرج أن يؤيدوا وجهة نظرهم بما جاء على لسان مراسل الستاندرد البريطانية تعليقا على نفس الخطاب !!

«لقد أخطأ «الإيرل جرانفيل» حين قال إنه ليس للحكومة الإنجليزية من غرض سوى ثروة مصر، وتمتعها بالحرية، ولكن هل يصدق الأهالى ذلك؟ أن نوال ثقة المصريين بذكر ما لا يعتقدون مما يظهر تدليسنا !»

وكان بمقدورهم أن يفحموا مناقشيهم بفقرات أخرى من نفس التعليق !

« هل يظن أحد أن المستر «جلادستون» يعامل الأمم الأخرى حسب مبادئ الإنجيل؟ فالمسألة المصرية هى وجود إنجلترا وفرنسا فى مصر بطريقة خاصة، وإذا قام مصرى من المحبين لوطنهم، وقال لإنجلترا ارفعى يدك عن مصر فماذا تفعل الحكومة الإنجليزية؟؟»

ولم تكن قضية التدخل الأجنبى المسلح إلا إحدى القضايا التى يناقشها الشعب المصرى، وتناقشها صحافته، وقبلها كان الشعب يناقش التدخل غير المسلح، يناقش

مسألة إعفاء الأجانب من الضرائب، وحشدهم بلا مبرر وبأكبر المرتبات فى المصالح الحكومية، وفضيحة إعانة دار الأوبرا بمبلغ تسعة آلاف جنيه للفرق الأجنبية، فى الوقت الذى تئن فيه الميزانية من الفقر، ولم ينتظر الناس أن يتفضل أعضاء المجلس من الأعيان بإبداء رأيهم فى مشروع الدستور وأبدوا هم بطريقة أصابت مراسل الستاندرد البريطانية نفسه بالذهول فكتب يقول:

«لقد سرت روح الوطنية فى مصر التى كانت مصابة بالسبات والوهن، ومثل رقادالمصريين فى الماضى ونشاطهم الآن كمثل الغلال التى خزنت فى الأهرام آلاف السنين وعند تعرضها للشمس ظهرت ونمت».

«سرت الروح إلى فلاحى مصر الذين كانوا مثل الرفات وهم طبعا يريدون تخليص مصر من النفوذ الأجنبى سواء أكان من باريس أم لندره، وبما أنهم عقلاء قالوا: نريد أن تكون مصر للمصريين وهذا بالطبع شىء زائد عن كون مصر لبشواتها وأعيانها»

* * *

وقال محمود واصف لنديم مرة أخرى، وبنفس اللهجة المريرة :

ـ الخوف من تدخل أجنبى مسلح قد يوقعنا فيما هو شر من التدخل المسلح !

وواصل نديم نظرته المستفسرة بينما استرسل الرجل الذى كان أمينا لجماعة «مصر الفتاة» قبل الثورة وأصبح بعدها مجرد موظف صغير !

ـ هذا الخوف يستغله الأعيان لتقف الثورة عند مجرد تحقيق مصالحهم، ولا تمضى خطوة وراء ذلك ! ألا زلت تذكر منشورات الحزب الوطنى القديمة أو حتى بياناته الجديدة إنهم يتراجعون عنها الآن !

وقال نديم باقتضاب:

ـ ولكن مصالحهم نفسها تتعارض مع بقاء النفوذ الأجنبى !

ـ طبعا، ولكن إلى أى حد؟ يمكنهم أن يضحوا ببعض المصالح لتبقى السلطة فى أيديهم وإذا لم يخطئ تقديرى فالأجانب أنفسهم مستعدون لبعض التنازلات ما دامت مصالحهم الكبرى لن تمس وما دام الأعيان يؤلفون مع حكومة شريف باشا جبهة قوية تمنع الجيش من فرض مطالب باسم الشعب !!

* * *

ومن جديد صمت محامى الثورة، كان الصمت قد أصبح إحدى فضائله، وما جدوى أن يتكلم المرء إذا كان لا يملك غير الكلام! لقد صرخ فى وجه عرابى مرة بعد أخرى وكتب ما يعتقد دائما أنه الحق، ولكن الحق نفسه لم يعد بالوضوح القديم، وكأنه لا يسفر عن وجهه إلا لأولئك الذين يتحدثون فقط عن الحق والباطل، لقد اعترض على أن يكون سلطان باشا رئيسا لمجلس النواب ولكن عرابى قال له «يحتاج الصياد لصحبة الكلاب»!! وفوجئ بسلطان باشا يتحدث باستنكار عن دستور شريف باشا قائلا: إنه كالطبل يحدث دويا لكنه أجوف !!

ثم فوجئ به يوافق ومجموعة كبيرة من النواب على الدستور الأجوف!!

وليس يدرى أية مفاجأة أخرى تنتظره! وكثيرا ما يشعر شعورا قاسيا بأنه يتفرج على رواية غريبة دون أن يكون له فيها دور حقيقى !! ويتذكر تلك الأيام الخالية التى كان فيها المؤلف والممثل لرواية حقيقية اسمها «الوطن»، رواية أفلتت من يده وهربت من خشبة المسرح إلى القرى والمدن وكان هو البطل هنا وهناك ونظر فى يديه فوجدهما خاليتين ففركهما فى عصبية !

* * *

وجاءت المفاجأة بأسرع مما يتوقع، جاءت هذه المرة من أوروبا نفسها، جاءت له وللحكومة، وللمجلس وللشعب كله، للمعتدلين والمتطرفين على السواء !

جاءت فى صورة مذكرة مشتركة بعثت بها إنجلترا وفرنسا فى ٨ يناير ١٨٨٢ تقولان فيها للخديوى توفيق «أن الحكومتين تعتبران أن تثبيت سموه على العرش هو الضمان الوحيد لاستتباب النظام، ولتقدم مصر ورفاهيتها، والحكومتان متفقتان على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل الأسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر،وتعتقد الحكومتان أن الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة إليها لإدارة البلاد ».

وفجأة انتهت كل المناقشات والتكهنات فى مصر كلها،ووجد المعتدلون والمتشددون أنفسهم جنبا إلى جنب، كانت مصر كلها فى خطر، خطر لم يتوقع حتى أكثر الناس تشاؤما أن يسفر عن وجهه بهذه الصورة! لم يكن فى كل ماسبق من ظروف ومقدمات ما يبرر هذه المذكرة، ولم تعد تجدى حكمة الأعيان ولا مصالحات عرابى إزاء هذا الخطر الذى يتهدد مصر كلها مصر الأغنياء ومصرالفقراء، مصر الفلاحين ومصر

الموظفين والتجار والصناع، ولم يشذ عن هذا الموقف سوى الخديو وطبعا حاشيته وصنائعه من الأتراك والجراكسة! وقبل الخديو المذكرة!

ـ وهل كان يمكن أن ترسل إلا بعلمه وتواطئه ؟

هكذا قال الناس، وقال بعضهم ومنهم شريف باشا :

ـ إذا كنا لا نقبل المذكرة، فيمكن أن نؤجل الآن البحث فى البند الخاص بالميزانية من الدستور وهو الذى أثار هذه الأزمة !!

ـ أى تنازل عن حقوقنا لن يكون سوى مقدمة لمزيد من التنازلات! هكذا أصر الأعيان...

وحين حاول شريف أن يطلب مذكرة تفسيرية تخفف من وقع المذكرة السابقة، وحين حاول قنصلا الدولتين اللذين فاجأتهما المذكرة ـ بعد أن رحبا باعتدال الأعيان ـ حين حاولا تلبية هذا الطلب جاء رد حكومتيهما «وهو رفض أن يناقش المجلس أى جزء من الميزانية حتى ولو لم يكن متعلقا بالدين العام، لما هو معروف عن المجلس من عدم الخبرة، ومن ميوله العدائية نحو العنصرالأوروبى» وكان رد المجلس أن أصر على حقه فى إقرار الميزانية كلها وكانت النتيجة أن الأرض التى تقف عليها وزارة شريف باشا ـ وهى التفاهم بين المجلس والمراقبين الأجانب وقد نسفت نسفًا فقد خير أعضاء المجلس شريف باشا بين أن يعتمد حقهم فى إقرار الميزانية وبين الاستقالة، وسقط شريف باشا بيد الأعيان، وبيدهم أيضا جاءت وزارة جديدة على رأسها محمود سامى البارودى واشترك فيها عرابى كناظر للحربية !!

وقال الناس: هذه وزارة ثورة !

وانتظروا أن تقوم القيامة !!

ولم تقم القيامة،ولم يصدق الناس عيونهم، وبدا أسلوب الثورة وكأنه وحده الشافى من جميع الأمراض !

وقال محمود واصف لنديم مداعبا :

ـ الثورة شفاء للمصابين بالأفرنجى وبالتركى على حد سواء !

وابتسم نديم فى رضا وأضاف محمود واصف مناكدا :

- وللمصابين بالاعتدال !

- الاعتدال لا يكون مرضا دائما !

- يكون مرضا حين لا يأتى فى وقته الصحيح !

- وقته الصحيح؟ ومن يعرف الوقت الصحيح دائما؟ ومن يدرى ربما لو لم تسقط وزارة «جامبتا» لاختلف رأيك فى الوقت الصحيح !

وصمت محمود واصف متدبرا، فقد كان سقوط «جامبتا» المفاجئ فى فرنسا، وهو السياسى الذى كان ينادى بالتدخل المسلح المشترك بين إنجلترا وفرنسا، ويعارض بشدة إعطاء أية فرصة لنمو حركات وطنية فى المنطقة ويرى فيها تشجيعا خطرا للمقاومة التى كانت تشتعل بالثورة فى تونس والجزائر ضد الاحتلال الفرنسى! كان سقوطه فى رأى أكثر المعلقين هو السبب المباشر فى أن الانقلاب الأخير فى مصر والذى أتى بوزارة البارودى لم يواجه بتدخل عسكرى من الدولتين!! وقال محمود واصف :

- وهل تختلف مصالح الدول باختلاف الوزارات !؟

- يختلف أسلوبها فى تحقيق هذه المصالح !

- تعنى أن احتمال التدخل العسكرى لا يزال قائما فى المدى البعيد ؟

- من يدرى؟ من كان يتوقع المذكرة المشتركة للخديوى فى الوقت الذى جاءت فيه؟ ومن كان يتوقع سقوط جامبتا؟ ومن يعرف نوايا بريطانيا بعد سقوط حليفها؟ بل من يعرف نوايا فرسييه رئيس وزراء فرنسا الجديد رغم ما أعلنه من معارضته للتدخل المسلح..؟

وسرح نديم بعينيه فى الفضاء، ناسيا سيجارة كانت تحترق فى يده! تاركا محمود واصف يفكر فى أمر نديم الذى أصبح يملك من الأسئلة أكثر مما يملك من الأجوبة! والذى لم يعد يشوقه الكلام أو لعله يبحث عن الكلام الذى يشوقه !

وفجأة أضاف محمود واصف لأسئلة نديم:

- بل من كان يتوقع موقف الأعيان ؟

وانتبه نديم وارتجفت على شفتيه ابتسامة خفيفة ولم يرد !!

وفى الواقع أن موقف الأعيان الذى أصاب محمود واصف بالدهشة، لم يكن مفاجأة كاملة لنديم، كانت مواقفهم منذ بداية الثورة موضع شكه وارتيابه، ومحل خلاف دائم مع عرابى، وحين أصبحوا هم من أبرز ملامح الثورة تضاعفت شكوكه ومخاوفه، فماذا يمكن أن يكون معنى الثورة بالنسبة لهؤلاء السادة الكبار؟

وكان ما يؤرقه أن الثورة التى حلم بها دائما كأسلوب لاختصار الوقت، ولحل المشكلات التى تواجه الشعب، قد مضى عليها قرابة خمسة شهور وهى تعانى مشاكلها، مشاكل وجودها ومعناها واستمرارها !

وأحيانا يبدو مصير الثورة كله، وكأنه رهن بقرار يتخذه شخص، بلا أو نعم، بوجود شخص أو عدم وجوده ! بتساهل أو تشدد فئة أو وزارة أو هيئة !

وجاءت لحظات اعتقد فيها الجميع أن مصير الثورة يتقرر خارج مصر لا داخلها !!

الشعب كله يؤيد الثورة، ولكن هذا التأييد لا يزال سجينا فى آلاف الرسائل والعرائض والشكاوى، أو مبددا فى الهتاف والمناقشات والضجيج !

كيف يتجسد هذا التأييد بحيث يصبح شكلا أو نظاما يدعم الثورة؟

وإذا كانت بعض الصحف الأوروبية ترى وجه الحق فى الثورة فأكثريتها لا ترى غير وجه الجيش، ولا ترى فى الجيش غير أداة تحركها الأستانة أوالطموح أوالمخاوف! ولكن قبل ذلك كله ما هى الثورة؟ وبعدما يزيد على خمسة شهور من بدء الثورة، كان ذلك السؤال لا يزال يدور فى رأسه هل هى مجرد استخدام القوة لتحطيم نظام قديم جائر وتحقيق نظام جديد عادل!؟ ومهما يكن معنى الجور والعدل؟!

وحتى لو غلبت الثورة على مشكلاتها ونجحت فى أن تستبدل نظاما آخر، فهل تنتهى المسألة بمجرد إلغاء أو إصدار مجموعة من القوانين؟ أم أنها تبدأ ؟

إن القوانين والنظم ليست فى نهاية الأمر سوى فرصة أفضل لتحقيق التقدم، ولكن التقدم الذى ينبغى أن يكون هدف كل ثورة، يصنعه الناس لا القوانين !

وقبل أن تقوم الثورة كان هو نديم قد اكتشف صيغة للتقدم، صيغة تلائم مجتمع الفقراء الذى ولد فيه وعاش من أجله ؟ صيغة نجحت فى أن تشق طريقها وسط أسوأ النظم والقوانين، ومنذ بدأت الثورة، منذ شغلته وشغلت الناس بمشكلات وجودها، وهو يشعر أنه يبتعد عن عالمه، عالم الفقراء، ودون أن ينجح فى أن يجعل الثورة تقترب من عالمهم!

ورغم كل شىء، فإن صلته لم تتقطع تماما بهذا العالم كانت ثمة رسائل ترد له تباعا، وتذكره بما لم يكن قد نسيه بعد، بالجمعيات وصناديق الاقتصاد، والمدارس والمصانع، أحقا أنه أعلن يوما تبنيه لمشروع صناديق اقتصاد لتمويل صناعات وطنية؟ وكيف نسى هذا الوعد، كانت الرسائل هى التى تذكره !

وأحيانا كان يقول لنفسه: من أنت يانديم؟ وما الذى تفعله هنا بين هؤلاء السادة؟ لم لا تعود لتعلم صبيتك فى المدارس.

وتشترك معهم فى تمثيل رواية أفضل؟؟ ولكن من يستطيع أن يتنبأ بمجرى الأحداث فى روايات الحياة؟

من كان يتصور أن يأخذ الأعيان هذا الموقف الرائع الصلب؟ ومهما تكن الظروف التى أدت لهذا الموقف، فإنه قد أصبح إحدى الحقائق التى تفرض نفسها على فكر نديم! وعلى أسلوبه فى تحقيق هذا الفكر، وتساءل نديم: لم لا تتسع الصيغة التى آمن بها كأسلوب للتقدم، لم لا تتسع للأغنياء والفقراء معا؟ لم لا يفيد من هذا الموقف الجديد؟ وبدلا من أن تكون الصيغة قرشا من هنا وقرشا من هناك: تصبح بفضل الأعيان: مائة قرش من هنا ومئات من هناك!!

أكان عرابى أبعد منه نظرا فى تقدير طبيعة المرحلة التى يمر بها الوطن؟ من يدرى؟ وآنذاك يجد الشعب بكل طوائفه دوره لا فى مجرد الهتاف للثورة بل فى صنع التقدم وحمايته!!

وبالتأكيد تحتاج هذه القضية إلى محامين لا يكتفون بمجرد المرافعة، وكان واثقا من أن هذا دوره، ولم يكن الغرور هو الذى يوحى إليه بأنه لا أحد أكثر منه يصلح لهذا الدور، بل تجربة أعوام لا تزال ساخنة فى رأسه، وجريدته التى تنطلق باسم الثورة التى أصبحت من بعض الوجوه ثورة أعيان، ولسانه وقلمه لم ينطقا يوما لغير لسان الفقراء فهل هناك من هو أجدر منه بأن يعقد زواجا سعيدا بين الطبقتين، زواجا ينجب مئات الجمعيات والمدارس والمصانع والشركات، ينجب التقدم !!

وبدت مصر كلها خلال شهور فبراير ومارس وأبريل من عام ١٨٨٢، وكأنها تحتفل بهذا الزواج!

كان المظهر الخارجى أنهم يحتفلون بالوزارة الجديدة وبالدستور الجديد !

كان الحزب الوطنى، حزب الأعيان، هو الذى يوجه الدعوة.

وكانت الجمعيات الخيرية التى سبق لنديم افتتاحها بالمحروسة والإسكندرية والأقاليم هى مقر الاحتفالات، وكان شعب مصر كله مدعوا لهذه الاحتفالات!

وفى كل ليلة كان الشعب يرى وجوها تخطب فيه حتى الصباح ومن بين هذه الوجوه، كانت ثمة وجوه ثلاثة لاتكاد تتغير فى كل احتفال، وجه الشيخ محمد عبده بعمامته وسمته الوقور وصوته الهادئ العميق، ووجه أديب إسحاق بلحيته السوداء ولهجته السورية، ووجه نديم بحيويته، وحماسته، واستجابته السريعة المباشرة لكل ما يدور حوله!!

وإذا كان كل وجه يلقى خطبته ليجلس بعدها وسط الصفوف، فقد كان وجه نديم وحده هوالذى يبقى دائما، فهو يبدأ الحفل بقصيدة أو خطبة، وهو يقدم الخطباء وهو يعلق على كل خطبة، ثم هو الذى يختتم الحفل!

وهو إذ يفعل ذاك، يدخل خيطا رفيعا بين حبات العقد الذى ينتظم الخطباء، وبقدرة لم تكن تتاح إلا لرجل له خبرته السابقة باللغة وبالجماهير عرف نديم كيف يسخر هذه الاحتفالات لتصبح احتفالاً شعبيًا موصولا بفكرته، يعقد ذلك القران السعيد بين طبقتين، فى إطار الجمعيات، وتنقل نديم بفرقته الثلاثية، بين عواصم الأقاليم، وبين النوادى والجمعيات لا عن تدبير واتفاق بلا استغلال بارع للظروف!

وكانت ثمة خلافات فكرية قديمة وكان لابد لها أن تظهر، فالشيخ محمد عبده الذى كان أعظم موثق عقود فى القرن التاسع عشر بين الأفكار، والذى نجح فى أن يعقد زواجا سعيدا فى رأسه بين العلم والدين لم يهضم فكرة الزواج السعيد بين الأغنياء والفقراء ولا بين القانون والثورة! وتساءل ذات ليلة قائلا فى إحدى هذه الحفلات: «إنه لم يعهد فى أمة من الأمم أن الخواص والأغنياء يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس فكيف حصل فى هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنة اللّه فى خلقه؟ أم بلغت الفضيلة فيكم حدا لم يبلغ إليه أحد من العالمين؟ ولم يتردد فى أن يطالب بقصر حق الانتخاب على المتعلمين فى الوقت الذى منح فيه الدستور الجديد هذا الحق لكل فئات الشعب!»

ولم يتردد نديم فى أن يستغل مثل هذه الخلافات ليوضح فكرته القديمة عن الانتخاب كحق لكل مواطن، وعن ضرورة تمثيل المجلس لكل فئات الشعب، وفى هذه

المرة يغضب، النواب لا من نديم بل من خطاب الشيخ محمد عبده، ويقترح نائبا مديرية البحيرة أن يقيما حفلا آخر لمحو آثار الغضب ولا يتردد نديم فى أن يفيد من هذا الحفل الآخر ومن غيره فى توضيح أفكاره، فيتحدث عن فكرة الحق والواجب، حتى يعطى الموضوع حقه، وعن ضرورة إنشاء جمعيات سياسية على غرار الجمعيات الخيرية لتشرح للناس الأسس الصحيحة للحرية، والتى تعتبر فكرة الحق والواجب حجر الأساس لها !.

* * *

وليلة فليلة تصبح هذه الحفلات وما يقال فيها حديث الناس فى كل مكان، أن نوعا من الزواج السعيد يوشك أن يتحقق فى إطار الجمعيات لا بين الأغنياء والفقراء فحسب بل بين المسلمين والمسيحيين، ويحضر الثالوث الشهير احتفالا بتأسيس الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك، ويتحدث أديب إسحاق عن الفرق بين معنى الخير فى ظل الارستقراطية وفى ظل الشورى، بين الأغراض التى كانت تتحرك الجمعيات فى إطارها قديما، وبين ما يراد منها فى العصر الحاضر! أوبعبارة أدق مايريده لها نديم! كان نديم قد نجح فى النهاية فى أن يعقد نوعا آخر من الزواج بين الثالوث الذى اشتهر أمره فى طول البلاد وعرضها، وأصبح يتكلم بلا قصد لغة متقاربة!!

«وتسابق الناس للالتحاق بالجمعيات، المقاصد الخيرية، والتوفيق الخيرى، والخيرية الكاثوليكية، والخيرية الإسلامية»

وكان الشيخ محمد عبده هو الذى يشرح لهم ذات ليلة كيف أن الأسماء متعددة ولكن الهدف واحد !

وكان نديم هو الذى يشرح لهم الهدف كما لم يشرحه من قبل، وكان الأعيان والتجار والموظفون والصناع والفلاحون يتسابقون لتحقيقه كما لم يتسابقوا من قبل !

وقرأ من لم يكونوا هناك، من لم يبصروا «نديم» أو يسمعوه، قرءوا فى وقت واحد، وفى كل الصحف، قرءوا بين الإنكار والدهشة تلك القوائم التى أصبحت تحتل جزءا شبه ثابت فى الصحف، جزءا يتزايد، ويتنقل من ذيل الصفحة إلى منتصفها إلى صدرها إلى البقية فى الصفحة التالية!

قوائم بعدد الأسهم وأسماء المساهمين فى جمعية الصنائع المصرية التى أسسها رجل اسمه «عبدالحميد عمر» من الإسكندرية !

وجمعية الزراعة المصرية التى أسسها رجل آخر اسمه إبراهيم أفندى نظمى بطنطا!!

وتساءل من لم يعرفوا التفاصيل: ما عمل هذه الجمعيات؟

وكانت الإجابة فى نفس الصحف، فقرات من خطب نديم وتلاميذه، وأخبار تدعو إلى الثقة بالجمعيات، فأعداد المساهمين فى الجمعية الزراعية تقفز فى آخر إحصاء لجريدة الوقائع من ٤٠٠ إلى٦٠٠، ومدرسة الصناعة التى افتتحها نديم قبل الثورة تخرج أول دفعة، وتعلن جمعية الصناعة عن تأسيس أول شركة مساهمة وناظر المعارف بنفسه يسند إلى الجمعية التى أسسها عبدالحميد عمر أن تتعهد بصنع ملابس لتلاميذ المدارس!!

* * *

وفى الإسكندرية قال حامد الأعسر لرفيق تجارته يعقوب زخارى:

ـ ما رأيك فى جمعيات نديم كوسيلة للاستثمار ؟

وحدق يعقوب زخارى فى جريدة الطائف قائلا :

ـ لست أدرى، لكن عندما تجد رجلا مثل عكوش بك يستثمر فيها بعض أمواله فإن الأمر يستحق التفكير!

ـ لهذاالسبب وحده ؟

ـ فى الحقيقة لا، بل لأنهم بدءوا يتجهون لبعض الصناعات الوطنية ذات الربح المضمون مثل الحفر على النحاس والخشب حيث لا يستطيع الأجانب منافستهم !

ـ أصبحت لا تفكر فى غير الأرباح ! عليك اللعنة يا يعقوب !

* * *

وفى الإسكندرية أيضًا، ولدت الفكرة الجبارة التى كانت يوما مجرد حلم فى رءوس بعض المفكرين مثل أمين شميل كان نديم قد التقطها، ودفع أنبغ تلاميذه مصطفى ماهر ليطرحها فى أحد الاحتفالات، وتلقفها منه ليشرحها فى هدوء ليلة بعد ليلة، كانت مثل حجر الأساس لذلك الصرح الذى بدأ يرتفع حجرا هنا وجدارا هناك، وتحمست مجموعة من تجار الإسكندرية لتحقيق الفكرة الجبارة، وخرجت أغلب الصحف وعلى

رأسها الطائف لتحتفل بتحقيق الحلم الكبير، بإنشاء أول بنك وطنى أهلى، وتفيض فى شرح معنى البنك للتاجر الصغير، والفلاح الصغير، والصانع الصغير! وتدعو جميع الفئات لأن تساهم فيه !

ولم يكن الناس فى حاجة إلى أن يفهموا، فقبل أن يعرفوا الخوف من التدخل المسلح، رأوا بعيونهم كيف انتزعت البنوك الأجنبية عن طريق القروض والرهون أرضهم وخنقت تجارتهم، ودمرت حتى الصناعات الوطنية القديمة!!

ولم يكن لاندفاع جميع الطبقات للمساهمة فى البنك سوى معنى واحد، هو أن عقد القران السعيد بين الأغنياء والفقراء يوشك أن يتم !

وراح نديم الذى كان زامر الحفل ومطربه يستعجل الزفاف، ويجمع «النقوط» من هنا وهناك!

وحين انتهى الحزب الوطنى من احتفالاته، واصلها الشعب وكان بمقدور نديم أن يجد مكانا صالحًا حتى فى الأعراس، وحين ينتهى محمد عثمان أشهر مطربى ذلك العصر من وصلته الغنائية يخطب نديم، ويخطب فى دار الأوبرا بين الفصول!! وفى المساجد بعد الصلوات، ولو رأيت «نديم» آنذاك لتذكرت على الفور ذلك الفتى المرح القديم الذى كانت الفكاهة صناعته، أن محامى الشعب يتحول مرة أخرى إلى مسامر الشعب، لقد وجدأخيرا الكلام الذى يروق له! وخرجت الصحف تصف: «خطابات نديم محرر الطائف بأنها ألذ من القطائف».

ووجد الشعب طريقه وطريقته، فالأعيان أعضاء المجلس يتبنون فكرة إنشاء مدرسة ابتدائية، كل فى قرى دائرته عن طريق التعاون!

وضباط الجيش يقتطعون ٥٪ من مرتباتهم لتأسيس صندوق ادخار تستخدم حصيلته للشروع فى استهلاك الدين المصرى !

وصيغة الجمعيات تواصل نموها فى جميع الجبهات فتتألف جمعية جديدة تحت رعاية نديم اسمها «جمعية الأحرار السودانيين» مهمتها رعاية الأرقاء من السودانيين الذين أعتقوا ولا يجدون عملا لتوفر لهم فرص العمل والكرامة !

وفى الإسكندرية تتألف جمعية جديدة لفتح «دكاكين» تقوم بتوصيل الطلبات للمنازل: وتحاسب عملاءها فى آخر كل شهر.

كان المشهد مثيرا ورائعا فى طول البلاد وعرضها، مشهد شعب وجد فى التعاون صيغة مرنة ورائعة يعبئ خلالها قواه، ويستخلص بها حريته من الأخطبوط الأجنبى الذى يتشعب فى داخله كالسرطان! ولتصبح مصر حقيقة للمصريين!

وكان نديم حريصا فى نفس الوقت الذى يقود فيه جيشه الشعبى ضد ذلك الاخطبوط أن يكشف مواقعه فى جسد الأمة فكتب تحت عنوان «الغريب فى وطنه» :

«تخيل نفسك عائدا إلى وطنك بعد غيبة سبع سنوات، و حين تصل إلى الإسكندرية سوف تجد قائد الميناء بحارا إنجليزيا، فإذا ما وصلت حقائبك إلى الجمرك فستجد مديره إنجليزيا، فإذا أردت أن تسافر إلى القاهرة بالسكة الحديد فسوف تجد هذا المرفق يدار بواسطة موظفين إنجليز وهنود وفرنسيين، فإذا شئت أن ترسل تلغرافا إلى أهلك تنبئهم بوصولك فستجد المشرف على التلغرافات موظفا إنجليزيا أيضا، وإذا شئت أن ترسل لأصدقائك خطابات تخبرهم بقدومك فستجد مصلحة البريد مرءوسة بموظف سابق فى البريد الإنجليزى، أما إذا رغبت فى أن تذهب إلى الصعيد فعليك أن تركب البواخر التى احتكرتها شركة إنجليزية، فإذا ما ذهبت إلى الريف فسوف تجدكثيرا من الأهل والأصدقاء قد ضاعت أموالهم وأرضهم وذهبت إلى أيدى المرابين الإنجليز والإيطاليين واليونان، فاذا سألت لماذا بقى المواطنون على جهلهم أجابك واقع الحال، أن الدين العام قد أتى على ميزانية الدولة فلم يبق منها شىء لبناء المدارس أو لشق الترع، وأستطيع أن أستمر فى ضرب الأمثلة، ولكنى أعطيتك من الأسباب ما يكفيك أيها المصرى لتعرف أنك أجنبى فى بلدك، فإذا كانت حقا تحب وطنك فيجب أن تؤيد الحركة الوطنية التى قامت لتحصل لك على حقوقك كإنسان، ومن ثم تحس أن وطنك ملك لك أنت!!»

كان ذلك هو نديم، فى أوج قوته ومجده، وكما كان دائما فى كل مرة التصق فيها بالمنبع الحقيقى للقوة والمجد، بالشعب! ولم يكن الشعب فى خبرة نديم أسطورة ذهبية أو حلما ورديا، كان الناس هم الناس، وكانت ثمة ـ بالطبع ـ خلافات أحيانا، وخصومات أحيانا، وأحقاد دائما، ولكن ذلك كله كان جزءا من النصر ومن المجد، وأيضا من الحب العميق الذى يعمر قلبه للناس ! مثل ذرات الغبار فى الماء والهواء !

كان نديم يقترب من نهاية العقد الرابع ومن قمة النضوج ! ولم يعد يبالى أو حتى يصاب بالدهشة لمثل هذه الأمور !!

وحين كان يرى إلى مقالاته منشورة فى جريدة «التيمس» البريطانية ومواقفه وخطبه وهى موضع تعليق واهتمام الصحف الأجنبية التى أطلقت عليه اسم الرجل الثانى بعد عرابى !!

وحين يجد جريدته التى كانت تنطق باسم الثورة أصبحت أيضا ومن الناحية الرسمية تنطق باسم مجلس النواب الذى أصبح الوجه الشعبى للثورة !

وحين يجد النواب يجمعون لها التبرعات، ويطلبون من جميع الإدارات الحكومية أن تشترك فيها ليكون الموظفون على علم بوجهة النظر الثورية فى الأحداث والمشكلات !

حين يرى الاحتفالات تقام على شرفه، وحين يرى تلاميذه وأنصاره يقدمون له فى غمرة الزهو والسرور ساعة من الذهب الخالص فى إحدى هذه الاحتفالات، حينذاك كان جديرا به أن ينتهز أول فرصة يخلو فيها إلى نفسه وإلى تلك الساعة الذهبية التى تحاول أن تمسك بالزمن بين ذراعيها الدقيقتين !

متأملاً فيما جرى وفيما يجرى، متذكرا لتلك الرحلة الغريبة التى قطعها، وذلك الصبى الجوابة الذى كان ذات يوم ! متوقفا هنا وهناك،محدقا فى الوجوه والأماكن والذكريات، متسائلا عن كنه ذلك التغيير الذى يحدث له وللناس؟ وعن مداه !

مدركا فى قسوة أن أشياء كثيرة لا تزال على حالها، فى قلب الريف، وفى قلب المدينة، وأن ما حدث ليس سوى مجرد خدش فى قشرة الواقع الصلبة !

خائفا مشفقا حذرا، فخارج دائرة العرس الذى كان ضوؤه يبهر عينيه، لا يزال العالم القديم المرعب يحدق بكل شىء كالظلمات، ولكنه كان سعيدا رغم كل شىء، لأنه يحس أن الشىء الذى أفلت من يديه بعض الوقت قد عاد واستقر فيهما من جديد!!..

عواصف فى الربيع

نحن الآن فى أول يونيو من نفس العام ١٨٨٢ وفى القطار المسافر إلى الإسكندرية كان يجلس نديم، ولو تأملته قليلا فى تلك الليلة لما صدقت أننا فى نفس العام، وأنه فى أقل من شهرين يمكن أن يتقدم شخص فى العمر بمثل هذه الخطى السريعة!

وكان الجو ربيعا، وحقول الدلتا تتنفس فى هدوء والنسيم يحمل أنفاسها العبقة إلى كل ما يلامسه، ووجه نديم يتطلع فى وجوم إلى قرى الدلتا وهى ترقد فى قلب الظلمات، وكأن الربيع لا يجىء منها ولا يصل إليه!

كان فى طريقه إلى مسقط رأسه، ولم تكن أول مرة يعود فيها إلى الإسكندرية بعد الثورة، ولكنها أول مرة يعود إليها، وهو يعلم أن مدافع الأساطيل الإنجليزية والفرنسية تتوجه فوهاتها إلى مدينته!

لقد حدث كل شىء على نحو مفاجئ ومريب، وحتى الآن لا تزال الأمور تتطور بنفس الأسلوب! ومثل جو الربيع الترابى العاصف المتقلب فى مصر كان جو السياسة فى شهرى إبريل ومايو من نفس العام وقبل أن ينقضى عرس الشتاء القصير، فوجئ الناس بأخبار مؤامرة كانت تستهدف التخلص من زعماء الثورة بالاغتيال، وانتظروا نتائج التحقيق فى المؤامرة ولكنهم لم يفاجأوا حين يكشف التحقيق عن دور الخديوى إسماعيل فى تمويل المؤامرة من منفاه، وعن دور عدد من الضباط الشراكسة والأتراك فى تنفيذها.

وحين قرءوا اسم عثمان رفقى وزير الحربية الذى أطاحت به الثورة الأولى للجيش فى أول القائمة التى شملتها أحكام النفى إلى السودان، والتجريد من الرتب والامتيازات تهامسوا فى غيظ:

ـ طبعا، وماذا كنتم تنتظرون من هؤلاء!

وتأكد لدى البعض ما كان موضع شك أحيانا من أمر الخديوى وطبقته، واستمر الهمس!

ـ كان من المستحيل أن ينتهى بهم الأمر إلى قبول الثورة.

ـ هذه فرصة العمر لتتخلص الثورة من أعدائها.

ـ كانوا يستحقون الموت لا مجرد النفى.

ـ لم ينفذوا جريمتهم!

ـ لو تمكنوا منها ما تمكن منهم أحد!

ـ ومتى تتطهر البلاد منهم؟

ـ بعد أن يصدق الخديوى على الحكم!

وانتظر الناس تصديق الخديوى، وطال انتظارهم وعاد الهمس مريبا وكئيبا هذه المرة!

ـ الخديوى يرفض التصديق على الحكم، ويطلب تخفيفه بمجرد النفى إلى أى مكان مع بقاء رتبهم وامتيازاتهم.

ـ ليس من حق الخديوى رفض التصديق بنص الدستور.

ـ ومتى كان الخديوى يحترم الدستور؟

ـ المفروض أنه تعلم درسا من ثورة الجيش!

ـ وهل تظنونه يقف ليتفرج على الثورة وهى تقتلع جذوره!

ـ طبعًا، وهل كانوا يعملون إلا لحسابه وفى حمايته! وهل كانوا يجرءون وحدهم؟

ـ لكن كيف يجرؤ هو الآن على تحدى الثورة؟ وحماية أعدائها؟

واستفاض الهمس بأنه لم يتخذ هذا الموقف إلا بناء على مشورة قنصلى إنجلترا وفرنسا وتأييدهما، ولم يعد أمر اتصاله بهما سرا، وتتابعت الأسئلة والأجوبة عن مغزى هذا التأييد ونتائجه، تتابعت فى البيوت والمقاهى والشوارع بنبرة أكثر ارتفاعًا!

ـ طبعا يريد القنصلان إحداث أزمة جديدة تسمح لهما بفرصة أخرى للتدخل!!

ـ لم لا تفوت الوزارة غرضهما بقبول التخفيف؟

ـ المسألة مسألة مبدأ، ولو سمحت الحكومة للخديوى مرة..!

ـ لن تنتهى المؤامرات والخديوى على العرش.

ثم إن الحكومة حاولت أن تفوت غرض الخديوى بقبولها تخفيف الحكم ولكنه فوت غرضها بعرض الأمر كله على السلطان فى تركيا!

وثارت ثائرة «البارودى»، فإذا كان الدستور لا يسمح للخديوى بالتدخل فى حكم المحكمة فكيف يسمح للسلطان؟ وفى لحظة غضب صرح «البارودى» أمام القنصل البريطانى «ماليت» الذى كان صاحب المشورة على الخديوى بعرض الأمر على السلطان «بأنه إذا أرسل الباب العالى أمرًا ينقض حكم المجلس العسكرى فإننا لن نطيع هذا الأمر».

والتقط «ماليت» تصريح البارودى ليهمس طبعا فى أذن الخديوى: إذا كان هذا موقفهم من السلطان فماذا سيكون موقفهم منك؟ قالها باللهجة التى تفى بالغرض!

واستحكمت الأزمة بين الخديوى والوزارة، ولم تجد الوزارة بدا من دعوة مجلس النواب للانعقاد ليبحث الخلاف بين الخديوى والوزارة، ولم يكن توجيه مثل هذه الدعوة من حق الوزارة بل هو من حق الخديوى بحكم الدستور!

وكان ماذا تفعل الوزارة حين تعجز عن التفاهم مع الخديوى نفسه!

وتطلعت عيون الناس إلى الأعيان أعضاء المجلس وهم ينسلون من قراهم تاركين حقولهم وأعمالهم ليبحثوا واحدة من أخطر الأزمات التى تواجه الأمة!

وبين آلاف العيون، كانت عينا نديم ترقبان نفس المشهد المثير، لقد انفض فجأة عرس الوطن، وها هو مرة أخرى يعود مجرد شاهد مشدود الأعصاب يرقب هؤلاء الذين كانوا لسنين طويلة موضع شكه وارتيابه، وأصبحوا لشهور مناط أمله وعمله، يرقبهم وهم يتكلمون باسم مصر فى أخطر أزماتها!

ترى هل يتكرر من جديد ذلك الموقف الرائع الصلب الذى يترك الخديوى مجرد ورقة لا تنتسب إلى جذوع أو فروع.. ورقة تنتظر أقل هزة لتسقط!؟

مثل هذا الموقف جدير بأن يكشف الخديوى، ويكشف من يتخذون من وجهه قناعا لوجوههم، وآنذاك تسقط كل الأقنعة! واختص أحمد سمير الذى انتقل إلى القاهرة منذ شهور ليشارك «نديم» فى تحرير الطائف! اختصر تساؤلات نديم بسؤال بدأ يتردد على ألسنه الجماهير:

- هل تنطوى دعوة المجلس على التفكير فى خلع الخديوى؟ وفى ضجر أجاب نديم:

- سنرى حين ينعقد المجلس.

- أسأل عن رأيك أنت؟.. واندفع نديم هذه المرة:

- ستعرف رأيى، سيعرفه الجميع، أكتب الآن ما تمنيت طول حياتى أن أكتبه، لقد حان الوقت يا صديقى!

- ماذا تعنى؟..

والتمعت عينا نديم ببريق مخيف:

- يا صديقى، ستقرأ كل ما أكتب، أنت دائما أول من يقرأ،

* * *

فى بدواى كان الشيخ «أحمد أبو سعدة» قد سافر منذ أيام لحضور اجتماعات المجلس، وفى مقر الجمعية الخيرية الذى كان جزءًا من دار «الشيخ قاسم»، كان يلتقى أهل القرية ليتابعوا أخبار المجلس، ويتابعوا فى نفس الوقت سلسلة المقالات الجريئة التى يكتبها «نديم» فى الطائف، والتى يهاجم فيها أسرة محمد على كلها!!

وكان الشيخ قاسم الذى طالما أضحكهم وهو يقرأ لهم «التنكيت والتبكيت» هو الذى يقرأ لهم هذه المرة وبنبرة جادة وحاسمة تلك الفقرات التى تشرح لهم ما لم يكونوا يجهلونه عن الطرق القذرة التى كان يلجأ إليها الخديوى إسماعيل لسلب الأرض من ملاكها مقابل إسقاط ضرائب ظالمة، تفوق فى زعمه ثمن الأرض، وحين قرأ: هكذا كان يفعل الخديوى إسماعيل فى جميع الجهات التى جدد فيها ملكا فى الأراضى الزراعيه له ولآل بيته فعل ذلك فى أراضى الشباسات، وقونه، والبكدوش وسخا وقلين وما والاها



وقس على ذلك أراضى الصافية وكفر البطيخ وكفر الحمام: وهيهيا، وأبو كبير والقرشية ومشتهر، وبردين، وغيرها من الأراضى كأراضى الوجه القبلى التى اغتصبها من ملاكها ثم أعدمهم فى زراعتها بلا أجرة».

حينذاك لم يفكروا فى أن «نديم» يخبرهم بما يجهلونه، بل فكروا فى بساطة أن وراء هذا كله شيئا أكبر وأخطر من مجرد إخبارهم به وبنفس البساطة سأل «برعى» وهو فلاح يتاجر فى روث الحمام ويطوف بالبلاد التى تردد اسمها فى مقال نديم:

- إذا كانوا سيخلعون الخديوى حقا فهل سيوزعون أرضه على الفلاحين؟

وأكد فلاح آخر اسمه «محجوب» يشاركه فى تجارته وفى زراعته أنه سمع بأذنه هذه - وأمسك بها ليؤكد كلامه - من أهل الشرقية أن أحد الضباط خطب فيهم قائلا: إنهم يستحقون الأرض التى يزرعونها أكثر من مالكيها!!

وأخرس الشيخ قاسم الأصوات المقاطعة بنظرة تأنيب من عينه الوحيدة، وحين ساد الصمت عاد يقرأ:

«ولم يعمل هذا العمل القبيح بنفسه، ولكن كان معه قومه اللائذون به، المزينون له سوء عمله، وهم كثيرون من سفلة الأغوات، وقليل من أدنياء الوطنيين وجهلتهم، فكانوا يتصرفون فى الأمة مثل تصرفه، ومن صار منهم مديرا أو مأمورا أو مفتشا أو كاتبا أو حاسبا، أو متوظفًا بأية وظيفة دانية أو عالية اتجه لسلب ما فى ملكهم الشرعى».

ويمضى الشيخ قاسم فى القراءة على حين تومض عيون الفلاحين فى بدواى بريق لاهث فبالنسبة لهم، كانت الثورة لاتزال أملا غامضا مثيرا، لقد أصبح الشيخ «أحمد أبو سعدة» الذى كانوا يعانون منه قبل الثورة أصبح بعدها عضوا فى مجلس النواب، أكثر نفوذا وسلطة، وأعظم بطشا وتجبرا، لقد فتح كتابا صغيرا لتعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم، وأصلح دورة المياه فى المسجد، وتبرع بعشرة جنيهات للجمعية الخيرية، وأخبرهم أنه لم يعد من حق المدير أو المأمور أن يسوقهم للعمل سخرة فى تطهير الترع والمصارف، ولكنه هو كان يستعين بهم أحيانا فى خدمة أرضه الواسعة بلا مقابل، وكانت تلك أول مرة يسمعون فيها الكلام الذى تاقوا سنين طويلة لسماعه، وحين سمعوا بعد أيام أخرى من غيبة الشيخ «أحمد أبو سعدة» أن مجلس النواب لم يجتمع بصفة رسمية، وأن بعض الأعضاء وعلى رأسهم سلطان باشا

الذى اجتمع الأعضاء فى بيته ينادون بضرورة التفاهم مع الخديوى والتصالح معه، لم يطمئنوا، ولم يشعروا أن الأمور تسير فى طريقها الصحيح! كانت الطائف لا تزال تصدر، ونديم لا يزال ينشر مقالاته تحت عناوين مثيرة السخرة واستخدام الأبدان بلا شكر ولا أجرة»، وصورة الخديوى تهتز فى رءوسهم وهم يستمعون إلى الشيخ قاسم، وهو يواصل القراءة بعينه الوحيدة التى لا تتعب من القراءة، ولا من مراقبة المستمعين!

«إن حكومة إسماعيل باشا على سعتها، وتباعد أطرافها كانت كليمان أعد للمذنبين، ومحبس جزاء هيئ لأرباب الجرائم والخاطئين، لو أن سائحا جويا صعد فى درجات الهواء إلى حد يرى ويسمع من تحته من أهالى الديار المصرية، لرأى إذ ذاك أمة تتقلب على جمر العذاب، وتتحرك تحرك الذر على غير نظام، وتسمع ضجة عامة، وصيحة صاخبة تزعج السامع، وتستفز الهاجع، وتفتت قلب من أودع ذرة من الإحساس الإنسانى».

ويتحسس كل منهم كتف جاره، أو أقرب جسم صلب إليه وأدركوا بغتة وفى صمت، وبغريزتهم وحدها أن أياما صعبة قادمة!

كانت أيديهم لا تزال تتحسس الأجسام الصلبة، وكأنها تنتظر من يقول لها: ماذا ينبغى أن تفعل بها؟

* * *

فى الإسكندرية حيث توجد أكبر عصابة من أنصار نديم وسط عصابات الأجانب، كان للمسألة وجه آخر فلم يعد سرًا أن سلطان باشا وحفنة قليلة من النواب هم الذين حالوا دون أن يتخذ المجلس موقفًا موحدًا لتأييد الوزارة ضد الخديوى!

لقد أمسكوا بمنتصف العصا، وتحدثوا عن عدم شرعية اجتماعهم من ناحية، وعن جدوى التفاهم والمصالحة من ناحية أخرى وألمحوا إلى الأخطار والمخاوف، ووجدوا فيما تنقله البرقيات الصحفية من أوروبا مادة صالحة لتأكيد مخاوفهم!

وعرضوا على الخديوى ـ كحل وسط ـ أن تستقيل الوزارة مع بقاء عرابى فى وزارة الحربية، ولكن أحدا ممن يرضى عنهم الخديوى لم يجرؤ على أن يقبل تأليف وزارة جديدة، فقد كانوا على مثل اليقين من أن موجة السخط العارمة التى تتحرك ضد الخديوى داخل الجيش والشعب سوف تجرف أية وزارة تستند إلى تأييد الخديوى

وحده، ومن الخارج كانت تتدفق موجات أخرى منذرة. تتدفق فى أنهار الصحف، وعلى أسلاك البرق، وما كان أيسر تصوير المجلس المنقسم بصورة المؤيد للخديوى من ناحية والخائف من سيطرة الجيس من ناحية أخرى!

وما كان أيسر التفجع على المصالح الأوروبية التى تهددها حالة الفوضى الخطيرة فى مصر، ألم تنتهك الوزارة حرمة الدستور بدعوة المجلس للانعقاد بدون أمر الخديو؟

وفى هذا الجو المشحون بموجات الخطر والخوف، كان سلطان باشا وحفنته هم الذين يجدون بعض الأمان فلو صدق الأجانب فى تهديداتهم هذه المرة، وبقى الخديو نتيجة تأييدهم له فلن يجد حليفا أخلص منهم!

ولو نجح الشعب والجيش فى التخلص من الخديوى، فسوف يجدون ألف حجة لتبرير موقفهم المنادى بضرورة التعقل والمصالحة!

وفى هذا الجو المشحون أيضا، نجح سلطان باشا أخيرا فى أن يعقد صلحا مريبا بين الخديو والحكومة، وكان واضحا أنه لابد من هذا الصلح حيث انتهت الجولة الأولى بما يشبه التعادل بين الفريقين، فقد كان عجز الخديو عن تأليف وزارة جديدة لا يعادله إلا عجز الوزارة عن توحيد صفوف المجلس وراءها ضد الخديو. ولأن الوزارة لم تشأ أن تعتمد على الجيش فى التخلص من الخديو حتى لا تقدم دليلا لأوروبا على ما تولول به من سيطرة العسكريين على الحكم!

ولم يصدق أحد أن اللعبة قد انتهت، لقد بقيت وزارة البارودى وقبلت تخفيف الحكم، وعطلت لمدة شهر جريدة «الطائف» ترضية للخديو، ولكن الكلمات التى قيلت إبان الأزمة، وفى لحظات الغضب عن ضرورة خلع الخديو، فى اجتماعات الضباط والنواب والحكومة ما كان لها أن تنسى، والمقالات التى كتبت ضد أسرة الخديو كلها، كانت لا تزال تقرأ، وتعاد قراءتها!

والسفن الأجنبية التى جاءت أنباء بأنها أقلعت من موانيها ما كان لها أن تواجه بمجرد الانتظار!

وفى هذا الجو، وبالإسكندرية التقى محمود واصف الذى كان من أكبر زعماء عصابة نديم بسليم نقاش صاحب جريدة المحروسة!

وقبيل شهر تقريبا كانت جريدة المحروسة قد تعرضت لهجوم من نديم في جريدة الطائف، لأن أحد محرريها كتب يعرض بجدوى نضال الثوار في تونس ضد الاحتلال الفرنسي حيث لا تناسب في القوى بين تونس وفرنسا، وحيث لم تحقق إيطاليا وعودها بمساعدة تونس، وتدخل سليم نقاش في هذه المعركة، مذكرا «نديم» بصداقتهما القديمة، مؤكدا أن المحروسة لم تقصد سوى الحرص على الدم التونسي في معركة لا تكافؤ فيها!

أما بالنسبة للأزمة الراهنة، فقد كان الأمر في غاية الوضوح، وأوضحه سليم نقاش أكثر بطريقته حين قال لمحمود واصف:

ـ ليس نديم سوى مجنون، وأنت أكثر منه جنونا!

ثم تابع بلهجة يائسة:

ـ أنتم تلقون ببلادكم إلى نفس الأتون الذي تحترق فيه تونس، أنتم لا تدرون ما تفعلون!

وابتسم محمود واصف وقال بهدوء:

ـ تقول بلادكم، الآن أصبحت بلادنا!

ـ وبلادنا أيضا، وإن كان المرء لا يستطيع أن يتلفظ بكلمة واحدة عاقلة حتى يوصم بالخيانة!

وتعمد محمود واصف أن يغير مجرى الحديث فقال:

ـ وما رأيك في تهديدات لورد جرانفيل بمجلس اللوردات؟

ـ حقيقة أيها الأحمق، الأجانب طامعون في بلادكم وليسوا يريدون سوى فرصة، وها أنتم تقدمونها!

ـ وخضوعنا للخديوي، الذي أصبح أداة في يدهم هو الذي يحرمهم من هذه الفرصة!؟

ـ أيها الأحمق هل ستحاربون الإنجليز؟

ـ طبعًا، إذا جاءوا لحربنا!

* * *

وبالنسبة لنديم، كانت الأمور تتكشف لأول مرة وفى وضوح مخيف!

فلقد كان يهدف من المبادرة بالهجوم على أسرة الخديوى كلها إلى كسر تلك القشرة التى ظلت ومنذ بدء الثورة تغطى العلاقة بين الخديوى وبين الثورة، وليندفع الرأى العام من خلال تلك القشرة ليصبح قوة دافعة ومحرجة للمترددين من الأعيان وليقطع الطريق على الضعف والخيانة، ولم تنجح سوى نصف المحاولة، وبقى نصفها الآخر. ليوقظ الجراح القديمة والدفينة والتى التأمت فى عرس الشتاء القصير!

وبمرارة قال لعرابى ذات ليلة: طالما حذرتك منه!! اللعين القذر!

وكان حديثهما عن السلطان الباشا وحفنته.

ولكنه هو نديم وجد أيضا من يقول له:

ـ أن مقالاتك يا نديم كانت سلاحا ذا حدين. لقد كان جديرًا بها أن تخيف الأعيان من مستقبل الثورة فى حين أردت أنت أن تخيفهم بها من مستقبل الخديو!

ووجد من يقول له أيضا :

ـ لست أشك لحظة فى أن سلطان باشا ومن معه لم يتخذوا هذا الموقف إلا بعد أن تأكد لهم أن الخديوى سوف يلقى تأييد الدولتين بكل الطرق!

وأصبح نديم على مثل اليقين من هذا الرأى الأخير، حين تلقى البرقية ـ التى تلقى مثلها زعماء الثورة كلهم ـ من صديقهم الإنجليزى «الفريد بلنت» إبان الأزمة، والتى يتوسل فيها إلى المجلس والحكومة، أن يتحدوا لأن إنجلترا تنتوى حقا أن تحتل بلادهم، وأن لورد جرانفيل يرجف فى مجلس اللوردات بأن مجلس النواب المصرى مع الخديوى وضد الحكومة!!

وإذا كانت تلك البرقية ضمن العوامل التى دفعت الوزارة إلى قبول الصلح مع الخديوي، فإنها ذكرتهم جميعا بنصيحة أخرى كان «بلنت» لا يفتأ يرددها لهم، وهى أنه لا شيء يمنع الإنجليز أو غيرهم من التدخل العسكرى مثل تأكدهم من أنهم سيواجهون شعبا ثائرًا ومستعدًا للدفاع عن كل شبر فى أرضه !!

ولكن مسألة التدخل المسلح هذه المرة لم تبق طويلا مجرد قضية تحتمل الجدل، فبعد أيام قليلة من الصلح مع الخديوى بعد أيام تتابعت خلالها التصريحات المتناقضة والمريبة لسياسة إنجلترا وفرنسا حول أسلوب التدخل ومداه وأهدافه، بعد أيام لم يختلف الناس كثيرا خلالها حول مغزى هذه التصريحات ودلالتها!

بعد هذه الأيام تتابع وصول قطع من الأسطول البريطانى والفرنسى إلى ميناء الإسكندرية وسط مظاهرة أخرى من التصريحات التى تتحدث عن ضرورة حماية أرواح الأجانب ومصالحهم، وعن ضرورة إحلال النظام فى مصر محل الفوضى، وأخيرا عن دعوة تركيا لأن تشترك مع الدولتين فى إقرار هذا النظام بوصفها الدولة صاحبة السيادة، وفى البحث عن الصيغة الملائمة لذلك.

* * *

وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢، وفى حماية الأسطولين الرابضين بميناء الإسكندرية تمخضت حمى التصريحات المريبة عن مذكرة مشتركة جديدة تقدمت بها إنجلترا وفرنسا إلى الخديوى تطلبان فيها صراحة إقالة وزارة «البارودى»، ومغادرة «عرابى» لمصر، وتحديد إقامة زميليه «على فهمى»، و«عبد العال حلمى» فى الأرياف!!

ولم يدهش أحد حين أعلن الخديوى قبوله للمذكرة المشتركة ودهش فقط أولئك الذين كانوا لا يزالون يحسنون الظن بنوايا سلطان باشا وحفنته، وما يزعمونه من جدوى الحكمة والمصالحة حين أعلن قنصلا إنجلترا وفرنسا إنهما تقدما بهذه المذكرة بعد التشاور مع رئيس مجلس النواب المصرى، وبناء على نصيحته! لقد انتهت فجأة كل المعميات، وحين قدمت وزارة البارودى استقالتها كاحتجاج على قبول الخديوى المذكرة المشتركة، انتهت قضية الوطن إلى أن تصبح مسئولية الشعب كله!

لقد أصاب الشلل مجلس النواب بانحياز رئيسية للخديوى ورفضه عقد المجلس، ولم تثمر الجلسات التى عقدت بصورة غير رسمية فى منزل سلطان باشا سوى تأكيد حالة الانقسام بين النواب، ولم تصلح إلا لكى تسجل لحظة النهاية لجماعة الأعيان التى قدر لها أن تقود الحركة الوطنية بعض الوقت، لتصبح فيما بعد أخطر ثغرة فيها، ولم تعد مهمة الشعب البحث عن النوايا الغامضة، أو فهم الحقائق، بل مجابهتها لكن، كيف؟ كان هذا هو السؤال الذى توهم «نديم» بعض الوقت، أنه مطلوب منه قبل أى إنسان آخر أن يجد له جوابا وبسرعة!!

ألم يكن دائما محامى الشعب؟ والآن وقد أصبحت مصر شعبا بلا حكومة، وبلا مجلس نيابى قادر على الفعل أو القول؟ وغدا هو صحفيًا بلا صحيفة وبلا قراء! ماذا ينتظر؟ وفى لحظة أصبح السؤال ماذا يفعل؟ وقبل أن يجد لسؤاله إجابة واضحة أو محددة، كان الشعب ـ الذى ظنه فى انتظار إجابته ـ يقدم الجواب!

كلمة من هنا وحرف من هناك، وصرخة مجهولة المصدر ودمدمات، ومظاهرات، ووفود من كل البلاد، وعرائض لا يزعم هذه المرة أنها كلها من صنعه، واجتماعات، وهو نديم» وسط هذا كله، يتكلم، ويصرخ، ويسمع، ويشرح، ويفهم، ولا يفهم، ولا يكاد يصدق كل ما يراه ويسمعه، وفى خلال ثلاثة أيام لا أكثر، كان هو نديم فى حاجة إلى أعوام لكى يستوعب كل ما حدث، لكى يصدق أن كل ما رآه وسمعه وعاناه فى حياته كلها لا يكاد يصلح إلا أن يكون هامشا يفسر ما حدث، ويجعل منه شيئًا قابلا للفهم، وتصلح روايته للتاريخ!

ولقد كان فيما بعد، يعود لهذه الأيام الثلاثة ليستخلص فكرة أو عبرة، ليشرح لنفسه أو للناس بعض الكلمات الغامضة رغم شهرتها كالشعب والحب، والفوضى، والقوة، والنظام، والحق ليبحث عن أمل أو عزاء!

ولكنه فور هذه الأيام الثلاثة، لم يكن لديه أى وقت ليفعل شيئًا من هذا كله، أو حتى ليفهم شيئًا كبيرا من هذا كله!!

لقد فوجئ نديم وروع، وربما فوجئ الشعب نفسه بما انتهت إليه حركته، تلك الحركة التى قد تكون غضبا، أو قلقا أو حبا، أو خوفا، أو حيرة أو أى شىء إلا أن تكون تدبيرا أو نظاما!!

فوجئ الشعب بهذه الحركة تعيد عرابى إلى السلطة، بعد أن فشل الخديوى فى أن يؤلف تحت رئاسته هو أية وزارة!

وبعد أن فشلت مدافع الأسطول فى أن تخيف أحدا، وبعد أن فشل مجلس الأعيان فى أن يكون قوة أو معنى أو رمزًا لأى شىء!!

فوجئ الشعب بقناصل الدول الأجنبية ـ بالطبع عدا قنصلى إنجلترا وفرنسا ـ يطلبون إلى عرابى بل ويرجونه أن يتعهد لهم بضمان الأمن والنظام، والمحافظة على

أرواح وممتلكات الرعايا الأجانب، فليس هناك غيره يمكن أن يثقوا بقدرته على ذلك فى مصر كلها!

فوجئ بسلطان باشا نفسه الذى كان ينصح منذ أيام بمغادرة عرابى للبلاد، فوجىء به وبالنواب المنقسمين وقبلهم قناصل الدول يرجون الخديوى بأن يعيد عرابى إلى السلطة!! لأن الأمر خطير حقا!!

ويعود عرابى ليتولى وزارة الحربية وليصبح فى نفس الوقت المسئول الوحيد عن النظام فى القطر كله!! أو ربما الحاكم الوحيد فيه

أكان ذلك بداية أم نهاية، أكان نصرا كاملا لعرابى أم كان مجرد جولة؟

لم يكن أحد يملك إجابة قاطعة لمثل هذا السؤال! وإذا كانت مدافع الأسطول لم تنطق بعد، فما من أحد يقطع بأنها ستبقى صامتة وإلى الأبد!

كانت المفاجأة التى نجمت عن حركة الشعب لا تزال تدير رءوس الجميع، المنتصر والمنهزم على السواء، الذين كانوا فى طريقهم إلى المنفى، والذين أصبحوا فى طريقهم إليه!

هلى يسقط الخديوى وتسقط معه طبقة الأتراك والشراكسة؟

وهل تتخلى إنجلترا وفرنسا عن تأييدهما له، وبالتالى عما لها من نفوذ ومصالح وأطماع فى البلاد؟

وبعد كل ما حدث خلال هذه الأيام الثلاثة الحاسمة، بعد القرارات والمؤتمرات والفتاوى بضرورة خلع الخديوى إذا بقى مصرا على قبول المذكرة المشتركة!

بعد التلويح بلغة القوة من الجيش والشعب على السواء، هل يبقى الخديوى دون اعتماد على تدخل أجنبى بالقوة؟

وبعد الشلل الذى أصاب مجلس النواب، وانفضاح أمر رئيسه وحفنته، فما طبيعة الدور الذى يمكن أن يلعبه الأعيان فى هذه الأزمة؟ وإذا كانت الحرب فكيف تكون؟ وإذا كان التناقض التقليدى بين إنجلترا وفرنسا لم يمنعهما من الاشتراك فى التهديد بالمذكرة الأخيرة، وبالمظاهرة البحرية المسلحة فهل سيمنع الحرب؟



وما معنى أن تتفق الدولتان على أن ترسل تركيا مندوبا لعله ينجح فى حل الأزمة التى وصلت إلى ذروتها؟

هل هذا تراجع أم مجرد مناورة؟ وكيف ارتضت فرنسا بتدخل تركى فى الأزمة وهى التى كانت تعارض دائما مثل هذا التدخل؟

وكيف يكون الحل بعد كل ما حدث؟ أى دور يمكن أن تقوم به تركيا الآن؟ ولحساب من؟ كان «نديم» يعلم بتلك الصلات السرية بين السلطان وعرابى، والتى يلمح فيها السلطان إلى شكوكه فى الخديوى توفيق، وإلى أنه لا يهتم بشخص الجالس على العرش بقدر ما يهتم بولائه له، وبحرصه على ألا يمكن للأجانب من البلاد!

وكان يعلم أن عرابى يستهدف من هذه الصلات أن يتقى دسائس الخديوى ضده من ناحية، وأن يواصل سياسته القديمة فى أن تصبح تركيا سندا له، إذا تطور الخلاف بينه وبين الخديوى والأجانب إلى صدام سافر من ناحية أخرى، ولكن «نديم» كان يعتقد أن السلطان يريد أن يستخدم عرابى بنفس القدر الذى يريد عرابى أن يستخدمه به!! وحين وردت الأنباء بتحرك المندوب السلطانى إلى مصر، وحين لغطت بعض الصحف والبرقيات باسم المندوب «درويش باشا» وألمحت إلى أسلوبه الشهير فى حل الأزمات بالعنف والخديعة وأرجفت بطبيعة مهمته الغامضة، كان نديم يشارك الناس مخاوفهم من هذه الأنباء، فلم تكن له أقل ثقة فى تركيا ومن يأتى منها!! وإذ حدث ذلك فى نفس الوقت الذى بدأ فيه الشعب يكتشف ذاته، وقدرته على أن يصنع مصيره ومصير أعدائه فى نفس الوقت، وأن يضع رجله الوحيد - كما كانوا يسمون عرابى - على رأس السلطة! وأن يصيب بالجمود والشلل أعداءه فى الداخل والخارج! وإذا كان هذا كله قد تم بلا قصد أو تدبير، وإذا كان الشعب قد قال كلمته بلغة تشبه الصرخة أو الضجيج فأى شىء يمنع الآن من القصد والتدبير؟ أى شىء يمنع الآن من استخدام تلك اللغة الجديدة، وتطويرها لمخاطبة مندوب السلطان نفسه بحيث يفهم هو الآخر المعانى الجديدة لهذه اللغة؟

لقد كانت صياغة الكلمات الجميلة يوما صناعة له، فما الذى يمنعه الآن من أن يصوغ قوى الشعب فى لغة يفهمها العالم كله؟

لقد نجح يوما فى أن يجمع بعض الناس لصنع التقدم فأى شىء يمنع من أن يجمعهم فى صورة أكبر لحماية التقدم بل لحماية حياتهم نفسها؟

هكذا كان يفكر نديم، وهكذا اقتنع عرابى بأن يسافر نديم إلى الإسكندرية لتنظيم مظاهرات شعبية تكون فى استقبال مندوب السلطان مظاهرات تؤكد له رفض مصر حكومة وشعبا للمذكرة المشتركة، وتبرز له قوة الشعب كأهم ما يستند إليه عرابى!

•وأضاف عرابى موضحا لنديم أخطر جانب فى مهمته: أنت تدرى كيف تكون الأحوال فى مدينة كالإسكندرية تغص بالأجانب، وعلى مرمى مدافع الأسطول، وفى وقت نحن مسئولون فيه عن الأمن والنظام، وإذا صح ما نسمعه فقد يجد القنصل الإنجليزى وعصابته فى هذه المظاهرات فرصة العمر لتنفيذ ما يريدون من شغب فى المدينة يؤكد ما يزعمونه من وجود فوضى تبرر تدخلهم العسكرى ولم يكن نديم يجهل مهمته الدقيقة والحرجة معا، ولم يكن راغبا فى الحديث عما يقدر عليه هناك، وربما فكر للحظة أن القدر يختاره لمهمة لا يقدر عليها سواه، وأن حياته كلها لم تكن سوى تدبير بارع لهذه المهمة!

ولكنه رغم هذا الهمس الشجى كان مروعا، فها هو كل ما حلمت به مصر وخافت منه، يقترب منها فجأة، وفى سباق جنونى يفلت فيه كل شىء من إطاره الذى ظل فيه لسنين طويلة، وكأن اليد القوية التى كانت تثبت كل شىء فى مكانه قد أرختها يد أخرى أقوى وأعنف!

ها هو الخديوى فى قصره بلا نفوذ، ولكن بعض أوليائه لا يزالون فى وظائفهم القديمة يمارسون نفوذهم القديم!

وحفنة الأعيان التى انكشف أمرها أمام الشعب، لا تزال تغطى موقف الخديوى أمام العالم، وتعطى الدولتين أعظم فرصة لترديد الأكاذيب عن تأييد المجلس للخديوى، وعباءة الحزب الوطنى التى كانت لا تضم سوى الأعيان تتمزق خيوطها الحريرية لتتسع لكل الشعب، والشعب الذى ظل لسنين طويلة لا يملك شيئا من أمر نفسه، يبدو وكأنه فى طريقه لأن يملك كل شىء!

النصر الكامل أو الدمار الكامل، هكذا تبدو الأشياء فى رأس نديم وهو يغالب النوم فى ذلك القطار المسافر إلى الإسكندرية فى تلك الليلة فى أول يونيو سنة ١٨٨٢، القطار الذى يبدو وكأنه يشترك بدوره فى ذلك السباق الجنونى بين المجد والدمار!!

* * *

فى الإسكندرية وبعد أيام، التقى نديم فى أوتيل أوروبا بصديقه القديم «الخواجة موريس» الذى بدا مشفقا عليه بقدر ما هو فخور به، ولم يضق بتحفظ نديم حياله هذه المرة، فقط قال له فى بساطة:

- لم تعد تثق بى!

ثم أضاف وقبل أن يسمع من نديم أى اعتذار:

- أعذرك، وأعذر أى إنسان فى مثل موقفك، ثم تابع وهو يقدم لنديم علبة سجائره الفاخرة!

- كيف يواجه الفرد أو الجماعة مشكلة الثقة؟ لو وجدت حلا لهذه المشكلة يا نديم فقد تفاجأ بأنك حللت مشاكل العالم كله!

وضحك نديم، وبدا أكبر سنا منه فى أى وقت مضى، ولمح رغبة الخواجة فى أن يطور الحديث لمسألة عامة، لا يتحفظ نديم فى الحديث عنها، ورغم إعجابه بالفكرة، فلم يكن راغبا فى الشرح واكتفى بقوله:

- فى عالم تختلف فيه قدرات الأفراد والجماعات وحاجاتهم كيف تنتظر الثقة؟

وهز الخواجة رأسه موافقًا وأضاف:

- هذا صحيح، وأقول لك بصراحة لا تثقوا فى أوروبا ولا فى تركيا لكن يجب أن تثقوا فى أنفسكم، لقد كسبتم جولة بسبب أن الشعب كله هب وراءكم، وارتبك أعداؤكم الذين حاولوا لشهور أن يصموا ثورتكم بأنها مجرد تسلط عسكرى، ولن أقول لك ما تعرفه الآن أكثر منى من أنهم يريدون أن يحاربوكم بنفس القوة التى تراجعوا أمامها، لقد سمعت عن خطبك لشعب الإسكندرية التى تدعوه فيها لتجنب الشجار مع الأجانب،

ورأيت المظاهرات التى نظمتها لاستقبال المندوب التركى، وكنت مشفقًا عليك وعليهم، فالجماهير سلاح ذو حدين، ولست أدرى حتى الآن كيف ترك أعداؤكم هذه الفرصة لتحقيق الصدام الذى يريدونه كدليل على الفوضى.. وكمبرر للتدخل !!

ولم يدهش نديم لسماع هذا الكلام، الذى يتفق مع ما يعرفه، وما جاء من أجله، وبالتأكيد لا يهدف الخواجه إلى منعه من تدبير المظاهرات التى انتهت تماما، بعد أن أدت دورها بنجاح لم يكن يحلم به، ولم يخالجه أقل شك فى دوافع الخواجه «موريس» الذى كانت شخصيته من أعجب ما وقع له فى حياته كلها، ففى جلده الأبيض المشوب بحمرة شفقية رقيقة يتعايش بنجاح لم يتوافر يوما لنديم، تاجر بارع، وعاشق لحضارة الشرق، يدفعه حبه إلى أن يعلن لنديم أنه باق هنا فى مصر حتى ولو وقعت الحرب!

ويضحك نديم قائلا:

- هل تظنها ستقع؟

- لو كنت مكانكم لوضعت هذا الاحتمال أمامى دائما!

ويقول نديم ضاحكا ومشيرا إلى الحملة التى تصف فيها الصحف الأجنبية ما يقع فى مصر على أنه نوع من التعصب الدينى:

- لا تخف، لو قامت الحرب فسأحميك بنفسى من تعصب المسلمين!

ويحتد الخواجة:

- ليس هناك أحقر من دعوى التعصب التى يرمونكم بها، وفى بلادكم يحتاج الأهالى إلى من يحميهم من الأجانب وليس العكس!

ووعد نديم الخواجة بأن يكملا حديثهما عن أزمة الثقة لو قدر لهما أن يلتقيا بعد أن تنتهى أزمة الحرب، لكن كيف ستنتهى هذه الأزمة؟

حين استقل نديم القطار العائد إلى المحروسة من محطة الإسكندرية كان فى وداعه حشد ضخم من الشباب، وحين تحرك القطار وقف يلوح لهم وهم يختفون عن عينيه، واختلط حشد المودعين بحشود المسافرين، كانوا جميعا يلوحون له، ويهتفون لمصر وللحرية!

لم يكن ذلك مواطنا عاديا يسافر من بلد لآخر، كان أحد الزعماء والقادة، وقبل يومين حاول محافظ الاسكندرية «عمر لطفى» أحد الذين يدينون بالولاء للخديوى أن يلقى القبض على نديم، لقد ذهل المحافظ حين رأى واحدا من رجال عرابى يكاد يفسد عليه ما كان يسعى لتدبيره بالاتفاق مع الخديوى وأين؟.. فى محافظته! رجلا لا يملك جنودا ولا نفوذا، ورغم ذلك فهو يخطب فى حى الأنفوشى فيهرع إليه الآلاف لسماعه! ويقودهم فى مظاهرات تجوب شوارع المدينة، وتستقبل المندوب التركى بهتافات ينخلع لها قلب المحافظ، وقلب المندوب نفسه، ودون أن يحدث ما يعكر الأمن؟

ويحتال المحافظ للقبض على نديم، فيرسل فى استدعائه، ولكن «محمود واصف» الذى يعتبر نفسه مسئولا عن نديم بنفس الطريقة الجنونية التى يعتبر نديم نفسه مسئولا بها عن مصر، يصر على ألا يذهب نديم وحده بل فى حشد يقوده «محمود واصف» نفسه وفى المحافظة ينكشف المستور، ويتدخل الحشد لينقذ «نديم» عنوة من المحافظة!

وتختفى الإسكندرية عن عينى نديم، ويختفى الحشد ولكن صورة الأحداث تبقى فى رأسه، داخل إطار من الحقول الخضراء الممتدة على مدى البصر!!

وداخل نفس الإطار كانت تنتشر حشود الفلاحين، رجال محنيون دائما وكأنهم أنصاف رجال، وكأنهم بعد قليل سيألفون السير على أيديهم وأرجلهم!

ترى هل جاء الوقت ليقف هؤلاء الرجال على أرجلهم منتصبين فى وجه الشمس؟

ترى هل جاء عصر الحشود الكبيرة، عصر العامة؟؟

ورغم النجاح الذى لم يكن يحلم به، فقد كانت مخاوفه الكامنة تتزايد يوما بعد يوم، بقدر النجاح وبرغمه!

فى البداية كان حريصا على تهدئة الجماهير أكثر من حرصه على إثارتها، وأفاض فى شرح الأخطار والمحاذير، وحين وفد مندوب السلطان كان حريصًا على أن تتألف مظاهرته من جماهير جمعياته الواعية، وتلاميذ مدارسها الذين أمضى أياما فى تدريبهم على ترديد الهتافات المناسبة، حتى لا تتطور المظاهرة إلى مشاجرة، ولم تكد المظاهرات تخرج إلى الشارع حتى انضم إليها الشعب بأسره، رجالا ونساء وأطفالا، كتلة

ذابت فيها حواجز الجنس والطبقة والمهنة والثقافة وخفقت بذلك الأمل الذى بدا وكأنه فى متناول جميع الأيدى!

وكاد نديم يبكى حين رأى مظاهراته تجتذب أعدادا من المومسات تسللن إليها من أوكارهن التى تتوارى فى الأزقة المختفية خلف الشوارع كآثار الجراح القديمة ولم يغضب أحد من الناس، كان الجميع يهتفون ويلوحون ولا يدرى كيف خطر له، أنه قد تكون واحدة منهن، الأرملة الجميلة التى أضاءت فى حياته ذات ليلة شعاعا رقيقا ثم اختفت إلى الأبد! ولم يبق الخاطر سوى لحظة ولم يفكر فى أن يتأمل الوجوه والعيون! كانت الكتلة البشرية التى تذوب فيها حواجز الجنس والطبقة والمهنة والعادات والدين والسن، هى التى تستأثر بعينيه وبفكره!

كيف تتألف وتنمو؟ كيف تجتذب إليها بعض الناس وتطرد عنها بعضهم؟ أية دوافع تحرك هذه الكتلة فتجعل منها أحيانا صخرة يتحطم عليها كل شىء، وأحيانا شىء يتبدد كالغبار؟

منذ سنين وهو يدرك أن قدره مرتبط بهذا الحشد، منذ سنين وهو يحاول أن يجد أساسا ما لتصنيف الناس وتفهم دوافعهم، أى شىء يجمع ويفرق؟ الدين أم الجنس أم الثقافة أم الثروة أم الوطن أم الحرفة؟ أى هذه العوامل، وفى أى الظروف، وحول أى موضوع تصبح له الكلمة العليا؟ وأى تجمع هو الذى يصنع التقدم ويعطى أية ثورة معناها؟ ومنذ اكتشف أن الزواج الذى وقعه بين الأغنياء والفقراء لم يصمد أمام أول اختبار ومنذ أدرك مؤلف الروايات القديم أن المسرح أصبح معدا لكى يتقدم الشعب، ويلعب أعظم أدواره! منذ تلك اللحظة، ومنذ أدرك قيمة اللحظة الواحدة فى هذا السباق الجنونى بين المجد والدمار! وهو يبحث فى ضراوة عن أساس صلب، وعن دور لهذا البطل الجديد، وعن صيغة تحفظ له تماسكه، وتجعل لدوره معنى وغاية!

لكن الحياة لا تنتظر حتى يتعلم الناس كل دروسها، وإذا كان نديم يمضى فى حدود خبرته، ويبحث لأسئلته عن أجوبة، فالحياة تمضى وفق قوانينها، الحشد يتجمع ويتفرق، الأعيان ينقسمون داخل المجلس ويجمدونه ويفقدون هذه الواجهة الشرعية الدور الخطير الذى يمكن أن تلعبه فيقدمون بذلك للأجانب أعظم فرصة ليرجفوا بتسلط العسكريين، ولكن آخرين من طبقتهم يؤيدون عرابى خارج المجلس تأييدا موصولا ولكنه يفقد قيمته الشرعية، أصدقاء قدماء كأديب أسحاق وسليم نقاش يتخلون عن الثورة

وعن نديم ويتورطون فى معركة سخيفة مع الصحفيين المصريين، ويحزمون حقائبهم فى انتظار سفينة تقلهم من أرض الدمار والثوار، ومعارض قديم لأسلوب الثورة كالشيخ محمد عبده ينضم للثوار ويقسم معهم يمين الولاء على أن يكونوا معا حتى آخر رمق!

وصحفى مغامر يصل من أوروبا مبعوثا من اللورد «بلنت» صديق الثورة الإنجليزى، حاملا نصائحه وتوجيهاته للثوار اسمه «لويس صابونجى» كان يصدر جريدة عربية اسمها النحلة ويفتتن نديم فيه بروح المغامرة، ويودعه ليلتقى به قريبا فى القاهرة!

وخواجة إيطالى يرأس جمعية الفعلة الإيطالية اسمه «كامينى» يؤيد الثورة تأييدا حماسيا ويقيم الاحتفالات مع أطيب تمنيات نجاحها!

ويدرك نديم صورة جديدة لمعنى القدر الذى يصوغ حياة الأفراد والجماعات، فيتجه بعينيه إلى السماء التى تبدو ثابتة رغم سرعة القطار وسرعة الأشجار، ويتمتم قلبه بدعاء صامت، فتهدأ مخاوفه العظيمة وتصبح لبعض الوقت أمالا عظيمة!!

* * *

فى المحروسة تتضح بعض الشىء الطبيعة الغامضة لبعثة درويش باشا فهو يتحدث إلى عرابى بلغة بين الوعد والوعيد، ويطلب منه أن يتنازل له عن سلطته، ليعالج هو الأزمة مع الأجانب بما يكفل مغادرة الاسطول للمياه المصرية، بينما يسافر عرابى إلى الآستانة لمقابلة السلطان، ولكن عرابى الذى كان يعلم من عدة مصادر أهمها«صابونجى» رسول «بلنت» أن هذه ليست سوى وسيلة للتخلص منه، والذى كان يتلقى فى نفس الوقت تأييدا سريا من السلطان عن طريق مندوب آخر فى البعثة اسمه أحمد أسعد، مهمته أن يتعرف القوى الحقيقية للخديوى ولعرابى، ويرفض فى لباقة هذا العرض، ويؤكد لدرويش باشا أنه مستعد لتنفيذ مطلبه لو أنه «درويش باشا» قبل أن يتحمل أمام العالم كله، وبصفة رسمية مسئولية الأمن والنظام التى يتحملها عرابى!

ويفاجأ مندوب السلطان بهذا الرد، ويؤجل رده على عرابى ولوقت قريب، ولكن أعظم مفاجأة كانت تلك التى دبرها نديم هذه المرة، ذلك أنه فور عودته إلى القاهرة، وقبل أن يفرغ المندوب السلطانى من الاحتفالات التى أقامها له الخديوى، بعث بعشرات من أخلص رجاله إلى الأقاليم ليعودوا ومعهم آلاف التوقيعات، ومئات المندوبين عن

الأهالى ليقدموا لدرويش باشا رأى الشعب الذى يرفض المذكرة، ويصر على بقاء عرابى، ويتقدم الشيخ محمد خضير الذى يمثل علماء الأزهر، وممثلو الشعب، بهذه المطالب لدرويش باشا الذى يصاب بالذهول!

لقد كان من الممكن أن يحتمل وهو داخل عربة تجرها الخيول صخب الجماهير فى شوارع الاسكندرية، أما أن تختصر هذه الجماهير فى وفود تفرض عليه مطالبها؟ ويصرخ درويش باشا:

- لقد جئت لإصدار أوامرى لا لأتلقى الأوامر!

وتلتهب الوفود غضبا، ويشتعل الغضب فى صحن الأزهر وتطلب الجماهير «نديم» لينفجر هذه المرة بكل ما ضاق به صدره، لتنهال على درويش باشا برقيات الاحتجاج من كل فئات الشعب، وليكتب «صابونجى» فى رسالة لـ «بلنت» «وليس عندى من الوقت ما يسمح بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة نديم فى العلماء، فقد سمعته أنت وعرفت كيف يتأثر الناس به»، وليكتب فى جزء آخر من رسالته أو تقريره : «جميع علماء الأزهر إلا» «الإمبابى» يؤيدون عرابى، أما الفلاحون أقباطا ومسلمين فجميعهم مع عرابى، وفى مصر ١٤ مديرية ومع ذلك فليس بها سوى ثلاثة مديرين يكرهون عرابى» ولكن أخطر مفاجأة كانت تلك التى تلقاها المصريون وقبلهم عرابى ونديم وكل زعماء الثورة فى اليوم التالى حيث نقلت البرقيات فى مساء ١١ يونيو سنة ١٨٨١ نبأ شجار عنيف، وقع فى الإسكندرية بين المصريين والأجانب راح ضحيته العشرات بين قتلى وجرحى من الجانبين!!

* * *

الدقائق تمر، ثم الساعات ثم الأيام ثم أسبوع فآخر: ويكتشف الناس أنهم حتى خلال الأوقات العصيبة، يأكلون وينامون، ويهتم بعضهم بأناقة ثيابه، ولا ينسى الآخرون جلساتهم المفضلة فى المقاهى أوالبيوت أو تأنيب أولادهم على أصغر الأخطاء! على أن التعليق على الأحداث الراهنة كان صناعة الجميع، فى الساعات الأولى، كانت الكلمات كالأحداث غامضة، طائشة، فزعة، كان بعضها أسئلة وبعضها أجوبة، وكانت كلها تعكس توقعًا قلقًا للأخطار وتصنع حقائقها فى انتظار الحقيقة، وكانت الحقيقة هناك فى الإسكندرية، يبحث عنها «عرابى» خلال لجنة تحقيق سارع بتأليفها، ويرسم لها مندوبو

الصحف الأجنبية مئات الصور التى تختلف باختلاف الأهواء والمصالح، ويرويها شهود العيان كل من الزاوية التى رآها، ويرويها أيضًا أبطالها الذين صنعوها أو ذهبوا ضحيتها!

ولم يكن حرص الناس على أن يتفهموا حقيقة ما حدث إلا جزءًا من حرصهم على أن يستكشفوا ما يمكن أن يحدث فى المستقبل القريب، كانت مدافع الأسطول لاتزال صامتة وفى نفس الوقت كان عرابى قد بدأ يسيطر على الموقف، وتألفت خلال يومين من الحادث وزارة جديدة برئاسة راغب باشا الذى يحاول جاهدًا أن ينفذ الدستور والبلاد معًا فى وقت واحد، وزارة بقى فيها عرابى كوزير للحربية:

لقد وقع الحادث الذى كان يخشاه المواطنون، ويتمناه أعداؤهم! فهل تنجو البلاد من أخطار الحرب رغم ذلك؟

كان صمت المدافع يبدو كخدعة مميتة، ولعله كان يثير الناس أكثر مما يطمئنهم، ولكن الأنباء ترد بأن فرنسا قد نجحت أخيرًا فى دعوتها لعقد مؤتمر دولى للنظر فى الأزمة، وتردد أن هدف فرنسا هو منع إنجلترا من الانفراد بالتدخل المسلح بعد أن لاح أنها تستغل حادثة الإسكندرية لهذا الهدف، وأوضحت الملابسات التى أحاطت بالحادثة، والتى بدأت تتسرب رغم الأهواء والظنون والأكاذيب والقلق، إن الحادث الذى بدأ كشجار عرضى بين مالطى ومصرى راح الأخير ضحيته وتطور إلى مذبحة مروعة، قد استغل بطريقة تؤكد سوء النية من محافظ الإسكندرية الذى كان مسئولاً وحده عن الأمن فى المدينة والذى بقى يعمل لحساب الخديو، ومن مستر كوكس قنصل بريطانيا فى الإسكندرية، ليصبح مادة صالحة للصحافة الإنجليزية والحكومة الإنجليزية لتبرير ما يريدانه من التدخل العسكرى أمام العالم، ترى ينجح هذا المؤتمر الدولى فى منع إنجلترا من التدخل؟ وماذا يمكن أن يرى من الحلول لهذه الأزمة؟ وقبل هذا كله ماذا سيكون موقف تركيا منه؟.

وتلاحقت الأنباء بأن تركيا تقاطع المؤتمر رغم أنه ينعقد فى الآستانة ولا ترى فيه سوى أداة أوروبية لانتقاص سيادتها، وتعلن بناء على تقرير درويش باشا أن الأحوال قد استقرت فى مصر بعد تأليف الوزارة الجديدة، ويطلب مندوب السلطان لجميع الأطراف المتنازعة فى مصر الرتب والنياشين، للخديوى وعرابى وسلطان باشا فى نفس الوقت!

وها هى مصر من جديد قد أصبحت بلدًا له حكومة، وها هو نديم يعود صحفيًا له جريدة اسمها «الطائف»، كانت مدة العقوبة قد انقضت، وكان منع الاجتماعات العامة أحد نتائج مذبحة الإسكندرية وهكذا تعود الطائف فى وقتها، لتجيب على الأسئلة الحائرة فى صدور القراء، وبالعكس تمامًا كان نديم يرى تحت السكون الظاهرى دوامات الخطر، فلا تأليف الوزارة، ولا انعقاد المؤتمر الدولى، ولا تقرير درويش باشا، ولا صمت المدافع، لا شىء من هذا كله يعنى أن الأزمة فى طريق الحل، وكيف تصل لجنة التحقيق فى حادث الإسكندرية إلى نتيجة ورئيسها هو عمر لطفى نفسه عميل الخديو، ولا شىء يفسر صمت المدافع سوى إعطاء الفرصة لآلاف الأوروبيين الذين يهاجرون موجة إثر موجة إلى السفن الراسية فى البحر، ولا شىء أسخف من أن تقاطع تركيا المؤتمر، وفى الوقت الذى تدرك فيه الدول الأوروبية نوايا بريطانيا التى تسفر عنها تصريحات المسئولين فيها وتهويلاتهم عن الأحوال فى مصر فتلزم بريطانيا «بميثاق براءة» يتعهد فيه المؤتمرون بألا تحاول إحدى الدول الحصول على امتيازات خاصة فى مصر أو الانفراد بأى تدخل أثناء انعقاد المؤتمر!.

ويكتب نديم فى أول مقال له مطالبًا بأن يكون لمصر نفسها مندوب فى المؤتمر الدولى يعرض وجهة نظرها، ويصف حقيقة الأحوال. ورغم الصورة المظلمة التى كانت تتراءى له فلم يكن يائسًا، ولم يفقد ثقته فى نفسه أو فى الشعب أو فى العالم، ووسط زحام الأحداث كانت تتراءى له صورة عالم تتصارع فيه دائمًا قوتان، قوة تنتصر للحرية وأخرى ضدها، وقديمًا تراءى له أن الحرية هى العدل وأن الثورة هى التقدم، وإن القوتين تتصارعان داخل الوطن الواحد، بين القلة والكثرة، وها هو اليوم يرى صورة هذا الصراع فى العالم كله، فى بريطانيا نفسها فى فرنسا فى ألمانيا فى النمسا فى روسيا، فالحرية لا وطن لها، «إنها سر تبعثه الخواطر فتحرك به الدماء وتوجه به الهمم إلى أعالى الأمور، ولا يقوم بهذا السر فى كل أمة إلا رجال العزائم، يقطعون العقبات بالصبر على المشاق، وما أعمالهم إلا شرارة تعلق بكبريت طباع الأمم فيعلو بها لهيب يشم رائحته القريب، ويرى ضوءه البعيد».

«وهم الآن أصحاب الصوت الأول فى الأمم المتمدينة، قد غلبت أفكارهم أفكار المستبدين فى أمريكا، وغالبوا بأفعالهم قوة الملوكيين فى فرنسا، وأشعلت نيرانهم فى

روسيا فاهتدى كل تائه فى ظلم الاستبداد، وجروا فى مدن إيطاليا فتبعهم كل طالب حياة بلاده».

«ولقد سرى هذا السر فى الشرق فقابله المصريون مقابلة المحب لمحبوبه يجتمع حوله كل وطنى حر، ويدافعه كل طامع فى ثروة، أو دائر حول وجاهة يحصلها، ولكن أقدام الحزب الوطنى لا يزحزحها مثل هؤلاء، فإنه حزب اعتز بالله وانتصر بالحق، - فالثبات الثبات يا رجال الوطن - إن حزب الله هم الغلبون».

هكذا راح يكتب نديم فى تلك الأوقات العصيبة، مخاطبًا كل من يقرأ فى حشوده الكبيرة، ومناشدًا ضمير العالم، مذكرًا من جرفهم طوفان الهجرة من الأجانب بالأيام الطيبة والناس الطيبين الذين عاشروهم لسنين طويلة، وحين يفرغ من مقاله وحيثما يكون سيجد حوله واحدًا أو أكثر من تلاميذه يحملون المقال إلى المطبعة، بينما يواصل هو حركته الدائمة من اجتماع لآخر، ومن بلد لآخر، كانت بذرة الاضطراب اللعينة تجد فى الظروف السائدة وفى المدن التى يعيش فيها الأجانب أعظم فرصة، وكان بمقدور اللصوص والقتلة والبائسين جميعًا أن يصبحوا وطنيين بطريقتهم، وأن يقدموا فى نفس الوقت لإنجلترا أعظم الخدمات، ولم يكن ثمة غير نديم يمكنه أن يجد فى كل بلد أكثر من صديق يستطيع الاعتماد عليه وقت الحاجة، وكان بمقدوره أن يستعين بكل شىء وبكل أحد، ابتداء من جمعياته إلى من يعرف حتى من مشايخ الطرق الصوفية الذين يملكون تأثيرًا عظيمًا على الجماهير فى ذلك الوقت! حتى لا يخيم شبح الفوضى على البلاد فى وقت لايزال فيه عدد من رجال الإدارة يكنون ولاءهم للخديو! ويعملون سرًا لحسابه!!

وها هو الخواجة القديم يعود كما بدأ، شعر غير حليق، وعيون مسهدة، ولكنه يصطحب هذه المرة خادمًا اسمه «حسين» يحمل حقائبه، ويغسل ثيابه، لقد التقطه يومًا من إحدى حلقات الذكر التى يقيمها صوفى اسمه الشيخ «شحاته القصبى»، أحبه نديم، وأخذ عليه العهد، وأخذ منه «حسين» الذى كان عاجزًا عن العمل، ووجد فى حلقات الشيخ الطيب صورة من صور الحشد الذى كان يجتذبه أينما سار، ويجد فيه دائمًا أرضًا صالحة لما يحمل من بذور!.

من الذى قال له يومًا «إن الجماهير سلاح ذو حدين»؟ الخواجة موريس؟ أين هو الآن؟ هل قتل فى مذبحة الإسكندرية؟ أن له ضيعة بالقرب من طنطا! وعرج عليه واطمأن إلى أنه لايزال حيًا وقضى ليلة فى ضيافته، لم يكن الخواجة خائفًا، قال له مَعلقًا على أنباء شجار حدث فى طنطا، وقضى عليه البوليس فى وقته: أين هذا مما حدث فى باريس إبان الثورة الفرنسية؟ إن ثورتكم لا مثيل لها فى التاريخ! وتمتم نديم بأسى: التاريخ! الثورة! لماذا دائمًا تختلف الموازين من الشرق إلى الغرب؟ لماذا تختلف النظرة إلى الشىء الواحد؟ لماذا تنكر علينا أوروبا ما تراه سر تقدمها؟ بَل ما معنى التقدم؟ وما هى المسألة؟ ولم يكن ثمة وقت للنقاش الطويل، كان نديم متعبًا وكان فى حاجة إلى النوم ليواصل رحلته المضنية فى ذلك السباق الجنونى بين المجد والدمار!!

وقال له الخواجة ملاطفًا: الآن أتركك تنام، وحين تنتهى هذه الأزمة فقد يصبح نديم وزيرًا فى حكومة مصر وآنذاك نبدأ نقاشنا الطويل فى مسألة الشرق والغرب! ويتمتم نديم: وزيرًا! لم لا؟ وبيت كهذا، ومكتبة كهذه، وتعكف فى نهاية كل ليلة على إتمام الكتب الكثيرة التى شرعت فيها، ولم تتمها بعد، هل صحيح أنه لا يظفر بالحياة الطيبة سوى الأوغاد؟ ومن الذى قال ذلك؟ هو، أم غيره، أم كل الناس؟ ونام قبل أن يصل إلى جواب؟

صيف دام طويل

هل انتهى كل شىء أم أنه لم يبدأ قبل هذه اللحظة؟ فحين تعرف أنه لم يعد أمامكم سوى شىء واحد، شىء واحد لا غير، حين يسقط كل اختيار وكل احتمال تصبح فجأة إنسانًا آخر، وبقوة لم تعرفها طوال حياتك تواجه هذا الشىء، لا تخافه، لا تتردد فى مواجهته أو اقتحامه حتى ولو كان حائطًا من اللهب! وفى يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ واجهت مصر كلها هذا الشىء.

ففى صباح ذلك اليوم أطلق الأسطول الإنجليزى مدافعه على مدينة الإسكندرية.

أطلقها وأعضاء المؤتمر الدولى فى الآستانة لايزالون ينتظرون رد حكوماتهم على قرار المؤتمر «بأن يتم تدخل عسكرى عن طريق تركيا، له من القوة ما يسيطر به على الموقف، على ألا تمس الامتيازات التى حصلت عليها مصر بموجب الفرمانات السابقة».

أطلقها أثر قصة سخيفة من قصص التاريخ التى لا تنسى رغم سخفها وربما بسببه، حيث زعم قائد الأسطول الإنجليزى أن مصر تقوم بتعزيز طوابيها فى الإسكندرية، وإن هذا يعتبر تحرشًا بالأسطول الإنجليزى، وتهديدًا لسلامته ويطلب إزالة المدافع الجديدة أو تسليم الطوابى لرجال الأسطول أو يقوم الأسطول بضرب الطوابى، واحتلالها!

ولم يكن أمام الخديو نفسه إلا أن يقرر مع المجلس الذى انعقد للنظر فى تهديدات قائد الأسطول رفض ما يطلبه وما يهدد به!!

وهكذا، على نحو غريب من المفاجأة التى لم تكن أبدًا مفاجأة، كان على مصر أن تحارب إنجلترا! وانتهى السباق الجنونى بين المجد والدمار، أو لعله بدأ، كان المجد قد أصبح يرتدى ثياب الجندى، وينطلق من فوهة بندقية أو مدفع، كان اسمه الموت أو لعله كامن فيه، فى قبوله، وقبلها بأيام كان نديم قد واجه الموت، ولم تكن تلك هى المرة

الأولى فيما يذكر! لقد أشعلوا النار فى داره ذات ليلة، لأنه طالب ببعض حقوقه، ومنذ أيام قدموا له سيجارة مسمومة، قدمها له واحد من عملاء الخديو الذى لم يعد يطيق هجومه عليه، بل ولم يعد يحتمل وجوده! وغاب عن وعيه خمسًا وثلاثين ساعة عاد بعدها إلى الحياة، كان الموت قد أصبح جزءًا منه، ولكن الحياة الحقيقية، الحياة الحرة الكريمة له ولمصر كلها، هذه الحياة الصحيحة لم تصبح بعد جزءًا من أحد!.

واختصرت القضايا الكثيرة التى كانت تمزق فكره إلى قضية بسيطة وحاسمة، سوف تحارب، ولم يكن فى السن التى تسمح له بأن يجد فى هذه الكلمة الصغيرة أية نشوة! ولكنه بالتأكيد وجد فيها ما لم يجده فى حياته كلها من اليقين والقوة والطمأنينة الغريبة التى تتولد لديك حين تختصر حياتك كلها فى شىء واحد ولو كان هذا الشىء هو أن تمسك بالسلاح أو بالقلم لتواجه الموت دون أن تفكر لحظة واحدة فى النتيجة!!.

***

وكانت نتيجة المعركة بين الأسطول البريطانى لأكبر دولة بحرية آنذاك، وبين طوابى الإسكندرية التى لم تستكمل تعزيزاتها جديرة بدورها بأن تحسم الموقف أمام أعداء الثورة، وأن تختصر لهم الطريق إلى الخيانة السافرة!.

لقد انتقل الخديو وحاشيته وعملاؤه وعلى رأسهم سلطان باشا نفسه إلى قصر رأس التين ليكون فى حماية الأسطول وليبرق إلى عرابى بأنه ليس للدولة الإنجليزية مع الحكومة الخديوية ـ وكان رئيس الحكومة وبعض أعضائها قد بقوا معه بالإسكندرية ـ أدنى خصومة، وأن ما حصل إنما فى مقابلة ما كان من التهديد للأسطول فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن كافة التجهيزات الحربية وتحضروا حالاً إلى سراى رأس التين لإعطاء التنبيهات الشفاهية.. إلخ.

وكان عرابى قد ارتد بجنوده إلى كفر الدوار، لينشئ خطوط دفاعه فى المواقع الحصينة هناك، وليستعد لحرب شعبية طويلة، ورد على برقية الخديو بخطاب مرير يذكره فيه بأن قرار الدفاع عن الوطن ضد التهديد الإنجليزى صدر عن مجلس انعقد تحت رياسته وبحضور درويش باشا مندوب السلطان، وألمح فى لباقة إلى أنه لا يستطيع أن يذهب إلى الإسكندرية لأنها الآن محتلة بجنود العدو، وإذا كان لدى الخديو ما يود التباحث فيه فليرسل وفدًا من الوزراء الموجودين معه لتبين الحقيقة!!.



وفى نفس الوقت أرسل إلى القاهرة ببرقية الخديو وبرده عليها وطلب من «يعقوب سامى» وكيل الداخلية أن يطلب عقد جمعية عامة من رؤساء الأديان ووكلاء الوزارات والعلماء والنواب والأعيان والتجار للنظر فى موقف الخديو، وما يجب اتخاذه لمواجهة الغزو الأجنبى!.

كانت تلك أول حكومة شعبية تحكم مصر، واعتقد نديم أن هذه الحكومة التى انبثقت فى أحلك الظروف، هى أول تعبير حقيقى عن شعب مصر، وأول الثمرات الطيبة لعدوان مرير، كان العدوان يكشف النقاب عن وجه الخيانة، وفى أول اجتماع لهذه الجمعية اكتشف نديم أن الخيانة لا تعجز عن إخفاء وجهها بأى نقاب، لقد وقف مسئول اسمه «على باشا مبارك» يكن له نديم أعظم تقدير، ليطالب الجمعية بأن تبعث بوفد إلى الخديو فى الإسكندرية لاستجلاء الحقيقة، فمن أين لنا ونحن فى القاهرة أن نعرف حقيقة ما حدث فى الإسكندرية؟ أليس من الضرورى أن نحكم عقولنا؟ أليس من الجائز أن يكون ما بلغنا زورًا وبهتانًا؟

وقاطعه نديم أمام الجمع الحاشد بعنف لم يصدر عن مثله فى حياته كلها، فطوال حياته لم يجد مثل هذا الاحتقار للعقل باسم العقل:

«إذا كانت لا تكفيك شهادة ثلثمائة ألف من الرجال والنساء والصبيان خرجوا من ذلك الثغر مهاجرين لا يملكون إلا أنفسهم، هائمين على وجوههم فى البلدان والقرى لا يلوى الوالد منهم على ولده، ولا الأخ على أخيه فما الذى يكفيك»؟

واندفع نديم يروى للحشد الذاهل المتجمع فى دار وزارة الداخلية ما رأت عيناه، وكان قد سافر إلى الإسكندرية فى اليوم التالى لضربها بمدافع الأسطول، فى ذلك اليوم الحزين الذى باتت فيه الإسكندرية مدينة للدمار والهول!

كانت النيران المتخلفة عن الضرب ترعى فى شوارع المدينة دون أن تجد من يتقدم لإطفائها، كان كل ما حلم به الطيبون والأوغاد ملكًا للنيران وحدها، البيوت والمتاجر والمطاعم والمساجد والكنائس والبنوك والبارات والمقاهى والمدارس! كان الأجانب قد هاجروا إلى السفن الراسية فى الميناء، والأهالى إلى قرى الدلتا ومدنها، وبقيت المدينة وحدها تحترق، ولماذا يترك المهاجرون خلفهم مدينة يجد فيها العدو شيئًا صالحًا؟ لا أحد يدرى من الذى ألقى بهذا السؤال، ولا من الذى أجاب عليه بمزيد من الحرائق هنا

وهناك! ولم تكن النيران فى حاجة إلى مرشدين كانت تعرف طريقها، وكذلك كانت الطيور والكلاب الضالة واللصوص، والبائسون، والقتلة، كان يومًا غريبًا لا ينساه نديم، هو الذى ظن يومًا أنه قد انتهى فى وقت مبكر جدًا من الإلمام بكل غرائب الحياة وفظائعها معًا؟

لقد رأى دائمًا كيف يستحيل الحشد الذى يخطب فيه إلى رجل واحد له آلاف العيون والرءوس والأيدى!

وفى هذا اليوم اللعين رأى كيف يستحيل الرجل الواحد إلى مزق صغيرة، وحتى الذين لم يدركهم الموت كانوا مزقًا، كان الرعب يمزق العلاقة بين الإنسان ونفسه، ورأى فى طريق الهجرة المروع رجالاً ونساء يصرخون وهم يبحثون عن لا شىء، وآخرين يضحكون فى بلاهة، وعربة خشبية مقلوبة تصبح مسكنًا لأسرة، وطفلاً صغيرًا يلتهم أصابعه ثم يبكى فجأة وهو ينظر إليها فى غضب!.

وفى المدينة كان الجرحى لا ينتظرون إلا نجدة الموت، والساعات المعلقة على جدران الحوانيت المفتوحة كانت عقاربها قد توقفت مع توقف الحياة، ورغم إن كل شىء فى هذا اليوم البائس كان مباحًا، فلم يكن هناك أمام الطيبين والأشرار، أثمن من أن يظفروا بحياتهم، كان ذلك نوعًا آخر من الحشد، وكان ذلك نوعًا آخر للحرية، ولم يكن هو نديم، لقد مشى صامتًا ذاهلاً يتأمل كم هو فظيع ذلك العربون الذى دفعته مصر ثمنًا للحرية!.

وها هو يدرك بعد عودته إلى القاهرة أن كل ما حدث لا يكفى لتصبح بعض الأمور واضحة! وليقف أصحاب الحقوق جنبًا إلى جنب كان كل شىء قد احترق فى الإسكندرية عدا قدرة بعض الناس على تزييف الحقيقة!.

إن المعركة لا تصبح واضحة حتى فى ضوء طلقات المدافع، ولايزال أمام نديم ما يفعله فى معركة التزييف التى بدأها الخديو بتراشق البيانات مع عرابى، وكانت ورقة الخديو التى أمسك بها الإنجليز منذ البداية، قد انتقلت إلى أيديهم فى الإسكندرية، وكانوا قادرين على أن يزعموا أنهم لا يحاربون مصر، بل يحاربون الجند المتمردين على الحاكم الشرعى، وإذا كان مثل هذا الزعم لن يجد أذنًا لدى الشعب فهو جدير بأن يحول المترددين من الأعيان وأصحاب المصالح إلى ثغرة لعينة فى حرب طويلة لا أحد

يعلم ماذا تكون نتيجتها بعد! وإلا فمن كان يتصور أن يقف رجل من أبناء الشعب، وممن قدموا له أروع الخدمات ليتساءل عن حقيقة ما حدث فى الإسكندرية؟

وأخرست خطبة نديم ألسنة المرجفين، وفى اجتماع آخر للجمعية العمومية أصدرت أوامرها بتوقيف أوامر الخديو، وأصدر العلماء فتاواهم بأن الخديو قد خرج على أصول الدين بانضمامه إلى العدو! وكلف عرابى من هذه الجمعية باتخاذ كافة التدابير للدفاع عن أرض الوطن!

***

ولم يكن ثمة قرش واحد فى خزانة الدولة، فالمراقب الإنجليزى «مستر كلفن» نقل الأموال من خزينة المالية إلى الأسطول قبل الحرب بأيام، ونفس الشىء بالنسبة للأموال الموجودة فى صندوق الدين، لقد حملها أعضاء القومسيون إلى البحر! وكان أمام نديم ما يفعله قبل أن ينضم بجريدة الطائف إلى مواقع القتال بكفر الدوار!

كان عليه أن يقوم بآخر جولاته وأمجدها فى الأقاليم!

كان عليه أن يجمع التبرعات، وأن يحشد المتطوعين للقتال وللأعمال المساعدة للجيش!

وكان عليه أن يقول للناس هذه المرة ما لم يقله أبدًا، وما كان يمنعه من قوله ذلك الحرص على تجنب المخاطر، لقد تقاضت الحرية ثمنها كاملاً، فلتكن الحرية إذًا كاملة!

وحمل فى كلتا يديه ما لم يحمله قبل اليوم، الجنة للشهداء، ومصر للمصريين، مصر التى حلم بها دائمًا، وأثارها فى أحلامهم! مصر بلا ديون، وبلا سخرة، وبلا ضرائب ظالمة، مصر الجيش للجنود ومصر الأرض للفلاحين، ومصر الوظائف والإدارات للمتعلمين، ومصر المدارس والمصانع للأطفال والشباب، ومصر الحرية والكرامة للجميع!!

وكان كل ما يفصل بينهم وبين مصر هذه، أن يحمل كل قادر بندقيته أو فأسه، ويضع نفسه تحت إمرة عرابى!

الطريق هذه المرة قصيرة وواضحة فى رءوس الفقراء الذى يعرف جيدًا ماذا يقول لهم! وكان بمقدوره أن يتذكر كل ما كتبوه فى عرائضهم القديمة والجديدة، وما كان يعرفه يفوق ما يكتبونه، ولم يتردد فى أن يبوح لهم بما كانوا يهمسون به فى خلواتهم،

وأن يعدهم بما حلموا به يومًا، وبما لم يحلموا به فى أى يوم، وفى كل أقليم كان يتحدث باللهجة التى يألفونها، ويبرز المشاكل التى يعانون منها، ويعلق كل شىء فى الحلم أو فى الواقع، فى السماء أو فى الأرض، بانتصار عرابى على الغزاة الكفرة، مستشهدًا بالقرآن والتوراة والإنجيل على خروج الإنجليز حتى على دينهم الذى يبارك السلام ويلعن الحرب!!!

وإذا كان يخشى أن يؤثر ضرب الإسكندرية فى عزيمة الناس فلم يكن يتردد فى أن يؤكد لهم أن الإنجليز كالأسماك يموتون إذا خرجوا إلى البر!!

وأن ينقل إلى أعماق القرى والكفور ما تنشره الصحف من حركات التأييد للمصريين فى حربهم المقدسة ضد الإنجليز «العالم الإسلامى كله ينتفض بالثورة على أعدائكم، فى الهند، وفى تركيا، وفى تونس، وفى سوريا، والخطباء فى هذه الأقطار يدعون الناس للتطوع معكم فى حربكم المقدسة» وكان بمقدوره أن يتحدث عن ثورة مصر، وجيش مصر، وحرب مصر، كطليعة لثورة العالم الإسلامى التى كان يبشر بها الشيخ جمال الدين منذ سنين، وأنه هناك فى الهند يشعل ثورة أخرى ضد الإنجليز، وأنتم هنا تصنعون البداية العظيمة للعالم الإسلامى العظيم المتحرر!

وحين عاد نديم ليلحق بمعسكر كفر الدوار، وليصدر من هناك جريدة الطائف فى صفحة واحدة لتلاحق تطور الأخبار واصل عدد من أخلص رجاله، جولاته فى القرى والمدن وواصلوا مهمته، أما هو فقد كانت أمامه مهمة أخرى بجوار القائد، وبجوار الجنود!! كانت الحرب قد بدأت فى كفر الدوار!!

***

ولم يكن نديم الذى جرب أشياء كثيرة فى حياته قد جرب الحرب، وتساءل نديم فى لهجة حاول أن تكون مرحة:

ـ وهل تختلف الحرب عن غيرها من الأشياء؟

وقال «طلبه عصمت» الذى كان يقود الجيوش فى كفر الدوار.

ـ أظنها تختلف! ثم تابع محاولاً ثنى نديم عما يرمى إليه:

ـ حين نفقد جنديًا سيحل مكانه آخر ولكن من يحل مكانك؟

وابتسم نديم شاكرًا اطراء القائد، ولم يجد أى معنى فى أن يؤكد له: إن الأمور لا تتوقف على شخص واحد مهما يكن. وإن أعظم ما قام به فى حياته هو اكتشافه لهذه النخبة من الرجال الذين يواصلون مهمته فى الأقاليم!

واكتفى بأن يقول للقائد:

ـ لن يكون لما أقول أو أكتب أى تأثير إذا كان ما أفعله مختلفًا!

ـ وماذا تنوى أن تفعل؟

ـ أقف بين الجنود، وأتعلم عن الحرب ما يجعلنى على الأقل قادرًا على الدفاع عن المكان الذى أقف فيه!

وحاول القائد أن يوضح له فى تلطف أن هذا عملهم، الذى قد لا يحسنه، ثم عرج فى حديثه إلى المنشورات التى يبعث بها الخديو سرًا داخل البلاد وداخل الجيش عن طريق عملائه، وإنها قد تكون أخطر من الجيش الإنجليزى نفسه فى بلبلة الأفكار، وأنت تقدر...

وهز نديم رأسه موافقًا، ومقاطعًا نوبة الإطراء الجديدة التى يوشك القائد أن ينخرط فيها!...

وهل يحتاج تعلم استخدام البندقية إلى سؤال القائد نفسه، لم لا يتعلم من الجنود أنفسهم، وفى نفس الوقت الذى يعلمهم فيه لماذا يحاربون؟ ولماذا يجب أن ينتصروا فى هذه الحرب؟

صحيح أن الولاء الكامل يصنع النصر، ولكن النصر بدوره يصنع الولاء!

وكان إدراكه لهذه الواقعة البسيطة هو الأساس فى الحملة النفسية التى بدأ يقودها ضد منشورات الخديو التى يعلن فيها عزل عرابى، ويصمه بالتمرد، ويجعل من الإنجليز أداة الخديو فى محاربة العصاة لا الشعب!

وكان الجيش قد نجح مرارًا فى صد هجمات الإنجليز تجاه كفر الدوار. ورأى الجنود الفلاحون جنود الإمبراطورية البريطانية يموتون مثل غيرهم من الجنود وينسحبون فى ذعر، ويسحبون قتلاهم فى الظلام! ومن قلب الظلام ينبعث أنين الجرحى وصراخهم! كان النصر قد أصبح حقيقة واقعة، وكانت الكلمة يمكن أن تصبح ترياقًا وسحرًا حين يسمعها الجنود من رجل يعيش بينهم وتثقل كتفه بندقية من نفس

النوع الذى يحملونه، وحين يجوع يشاركهم الطعام، وبعد كلمة أو اثنتين يستطيع من لهجة أى جندى أن يقول له من أى البلاد هو؟ وكثيراً ما يكتشف الجنود أن هذا الرجل يعرف على الأقل رجلاً أو أكثر من بلدهم أو من البلاد المجاورة!!

ويحدثهم عن حياتهم حديث الخبير، ويفتح الجنود الفلاحون ـ الذين ما عرفوا البوح لغير الله وأوليائه الصالحين ـ قلوبهم، ويستشعرون الود الخالص لهذا الرجل الذى لا يعرفون هويته، ولا ينقضى عجبهم لما له من أهمية قصوى لدى قادتهم، رغم أنه لا يلبس ثياب الضباط ولا يحمل رتبهم! كان شيئًا غريبًا على حياة الجيش بل على حياتهم كلها!

وكان جديراً بنديم أن يستشعر بدوره الغبطة والفخار حين يكتشف بين وقت وآخر أن هناك من يعرفه بين الجنود، ويقلب معه الصفحات القديمة!

ـ نديم..؟ لقد زرت بلدتنا فى عام ١٨٨٠ وخطبت فى جامع سيدى سلام.

ـ نعم... نعم...!

ـ كنت هناك واستمعت إليك وأنت تقول..

ـ ولكن لم أوقفت «التنكيت والتبكيت» يا نديم؟

كان ذلك صوتًا آخر. وكان الجنود قد ألفوا أن ينادوه باسمه!

ـ وهل هذا وقت التنكيت يا بنى؟

ولكن الوقت، وقته مع الجنود كان يتسع لأعذب النكات ويتسع حتى للزهو الخالص، وحين يكتشف نديم جنديًا موهوبًا اسمه «رجب السلامونى» يحفظ قدرًا من أزجاله، ويحتفظ فى مخلاته بأعداد من «التنكيت والتبكيت» وله قدرة على ارتجال الزجل، لا يتردد نديم فى مطارحته الزجل، وكان الموضوع هجاء الخديو والإنجليز والخونة جميعًا!..

وتتسع الدائرة التى تسمع وتضحك، ويعد نديم الجندى الموهوب بأن ينشر أزجاله فى الطائف، ويعاتبه قائلاً:

ـ لم لم تبعث لى بأزجالك من قبل؟

ويضحك السلامونى:

- لقد أرسلتها كلها ولكنك لم تنشر شيئًا منها يا سيدى!

وتضحك الدائرة حين يقول نديم:

- لو جئتنى وقتها ومعك هذا المدفع، فهل كنت أتردد فى نشرها؟

ولكن دوائر أخرى فى كل البلاد، كانت تتابع أنباء المعركة فى جريدة الطائف - التى تكاد تصدر يوميًا - وتضحك، وتستشعر الأمل والنشوة، وهى تقرأ وصف نديم للمعارك، وكانت له طريقته فى الوصف، وإذ كنا فى رمضان، فقد راح يكتب:

«ومازال الضرب يعلو، والنار تشتعل حتى حان وقت الغروب وآن إفطار الصائم، فخيل لعساكرنا أن رءوس الإنجليز فى برانيطها طعام يوضع فى الأطباق لتفطر عليه بنادق الصائمين ومدافعهم، ثم هللوا وكبروا، وقد قام بريق المدافع والبنادق مقام الشمس».

***

وعجز الجيش الإنجليزى عن أن يتقدم خطوة واحدة فى جبهة «كفر الدوار» العنيدة الصلبة، التى أحسن المهندس «محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى بناء استحكاماتها المنيعة، فلم يكن بقدور أى جيش مهاجم أن يصل إليها إلا عن الطريق الضيق المجاور للسكة الحديد، والذى تحيط به من الجانبين بحيرة مريوط الضحلة، بينما استقرت مدافع كروب الضخمة على التلال المحيطة بمواقع الجيش ليصبح الطريق الوحيد لتقدم الإنجليز تحت نيرانها، وليضطر الإنجليز للدخول فى هذه المصيدة، قام بسد ترعة المحمودية التى تمد الإسكندرية بالمياه العذبة!.

وفى الوقت الذى انتهى فيه «محمود فهمى» من إغلاق المنافذ الشمالية للدلتا بعدد من المواقع الحصينة فى رشيد، ودمياط وبين رشيد وبحيرة البرلس، بقيت الجبهة الشرقية بلا تحصينات جديدة مكتفية بوسائل الدفاع العادية، باعتبار القناة محايدة لمصلحة التجارة الدولية، كانت تلك مشكلة من مشاكل السياسة قبل أن تكون من مشاكل الحرب، فرغم ضرب الإسكندرية، كان مؤتمر الآستانة لايزال يواصل جلساته، ولاتزال إنجلترا تواصل عبر مجموعة المصالح المعقدة لدول هذا المؤتمر، مناوراتها لتظفر باحتلال مصر، وكانت إنجلترا التى ملأت الدنيا صراخًا بما يتهدد أرواح الأجانب ومصالحهم فى مصر، أصبحت بعد احتلال الإسكندرية تملؤها صراخًا أيضًا بما يتهدد

التجارة العالمية نتيجة ما يمكن أن يقوم به الثوار من تدمير لقناة السويس، وإذ كاد عرابى أن يفقد خيط الأمل الذى كان يتلمسه فيما بين مصالح الدول الأوروبية من تناقضات قد توقف تدخل بريطانيا، وإذ توشك تركيا نفسها أن تصبح أداة احتلال بدلاً من أن تحول دونه، فلم يعد أمامه سوى أن يستجيب على الأقل لتوسلات محمود فهمى بضرورة تحصين الجبهة الشرقية، وحتى يصبح تعطيل المرور فى قناة السويس عملاً ممكنًا لو اضطرتهم الظروف إليه!!

وفى ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢ أبرق عرابى إلى المجلس العرفى فى القاهرة يطلب «تعيين قوة كافية لإقامتها فى رأس الوادى وفى جهة الصالحية لصد ما عساه يطرأ من جهة السويس وبور سعيد، وما بينهما» ولكن المجلس المذكور أبرق إلى عرابى فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ (٦ رمضان سنة ١٢٩٩) يقول بعد الإشارة إلى برقية عرابى، «وبعرض التلغراف على المجلس المنعقد بديوان الجهادية من حضرات وكلاء النظارة والذوات الملكية والضبطان العسكرية الموقعين بأدناه، والمداولة فبذلك به قد تقرر باتحاد الآراء عدم موافقة إرسال عساكر إلى جهتى الوادى والصالحية لمنع ما عساه يحدث من القيل والقال من أن ذلك من أنواع التهديد للقنال، وغير ذلك، إنما لكون أنه من الضرورى المهم، استعداد قوة بجميع أسلحتها وخلافه فيصير استعداد القوة المذكورة، ويجرى إقامتها بالعباسية مستعدة للحركة متى مست الحاجة إلى ذلك، وعلى هذا يجرى إشعار سعادة ناظر الجهادية بذلك كما استقر عليه الرأى».

ويصرخ محمود فهمى: ولماذا نترك المبادرة للعدو؟ لو سبقنا إلى السيطرة على القناة فلن نتمكن حتى من بناء استحكاماتنا؟

كان للحرب منطقها، وكان للسياسة منطق أخر، ودعمت برقيات «دليسبس» رئيس شركة القناة، التى يؤكد فيها لعرابى حيدة القناة، واستعداد حكومة فرنسا للدفاع عن هذه الحيدة، وبرقية المجلس العرفى المصرى، منطق السياسة، وفى أواخر يوليو سنة ١٨٨٢ حدث تطور فى الموقف الدولى، لقد سقطت الوزارة الفرنسية التى كان «دليسبس» يعتمد على تأييدها له فى حماية قناة السويس من استخدام إنجلترا لها فى الأعمال العسكرية!.

ولم يوافق البرلمان الفرنسى على اعتماد المبالغ اللازمة للحملة التى أرادتها الحكومة الفرنسية لحماية القناة، وضمان حيادها ولم تضيع إنجلترا الفرصة، فاقتحمت السفينة

الحربية «أوريون» قناة السويس، لتقف فى بحيرة التمساح، ثم وصل الأدميرال «هوت» يقود أربع سفن حربية من السويس إلى بور سعيد فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٢.

وحين قرر المجلس العرفى فور ذلك نقل الجنود والمعدات إلى الجبهة الشرقية، كان الوقت الملائم قد فات وكانت فكرة تعطيل الملاحة فى القناة قد أصبحت من الناحية العملية شبه مستحيلة، فإنجلترا رغم أنها لم تقم آنذاك بغلق القناة، ولم تنزل الجنود إلى البر، إلا أنها أصبحت قادرة على منع المصريين من سد القناة فى وجه سفنها! ولكن حتى هذه اللحظة، كان الجيش الذى نجح فى صد الانجليز عند «كفر الدوار» يسرع لصدهم فى الجبهة الشرقية عند «التل الكبير» التى قرر المجلس أن تكون قاعدة للدفاع هناك!!

فى النصف الأخير من شهر رمضان فى ذلك العام ١٢٩٩ هـ لم يكن الجنود الفلاحون المنتشرون على حدود مصر ينتظرون بعد أيام نفس العيد الذى يأتى كل عام. كان العيد القادم يحمل لهم آمالاً بلا حدود، لقد جربوا القتال ضد الإنجليز، وجربوا النصر عليهم، وأنفك سحر الدولة التى تدعى سيدة البحار، وباتوا على قيد خطوات من الحرية، الحرية العريضة التى حلموا بها دائمًا دون أن يروها أبدًا! وحين كان يجلس نديم، وسط الجنود فى كفر الدوار التى كان العدو لايزال يركز عليها هجومه اليائس. ليقرأ لهم أو يكتب رسائل ذويهم، كانت كلمة الحرية الدافئة تجرى على قلمه أو لسانه، فيجد لها طعمًا لم يجده من قبل، ذلك أنها لم تعد مجرد كلمة، لقد أصبحت جنودًا وأسلحة، ودماء وجراحًا ووعيًا ومحبة!

كانت تلك أول مرة يمسك فيها الفلاحون جنودًا وضباطًا بالسلاح ليدافعوا عن مصر!! ولقد حاربوا من قبل فى بلدان كثيرة للدفاع عن مصالح الإمبراطورية العثمانية، وبذلوا أرواحهم من أجل أولئك الذين استعبدوا هذه الأرواح! أما الآن فهم يدافعون عن مصر! وكان نديم خير من يوضح هذه الحقيقة وخير من ينتهز الفرصة - والأنباء تشى ببوادر تغيير فى موقف تركيا من الثوار - ليوضح الفروق بين تركيا الإمبراطورية المتداعية التى تمثل التخلف، وبين تركيا التى كانت ترمز لوحدة العالم الإسلامى!!

يفعل ذلك بينما يقدم للجنود هدايا الشعب التى تدفقت على الجيش من كل البلاد، حلوى وملابس وأطعمة وأغطية وفاكهة، كانت ثروة مصر توشك أن تصبح على نحو ما



ملكًا للمصريين، كانت تلك صورة أخرى للعدالة وللتضحية، كان ثمة عالم جديد من القيم والسلوك، يولد فى صيف هذا العام على حدود مصر، ولم يكن من السهل أن يطرح الجنود أفكارهم القديمة عن كل شىء، عن السلطان خليفة المسلمين، ولا حتى خوفهم الغريزى من الحرب، ولكن «نديم» بات يدرك فى وضوح أن العبء الأكبر من الخوف ينوء به أولئك الذين يتابعون أخبار الحرب من قريب أو بعيد، أما الذين يخوضونها، فإن خوفهم يصبح جزءًا لا يشعرون بوجوده إلا كما يشعر المرء بسريان الدم فى عروقه أو تنفسه، وكذلك تصبح الشجاعة أو العقيدة، وقد يحتاج المقاتل إلى سلاح وفى صيف يوليو فى صحارى مصر يحتاج أكثر إلى جرعة ماء، وفى وقت الراحة إلى ظل خيمة، أو رسالة من أهله الذين لم يفارقهم من قبل، أو وجبة طعام، ولكن الشعب الذى يتابع أخبار القتال بين بلده وبين أقوى دولة فى العالم آنذاك هو الذى يجد الوقت للخوف، وللتفكير فيما يحتمل أن يسفر عنه هذا الصدام، وفى معنى هذا العالم الجديد الذى يولد فى عسر كأية ولادة!!.

وفى هذا الشعب كان يفكر نديم، وهو يحرر الطائف من قلب المعركة، وراح يبحث عن الفكرة المناسبة واللغة المناسبة كذلك، وكان قد اهتدى من خلال التجربة إلى أنه فى أوقات الأزمة، وفى شعب كمصر، فإن الشعور الدينى هو الذى يفزع إليه الناس، وهو الذى يبقى صلبًا حين يبدأ كل شىء فى الاهتزاز، وأن الكلمة الهادئة التى تروى وكأنها خبر يرويه شاهد محايد، هى التى تمنح الهدوء والثقة والشجاعة، وإذا كان الشعب آنذاك يتعرض لأقصى حملة نفسية، تهدف إلى زعزعة ثقته فى ثورته، وفى جدوى نضاله، فقد أصدر نديم ملحقًا للطائف، يتضمن أخبارًا قصيرة هادئة، تبدو وكأنها رواية ناقل لا يهمه سوى الحقيقة، ولكن الحقيقة هذه المرة تثير مكامن الشعور الدينى، وتمزق أسطورة الخديو كحاكم شرعى، والإنجليز كحماة له وللسلام الذى يزعمونه!

وفى هذا الملحق، كان الشعب يقرأ مثل هذه الأخبار «أباد الإنجليز كثيرًا من أهالى الإسكندرية، وكان يفتحون بطون الموتى، ويحشونها بالجير ثم يرمونها فى حفرة من غير غسيل ولا تكفين ولا صلاة وتوفيق يقول: «إنهم محبون للسلم لا للحرب»».

«كثيرًا ما يطلب الخديو فجأة الالتجاء إلى المراكب الإنجليزية خوفًا من هجوم الجيش المصرى، وحين يطمئنه حراسه الإنجليز يعود إلى سراى رأس التين، وقد بلغت به الحال درجة الذهول والحيرة فهو لا يستقر على حال ولا يقر فى مكان.

«أشاع بعض القادمين من الإسكندرية أن الإنجليز قتلوا سلطان باشا ولكن تبين أن الذى قتل هو خادمه بينما كان يخلع له حذاءه، وأخطأت الرصاصة «سلطان» باشا ومن الصدمة أصيب سلطان باشا بالأمراض».

«شريف باشا يبكى فى الإسكندرية، يعض أصابع الندم وغلب عليه الذهول والصمت، وكان فى بعد عن هذا لو لم يمل إلى الإنجليز، ويتفق معهم على اللائحة التى عادت على البلاد بالشر، وثارت الحرب بسببها، وقد أرسل إلى أديب أسحق ليحضر من الشام ليسليه على حاله، ويدبره فى أمره.

***

ولم يكن موت «البكباشى محروس» كافيًا لتفسير لغز الشجاعة الأبدى، ولا لفهم حقيقة الخوف أو الألم وحين تندفع الحياة فى حركتها فإن محاولة الفهم أو التفسير نفسها تبدو وكأنها غريبة على هذه الحركة! لقد كان الجيش الإنجليزى يكرر محاولاته اليائسة فى اقتحام خطوط «كفر الدوار» الصلبة فقام بهجوم مثلث: ميمنته أخذت طريق السكة الحديد من القبارى، وميسرته جاءت من الرمل على ضفة المحمودية واندفع قلب الهجوم من طريق الجسر الذى يعبر المحمودية وكان البكباشى محروس الذى يعمل ضمن فرقة الفرسان يواجه هجوم الميسرة!!

ولم تكن صلة نديم بالبكباشى «محروس» تمتد إلى أبعد من وجوده فى كفر الدوار، ولم تكن فى عمق صلته بحسن رضوان أو محمد عبيد أو محمد فودة أو أحمد عفت أو حجازى، هذه المجموعة التى كانت تمثل النصف الثانى لضباط الثورة، والتى كانت ترسم مع نديم صورة المستقبل، ولا تمل مناقشة الأفكار الجديدة عن الجمهورية والدستور والحرية والعدالة بحرية لا يملكها عرابى نفسه، ولا تتعب من تقسيم الناس وتصنيفهم مع الثورة أو ضدها، كان البكباشى «محروس» الطويل الأسمر الصموت، يحب فرسه، ولكنه لا يحب أن يتخذ مثلهم من الثروة أو الحرفة أو الثقافة أو الدين أساسًا لتقسيم الناس إلى طوائف مع الثورة أو عليها. كانت له طريقته الخاصة فى تقسيمهم، ذلك أن الناس جميعًا فى رأيه ينقسمون إلى طيبين أو أشرار، وأنت تجد النوعين فى كل فئة ومهنة ودين وبلد، وكان يعتمد على إحساسه الداخلى فى وضع كل شخص فى مكانه ولم يكن يحب أن يناقش أحد إحساسه ذلك ولا ما يزعمه ذلك الإحساس من أن الأشرار أكثر جدًا من الطيبين، ولقد عزله إحساسه ذلك عن أن يبرز وسط رفاقه من الضباط،

مكتفيًا بصداقة فرسه، والسؤال فى كل رسائله إلى أسرته الغنية عن مملكته الخاصة من الطيور والحيوانات فى قريته، كان رجلاً غريبًا ومحبًا للثورة، وشجاعًا، وغير راض عن الفتوى التى تبيح إفطار الجنود، هكذا يزعم رفاقه، أمّا نديم الذى كان يولع أحيانًا بالغرائب، فلم يتردد فى اقتحام عزلة البكباشى «محروس» وكان أغرب ما اكتشفه «نديم» هو أن حب محروس للثورة جزء من حبه لعرابى الذى كان يضعه فى قمة الناس الطيبين وكانت أكبر مشكلة فى حياة البكباشى «محروس» إن حبه الداخلى لعرابى يصطدم بكراهية داخلية لا تقبل المناقشة لبعض من يحيطون به، وحين سأله نديم عن الأسماء، فوجئ به يذكر بعض الأسماء التى تحيط بها ريبه وشكوكه. وإذا كان لكل شىء سبب لدى نديم، فلم يذكر محروس أى أسباب يمكن أن تناقش، ولكن هذا وحده كان كافيًا لكى يؤثره نديم بحب لا يناقش أيضًا!

وحين نشبت المعركة التى تصدى فيها البكباشى «محروس» لمسيرة الجيش الإنجليزى على ضفة المحمودية، بلغت من العنف إلى الحد الذى تلاحم فيه الجيشان بالسلاح الأبيض، وهزم الإنجليز فى تلك المعركة، وتراجعوا حين حل الظلام تاركين قتلاهم وجرحاهم على جسر المحمودية ليرى المصريون فى صباح اليوم التالى كيف حاربوا وكيف انتصروا؟

ولكن البكباشى «محروس» لم يكن هناك ليرى كيف حارب؟ كان رفاقه فى المعركة هم الذين رأوا ورووا كيف حارب؟ فبعد أن سقطت فرسه مثخنًا بالجراح ظل يحارب، لا أحد أثناء التحام الجنود بالسلاح الأبيض يشعر بما يحدث لغيره، وربما بما يحدث له، ولكن البكباشى «محروس» الذى ظل يقاتل مترجلا، ويصرخ كالمجنون ويندفع رغم جراحه خلال السناكى المشرعة فى أطراف البنادق، وكأنه يطارد الموت ذاته أبى إلا أن يجعل من موته لغزًا آخر لا يقل عن لغز حياته!

لقد حمله رفاقه بعد انتهاء المعركة، وأغمضوا عيونهم حين حاول الطبيب تضميد جراحه، ولكنه هو لم يغمض عينيه، ولم يرسل صيحة ألم، وكانت فيه بقية حياة كافية لأن تمكنه من السؤال عن فرسه وعن نديم، ووقتها لم يجدوا «نديم» وأطل عليه عرابى بوجهه الضخم، وابتسامته المشجعة، ولكن البكباشى محروس راح يشجع عرابى «لا تخف من الإنجليز، لقد فروا!!» وحين اشتدت عليه الحمى راح يهذى بأسماء الطيبين والأشرار، ويحذر من الإنجليز ومن غيرهم، ولم يجد نديم الذى ـ جاء متأخرًا ـ فى هذيانه ما يفسره صحوه!.

كان كل شىء بلا سبب، ومع ذلك فهو يلامس الحقيقة وحين وقفوا أمام المقبرة الصغيرة التى وارت جثمانه الضخم، أدار عدد من الضباط رءوسهم!

وحين تمتم «حسن رضوان» بسؤال لم يسمعه نديم، لم يجد لديه أية رغبة فى أن يفهم السؤال أو يرد الجواب، كان قد سئم الأسئلة والأجوبة، كان الرجل الصموت الذى بدأ كلغز، وحارب كقديس، ومات كشهيد، يترك نديم أمام وجه آخر للحياة لا يفهمه، ولكنه لا يملك سوى أن ينحنى أمامه فى خشوع، ويبكى فى صمت!.

* * *

فى كفر الدوار، وعند ناحية كنج عثمان، وفى خيمة عرابى الضخمة الوثيرة، التى كانت يوما خيمة سعيد باشا والى مصر السابق، والتى أهدتها أرملته لعرابى مع تمنياتها له بالنصر، كان نديم يقضى بعض وقته مع هذا النفر من ضباط مصر الذين سولت لهم نفوسهم أن يسبقوا الزمن وأن يتصدوا لموجة الاستعمار العالمى التى بلغت ذروتها فى نهاية القرن التاسع عشر!!

وكان نديم قد تعود أن يشارك فى بعض هذه الجلسات، وأن يضع رأسه بين هذه الرءوس التى تتقارب لتفحص أكوام البرقيات والتقارير والرسائل والصحف والخرائط، وتتناقش، وتدخن، وتفرغ فى عصبية أقداح الماء والقهوة والشاى وتمسح العرق!!

ومن خلال هذه الأكوام التى تعلو وتهبط، كانت تتبدل صورة الأشياء، لقد انتهت مهزلة المؤتمر الدولى فى الآستانة بأن قرر فى ١٤ أغسطس تأجيل جلساته إلى أجل غير مسمى! تاركًا إنجلترا تفعل ما تشاء، ولم يعد أمام تركيا التى ترددت طويلاً أمام قرار المؤتمر بأن ترسل بجيش عثمانى إلى مصر، لم يعد أمامها سوى أن تجثو أمام بريطانيا لكى توافق على اشتراكها معها فى التدخل، ولكن بريطانيا التى خلا لها الجو راحت تتقاضاها الثمن، وكان شرطها لهذه الموافقة أن يصدر السلطان منشورا بعصيان عرابى، وبأن الخديو هو ممثله الشرعى فى مصر، وأصبحت مسألة صدور هذا المنشور - الذى كان موضع التكهنات والشكوك - مسألة وقت.

وقبل أن يصدر منشور السلطان، سبقته منشورات من الخديو ومن قائد الحملة الإنجليزية، تمهد أمامه الطريق، كانت هذه حربا من نوع آخر، حرب المنشورات

والرسائل حربا جنونيها من البدو الذين كانوا ينتشرون على حدود مصر، ويشكلون طبقة عجيبة من الناس ومشكلة من مشكلات عرابى، فولاؤهم أولاً وأخيراً لشيخ القبيلة الذى يجعل منهم أنذالا أو أبطالاً كما يشاء. أو كما يدفع له، كانوا بحكم وجودهم فى الصحارى حراس الحدود الواسعة، وأحيانًا طلائع الجيش وعيونه، وأخطر ثغرة فيه، ولم تكن ثمة طريقة حاسمة للتخلص منهم أو لضمان ولائهم، كانوا جزءًا من قدر مصر فى ذلك الحين! ولقد ضبط الجنود المصريون بعضا منهم يحملون رسائل ومنشورات من سلطان باشا لحفنة من أعوانه داخل القطر، وباستجوابهم تكشفت لعرابى أسلحة جديدة يستخدمها العدو، الذهب، والوعود الكبيرة، كما تكشفت له حقيقة العلاقات المريبة التى لا تزال تربط عدداً من عمد البلاد وأعيانها بالخديو، والعلاقات التى يحاول سلطان باشا أن يمدها داخل الجيش نفسه!

قد يصلح نديم لهذا النوع من الحرب، قد يجد الكلمة المناسبة يكتبها أو يقولها، فتفعل ما لا تفعله المحاكمات أو التحفظات، إن المشكلة لم تعد مشكلة شخص أو أشخاص تحيط بهم الشكوك ولكنها مشكلة التأثير العام لهذا النوع من الحرب فى هذا الوقت العصيب!

وقال حسن رضوان فى أحد من هذه الاجتماعات:

- انتصارنا وحده يحيل هذه المنشوات إلى قصاصات من الورق!!

وفى شك تساءل محمد فودة: ولكن لو صدر منشور السلطان الآن.. فهل ينظر إليه الناس هنا أو فى الخارج كقصاصة من الورق؟

وزمجر نديم:

- لو صدر منشور السلطان فسأنشره فى الطائف وأرد عليه كلمة كلمة، وأقضى على أسطورة السلطان نفسها!

ورفع عرابى رأسه فى بطء، وقال بلهجة يغلب عليها الضيق:

- تريد أن تنوب عنهم فى توزيع المنشور فى مجلتك؟

- مناقشته أجدى من تسلله كوباء!

- لن تقضى فى يوم على أسطورة عمرها مئات السنين!

واندفع حجازى:

- لقد قضينا فى كفر الدوار على أسطورة الإنجليز!

ولم يكن حجازى مجرد متحمس، فقد عاود الإنجليز فى ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٨٢م، وهو نفس الوقت الذى بدءوا فيه بإنزال جنودهم عند الإسماعيلية، عاودوا الهجوم المركز ولثلاثة أيام متوالية على كفر الدوار، ومنوا فى هذه الأيام بهزائم مريرة!

ولكن المعركة تتحول الآن إلى الجبهة الشرقية، فالامدادات القادمة من الهند وقبرص ومالطة تتدفق كلها على قناة السويس، ولم تعد ثمة آمال فى المؤتمر الدولى ولا فى فرنسا، كانت الأنظار كلها تتجه إلى جنود الفلاحين الذين أسرعوا على عجل إلى هناك.. وعادت الرءوس تتقارب فى خيمة عرابى، وأكوام البرقيات والرسائل تعلو وتهبط، ومن هذه الأكوام كانت تبرز صورة جديدة للأشياء!

١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢م.

من رئيس أركان حرب لسعادة ناضر الجهادية أفندم «إن أسباب وجوب حضور سعادة ريس عموم أركان حرب هنا، هو أولاً أن النقط جميعها، وضعت فى مبدأ الأمر على فرض أن القنال حر وليس مهدداً ولما صار محققًا أن القنال غير حر وأن مراكب الإنجليز فى الإسماعيلية يمكنها الضرب على معسكرنا بنفيشة، وعندها تنجبر عساكرنا على الرجعة إلى الوراء، وحينئذ يسهل عليهم الخروج، وقطع السكة الحديد والتلغراف ما بين سرابيوم ونفيشة.. وحينئذ تنقطع عن عساكرنا المئونة والذخائر! و.. و.. و.. وهذا هو السبب الموجب لطلب سعادة أفندى ريس عموم أركان حرب ولسعادتكم الأمر وعلينا الطاعة».

* * *

٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢م.

إلى ناظر جهادية بكفر الدوار.

حيث إن العدو فأجأنا من جهة الإسماعيلية. ولم يحترم حيادة القنال التى احترمناها لغاية تاريخه، وضرورى من أعمال الاستحكامات اللازمة بالمواضع المهمة، فيجرى إحضار أربعة آلاف نفر للعمل فى إنشاء الاستحكامات المذكورة.. إلخ.

٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٢م.

إلى ناظر جهادية بكفر الدوار

حدثت معركة بين المسخوطة والإسماعيلية. وسببها ما أصاب العدو من سد ترعة الحلوة. فخرج بأربع أورط بيادة وأربعة مدافع جبلى، وكثير من السوارى، ولم يكن موجودا فى خفر الاستحكامات إلا أربع بلوكات بيادة، وبلوكين سوارى، ومدفعين جبلى. وفى الحال توجه عبدالقادر بك بآلايه، وحضرة عيد بك بالايه واستمرت الحرب حتى تزلزت أقدام العدو، ورجع إلى الخلف، ولم يزل سعادة راشد بك ومحمد عبيد فى ميدان المحاربة..

٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٢م.

سقطت المسخوطة، والمحسمة، وأسر محمود فهمى أثناء تفقده لبعض المواقع بثيابه المدنية!!.

٢٦ أغسطس سنة ١٨٨٢م.

سقطت القصاصين. وكان ذلك آخر خبر تنقله البرقيات، كانت خيمة عرابى قد انتقلت لتوها إلى التل الكبير فور وصول البرقيات بسقوط المواقع الأمامية أمام الجيش الإنجليزى الذى يواصل زحفه فى اتجاه الموقع الرئيسى لقوى الدفاع عند التل الكبير، وفور وصول أخبار تفيد بأن تراجع الجيش ليس نتيجة لقوة الهجوم بقدر ما هو نتيجة لتراخى بعض القواد، وتردد اسم على بك يوسف ميرالاى بيادة كواحد منهم، وتذكر نديم كلمات البكباشى «محروس» التى أصبح لها بعد استشهاده سحر النبوءة، وإذا كان نديم يتذكر أسبابًا معقولة لسخيمة «على يوسف» على «عرابى» كتقديمه «لطلبة عصمت» قائد «كفر الدوار» عليه فى الترقية لرتبة اللواء، فلم يكن يصدق أن تصل الأمور إلى تعمد الخيانة، فالنصر يحمل له وللمصريين جميعًا شيئًا يفوق عواطف البشر، وكان واضحًا أن الاستعداد فى المواقع الأمامية لم يكتمل، بل إنه لم يكتمل بعد فى الموقع الرئيسى بالتل الكبير، لقد أسر نابغة الاستحكامات «محمود فهمى» بأسهل طريقة ممكنة، بينما يمشى وحده يتفقد بعض المرتفعات الأمامية، وقبل أن ينجز كل مهمته!! وقد تكون هذه بعض أسباب الهزيمة!

وكانت خبرة نديم الجديدة بالحرب تجعله يدرك معنى ما قاله يوما «طلبة عصمت» من أنها تختلف عن غيرها من الأشياء!

وقد يجوز الحديث عن الشجاعة والخوف، أما الخيانة؟

* * *

وفى خيمة عرابى فى التل الكبير، كانت الرءوس بما فيها رأس «على يوسف» نفسه تلتقى حول أكوام البرقيات والخرائط والتقارير، لتعد الخطة القادمة، وقدم من القاهرة، «على باشا فهمى» الذى استدعاه عرابى ليقود بنفسه المعارك القادمة، وكتب نديم فى الطائف يصف انسحاب الجيش، وكأنه نوع من المناورة، وتقرر أن يبدأ المصريون بالهجوم، وكانت الخطة التى استقروا عليها أن يتحرك الجيش فى شكل مقعر ليكتنف العدو فى القصاصين من كل جهة، وتحدد الوقت الذى توجد فيه كل فرقة فى مكانها المرسوم، وكان جزءًا من الخطة أن تتقدم قوات الصالحية بقيادة «البارودى» ليلاً فى اتجاه القصاصين لتصل عند الفجر إلى النقطة التى تصبح فيها ميمنة الجيش الإنجليزى محاصرة بينها وبين ميسرة القوات المصرية!

ومع أول ضوء لنهار ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢م بدأت أول معركة هجومية للجيش المصرى، ومع تقدم النهار نجحت القوات المصرية فى احتلال المواقع الأمامية للقصاصين التى انسحب منها الجيش الإنجليزى أثر قتال عنيف استخدمت فيه كل الأسلحة!

ثم وصلت من المحسمة امدادات جديدة للجيش الإنجليزى واستطاعت فرقة الفرسان الإنجليزية بقيادة الجنرال «لو» أن تقوم بهجوم مضاد، تعود به إلى المواقع التى انسحب منها الجيش، وفصل الليل بين الجيشين المتحاربين، وأخفى القتلى حتى الصباح، وأرشد عن الجرحى أنينهم، وعلقت هذه المعركة مصير الوطن كله فوق خيط دقيق تمسك به الأيدى وتشده فى كل الجهات!

كانت أول معركة تمتد فوق أرض فسيحة، تسمح بالمناورة وتتيح للإنجليز أن يفيدوا من تفوقهم فى العدة والرجال!!

وكان بمقدور الرجال الأحرار أن يجدوا فيها بذرة أمل صلب! فلم يكن يتصور هؤلاء الرجال الذين خرجوا فى صيف عام سنة ١٨٨٢م أنهم سوف يظفرون بالإنجليز فى أول معركة بعد أن حشدوا كل قواهم فى الجبهة الشرقية.

لقد أسفر النهار عن القتلى من الفريقين وجرحاهم وأسراهم، وكانت الصورة التى بدت فى ضوء يوم ٢٩ أغسطس جديرة بأن تصب العزم فى قلوب الرجال الأحرار، وإذا لم يبد النصر سهلاً، فأنه لا يبدو مستحيلاً، لقد أصبح كل شىء رهنا بصمود هؤلاء الجنود الفلاحين فى صحراء مصر. وكان السباق بين المجد والدمار يوشك أن يبلغ غايته!!

* * *

ـ لكن يجب أن يعفى «على يوسف» من دوره فى قيادة الجيش!

هكذا أصر نديم، وهو يضع رأسه هذه المرة بين عدد أقل من الرءوس التى انفرد بها عرابى فى جزء من خيمته، وكان يتردد همس محموم بأن الهجوم الإنجليزى المضاد لم ينجح ألا بسبب من تراجع «على يوسف» المشين الذى أخل بتقدم الجيش!

ويسند عرابى رأسه الضخم إلى راحته مفكرًا قبل أن يقول فى بطء:

ـ لو فتحت أذنى لكل ما يقال لسرحت نصف الجيش، أنهم يتهمون حتى «محمود فهمى» بأنه ذهب إلى هناك ليأسره الإنجليز وحتى لا يشارك فى المسئولية، المشكلة إن بعض الضباط لا يتصورون أن النصر على الإنجليز ممكن، مع أنهم..

ـ وجود هؤلاء فى الجيش هو الذى يجعل النصر مستحيلا وفى..

واستمر عرابى:

ـ ومع ذلك فلا استطيع.. يكفى أنه يقاتل فى صفوفنا.. لو كان ضدنا لفعل مثل غيره، هل أذكر لكم أسماء الذين هربوا وانضموا للإنجليز؟

ـ وجوده فى صفوفنا أخطر من وجوده فى صف الإنجليز!

ـ ليس وحده الذى تحيط به الشكوك، لقد أعجلتنا الحوادث فلم نختر شيئًا مما يحيط بنا، لا الرجال ولا الوقت ولا المكان، ولو فتحنا هذا الباب فلن يدخل منه سوى

التخاذل، سيظنون أننا ننتهز فرصة الحرب لتصفية الجيش من غير العرابيين ثم ينتشر الخوف.

* * *

ورغم أن عرابى لم يفتح هذا الباب، فقد بدأ نديم يحس ريح التخاذل تهب محملة بالسموم، وكان ذلك فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢م فقد أصدر السلطان منشوره بعصيان عرابى، وأذاعته إنجلترا فى كل أنحاء العالم الإسلامى، ونشرته جريدة، «الجوائب»، وتسللت الجريدة داخل البلاد وداخل الجيش نفسه، وكانت أخبار المنشور قد سبقت وجوده، محدثة جوا من الشكوك والتساؤلات، وها هو المنشور يؤكد كل شىء! وكرر نديم مطلبه بنشر بيان السلطان فى جريدة الطائف والرد عليه كلمة، كلمة أنها فرصة العمر لتحطيم كل الأكاذيب، وفى مقدمتها أكذوبة السلطان نفسه.

ويرد عرابى فى غيظ:

- أيها المجنون؟ السلطان أكذوبة يصدقها الناس فلها قوة الحقيقة، وكنا نستعين بها لكسبهم، والآن يستعين بها الإنجليز رغم قوتهم، لأنهم ليسوا بلهاء! وليس من الحكمة أن نساعدهم فى نشر بيان السلطان! وأعتقد أن الانتصار فى معركة أخرى سريعة سيكون أعظم رد!!

وفكر نديم فى مرارة: «معركة أخرى سريعة!» كانوا فى حاجة لبعض الوقت قبل الدخول فى معركة فاصلة!

والآن لم يعد الانتظار فى صالحهم! ولا السرعة كذلك! هل جاءوا حقًا قبل أوانهم؟ وما هو أوان الحرية؟ وهل كان عمر الشقاء قصيرًا؟

* * *

وتحددت ليلة ٩ سبتمبر موعدا للمعركة التى أرادها عرابى لتقطع الطريق أمام منشور السلطان الذى بدأ خبره يستشرى كوباء، لن يتوقع الإنجليز معركة بهذه السرعة وهم الذين يعتقدون أنهم فاجئوا عرابى بفتح هذه الجبهة، وبالطبع ينتظرون أن يحدث منشور السلطان تأثيره فى النفوس، واعتمد عرابى على عنصر المفاجأة فى هذه المعركة وأعاد تحديد الأماكن والوقت وحشد كل ما استطاعه فى هذا الوقت القصير، ولم

ينتظر نديم نتيجة هذه المعركة، كان قد بدأ يخوض معركة المنشور السلطانى وحده، وعلى طريقته، وكانت أكثر المعارك ضراوة، فالضباط لا يتكلمون صراحة فى الموضوع ولا يدرى نديم كيف يبدأ الحديث! وكثيرًا ما يفاجأ بأن بعضهم يعرف بالمسألة منه لأول مرة! والذين قرءوا المنشور يؤكدون له أنهم لا يبالون بما يحتويه، وقصارى ما يقولونه: هو أنهم يخشون تأثيره على غيرهم وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة لكى يجرؤ البعض على البوح بشكوكه وهواجسه، فينسبها إلى غيره، ولم يكن نديم يبالى بالطريقة التى يفصحون بها عن مخاوفهم! كان ينتهز أية فرصة ليمزق شكوكهم فى ضراوة!

جندى صغير من الذين نجح نديم فى أن يكسب ثقتهم هو الذى يجرؤ على أن يسأله مرة فى صراحة وبساطة:

- يقولون إن السلطان أصدر منشورا بعصيان عرابى وأن الجيش التركى فى طريقه إلى مصر؟!

وحاول نديم أن يتذكر اسم الجندى الذى يخاطبه دون جدوى، وفى الوقت القصير الذى قضاه فى الجبهة الشرقية كان قد أصبح صديقًا لأكبر عدد من الجنود، ولم يجد معنى لأن يخفى عنه الحقيقة! ولكنه تردد لحظات قبل أن يسأله:

- وهل قرأت مثل هذا المنشور؟

- لا أعرف القراءة

ولأول مرة يحتبس الكلام فى فم نديم، أنه لا يقدر على أن يمزق شكوك هذا الجندى البائس دون أن يمزق روحه فى نفس الوقت. لقد جاء إلى هنا ليدافع عن وطنه ضد الكفار الغزاة، وكان من الممكن أن يمزق فى رأسه صورة «الخديو» ولكن كيف يمزق صورة السلطان خليفة المسلمين؟ إن الزمن ليس وهما، وهذا الفلاح البائس الذى لا يعرف القراءة يعلق فى عنق نديم بسؤاله حبلا!

- لا تصدق هذه الأكاذيب فالإنجليز الكفرة هم الذين يكتبونها! لأنهم يخافون من المصريين، يريدون أن يدخلوا البلاد بلا حرب بعد تكرار هزائمهم!

ويتهلل وجه الجندى، ويرتعب نديم، فمثل هذا الجندى يمثل كثرة الجيش، والضباط الذين يعون مسئولياتهم يبدون الآن كجزيرة صغيرة محاصرة بالأكاذيب وليس هناك

أخطر من أن يجد الخوف، وأن يجد الحقد، مثل هذه الفرصة التى يقدمها منشور السلطان، ليس هناك أخطر من أن تجد الخيانة قناعا أيا كان لونه؟

وأصبح نديم يستعجل المعركة، وقبل أن يصبح حتمًا على المصريين أن يحاربوا فى وقت واحد الإنجليز والأتراك، الكفار والمسلمين، وبالتأكيد لم يكن هذا الوقت هو أنسب الأوقات للجدل، ولا لإقناع الناس بالصواب والخطأ، فى هذه المسألة أو فى غيرها، كان عمر الصواب ثلاثة أعوام لاغير، وعمر الخطأ مئات السنين، وتأكد لنديم أنهم فعلاً يحاربون الزمن! هل الولاء هو الذى يصنع النصر أم النصر هو الذى يصنع الولاء؟

وفى ليل ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢م، فوجئ الجيش المصرى الذى كان يعتمد على مفاجأة الإنجليز بأنهم كانوا يعرفون كل شىء، الأماكن، والوقت، وكأنهم يجلسون مع المصريين على نفس المنضدة، ويرسمون نفس الخطة، ما الذى حدث؟ لم يكن هناك من يسأل! ولا من يجيب!

ونشب أعنف قتال عند القصاصين، ولم تصل قوات الصالحية لا فى وقتها ولا فى مكانها، كانت هذه القوات قد ضلت طريقها هذه المرة فى ليل الصحراء، رغم أن العربان أبناء الليل والصحارى كانوا يرشدونها، وحين تمكنت بعض هذه القوات من الوصول فى غير موعدها، وجدت مدفعية الجيش الإنجليزى فى انتظارها وكأنها على موعد! ولم يكن ثمة وقت للسؤال أو الدهشة، كانت ثمة أعنف حرب خاضها المصريون، ورغم كل شىء كاد الجيش المصرى بعد زوال أثر المفاجأة، أن يصنع المعجزة فى ضوء نهار ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢م ولكن إصابة القائد العام على باشا فهمى والقومندان راشد باشا حسنى برصاص العدو حولت طاقة الهجوم إلى طاقة دفاع وصمود وفصل ليل يوم ١٠ سبتمبر بين الجيشين!

وفى ضوء يوم ١١ سبتمبر تكشفت بعض الأمور، كانت كل الملابسات تؤكد أن ثمة خيانة، وأن لم يستطع شخص واحد أن يقدم الدليل، أو الكيفية!

- ولماذا الدليل؟ وهل ستعقد محاكمة لأحد؟ إنها حالة حرب!

هكذا تكلمت هذه الحفنة من خلصاء عرابى وهم يقدمون الأسماء التى تكتنفها الشكوك!

وقال محمد عبيد لعرابى:

ـ أرسلهم إلى القاهرة فى نفس القطار الذى يحمل الجرحى!

ـ إنها حالة حرب، هذا صحيح، ولكنهم يخوضونها معنا، معرضين أنفسهم لرصاص العدو الذى لا يختار ضحاياه! وإذا بدأنا الشك فى أحد، فسوف ننتهى إلى الشك فى أنفسنا!

وألمح إلى تفوق العدو فى العدة والرجال!! وإلى أن الحرب نصر وهزيمة!!

ـ المهم أن نطهر صفوفنا من الخيانة!

ويئسوا من عرابى، وكاد بعضهم أن ييأس من النصر، بينما أكد محمد عبيد أن النصر كان فى أيديهم هذه المرة كما كان فى المرة السابقة وأشار إلى قتلى الإنجليز وأسراهم ثم أضاف:

ـ أن نطهر صفوفنا من الخيانة!

وتمتم نديم فى أسى:

ـ الخيانة! أى معنى غريب يمكن أن تنطوى عليه تلك الكلمة؟

لم يكن يخاطب أحدا، ولم يكن ينصت إلى أحد!

كان لأول مرة راغبًا عن كل شىء، عاجزًا عن أن يفهم أولئك الذين لا تنتهى ثقتهم بأنفسهم، ولا أولئك الذين لا تنتهى ثقتهم بغيرهم، لم يكن مثل محمد عبيد الذى راح يعمل مع القائد الجديد على باشا الروبى الذى قدم على عجل من «مريوط» ليعيد مواقع الجيش وصفوفه! ولم يكن مثل عرابى الذى عاد يجتمع «بسعيد الطحاوى» أحد مشايخ العربان الذين يستخبرون له عن العدو!

لقد كان بعض العربان هم المسئولون عن عدم وصول جيش البارودى من الصالحية إلى مكانه عند القصاصين وفى موعده!

ولكن عرابى لم يكن ليرفض التعاون مع كل العربان لمجرد أن بعضهم متهم بخداعه!

كانت الحرب مهنة غريبة حتى على نديم الذى تقلب فى كل المهن، ولم يكن منطق الحياة اليومية ليسعفه فى تفهم كل ما يقع حوله!

لقد خانهم السلطان خليفة المسلمين، وخانتهم أوروبا وهاهم يخونون أنفسهم، فى الوقت الذى يستشهد فيه تحت شمس الصحراء المحرقة مئات الرجال الذين لم

يعيشوا قط!! ولم يجد أى معنى لأن يقول لهؤلاء الذين واجهوا الموت مرارا: كونوا أكثر شجاعة!

ولا لهؤلاء الذين لم تطهرهم هذه المعارك: كونوا شرفاء، لقد اختار مكانه فى خيمة تضم بعض الجرحى الذين لم توجب حالتهم الترحيل إلى القاهرة!

وأنشأ يواسيهم ويروى لهم بعض الحكايات، كان يوما يدعى «نديم» وكانت تسلية الناس مهمته، وكان مثلهم يعانى من جراح لا تنزف دما بل تنزف أملا فى لون الجراح!

وطلب صبى فى الثامنة عشرة من عمره كوبا من الماء، ثم طلب أمه، ثم أخلد إلى نوم منقطع مفزع بين ذراعى نديم.

وقال عرابى للحفنة الملتفة حوله من خلصائه:

ـ ماذا تظنون الحرب؟ مسألة أيام أو أسابيع؟ إننا نحارب الإنجليز، وصمودنا حتى الآن معجزة!! أن مجرد صمودنا سوف يغير موقف الإنجليز والأتراك، إن علينا أن نستعد لحرب طويلة، هنا وعلى كل شبر من أرض مصر! أننا حتى الآن لم نخسر معركة واحدة حقيقية، وحتى لو خسرنا معركة، فسنحارب معركة أخرى.. ثم أضاف متمهلا: إن ولادة طفل شىء عسير، فكيف تظنون ولادة دولة جديدة بل ولادة عصر جديد؟

وفكر نديم:

أى نوع من الناس هذا الرجل: حالم، أو مجنون، أو ملهم يرى ما لا يراه الناس؟

ورغم ذلك فقد كانت كلماته الهادئة تعيد البريق إلى هذه العيون المسهدة التى تتطلع إليه فى أناة!!

وأحس نديم أنها أعادت إليه شيئًا كان يفتقده هل بدأ الخوف يغزو قلبه؟ وفى الحقيقة أنه كان يخاف هذا السؤال، وكان يعتقد أنه فرغ من الإجابة عليه، فحين يقترب الموت من الحياة هذا القرب، حين تراه، وتسمعه وتحمله على يديك، حين يكون الموت اختيارك وقدرك فمن العبث أن تتحدث عن الخوف، بل من العبث أن تتحدث عن الشجاعة! إن الأشياء كلها تقترب ثم تمتزج، وتصبح فى النهاية شيئًا واحدًا، شيئًا واحدًا ينطوى على كل شىء: الحياة والموت، الفرد، والجماعة، الروح والجسد، الماضى



والحاضر والمستقبل، وأبدا لا تكون الحياة بمثل هذا التفجر ولا يكون الوجود بمثل هذا الالتحام!

ولكن شيئًا ما يخرج فجأة على هذا الإجماع الكونى، لعله العقل، فيعود كل شىء إلى مكانه، ويعود الخوف أيضًا، ولم يكن هذا الرجل الذى أعاد البريق إلى عيون الرجال يتحدث فى تلك الليلة من مساء ١٢ سبتمبر باسم العقل وحده!! وربما كان ذلك سر عظمته كما رآها نديم فى تلك الليلة..

* * *

وفى ليل ١٣ سبتمبر ١٨٨٢م، كان الظلام يخيم على خطوط الجيش المصرى ومعسكراته فى التل الكبير، وعلى مدى البصر كانت ألسنة النيران فى معسكرات الجيش الإنجليزى بالقصاصين تتراقص مؤذنة بخلود جيش الأعداء إلى الراحة، بعد المعركة الأخيرة الدامية، وكان هذا بدوره يؤكد الأخبار التى نقلها «سعيد الطحاوى» لعرابى من أن الإنجليز فى حاجة إلى وقت طويل قبل أن يصبحوا قادرين على الدخول فى معركة جديدة! وهى نفس الأخبار التى أكدتها طلائع عرابى وعيونه التى تنتشر على طول خطوط العدو لترقب تحركاته! وأخلد الجيش إلى الراحة مطمئنا إلى ما وصله من أنباء، وإلى ما يمكن أن تقوم به خطوط الدفاع الأولى، وخطوط الإنذار المتقدمة، وهبت نسمات الصيف الرخية التى تحمل روائح الخريف القادم، وتحمل أصوات الحيوانات الغافية بجوار معسكرات الجيش، والتى تحمل المؤن والذخائر وتطعم الجيش، وتخوض معه المعارك!!

ولم يدر نديم متى أدركه النوم فى تلك الليلة، ولا متى أستيقظ؟ كانت ثمة طلقات مدافع وبنادق كأنها قادمة من كابوس أو مصوبة إليه!

وكان نديم قد ألف الكوابيس والأحلام المخيفة فى تلك الأيام، ولكن ذلك لم يكن حلما، ولم يكن حقيقة، لم يكن ذلك هو الجيش، ولم تكن ثمة خطوط قتال، لم يكن ثمة فرسان ورجال، وخنادق يمر خلالها يقدم الذخائر للجنود، ويقول لهم كلمة أو كلمتين! ولم تكن مدفعية التلال تطلق ستائر من النيران تغطى تقدم الجنود، لم تكن حربا، ولكنها كانت كابوسا، وعبثا حاول أن يميز بأذنيه الأصوات أو المواقع فصوت

الرصاص لا يفترق، وكذلك صوت الفزع وخذله فجر ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢م فبدا له كل شىء مختلطا مروعا، وبما تبقى له من عقل راح يتلمس طريقه وسط هذا الكابوس إلى المواقع التى كان يحتلها «محمد عبيد» و «حسن رضوان» فى ميمنة الجيش كأن غريزته وحدها تقوده إلى الأمان.

وفى هذه المواقع وحدها حيث ثبتت حفنة من أصلب الرجال فى وجه العدو كان الكابوس يأخذ شكل الحقيقة وكانت الحقيقة التى تكشفت فى فجر ١٢ سبتمبر هى أن الجيش الإنجليزى نجح فى الإحاطة بالجيش المصرى والتسلل إلى مواقعه!

والطلائع؟ وخطوط الإنذار فى المقدمة؟

لم يكن هناك من يسأل ولا من يجيب!

لقد استيقظ الجنود على طلقات الرصاص تحاصرهم، وأطلق بعضهم عدة رصاصات قبل أن يسلم روحه، وأطلق بعضهم ساقيه قبل أن ينكفئ على وجهه تحت أقدام الخيل، وقبل أن ينتشر ضوء الفجر، أضاء الميدان بأعمدة اللهب التى ارتفعت من خطوط السكك الحديدية حيث تعمد العدو ضرب عربات الذخيرة بمدفعيته، وفى هذا الضوء تكشفت للحظات حقيقة ما يحدث فى ذلك الصباح الدامى؟

كانت الخنادق المتتابعة التى تصنع خطوط القتال وتمتد من الشرق إلى الغرب قد تحولت إلى مقابر يختلط فيها الأحياء بالموتى، وكانت الحيوانات المفزعة تجرى فى كل مكان على غير هدى بعضها فى اتجاه العدو، وبعضها يجر خلفه عربة تحترق، وتحمل الهلاك هنا وهنالك وخيمة عرابى الضخمة تقتلعها قذيفة هائلة فتضىء الميدان كله بحريق هائل، وهذه الحفنة من الرجال السودانيين التى يقودها «محمد عبيد» هى وحدها التى تصمد فى مواقعها رغم المفاجأة، ويستشهد رجالها واحدا بعد الآخر، ويستشهد القائد، وعلى مقربة منهم يسقط «حسن رضوان» جريحا دون أن يتراجع خطوة واحدة!

هل انتهى كل شىء؟ كان يبحث عن «عرابى» ليوجه إليه هذا السؤال، كان على مثل اليقين من أنه وحده هو الذى يملك أن يقول: لا.. لو بقى على قيد الحياة! والتقى بعرابى وسط الحطام، وأحس بالحياة تعود إليه رغم أنه رأى عرابى يدور بعينيه فى ذهول يتأمل ما كان يدعوه جيشه!

ـ ما الذى يبقيك هنا؟ لو مت فسوف ينتهى كل شىء!

ـ وهل بقى شىء؟

ـ مصر كلها! لم تخسر سوى موقعة! هل نسيت كلماتك؟

ـ لا..! قالها بنفس الذهول!

وتراجعا إلى بلبيس فى محاولة لجمع شتات الجيش هناك فى موقع أفضل، وهناك كانت تتلاقى شراذم الجيش المنسحب، وهناك ألتقيا بعلى الروبى الذى كان يقود الجيش فى التل الكبير.

وتحدث عرابى عن قطع السكة الحديد، وإغلاق قناطر الشرقية وجمع الفلول المنسحبة ..و ..

ـ لا.. لابد من العودة إلى القاهرة، واستشارة المجلس العرفى، فالأمر أخطر مما تظن! وتحدث عن المعركة، وعن خطوط الإنذار التى لم تنذر، والطلائع التى لم تقم بدورها، وكيف أن أول طلقة للعدو أطلقت فى قلب الجيش، وكان واضحًا أن مسألة الخيانة الغامضة لم تعد أبدا غامضة!! وكان حديثه أسئلة أكثر منه أجوبة!!

* * *

وفى المحروسة، كان بريق الحلم ينطفئ فى عينى عرابى، وبعد أن قرر المجلس العرفى ضرورة الدفاع عن القاهرة، وبعد أن راح عرابى يتفحص من تبقى من الجنود والسلاح، ظهر رأى آخر يتحدث عن سلامة القاهرة، وعن ضرورة التفاهم مع الخديو، وعن طلب العفو!!

واحتجوا بأن من تبقى من الجنود والسلاح لا يكفى لمواجهة الإنجليز، وأن الثمن هذه المرة سيكون من أرواح المدنيين أنفسهم، وعبثا حاول عرابى أن يحتفظ بحلمه أو ينقله إلى الناس، وكان المجلس العرفى نفسه هو الذى يجتمع ليكتب عريضة إلى الخديو يحملها وفد إلى الإسكندرية، عريضة تطلب عفو سموه! وكان شىء ما قد بقى فى نديم، فصرخ حين علم بأمر العريضة:

ـ العفو؟ لماذا؟ ما أضعف ذاكرة الإنسان! لقد كنا ندافع عن بلدنا وكانت الحرب بأمر الخديو نفسه فى البداية!

كانت الأمور تتغير بأسرع مما يستطيع الفكر أن يتطور من حال إلى حال، كانوا قد أصبحوا عصاة، وما فعلوه جريمة!

وأصر نديم على تغيير صيغة العريضة المرفوعة إلى الخديو، فالحرص على أرواح المدنيين شىء آخر غير طلب العفو وتسجيل العار على النفس!

- ولكن الوفد الذى يحمل العريضة سافر إلى الإسكندرية.

- نكتب عريضة أخرى ونلحق به!

- ومن يحملها؟

- سأكون مع الوفد الذى يحملها للخديوى!

وكتب نديم العريضة الجديدة التى تعترف بالهزيمة ولا تقبل الهوان، وسافر مع الوفد إلى الإسكندرية وفى الطريق جاءتهم الأنباء بأن الخديو قد ألقى القبض على الوفد الذى يلتمس العفو!

وتبادل أعضاء الوفد النظرات، كانت مهمتهم قد انتهت، ولم يجدوا معنى لمواصلة الرحلة، ولا لأن يسأل كل واحد منهم رفيقه عن الطريق الذى ينتوى المضى فيه، كانوا جميعا لا يرون أمامهم سوى طريق واحد هو العودة إلى القاهرة وانتظار ما يأتى به القدر، أما نديم فقد عاد إلى القاهرة، ولكنه لم ينتظر مثلهم!

لم تكن تلك أول مرة يواجه فيها الفشل هذه المرة كان يبدو ممتدا على طول البلاد وعرضها فقد راح نديم يبحث عن مخرج، ويبدو أنه كان يعرف عن طرقات هذه البلاد ما لا يعرفه الفشل نفسه!!

الجزء الرابع

ويتضمن قصة اختفاء نديم لمدة تسعة أعوام، التى تنتهى بالقبض عليه سنة ١٨٩١.

الهـارب

لم يكن ثمة شىء سوى الظلام، وبجسده وحده، بيديه ورجليه وبظهره، كان يدرك أن ثمة جدرانا تحيط به وتحيط بالظلام، ويستوى ظلام حجرة صغيرة بظلام الكون فى ليلة غائمة، وفى الظلام يختفى المكان والوقت، يختفى كل شىء، عدا شعور المرء بنفسه، أنه وحده يتضخم إلى الحد الذى يصبح فيه الشخص الواحد اثنين، ويصبح حديث النفس حوارا، ويسمع الإنسان صوته وكأنه صوت شخص آخر، ويتحسس أطرافه وكأنها ليست له، ولكن الظلام لا يبقى إلى الأبد، وربما أن الإنسان يكتشف أن الظلام لا يكون أبدا كاملاً، ولحظة فلحظة ينبثق شىء من قلب الظلام، يقفز إلى العين نتوء فى جدار، أو مقبض باب، أو ثوب معلق، وأخيرا تتحدد الجدران على نحو غامض، قد لا تظهر كلها، ولكنك تدرك أن هناك قائمة محددة بسقف منخفض! وهكذا يسترد المرء عينيه من جديد، وثقته فى أن شيئا لا يقوى على أن يحجب الضوء إلى ما لا نهاية! وتألف العينان ذلك الشعاع الذى قطع رحلة مضنية إليهما، ويصبح كافيا ليعود العالم الخارجى إلى مكانه ويعود الشخص إلى حجمه الطبيعى ويعود الوقت ويدرك عبدالله نديم الذى انتهى به المطاف إلى تلك الحجرة المظلمة أنه لا يزال جزءا منه!.

ويكتشف للضوء أكثر من مصدر، وأكثر من موعد، وعن طريقه يعرف الوقت، وقت الصلاة، ولأول مرة منذ وقت طويل يصلى نديم بانتظام، وتعنى الصلاة بالنسبة له لقاء مع الله ومع الناس، فباب الحجرة يفتح، ويجيئون له بالماء ليتوضأ، ويكون حديث، وتصيبه الأصوات القريبة الواضحة بنوع من الدهشة، فقد تعود أن يسمع الأصوات من بعيد خافتة مختلطة، وكأنها لا تعنى شيئا، أصوات الحيوانات والطيور هى التى بقيت على وضوحها القديم! وفى جزء من عقله فقط كان العالم القديم لا يزال كما هو، الألوان والأصوات والمسافات، الأفكار والمشاعر، وبحرص غريب كان يتشبث بهذا الجزء،

بأن يبقى كما هو، كان ذلك هو كل ما تبقى له، كل ما عاد به من رحلة أعوامه التسعة والثلاثين، التى انتهت ذات صباح فى التل الكبير!

* * *

وحين يلوح للمرء أن كل شىء قد انتهى، تكون ثمة دائما بداية، وحين يلوح أن كل ما نعيش من أجله قد تبدد، فإننا نكتشف القيمة العظيمة للحياة، لمجرد الحياة، للماء والهواء، للألوان والأصوات والمسافات، وحين قرر الآخرون أن يسلموا أنفسهم للأعداء، لم يتخذ نديم نفس القرار، قفل عائدا إلى المحروسة، ودع أباه وأمه وزوجه، قال لهم: رحلة أخرى قصيرة، ولم يسألوه إلى أين؟ ولا متى تعود؟ لم يتعودوا سؤاله حين كان من الممكن أن يجد جوابا. فكيف يسألونه هذه المرة، واصطحب خادمه «حسين» كان هو كل ما تبقى من حاشيته، ومن أيام المجد، وكان السباق الجنونى قد انتهى، وحين طرق بيت صديق فى بولاق، كان خائفا، ذلك أنه لم يختر أقرب الأصدقاء، فقد كان يعرف أن بيوتهم ستقلب بحثا عنه، وهدأ حين لم يجده خائفا.

- أيام قليلة أغادر بعدها البيت!

- ماذا حدث فى التل الكبير؟

- سأبقى حتى تطول لحيتى أكثر، ومن حسن حظك لم أكن أحلقها وقت الحرب!

- هل انتهت الحرب؟ يقولون إن «عبد العال حلمى» لم يستسلم فى دمياط!

- إذا بقى صامدا فسألحق به، وسيكون ذلك بعد أيام قليلة، لا بد أن يتغير شكلى قليلا قبل أن أغادر البيت.

- ألا يمكنك أن تقول لى شيئا عما حدث؟

- دعنى أنم بعض الوقت!

وحين غادر بيت صديقه بعد أيام قليلة، لم يكن هو عبدالله نديم، كان ذلك أحد مشايخ الطرق الصوفية، يرتدى «زعبوطا» من الصوف الأحمر، ويعتم بعمامة حمراء، ويعصب عينيه بمنديل، ويستند بيد على خادمه. وبيد أخرى على عكاز طويل كان فى يوم فرعا أخضر فى شجرة! ويتمتم بأوراد الغروب، فتهتز لحيته مع حركات شفتيه، وتهتز عمامته مع حركات رأسه.

وكان ذلك أول عهده بالظلام، وفى مرسى بولاق رحب نوتية المركب المتجه شمالا بالشيخ الصوفى وتابعه وأفسحوا لهما مكانا على ظهرها، وأغرق الشيخ فى ترديد أدعيته وحين أحس أن من حوله قد أخلدوا إلى النوم عدا صبى يمسك بالدفة فى نهاية القارب، ويغنى أغنية يتردد فى أصدائها حزن غامض غموض كلماتها، حرك العصابة قليلا عن عينيه، كان العالم يشوقه، ولم يكن الليل أبدا بمثل هذه الروعة، من قال إن الظلام يأتى فى الليل؟ ولمن تضىء كل هذه النجوم؟ ولماذا يغمض الناس عيونهم كلما فتح الليل عيونه؟ وهل كانت له قبل هذه الليلة عينان؟ كان يطارد المستحيل، وحين لم يعد هناك سوى الممكن عاد بدوره مستحيلا!

وأحكم العصابة حول عينيه مع أول حركة للصبى الجالس وراء الدفة!

* * *

واستسلم للظلام من جديد، وبدأت حواسه الأخرى تصبح أكثر يقظة لما يجرى حولها، وحين أحس بالقارب يتوقف وبحركة غير مألوفة تدب فوقه، سأل عن السبب فأجابْ بعضهم:

- كوبرى بنها مغلق، والمراكب أمامه محتجزة!

- وهل هذا موعد إغلاقه؟

- لا!

وأغرق فى تلاوة الأوراد والأدعية، وزادت حركة رأسه وشفتيه وارتفع صوته حين سمع هذا الحوار:

- هل يركب معكم رجل اسمه عبدالله نديم؟

- لا.. ليس معنا سوى راكبين أحدهما من أولياء الله!

- يفتشون كل المراكب بحثا عن هارب!

وكان ذلك صوت أحد النوتية، وكان قد بدأ يميز بدقة أصوات من حوله! ولكن صوته هو، وهو يرتفع بالدعاء والصلوات، كان غريبا على أذنيه، كانت قدرته على تغيير صوته

بعض ما كان يروق لتلاميذه ولجمهوره أيام أن كان يمثل على مسرح «زيزينيا» وها هو الآن يمثل أروع أدواره، دون أن يظفر بإعجاب أحد، يمثل ليظفر بحياته، بحياة عبدالله نديم، الذى لن يكونه أبدا بعد اليوم! وسأله نوتى آخر:

- من يكون عبد الله نديم يا سيدنا الشيخ؟ هل سمعت عنه؟

وضايقه السؤال، ولكنه أجاب وكأنه يواصل القراءة..

- «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم وأن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم» صدق الله العظيم!

وحين هم بمغادرة المركب سألوه:

- إلى أين يا سيدنا الشيخ؟

- «ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة»

ولكن حين سأله خادمه «حسين» بعد أن هبطا إلى الشاطئ وطلب منه أن يقوده إلى مركب آخر يواصل الرحلة خلف الكوبرى المغلق:

- إلى أين؟

تبين فى صوته نبرة خوف، ولم يكن قادرا على أن يرد عليه بآيات من القرآن، قال له وهو يستمد من خوفه شجاعة كان فى حاجة إليها:

- لا تخف يا ولدى، ألا ترى أن الله نجانا منهم؟ ثم أضاف: سنواصل السفر إلى دمياط!!

وهبط المنصورة حين علم باستسلام حامية دمياط ولم يتجه إلى بيوت أصدقائه هناك، أخذ ركنا فى بيت من بيوت الله، لم تكن تلك هى المنصورة! ولم يكن هو نديم، ولم يتردد فى أن يؤم المصلين حين جاء وقت الصلاة، ولا أن يأكل من الطعام الذى قدمه له أهل الخير حين أحس بالجوع!

كانت المنصورة قد غدت بدورها مجموعة من الأصوات، وكان قد بدأ يألف الظلام والخوف، وقبل أيام كان يواجه الخوف من الموت، ولكنه الآن يواجه الخوف من الحياة، خوفا هادئا، ولكنه دءوب وملح، ذلك أنه لا يبصر عدوه، وإذا قدر له أن يلتقى به،

فسوف يكون صوته أول ما يلتقى به، وهكذا كمنت مخاوفه وتناثر فى الأصوات، ووجد نفسه دون أن يدرى يصنع لكل صوت يسمعه وجها خاصا وملامح، لم يعتد بنفس السهولة أن يصبح البشر مجرد أصوات وفوجئ أنذاك فقط بأن وجوه أعدائه هى التى تتداعى مع الأصوات، وتركب عليها!

* * *

- هل سنبقى هنا طويلا يا سيدى؟

- لا... سنرحل غدا.

- إلى أين؟

- إلى قرية قريبة من هنا، اسمها «منية الغرقى»!

وحتى صوت خادمه «حسين» الذى يألفه تماما، أصبح يسبب له قلقا ملحا بما ينم عنه من خوف، كيف يستغنى عنه، وكيف يروضه إذا كان عاجزا حتى الآن عن ترويض حواسه، وتقبل عالمه الجديد؟

لقد غدا «حسين» فجأة أهم جزء فى هذا العالم، إنه عيناه ويداه، دليله ورفيقه، إنه سلامته وخطره! قوته وضعفه! وإذا كان بيت الله يتسع للمصلين ولعابرى السبيل، فإنه لا يضيق أيضا بالفضوليين والمخبرين، وإذا كانت الحرب قد انتهت فى التل الكبير، فإن الأحاديث عن هزيمة الجيش، ومصير عرابى، ومصير البلاد بعد أن دخلها الإنجليز، وبعد أن عاد إليها الخديو وحاشيته، كان البدء والختام لكل صلاة فكيف يبقى فى المسجد؟ وكيف يهرب حتى من أسئلة الناس لشيخ الطرق الصوفية عن السبب فى أن الله لم ينصر المسلمين على الإنجليز الكفرة؟ وهل ذلك لأن عرابى قد عصى أوامر الخليفة؟ أم بسبب الخيانة كما يردد الناس؟

* * *

وانتهى بعض ذلك فى قرية «منية الغرقى»، كان فى حاجة إلى بعض الوقت قبل أن يتخذ قرارا نهائيا بشأن المستقبل، وكان أصدقاؤه فى الريف من الكثرة بحيث يستحيل أن تعرفهم الحكومة جميعا، ومن الانتشار بحيث يصعب أن تصل إليهم فى وقت قريب، وارتفعت العصابة عن عينيه ليحل مكانها ذلك الظلام الكثيف الذى يرق مع الوقت،

وينبت الضوء على حواشيه!! وهدأ الخوف على النفس ليحل محله خوف أقسى على الغير، على الصديق الذى يلجأ إليه، وكان ذلك الصديق هو الذى قال له، وبلهجة جاهد لكى تكون مرحة:

ـ تصور، بعد مجيئك لى أصبحت أمتلك ألف جنيه؟

ـ ماذا تقول يا رجل؟

ـ لقد رصدت الحكومة هذا المبلغ لمن يدل عليك!

ـ حقا؟

ـ هذه قيمتك عندهم!

ـ وعندك!

ـ يمكن أن أسلمك لو جعلوها ألفين!

ولم يضحك نديم، سأله مرة أخرى بنبرة قلقة:

ـ وماذا أعدت لمن يؤوينى

ـ لا شىء سوى الإعدام، قالها وهو يضحك محاولا أن يسرى عن نديم ولكن «نديم» لم يشاركه الضحك قال له بنبرة جادة!

ـ سأسافر إلى الشام ثم إلى أوروبا!

ـ لماذا؟

ـ للدفاع عن قضية الوطن هناك، هل تظن أن كل شىء قد انتهى؟ ولم يقل له صديقه: أنت مجنون، فقط قال له معاتبا:

ـ تخاف علينا أو منا؟

ـ يا رجل كيف يتفق أن يخاف منك من يخاف عليك؟

ـ لكن كيف تتصور أن تمضى الأمور؟

ـ ما دمنا أهلا لثقتك، فلنفكر معا وبدون عجلة!

* * *



وفكر معهم الشيخ «شحاتة القصبى» شيخ الطرق الصوفية وصديقه القديم الذى كان يسكن نفس القرية، والذى طلب نديم رأيه، وأنهى إليه صديقه قرار الشيخ بأن يبقى نديم فى مخبئه لا يبرحه حتى يخف البحث عنه، وتتضح الأمور، وأن يسلم أمره لله ولهم، واطمأن نديم إلى رأى الشيخ الذى كان يعرف ما له من نفوذ وتأثير على الناس، وفى قلب الريف كان الشيخ «شحاتة القصبى» يوشك أن يكون دولة مستقلة، دولة يمكن أن تبسط حمايتها على نديم، وتتصدى للحكومة وللإنجليز معا، ولكن «نديم» الذى لم يخذله أصدقائه، يكتشف فجأة وعلى نحو قاس أن نفسه هى التى بدأت تخذله! هل جاء إلى هنا هربا من المنفى أو الموت أو العذاب؟ هل يمكن لأعدائه أن يختاروا لنفيه أو تعذيبه طريقة أو مكانا أسوأ مما هو فيه؟

وهل يكون الموت ذاته أشد قسوة من الحياة فى هذا القبر الذى يدعوه حجرته؟

نديم الذى كانت مصر كلها بيته، وشعبها أصدقائه، ومستقبلها مهنته، ونواديها سمره، وقضيتها مشكلته الشخصية، نديم هذا كان أكبر مشكلة تواجه نديم المختفى فى بيت صديقه، ولم يسمح لصديقه بأن يشعر بما يعانيه، وخاطب نفسه ذات ليلة لم يذق فيها طعم النوم:

- من أنت يا نديم؟ ماذا كنت وما الذى تريده؟ تلميذ فاشل ومعلم صبية، وكاتب صحفى، وخطيب، وفلاح، وتاجر خسر تجارته، ومؤلف روايات، وممثل، ومضحك للأغنياء والفقراء، وزجال، وداعية، ومهيج جماهير ومسكنها، وحالم بكل ما يورث الجنون، وعاشق للناس أجل.. عاشق للناس.. تلك هى المسألة.. عاشق مجنون، ليس يرضى بأقل من كل الناس، فى كل الوقت! ولم تكن كل المهن التى تقلب فيها سوى مجرد وسائط يقترب خلالها ممن أحب! الناس بصخبهم، وعرقهم، ومشكلاتهم، ولفح أنفاسهم، وماذا يفعل الآن وقد اختصرت حشوده العظيمة فى خادمه «حسين» وقد أصبح كل همه أن يخاف ويحذر ممن قد أحب!

* * *

ماذا يفعل بيديه ورجليه وعينيه ولسانه؟ ماذا يفعل بقلبه وجسده فى مثل تلك الحجرة الرطبة المظلمة؟ كيف يروض نديم نديما؟ ولم يكن أمامه سوى أن يكتشف جسده وفكره ويقلب فيهما معا، يكتشف آلام السكون هو الذى ظل يشكو طوال عمره

آلام النصب! ويضبط نفسه متلبسا بالتفكير فى أجل الأمور وفى أكثرها تفاهة، ولم تكن ثمة حدود بين أجمل الذكريات وأبشعها، بين النوم واليقظة، بين الحلم والواقع!

- هل سنبقى هنا طويلا يا سيدى؟

وتتضح أكثر فأكثر نبرة القلق فى سؤال خادمه وفى سلوكه.

- ماذا يضايقك يا بنى؟

وفوجئ بمدى البلاهة التى ينطوى عليها سؤاله، هل تخذله نفسه إلى ما لا نهاية؟

وكأنما أدرك فى تلك اللحظة لا قبلها وجود خادمه معه فى تلك الحجرة الرطبة المظلمة، أنه لا يستطيع أن يتركه لحال سبيله ليس فقط لأنه يمكن أن يصبح دليلا إليه، بل لأنه أصبح كل ما تبقى له من حشوده العظيمة، كيف لم يلتفت إليه قبل هذه اللحظة؟

وقبل أن يبدأ فى تعليمه القراءة والكتابة قال له يوما وهو يصطنع الدهشة والأسف وبعد أن ألقى نظرة على صحيفة كانت فى يده:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

- ماذا حدث يا سيدى؟

- لقد جعلت الحكومة ألف جنيه لمن يدلها على، وخمسة آلاف لمن يأتيها برأسك!

وفزع حسين، وصدقه، ربما لأن «نديم» لم يكذب عليه قبل اليوم، وكف عن التفكير فى العودة إلى أهله، لقد أسلم نفسه لنديم، وارتبط به إلى النهاية، وبدأ نديم يتسلى بتعليمه، وبمداعبته، وباستنباط وسائل جديدة لتعليم من هم فى مثل سنه وظروفه!

لقد عاد معلما من جديد، ومؤلفا لرواية جديدة يقوم هو وخادمه فيها وحدهما بالبطولة، واختار لخادمه اسما جديدا، وأفهمه ما لا بد أن يفهمه عن طبيعة دوره فى الحاضر والمستقبل!

- صالح، ما رأيك فى الاسم؟

وهز «حسين» رأسه مبتسما مدركا فى سعادة ما أصبح له من أهمية، وفى نور المصباح الذى استغنيا به عن ضوء الشمس، عادت إلى الحجرة الصغيرة - التى كانت

تسبح فى الظلام ـ حياة جديدة، حياة تستمد تقاليدها من الفراغ والعزلة، وفى نور المصباح أيضا أبصر نديم ما ظل يتحاشى أن يبصره منذ قرر الهرب، أبصر الهزيمة والفشل والحلم الكبير الذى تبدد ذات صباح فى مكان يدعى التل الكبير، أبصره حين أبصر نفسه، وحين أبصر صديقه الذى يؤويه والذى لم تمنعه مخاوفه، وما يجره إليه نديم، من أن ينتهز أية فرصة ليتلطف فى سؤاله عن حقيقة ما حدث هناك فى التل الكبير!

وكانت أخبار خيانة «على يوسف» و«سعيد الطحاوى» وغيرهما قد استفاضت. وبالنسبة للخديوى وللإنجليز ولحكومة شريف باشا الجديدة، لم تكن تلك خيانة، كانت خدمة يستحقون عليها المكافأة وكان جديرا «بعلى يوسف» ألا يخجل من الشكوى من قلة المكافأة التى قررها له الإنجليز والتى لا تتفق أبدا مع خدماته! ألم ينقل خطة عرابى كاملة للعدو؟ وإذا أصبحت الخيانة شرفا لدى البعض، فقد كانوا جميعا يتبارون فى تقديم أدلتها، لينالوا الجزاء، وليمتلك العربان الذين أضلوا جيش البارودى فى الصحراء خمسمائة فدان فى نفس المكان.

وهكذا كان نديم يروى ويسمع فى وقت واحد ما كان يسد الثغرات فى تلك الرواية الحزينة والناقصة التى انتهت ذات صباح فى التل الكبير!

وإذا كان كل شىء يتغير فى سرعة عجيبة الحقائق والقيم والناس، فقد وجد نديم نفسه أمام مهمة جديدة أكبر من حماية نفسه، والتفجع عليها!! تلك هى حماية الحقيقة فى تلك الرواية التى كان أحد مؤلفيها وممثليها وشهودها!

إن الرجال الحقيقيين لا يستسلمون للحزن مهما يكن مداه! وقبل أن تشغله تلك الرواية الأخيرة كان يشغله البحث عن الحقيقة أيضا فى رواية أضخم، وكان قد بدأ فى تأليف كتاب اسمه «مقابلة النظير» راح يجمع فيه الأحداث المهمة فى الشرق والغرب، ويفتش فيها عن المعنى والهدف، ويناظر بينها!

ألم تكن قصة الصراع بين الشرق والغرب هى شغله الشاغل فى ماضيه؟

ألم تكن تلك الحرب التى خاضتها مصر ضد الإنجليز هى آخر حلقة فى تلك الرواية الضخمة؟

لم لا يبدأ من الآن فى اتمام كتابه ذلك؟ وقال لصديقه الذى كان عالما فى الأزهر بعد أن شرح له رغبته!

ـ كانت مشكلتى أن أجد الوقت! أما الآن فمشكلتى كيف أنفقه؟

ـ الآن ولا مراجع لديك؟ ولست تدرى مصير الأجزاء التى وضعتها فى كتابك، وقد لا تجدها فيجىء كتابك ناقصا ثم أضاف: لو اشتغلت الآن بما لا يحتاج إلى مراجع حتى تستقر الأمور، وأوفر لك ما يلزم من الكتب.

وتذكر نديم أن الشعر وحده هو الذى لا يحتاج المرء فيه لغير قلبه ودواة وقلم، وأنه كان شاعرًا لبعض الوقت. وهكذا بدأ ينفث مواجع قلبه فى قصيدة مطولة، أسماها «وطنية الشرق»!

بينما راح يصوغ خبرته فى صورة، «حكم وأمثال» يودعها دفترا صغيرا، ويجعل منها موضوعا لدروسه مع «صالح» الذى أصبح تلميذه ونديمه فى وقت معا!!

* * *

ثم أنه انتقل بعد ما يقرب من أربعة أشهر إلى «العتوة القبلية»، كانت تلك قرية أخرى بالقرب من طنطا، وكان هناك أيضا حجرة أخرى مظلمة، وكان هناك صالح دائما، أما هو فقد غدا شريفًا من جروان اسمه الشيخ يوسف المدنى استدعاه صاحب الدار ليدرس معه العلم الشريف، ولأنه صوفى يحب العزلة فقد أفرد له صاحب البيت تلك الحجرة ليعتكف فيها للعبادة، حين ينتهى من دروسه معه! وكان هذا مبلغ علم أهل البيت بالزائر الجديد!

وكان هذا كله فصلا جديدا من قصة الهرب التى لم يعد نديم مؤلفها الوحيد، فالشيخ شحاتة القصبى هو الذى أرسل لنديم خطابا قصيرا يأمره بالتوجه مع حامله إلى حيث يريد، ولم يكن حامله معروفا لنديم، كان هو «عمدة العتوة القبلية» وكان بحكم منصبه أحد الذين كلفتهم الحكومة بالبحث عن نديم وتسليمه، ولكنه بحكم ولائه للشيخ القصبى أصبح أحد حماة نديم، وهيهات للحكومة أن تفكر فى البحث عنه لدى أحد رجالها!

وهكذا أسلم نديم نفسه لله، ولمن يثق بهم من الناس، وحين علم أن البوليس دهم البيت الذى كان فيه بعد خروجه منه بساعات، لم يجزع ولم يفرح، كان الأمر قد خرج من يده، وإذا كان لا يزال محتفظا بحياته فى البيت الجديد، فماذا يعنى ذلك؟

إن وجود رجل غريب فى بيت ما، فى قرية صغيرة، لا يمكن أن يبقى سرا إلى ما لا نهاية، وما دام الرجل يأكل ويشرب ويمرض، ومهما تكن الصفة التى يوجد بها الرجل، فلا أحد يمسك ألسنة الأطفال ولا عيونهم، ولا أحد يضمن فضول امرأة أو رجل، والظلام الذى يحجب عنه العالم لا يستطيع أن يحجبه هو عن بعض العالم، ولم يكن فى حاجة إلى وقت طويل لإدراك هذه الحقيقة، ولكنه فعلا كان فى حاجة إلى بعض الوقت ليدرك حقيقة أخرى أهم، هى أنه من المستحيل أن يبقى الإنسان قلقا دائما، ولا يختلف الناس إلا فى الطريقة التى ينفون بها هذا القلق!

وبالنسبة له كان إيمانه بالله هو الطريقة، وبالنسبة له أيضا كانت قضية إيمانه بالله فى الماضى ضربا من إيمانه بالعقل، وإذ كان رجلا يحب أن يلهو بدراسة التاريخ فقد قادته لعبته تلك المفضلة إلى أن يكتشف أن لكل شىء تاريخا، الإيمان واللا إيمان أيضا، وأن يرى أن كل مظاهر الحضارة ترتد فى النهاية إلى دوافع وملكات فى النفس البشرية، وهكذا كان يحلو له أن يرى فى التاريخ تاريخا لهذه النشاطات التى تبدأ من النفس والحياة معا!

وكان يدرس تاريخ العقائد، وكأنه يدرس تاريخ العقل والنفس معا، ولم يكن تاريخ العقل إيمانا كله، وآنذاك طرأ تحول ما على ثقته فى تلك الوسيلة للإيمان، لقد غدا إيمانه بالله ضربا من إيمانه بالقلب، ومن حس أعمق بما فى الحياة من قوى ليس العقل سوى جزء منها!

ورغم أن أشياء كثيرة كانت توسوس له، بأنه لن يستطيع الهروب إلى ما لا نهاية، فقد كف فجأة عن أن يستمع لهذه الأشياء!!

وفى أعماق وحدته كان يتعاظم إحساسه بالماضى وبالمستقبل وبدا له كل ما يمكن أن يحدث له أو لغيره جزءا صغيرا جدا من قصة التاريخ العظيمة، وأنه إذا ما كانت ثمة وسيلة لإنقاذ هذا الجزء، ولإعطائه شيئا من القيمة فذلك بمقدار ما يعيه من قصة التاريخ وما يضيفه إليها فكرا أو عملا!

وحين وصلته رسالة من صديقه العالم الأزهرى الذى كان يختفى فى بيته من قبل وذكر له فيها ـ بالرموز التى اتفقا على أن يتراسلا بها ـ أن «سليم نقاش» زميله القديم سوف يؤلف كتابا بأمر الخديو يجمع فيه حوادث مصر المتوجة للقرن الثالث الهجرى،

فهم منه أنه يدعوه إلى تنفيذ فكرته التى حدثه عنها وهو فى بيته ليكون كتاب نديم معارضة لكتاب سليم نقاش!

ولكن الفكرة الآن تتطور فى نفس نديم إلى شىء أعمق، فلم تعد الحقيقة التى تؤرقه هى تلك الحقيقة الجزئية التى تكشف ما يمكن أن يتورط فيه «سليم نقاش» من كذب جزئى يخص ذلك الجزء من التاريخ!

كان نديم الهارب من الحكومة يفكر الآن فى الهروب إلى مناطق أبعد فى الزمان والمكان، وأصبحت الحقيقة التى يبحث عنها فى قصة التاريخ، هى حقيقة الإنسان نفسه، الإنسان الواحد الذى انقسم إلى شعوب وقبائل، ومنذ بدء التاريخ وهذه الشعوب والقبائل يخوض بعضها صراعا مريرا ضد البعض الآخر، مع أنها جميعا تنحدر من أصل واحد، وتمضى إلى مصير واحد، وتزعم كلها أن لها نفس الأهداف!!

وكأنما أصبح نديم ـ وهو بسبيله إلى هرب أعظم يطارد فيه الحقيقة ـ لا يبالى بأن هناك من يطارده! وإذ راح يبحث عن أدوات تعينه فى رحلته الشاقة الجديدة فقد تذكر أنه هنا على مقربة من «العتوة القبلية» توجد العزبة التى يمتلكها الخواجة «موريس» ويوجد هو أيضا، وتذكر آخر لقاء، مع الخواجة، وآخر حديث.. كانا يتحادثان عن أزمة الثقة بين الأفراد والجماعات!

وفى هذه المرة لم يحاول نديم أن يجد فى ذلك أى معنى خاص! كان على ثقة من أنه هو خير معين لهذه الرحلة ليس بما يمتلك من كتب ومذكرات بل بما لديه من هموم فكرية لم تشغله عنها هموم الحياة العملية أبدا، ألم يكن يتحدث عن حل أزمة الثقة كأسلوب لحل مشكلات العالم؟ ألم يبق فى مصر وقت أن هاجر الأوروبيون؟ لكن كيف يتصل به؟ وفى غمرة حماسه بدا له إقناع العمدة صاحب البيت الذى يحتمى به أمرا سهلا وحين أوضح له غرضه بإيجاز، راح العمدة يحدق فيه تحديقا ذاهلا، وكأنما اكتشف فى تلك اللحظة فقط السر فى هزيمة عرابى، ألم يكن هذا الرجل بين مستشاريه؟

وبعد لحظات من الصمت المفعم اندفع العمدة قائلا:

ـ يا سيدى، أنا مستعد أن أفعل من أجلك أى شىء، ولقد عرضت حياتى للمخاطر، ولست أمن عليك بشىء، لكن هل فكرت فيما تقول، هل فكرت فى موقفى إزاء مولانا

الشيخ شحاتة لو عرف أننى كنت السبب فى إذاعة سرك، ولمن؟ لرجل أجنبى؟ يا سيدى كيف تثق..

ولو قدر لأديب إسحق أن يسمع بقية ما دار بين نديم والعمدة فى ذلك اليوم لأدرك أن «نديم» لم يبرع فقط فى التغرير بالبلهاء كما كان يظن، بل وبالعقلاء، كذلك فلم يزل نديم بالعمدة حتى أقنعه بأن يحمل رسالته للخواجة، وبقى ينتظر الرد!

* * *

وكانت فترة الانتظار تلك كافية لأن ينضج خلالها نديم على الجمر، ولكن ذلك التحول الذى طرأ على طريقته فى النظر إلى الأمور كان يمده بشعور غامض بالثقة فيما فعل، وقبل أن يتخذ نديم قراره ذاك كان قد صلى لله منتظرا ما يهجس به فى قلبه! وشعر ببرد الراحة يسرى فى أوصاله. وبطمأنينة عميقة تدفعه إلى المضى فى قراره، وحين وصل العمدة، كان وجهه مكفهرا، وفى اضطراب شديد روى قصة لقائه مع الخواجة:

- لم يكن وحده يا سيدى حين لقيته، حتى أشرح له الأمر! كان معه بعض الأجانب، ومشايخ البلاد، ولم يكن يعرفنى!

- أجلس يا حضرة العمدة واسترح.

قالها نديم بهدوء.. ولكن «نديم» الذى كان يخاطب العمدة بهدوء بدأ يشعر بالخوف.. وأكمل العمدة حديثه المضطرب:

- أعطيته الرسالة فقط، وظللت أرقب ملامحه وهو يقرؤها، ولكنه أعطى الرسالة بدوره لزوجته التى قرأتها وأعادتها له، وفجأة وجدته يمزق الرسالة فى غضب، ويلتفت إلىَّ قائلا: قل له أنا لم أعطك هذا المبلغ لتتصرف فيه لزيد أو عبيد، ثم تعتذر بالضرورات، فأحفظ لى حقى عندك قبل كل إنسان حتى آتيك ونتحاسب، وإياك أن تمد يدك إلى بنك أو خواجة غيرى، فإنك إن فعلت ذلك، وقعت فى شرك المحاكم، وحكمت عليك بما لا ترضاه.

وعاد يتكلم مع ضيوفه الأجانب بلغتهم، ثم التفت إلىَّ بعد لحظات قائلا:

- تفضل أنت، وقل له ما سمعت!

وغمرت الطمأنينة وجه نديم، وفى غيظ قال العمدة:

- رجوتك يا سيدى ألا تحاول..

ولكن «نديم» قاطعه:

- إن الرجل صدوق، حريص على الصحبة وقد التزم الحدة فى خطابك ليصرف أفكار الحاضرين وهو..

ولكن هل يصدق العمدة تخرصات نديم قبل أن تتضح نتائج هذه المغامرة، كيف طاوعته نفسه أن يوافق «نديم» قبل أن يأخذ رأى الشيخ شحاتة؟ وإذا حدث أن أفشى الخواجة السر فماذا يكون موقفه؟؟

سيكون الرجل الوحيد الذى يستحق اللعنة من الوطنيين والأجانب على حد سواء! ورغم كل ما فعل!

أى جنون دفعه وهو المؤمن بالله وبالوطن، لقبول هذه المخاطرة وعبثا كان يحاول نديم تهدئته، ويطرق الباب ، ويجىء من يخبر العمدة بأن المأمور ينتظره فى حجرة الضيوف! المأمور؟ الآن؟ وبلا حوادث؟ هل أفشى الخواجة السر؟ وانصرف قبل أن يلحظ نديم مدى قلقه، ومن عجب أن الوساوس عادت تستبد بنديم حين خرج العمدة! وفى حجرة الضيوف لم يلحظ العمدة فى وجه المأمور شيئًا غير عادى، ولكن متى كان وجه مثله يفصح عما فى قلبه، ومر الوقت كئيبا هنا وهناك، وفوجئ العمدة برجل يرتدى ثياب مشايخ القبائل من العربان يقف بباب المضيفة ثم يرتد إلى الوراء! من يكون الرجل؟ وماذا يريد وخرج العمدة يتحرى حقيقة الزائر الغريب، وذهل حين وجده نفس الخواجة الذى حمل إليه رسالة نديم، هل رآه المأمور؟ وهل شك فى أمره؟ وهل تكشف الصدفة ما أخفاه الذكاء والوفاء؟ وفى غمرة الذهول والفرح والخوف أرسله مع خادم إلى حجرة نديم الداخلية، وعاد يتحسس شكوك المأمور ويلاشيها، وحين ودعه، عاد إلى حجرة نديم، ليجد الشيخ يوسف المدنى وشيخ العربان فى لحظة وجد غريبة، يبكيان ويضحكان ويتعانقان ويتكلمان فى وقت معا!

لم يصدق أنه أمام نفس الخواجة، والرجل الآخر الذى كان قرين عرابى وصفيه، كان أمامه شيخان بهما مس من الجنون وأغلق الباب، ومضى إلى حجرته يلتقط أنفاسه بعد ذلك اليوم الغريب!

* * *

«كان ويكون» ما رأيك فى الاسم؟

وهز الخواجة رأسه موافقا ومعجبا فى نفس الوقت!

ـ صدقنى يا سيدى، إن عجبى وإعجابى لا ينتهيان حين أجد رجلا فى مثل ظروفك يفكر..

وأشار إليه نديم ليصمت، ولكن الخواجة لم يصمت حتى قال كل ما لديه! وحين فرغ من حديثه ظل نديم صامتا، كان يشرق بدموعه، وحين ودع الخواجة بكى كما لم يبك من قبل، لم يبال بوجود «صالح» الذى أصبح جزءا منه، وفجأة غدت الحياة حلوة وتمنى ألا تصل إليه الحكومة قبل أن ينجز كتابه!!

كانت بذرة الكتاب بدأت تنمو فى داخله، وكان لقاؤه مع الخواجة قد منحها غذاء جديدا، وكان منهج الكتاب أن يكون ثمرة لهذا اللقاء، أما الكتاب ذاته فيوشك أن يكون ثمرة لكل لحظة خصبة مرت فى حياة نديم، لحظات القراءة والعمل، لحظات الغرق فى العزلة، والغرق فى الجماهير، الأسئلة التى تبحث عن أجوبة، والوقائع التى تحتاج إلى تفسير!

ولم تكن الكتب والمذكرات هى كل ما وعد الخواجه بتقديمه لنديم، كان الخواجه قد وعد بأن يحضر بنفسه كل يومين أو ثلاثة، وأن يجىء الكتاب على هيئة سؤال منه وجواب من نديم، وسول لهما الطموح أو الغرور أو الوقت، أن تبدأ الأسئلة من البداية عن أول دين، وأول جماعة، أول حرب؟؟ كيف جاءت الأديان؟ وكيف تطورت؟ وكيف أخذ بعضها عن بعض؟ وكيف حارب بعضها البعض؟ كيف تكونت عصبياتها وكيف تفرقت؟

فيم تتفق وفيم تختلف؟ وكيف يحدث الخلاف حتى داخل الدين الواحد؟

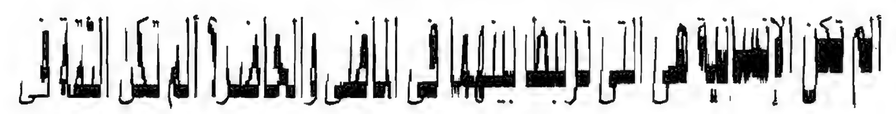
إلى أى الأهداف تدعو وأى الرغبات تلبى؟

وأى الملكات فى الإنسان تستثير لتحقيق هذا كله؟ وعبر هذه الرحلة الطويلة فى الزمان والمكان، وعبر آلاف الوقائع والتفاصيل، أين العناصر المشتركة؟ أين الحقيقة المتكررة فى كل الأفراد والجماعات والأطوار؟ وأخيرا أين التقدم، وما معناه؟ وكيف نتقصى آثار أقدامه فى تلك الرحلة الموغلة فى القدم والجنون معا؟

وإذا كانت فكرة التقدم الغامضة تلوح لنديم آنذاك فى صورة دورات تكتمل حلقاتها مرة هنا فى الشرق ومرة هناك فى الغرب فما سر هذه الدورات؟ فى أى شىء تتشابه وتختلف؟ وهل يوجد ثمة خط رئيسى يتخلل هذه الدوائر ويعطى التقدم شكلا وهدفا جديدين؟ وكانت هذه الأسئلة تنقر فى رأس نديم كمناقير طيور تكسر قشرة البيضة!!

ولم يكن ثمة شىء نهائى آنذاك.. لا الأسئلة ولا الأجوبة، ولكن قبل ذلك كله بأية صفة يقومان بتلك الرحلة ومن خلال أى منظار يرصدان الوقائع والتفاصيل: مسلم ومسيحى؟ أم شرقى وغربى؟

وكانت الإنسانية هى الصفة، وكان التجرد هو المنظار!



ألم تكن الإنسانية هى التى تربط بينهما فى الماضى والحاضر؟ ألم تكن الثقة فى الإنسان وحبه، هى التى أملت خطاب نديم للخواجة، وجاءت بالخواجة إلى نديم؟

إن أحدهما لم يلبس جلد الآخر، ولكن التعصب لم يكن داخل جلد أى منهما!

وهل كانت حمى التجرد هى التى دفعتهما لأن يرمز نديم لنفسه بالحرف «ش» اختصارا لشرقى وللخواجة بالحرف «غ» اختصارا لغربى، وللدين الإسلامى بالمسألة الشرقية وللدين المسيحى بالمسألة الغربية، ولفصول الكتاب بالأرقام!

وأحس نديم بموسيقى شجية تعزف فى داخله، وبعاطفة جياشة تغلبه على أمره، وكان بسبيل أن يقول لنفسه ما كان يقوله دائما من أنه أخيرا بصدد العمل الوحيد الذى خلق من أجله! ولكنه تذكر فجأة ما نقله إليه الخواجة من أخبار المحاكمات والإهانات التى يتعرض لها ورفاقه فى الثورة! وكيف يتنكر لهم الناس وتنقلب عليهم الحياة؟

هل أصبحوا حقا عصاة ومتمردين؟ وغددت الثورة خطيئة تستحق التكفير؟

نعم! ولهذا هو هنا فى هذه الحجرة المظلمة؟ وسلطان باشا هناك يحكم مصر، وينعم بالألقاب والمنح من ملكة بريطانيا، وحثالة من المصريين يقدمون للقائد الإنجليزى الذى احتل بلادهم سيفا من الذهب الخالص! نعم هو هنا لأنه اجترأ وحفنة من الرجال على أن يغيروا الحياة، وقبل أن يعوا كل دروس التاريخ!

فلتكن هذه الرحلة الجديدة، محاولة منه لتفهم الأشياء وللبحث عن الحقيقة، وللخروج من البيضة!!

وما أنسبه من عمل لرجل بلا أهل، وبلا وظيفة، ولا يأكل من عرق جبينه، ويعيش فى حجرة مظلمة، ويوشك أن يصبح ـ وهو فى أعماق وحدته ـ مواطنا عالميا!!

* * *

وزيارة أثر زيارة، وسؤالا أثر سؤال، مضى نديم والخواجة ينسجان معا خيوط ذلك الكتاب المعنون «كان ويكون»!

وكان الخواجة قد أطلق إشاعة رددتها الصحف، أن «نديم» قد تمكن من الهرب إلى «ليفورنو» بإيطاليا، فخف البحث عن نديم، وتوجه إلى الخارج!!

وكان نديم بعد كل زيارة يفرغ لتدوين ما دار فيها من نقاش، مستخدما من الحجناء أقلاما، ويصنع الحبر من هباب الفرن مضافا إليه بعض قرظ السنط!

وحين تتابعت خيوط النسيج، وتسلسلت الأحداث المبعثرة فى الزمان والمكان. تكشفت العلاقات التى ما كان لها أن تتكشف وسط ركام التفاصيل!

ويتوقف نديم أو يستوقفه الخواجة أمام الأسئلة التى تلمس أعصاب التاريخ والمجتمع!

متى يلجأ أى دين إلى الإقناع والمحاجة؟ ومتى يجرد سيفه من غمده فى سبيل فكرته؟

وحين يقرر نديم أن الإقناع هو وسيلة أى دين قبل أن تتكون له عصبية تصبح قادرة على حمل السلاح، يسأل الخواجة:

ـ كيف تتكون العصبيات؟ أى العوامل تجمع وأيها تفرق؟ ومتى يصبح الدين دولة؟ وماذا تسلبه الدولة من الدين؟ وكيف يتعايشان؟ ومع مرونة المنهج، وطبيعته السياحية، إلا أنه كان ثمة قواعد وخطوط تشدهما كلما تسكعا هنا أو هناك وراء سؤال أو جواب!

فقد قسم نديم الأديان باعتبار مصدرها إلى نوعين: إلهى، وإنسانى، وقسم كل نوع باعتبار ما يطرأ عليه إلى بحت ومزجى، ثم تابع النوعين الأخيرين فيما تفرع عنهما من فروع!

وأتاح لهما هذا المنهج أن يكتشفا أن ثمة موضوعات أثيرة لدى البشر جميعا، وأنها تنتقل عبر الأديان، وأن لها جذورا تمتد إلى أبعد من الأديان الثلاثة السماوية وأن جذورها تضرب إلى كتب الحكمة القديمة التى كانت بدورها ثمرة الأديان غير السماوية!

وكان يروق للخواجة أن يسأل «نديم» عن تطور هذه الموضوعات حين تصبح جزءا من الأديان السماوية الثلاثة!

وكان يحلو لنديم أن يستطرد فى شرح هذا التطور ماذا تأخذ من كل دين؟ وماذا تعطى له؟ وكيف أصبحت هذه الموضوعات اليوم فى نفس موضوع العلم الحديث؟

وكان بمقدور نديم أيضا أن يلاحظ أنها دون غيرها هى التى تأخذ فى تطورها صورة الخط لا صورة الدائرة!

وكيف أنها توشك أن تكون العمود الفقرى لفكرة التقدم لو قدر لهذه الفكرة أن تقف منتصبة ذات يوم!!

* * *

وإذا كان نديم لا يزال مشغولا بالفصل فى قضايا التاريخ، فإن الإنجليز كانوا قد انتهوا من الفصل فى قضية الثورة: نفوا عرابى ورفاقه إلى جزيرة سيلان، واستغلوا فرصة المحاكمات إلى أقصى حد لكى يجردوا الثورة من كل قيمة ومعنى، وبعد أن جردوهم فى التل الكبير من كل سلاح، وأعدموا من المواطنين عددا كافيا لكى يتعلم الآخرون فضيلة الخضوع بعد أن علمهم عرابى رذيلة الثورة!

ولم تعد لمصر حاجة إلى الجيش، أو إلى مجلس النواب، أو إلى أى شىء يذكر الناس بذلك الشىء الذى يجب أن ينسوه، والمسمى ثورة!

وفتحت السجون أبوابها لتلتقط فى هدوء، وعلى مهل هؤلاء الرجال الذين كانوا يؤلفون جيش الثورة الشعبى فى المدن والقرى! ولم يكونوا هذه المرة فى حاجة إلى محاكمات أو أدلة، كانوا يكتفون بأقل الأعراض التى تشى بأن مرض الثورة اللعين قد خالطهم أو مسهم، وكان يكفى أن يوجد فى بيت أحدهم عدد من مجلة الطائف، أو اشتراك فى إحدى جمعيات نديم، أو أن يكون اسمه قد ورد فى قوائم المتبرعين للجيش التى كان ينشرها نديم! شىء واحد ظل يقلق الحكومة، ويريح الشعب، ذلك هو فشل الحكومة فى القبض على نديم، كان ذلك هو فشل الحكومة الوحيد! وانتصار الشعب الوحيد كذلك!!

أين ذهب نديم؟ كانت الحكومة لا تزال تلقى بالسؤال وكان الشعب يلقى به أيضا!

وإذ كانت موقعة التل الكبير، قد وضعت حدا لحرب المدافع بين مصر وإنجلترا، وبين الخديو والشعب، فإن مسألة اختفاء نديم قد أشعلت حربا من نوع آخر، حربا أدرك الإنجليز وأدركت الحكومة أنها لن تنتهى إلا بالقبض على نديم حيا أو ميتا، وأرسلوا من يبحث عنه فى أوروبا كما رددت الإشاعات، وحين فشلوا فى هذه المهمة راحوا يحاربون الحكايات التى تروى حول اختفائه، بحكايات أخرى عن موته!!

ومن الطبيعى أن تفشل الحكومة، ويفشل الإنجليز فى حرب الحكايات هذه! وأن يقصر خيالهم أمام خيال الشعب! ومن الطبيعى وقد فشلوا فى إقناع الناس بموته، أن يحاولوا تشويه حياته!

فكتب صديقه القديم «سليم نقاش» فى جريدته:

«قد تعددت الأقوال فى مقر عبدالله نديم، فمن قائل أنه التجأ إلى البلاد الإيطالية، ومن قائل إنه فر إلى طرابلس الغرب، ومن زاعم أنه أتى إلى السودان واتصل بالمهدى، وقال قوم أنه سارع فى السفر إلى سيلان للاجتماع بعرابى! والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس فى الأيام الأخيرة ونشر فيها مقالات أتى فيها على ذكر الحرب العرابية، وندد بالمصريين، ونسب إليهم الضعف والجبن والاستسلام للقوة المحتلة».

ولكن متى كان الشعب يصدق سليم نقاش؟

فبينما كان نديم الحقيقى يواصل رحلته فى التاريخ، كان نديم الأسطورة يواصل رحلة أخرى فى خيال الشعب وكانت تلك مسألة لا علاقة لنديم بها، ولا قدرة له على التدخل فيها!

وكان من الطبيعى أن يستمع بدوره إلى هذا النوع من الحكايات ينقلها له الخواجة أو العمدة كما يسمعانها من أفواه الرواة أو المسافرين أو المتسامرين وكان من الطبيعى أن يعلق عليها كما يفعل كل الناس، وحين يفسح لها مكانا بين صفحات كتابه «كان ويكون» الذى كان منهجه يسمح بتهويمات نديم فى الماضى أو الحاضر، فإنه لا يتردد فى تحليل دلالاتها كما يفعل مع أحداث التاريخ ذلك أن «نديم» الذى تتحدث عنه الحكايات كان قد أصبح فعلا جزءا من التاريخ!

ولكنه لم ينتظر أن تواصل هذه الحكايات مسيرتها حتى تطرق البيت الذى يختفى فيه نديم، وكان الراوى هذه المرة ضيفا على العمدة، وكانت «المنظرة» مكتظة بالضيوف، وكان الحديث عن عرابى، وفجأة قال الضيف: أتعرفون أين عبد الله نديم الآن؟ وتطاولت نحوه أعناق الحاضرين، أما العمدة فلم يقو على النظر إليه!

وحين قال الرجل: عبد الله نديم عند السلطان، ظنه العمدة يعبث به!

وبقى العمدة متشاغلا بمسبحته بينما راح الرجل يروى قصته: «سافر نديم إلى الشام على مراكب البرتقال ثم سافر إلى إستانبول فلما وصلها صعد على مئذنة بالقرب من سراى السلطان بين العصر والمغرب ورفع صوته بالآذان فى غير وقته، فاستدعاه السلطان فلما مثل بين يديه قال له: أنا عبدكم عبد الله نديم المصرى فقام السلطان وأخذه بالحضن، وقال له الحمد لله على سلامتك يا بنى، ما أصل حكايتكم؟ وكيف انكسرت العساكر المصرية؟ فقص عليه الخبر ففرح السلطان به وأكرمه. وأمر أن يخدموه فى خدمة عظيمة فلم يقبل الخدمة وقال: أنا أحب أن السلطان يبعث معى عساكر مصر، ومراكب ليخلص البلاد من أيدى الإنجليز».

وبكى العمدة هذه المرة وهو يروى لنديم ما حدث فى مضيفته!

قال له: يجب أن تعيش يا نديم، يجب ألا يعثروا أبدا عليك.. لأنه حين تموت..

ولم يقو على مواصلة الحديث.. ثم إنه جفف دموعه بمنديل فى يده.. وقال: أى شرف يا نديم أسبغه الله على، وحين أفكر فى أن بيتى يؤوى الرجل الذى..

ولم يجد نديم أية كلمة يرد بها على العمدة، لم يقو حتى على البكاء، ولكنه بكى كثيرا بعد أسابيع قليلة حين مات العمدة!!

* * *

كان نديم صبيا حين سمع لأول مرة بقصة تقول أن أباه يتصل نسبه إلى إدريس الأكبر ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله وجهه!

وربما أكسبته هذه القصة إحساسا بالزهو لم يكن ينقصه، وربما قيدت سلوكه بعض الوقت بقواعد كان صباه المحموم فى حاجة إليها، وربما ضاعفت طموحه فى ناحية وأضعفته فى ناحية أخرى!

ولكنها لم تقلقه كثيرا من ناحية كونها صوابا أو خطأ، ولم تكن أدلة مثل هذه القضية من النوع الذى يمكن فحصه بسهولة، ولم يشعر هو أبدا بالحاجة إلى مثل هذا الفحص لتبرير ذاته!

كان كل ما يهمه أن يبرر ذاته كعبد الله نديم لا أكثر! ولكنه الآن، والآن فقط أصبح مستعدا لتصديق هذه القصة ، وبدون فحص أو أدلة، ذلك أن كل ما جرى له ويجرى منذ أصبح طريد الحكومة، يصلح دليلا لشىء واحد فقط، هو أن «نديم» تلحظه عناية أكبر من عناية البشر، وربما لم تكن عناية البشر أنفسهم سوى تنفيذا لعناية الله!

وحين مات العمدة انتابته الهواجس فضلا عن الأحزان وتقدم منه أكبر أبناء العمدة، وكان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره وبلهجة متعثرة يقلد فيها نبرة الرجال قال له:

ـ قبل أن يموت أبى لم أكن أعرف حقيقتك، ولكن أمى الآن أخبرتنى أنك «عبد الله نديم» الذى تبحث عنه الحكومة، وسألتنى هل سأكون مثل أبى فى حمايتك؟ وأحب أن تطمئن يا سيدى إلى أننى سأكون...

وضمه نديم إلى صدره فى حنان.. هل يدرك هذا الصبى معنى ما يقول؟

ولكن «نديم» نفسه لم يدرك بالتأكيد معنى ما يقوله وهو يربت على كتفى الصبى:

ـ يابنى بارك الله فيك! أنا الذى أحب أن أطمئنك إلى أننى سأفعل كل ما أقدر عليه من أجلك، وأننى سأكون مثل والدك، وأننى..

وصمت نديم، ماذا يظن نفسه؟ وهل نسى حقيقة حاله؟ ولكن الدنيا كانت أكرم مما تصور!

لقد جاء الخواجة، وعرض عليه أن ينتقل إلى عزبته ليتولى هو مسئوليته كاملة!

ولكن «نديم» اعتذر فى لباقة، وبالتأكيد لم تكن تلك مشكلة من مشاكل الثقة، وفى يسر وبلا كلمة فهم الرجلان الموقف المعقد الحساس، وكفى الخواجة «نديم» مئونة الشرح والتفسير!

وقال له فى لباقة أيضا:

ـ أفهمك تماما ولكن لو حدث تطور فى الأمور فعرضى لك قائم، وبالطبع صلتنا مستمرة، وعملنا كذلك!!

ثم إن «نديم» فوجئ ذات يوم برجلين يتسللان إلى حجرته فى حياء! وعرفاه بنفسيهما:

ـ أخوك الشيخ خليل مأذون القرية، وهذا أخى الحاج شاذلى حلاق الصحة، ثم تابع الشيخ خليل حديثه:

ـ يا سيدى لو كنا نعرف من أنت لجئنا منذ وقت بعيد، وأنه لشرف عظيم لنا أن نكون فى خدمة مثلك، ولقد طلبت منا سيدة البيت أن نتردد عليك لنملأ بعض ما ترك المرحوم من فراغ قد تجده، ولنكون تحت أمرك فى كل ما تريد، ونرجو أن تثق..

وأصبح نديم واثقا من أن السماء ترعاه، بل ولعلها تدلله كذلك، فصديقه القديم العالم الأزهرى الذى كان أول من آواه يزوره بدوره بعد وفاة العمدة موفدا من قبل الشيخ شحاتة لتقصى أحوال نديم. وللتفكير فى نقله إلى مكان آخر أو كان فى تطور الأمور ما يوجب ذلك، ولكن الأمور كانت تتطور فعلا إلى فوق ما كان يحلم به نديم

فذات يوم قال له الشيخ خليل المأذون، وكانا قد أصبحا صديقين، قال له فى سماحة الصديق:

ـ من الصعب أن تمضى حياتك هكذا، وليس أحد غير الله يعلم متى تنجلى هذه الغمة، وقرابتى لأسرة المرحوم تسمح لى أن أقول لك، إنه ليشرفنا جميعا أن..

وتردد الشيخ قبل أن يقول:

إن ما يربطنا بك أعمق وأقوى من أى شىء، ولكنه مما يزيدنا شرفًا أن تقبل أن نضيف لهذه الرابطة صلة المصاهرة، وطبعًا هذا يؤكد لك...

ولما يقاطعه نديم هذه المرة ولكنه أيضًا لم يتابعه تمامًا، كان يسمعه بجزء من عقله، وبجزء آخر كان يتساءل:

ـ هل هو يستحق هذا كله؟؟ وهل فعل شيئًا لله أو للوطن أكثر مما فعله أولئك الذين استشهدوا أو سجنوا، أو يعيشون حياة أقسى من السجن والنفى؟ وكانت تصله أخبار ما يلاقيه أهله وأصدقاؤه بسببه وكان يقدر ما يتعرض له أولئك الذين لم يكونوا أهلا ولا أصدقاء!

ولقد مرت به أوقات كان يبلغ فيها ضجره مداه أوقات يشعر خلالها بالجوع إلى ضوء النهار، وإلى أصوات الناس فى الطرقات، وإلى أن يرفع صوته ويمشى على قدميه ولو إلى سجن أشد، ولم تكن رحلة التاريخ وحدها، ولا لقاء الأصدقاء هى التى تخفف ضجره ربما كان ضمن هذه الأشياء تلك المرات القليلة التى كانت الظروف تلجئ فيها تلك الصبية ابنة العمدة إلى أن تحمل إليه ماء الوضوء، أو مائدة الطعام وكانت تتأمله فى فضول وخجل، وترقب حياته الغريبة وأصدقاءه الأكثر غرابة، ودهشت حين بدأ يكلمها فى بساطة سألها مرة عن اسمها، فردت بصوت لا يكاد يسمع: خديجة!! ودهشت أكثر حين راح يحكى لها ما لم تكن تعرفه عن خديجة زوجة الرسول عليه السلام.

ولكن دهشتها فاقت كل حد فى المرات التى كانت تأتى فيها مع أبيها وتجلس صامتة بينما يروى لها حكايات لا تنتهى عن أسماء بنت أبى بكر و..

وبدأت تعرف ما يحتاجه وتسبقه إلى تقديم ما يريد ومع أنه كان فى الأربعين من عمره إلا أنه كان أغرب رجل رأته فى حياتها الصغيرة، وأعذب رجل!!

وبالنسبة له كانت رؤيتها، بشعرها المضفور، وعينيها اللامعتين توقع فى نفسه ضربًا من الارتياح العذب، والإحساس بأنه لم يوغل بعيدًا فى انفصاله عن الحياة !! كانت تلك نفحة طليقة من الحياة التى لا يمكن احتجازها، ولا حتى الإمساك بها كذلك، ولم يكن يرجو سوى أن تهب على سجنه من آن لآخر، ولكن أن تشاركه السجن.. سجن عمره، وسجن حجرته، فهذا مالا يصدقه ولا حتى يرضاه، ولكن الشيخ خليل لم يبذل جهدًا كبيرًا فى إقناعه بأنها تشعر بشىء من ذلك فهى فى بيتها وأنه لم يكن ليتكلم فى أمر كهذا لو لم يكن واثقًا من أن...

* * *

وكان أن تزوج نديم، وتزوج أيضًا صالح من إحدى قريبات الأسرة واستقرت بهما الحياة فى بيت العمدة لأربع سنين، أنجب خلالها طفلة لم تقدر لها الحياة، وأتم خلالها الجزء الأول من كتابه المعنون «كان ويكون»، وكتب لعرابى فى منفاه مجموعة من الرسائل يحدثه فيها حديث الأمل والعزاء، وينقل له ولصحبه ما يجده من عواطف الشعب نحو الثورة وأبطالها!

وعرف نديم لأول مرة خلال هذه الأعوام معنى الحياة الزوجية المستقرة، وربما كان الفضل فى هذا للصبية الجميلة التى كانت زوجته ولكن الفضل الأكيد، كان لقرار الحكومة بالقبض عليه، والذى تحول إلى حكم غيابى بالسجن المؤبد، وهو فضل تشارك فيه أيضًا سلطات الاحتلال البريطانى..

* * *

ثم انتهى ذلك كله ذات مساء !!

قال له الشيخ خليل بصوت ووجه مرتشعين: الليلة ياسيدى. أعنى الآن، يجب أن تغادر البيت!

- ماذا حدث؟

- فيما بعد أشرح لك!!

وفى صرة يسهل حملها وضع نديم كل ما قدر حاجته إليه، وودع زوجه وأهلها، ولم يكن حزنه أقل من خوفه، وحين أغلقا وراءهما الباب الخلفى للبيت، لم تشيعهما خفقة مصباح أو حتى نظرة.. وقال للشيخ خليل: تمهل..!

وكان السير لمسافة أكبر من حجرته تجربة جديدة عليه، ومع أن الظلام كان يغمر الدنيا فى تلك الليلة. فقد كان ذلك ظلامًا آخر، وهواء اخر، كان لليل أصوات أخرى، وروعه الخلاء، رورعه أكثر تصلب جسده، ولم يلبث أن سأل:

هل هناك من يطاردنا الآن؟

- لا... ولكن لعل هناك من يفتش عنك البيت!

ثم أوجز القصة التى بلغتهم من أحد الثقاة «عن أسرة على خلاف مع أسرة العمدة شكت فى أن العمدة يؤوى فى بيته هاربًا من الحكومة لا تعرف هويته فأبلغت الأمر للحكومة».

- هل تقصد الآن مكانًا بعينه؟

- لم أفكر فى أكثر من أن نبعد عن البيت!

- إذن لم لا ترجع أنت؟

- ماذا تقول يا سيدى؟

ـ وجودك لا يفيدنى كثيراً ولكنه بالتأكيد يعرضك...

ـ يا سيدى لم أكن أظن أنه بعد كل هذه السنين....

ـ لو عدت وأخبرت الشيخ شحاتة بما حدث... أظنك توافق على أن هذا شيء..

ـ لكن كيف ألتقى بك مرة أخرى؟

ـ ستجدنى فى مسجد أية قرية فى هذه المنطقة.

ـ من الضرورى أن نبعد عن هذه المنطقة كلها.

ـ لا أقوى على السير..!

ـ تستريح ثم تواصل السير

ـ المهم أن تعود أنت الآن!

ـ لن أعود إلا فى الصباح !!

فى الصباح انحنى نديم ليغسل وجهه فى مياه قناة صغيرة، لم يكن قد نام، ولكنه أراد أن يقاوم النوم والإرهاق، وفوجئ نديم، فوجئ بوجهه يطل عليه من المياه الراكدة، كانت تلك أول مرة يبصر فيها وجهه فى مثل هذا الضوء! حقًا هذا هو نديم؟ وأذهلته التجاعيد، وأذهله بياض شعره، وترهل جفونه!! ولم يجد أى معنى لأن يخفى عينيه وراء عصابة! من يعرف الآن؟ إذا كان هو لا يعرف نفسه، ولم يكن وجهه هو أغرب شيء قدر له أن يراه فى ذلك الصباح، وفى الحقيقة كان الصباح نفسه أغرب شيء!! قرص الشمس، وقطرات الندى وروائح الحقول، والأوراق المغسولة الشديدة الخضرة.. والطيور.. الطيور الجميلة الطليقة التى لا يطاردها أحد! ولم تقو عيناه على احتمال الضوء الذى بدأ يملأ الأفق الفسيح، ولم يقو أيضًا على أن يغطى هذا الأفق الفسيح بعصابة يربطها على عينيه، وكان ذلك كله قد أصبح ملكًا له لبعض الوقت، وقد يفاجأ الآن بمن يسلبه هذا الذى تمتلكه الطيور والحشرات، وحين غادر مخبأة الأول فى «منية الغرقى» منذ سنين فوجئ بمأمور شركسى يعترض طريقه، وقتها كان هو لايزال عبدالله نديم، ووقتها أسلم نفسه حين قال له المأمور لا تحاول أن تتنكر نفسك فأنا أعرفك.. أنت عبدالله نديم ولم يصدق عينيه حين أشار له المأمور ليأخذ فى مسيرته طريقًا آخر حتى لا يلتقى بالقوة التى تتبع المأمور! ولم يصدق نفسه حين قدم له المأمور كل ما معه من نقود ـ وهو يعتذر لقلة ما معه ـ ليستعين بها فى مواصلة هروبه، كانت تلك معجزة،

وكان ذلك المأمور إنسانًا نادرًا، أما الآن فربما كان نديم فى حاجة إلى أكثر من معجزة، كان رجلاً قادمًا لتوه من قلب التاريخ، كان مثل أهل الكهف، وكانت المعجزة التى يريدها شيئًا أكبر من مجرد الاختفاء من البوليس، كانت المعجزة هى كيف يتقبل الدنيا، الأرض والضوء والحرارة والهواء والناس؟

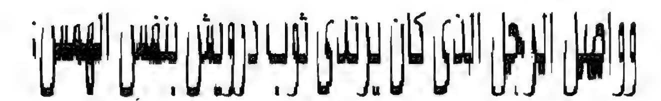
* * *

فى أحد المساجد، تقدم منه أحد المصلين بعد صلاة العشاء محاولاً تقبيل يده، وحين أصبح قريبًا منه همس فى أذنه:

- أحمل رسالة للشيخ يوسف المدنى!

وبوغت نديم، وهو يتفحص وجه محدثه، وهو يسأله متجاهلاً ومتجلدًا:

- من يكون الشيخ يوسف المدنى؟


وواصل الرجل الذى كان يرتدى ثوب درويش بنفس الهمس:

- الرسالة من سيدى الشيخ شحاتة القصبى!

وهدأ نديم وراح يربت على كتف محدثه، وكأنه يدعو له بالشفاء:

- أين الرسالة؟

- أن ترافقنى إلى حيث أذهب!

* * *

ورافقه نديم إلى قرية «القريبة»، وفى الوقت الذى انتشر فيه رجال البوليس فى مجموعة البلاد القريبة من «العتوة القبلية» بحثًا عن الهارب الذى لم يجدوه، وقبل أن يبعد كثيرًا عن المنطقة! انتشر رجال الشيخ شحاتة فى مختلف الأشكال، دراويش وباعة، وشيوخ، ومتسولين، يتلقفون «نديم» من بلد لآخر، يختفى نهارًا فى بيوتهم، يغير ثيابه، ويبخر شعر رأسه ولحيته بالكبريت فيصبح مرة أبيض ناصعًا، ثم يغسله فيختلط البياض بالسواد، ولم يكن هذه المرة فى حاجة إلى تغيير جلده، وينتقل فى المساء مع عودة الفلاحين من حقولهم وحتى لا يلفت بقاؤه فى مكان واحد وبصورة واحدة انتباه أحد، وكانت تلك حربًا أخرى تخوضها دولة الدراويش ضد الحكومة، وفشلت الحكومة هنا كما فشلت هناك..

ولم تكن تلك هى المعجزة التى كان ينتظرها نديم ليعود إلى الحياة بدلا من أن يعود إلى سجن آخر دائم! المعجزة الحقة هى أنه كان يسترد نفسه يومًا بعد يوم، ولقاء بعد لقاء مع هؤلاء الذين يعرضون حياتهم للخطر من أجله، أو من أجل الشيخ شحاتة القصبى، وكان الشيخ شحاتة هو الذى منع الشيخ خليل من معاودة الاتصال بنديم حتى لا يصبح دليلاً إليه، وترك نديم ليواجه المجهول كل يوم مع رجال لم يكن يعرفهم، وما كان يعرفه سوى بعضهم، ولم يكن ثمة وجود لمشكلة الثقة ولا الخوف، وحين كان نديم يتأمل البيوت التى يأوى إليها، حين كان يجد ما فيها ومن فيها ينطق بالحاجة إلى جزء صغير من المكافأة المرصودة لمن يدل عليه، ورغم ذلك فأصحابها لا يقاومون الإغراء فحسب، بل ويجابهون المخاطر، حينذاك كان يشعر بالغيرة من الطريقة الفذة التى عالج بها الشيخ شحاتة بين أفراد مملكته أزمة الثقة والخوف معا!.

كان هؤلاء جزء من الشعب، وكان هو كل ما تبقى من تلك الشعلة التى توهجت منذ سنين والتى كانت تسمى ثورة! ووجد نديم لسانه القديم، وجرت فى عروقه الدماء القديمة، وحين كان بعضهم يسأله بين الإنكار والتصديق:

ـ هل سيعود عرابى يومًا وهل..؟

ـ طبعًا إذا ثار الشعب على الإنجليز فسوف يعود.

ـ لكن كيف يثور الشعب يا نديم؟ أنت لا تعرف أن الإنجليز سرحوا الجيش وأن رجالهم فى كل وزارة وإدارة! أنت لا تعرف أن...

ـ أعرف ولكنى أتكلم عن ثورة الشعب، كانوا يقولون إنهم جاءوا لإعادة الحكم الشرعى للبلاد، وأنهم لا يريدون سوى إقرار النظام، وأنهم سيغادرون البلاد، وكانت حجة من خانوا بلادهم أنهم صدقوا ذلك كله! والآن هل هناك من يصدق؟ الشعب لا يعرف الخوف ولا تنقصه الشجاعة! أنت مثلاً..

ولكن يبدو أن «نديم» لم يكن يعرف فعلا كل شىء، فها هو ذا ينتظر أحيانًا يومين وثلاثة فى أحد المساجد دون أن يقترب منه ذلك الرجل المجهول الذى يهمس فى أذنه:

أتبعنى بعد صلاة العشاء.

وبالطبع كان هناك من يخاف، ومن يتردد فى تنفيذ كلام الشيخ شحاتة، ولكن «نديم» كان قد استرد نفسه تمامًا، ولم يكن معه أحد حين أراد أن يسافر من طنطا إلى كفر الزيات، وفى المحطة أمكنه أن يميز بين الواقفين على الرصيف عددًا من رجال البوليس

السرى وهم يتفرسون فى وجوه الركاب، ولم تخذله نفسه، لقد تقدم منهم فى خطى رجل عجوز مرهق: وكان يرتدى ثياب ولى الله ويمسك مسبحته، وسأل أحدهم:

- أين يقف قطار كفر الزيات؟

- على هذا الرصيف!

- ومتى يجىء يابنى؟

- بعد ساعة...

- هناك متسع للصلاة، لكن أين المصلى يا أولادى؟

- تريد المسجد الأحمدى يا سيدنا أم...

- لا أقوى على حمل هذه الصرة إلى هناك!

- نحملها لك حيث تريد

- بارك الله فيكم.

ولم يتركوه حتى ركب القطار ووقفوا فى وداعه، وطلبوا منه الدعوات فلم يبخل بها عليهم!

* * *

وفشل البوليس فى العثور عليه، وانتهى به الفشل إلى اليأس، وربما لم يكن ذلك الهارب هو نديم، وحتى لو كان هو فأى خطر يمثل وجوده أو اختفاؤه؟ كانت الأمور قد استقرت فى يد الحكومة، وفى يد سلطات الاحتلال، إلى الحد الذى لم تعد تبالى معه بوجود نديم أو عدم وجوده، لقد نسيه الناس، فلماذا يذكرونهم به؟ وكان الذين يحكمون مصر آنذاك رجالاً من أمثال نوبار باشا الذى أسقطه أول تمرد للضباط فى عهد الخديو إسماعيل ورياض الذى أسقطته ثورة عابدين!

ولكن «نديم» ما كان ليخفى طويلاً على رجال الشيخ «شحاتة القصبى» ولا عن صديقه الأزهرى، لقد عثروا عليه أخيرًا فى قرية اسمها «الكرم الطويل».

وبديهى أنهم لم يعثروا عليه كنديم، كان رجلاً من أهل الحجاز يرتدى زيهم، وينطق بلهجتهم، ويصف للملتفين حوله فى مضيفة العمدة أرض الحجاز وأهله، وعاداتهم وأخلاقهم وصفًا يدعم به الحجاج أنفسهم أقوالهم، مع أنه لم يذهب يومًا إلى تلك الديار المقدسة!

ولم يكن ثمة ما يعجز «نديم» فى هذا المضمار!

ـ هل ستبقى طويلاً؟

.. كان صديقه العالم الأزهرى هو الذى يهمس فى أذن نديم بهذا السؤال وقد زاره فى مضيفة العمدة كواحد ممن اجتذبتهم شهرة العالم الحجازى، فأجابه نديم:

ـ نعم!

قالها نديم بأسى، وكان قد عرف منذ لحظات ومن صديقه أن زوجته الأخيرة قد لقيت ربها أثر مرض مفاجئ!

ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد، كان المقام قد طاب له فى قرية «الكوم الطويل» ولم تعد به حاجة إلى حجرة أخرى مظلمة!

ولم يكن عمدة «الكوم الطويل» ليفرط فى هذه الهبة التى هبطت عليه من السماء، فلم يكن ضيفه مجرد زائر من الأرض المقدسة، كان عالمًا فذًا، ومحدثًا عذبًا، وراوية لا يند عنه خبر أو طرفة أو مسألة فى القديم أو الحديث وأصبحت مضيفة العمدة منتدى للأعيان والعلماء والحكام الذين تجتذبهم شهرة العالم الحجازى!!

لقد ذاع صيته فى المنطقة كلها، وذاع معه صيت العمدة! وكان مجتمع الأعيان آنذاك يشبه من بعض الوجوه نفس المجتمع الذى استقبل شباب نديم، وفتح له أبوابه، وأعد موائده!!

لقد انكفأ الأعيان إلى قراهم، بعد أن شاركوا فى لعبة الثورة الخطيرة بعض الوقت!

وأصبح بمقدور البعض أن يتحدث عن الثورة باعتبارها رجسًا من عمل الشيطان، بينما اكتفى حكماؤهم بقولهم: إنها عمل يفتقر إلى الحكمة!

وبينما تسلى بعضهم بالاشتراك فى مجلس شورى القوانين ـ الذى كان مجرد هيئة استشارية ـ أراد بها الإنجليز أن ينسى الشعب حلمه بالحياة النيابية ! راح أغلبهم ـ وكما كانوا فى الماضى ـ يتسلون خلف أسوار قصورهم بالطرائف والمدح شعرًا ونثرًا، فى الكتب أو ألسنة الظرفاء والعلماء !! أما من بقى منهم على إخلاصه للثورة، فقد بقى فى السجون!

وهكذا عاد نديم كما بدأ، كانت تلك دورة صغيرة من دورات التاريخ الذى يتحرك فى رأس نديم فى شكل مجموعة من الدوائر وكانت أيضًا فكاهة جديدة بنديم وحده، ورواية ليست تجد أبرع منه ليلعب فيها دور البطولة!!

لقد أضاف إلى مواهبه القديمة موهبة كانت فى رأى صديقه القديم أديب اسحق أعظم ما يمتلك، تلك موهبته كممثل، لقد قضى أديب إسحاق، الذى فر من لهب الثورة ليظفر بحياته، وبقى نديم الذى لم يأخذ فرصته كممثل ليحقق نبوءة أديب، وليتحسر على موته كما تحسر على حياته، ترى هل تطل عليه الآن روح أديب لترى كيف يصل الممثل إلى الذروة؟

لقد التقى فى مضيفة العمدة «بمصطفى باشا صبحى» مدير الغربية الذى اجتذبته هو الآخر أحاديث العامة والخاصة عن عالم الحجاز الشهير فجاء ليتحدث إليه!

ولا يثير الموقف الخطير قلق نديم بل لعله يثير فيه روح التحدى والمغامرة والفكاهة.. فقد كان يعرف المدير بقدر ما كان المدير يعرفه.. وكان يعرف أيضًا أن المدير لا يزال مكلفًا بالقبض عليه..

ترى هل يتعرف عليه؟ ألم يبق ثمة شىء فيه يثير الشكوك؟ لمعة عين، أو نبرة صوت، أوْ اختلاجة فى صفحة الوجه؟ هل هى عبقرية التمثيل أم عبقرية الزمن والهموم والحجرات المظلمة؟

وإذا كان بمقدوره أن يتحكم فى ملامحه الخارجية فكيف يتحكم فى تدفق فكره وتداعياته، وطريقته فى التعليق والفكاهة؟ هل هى عبقريته، أم إنسانية المدير؟ ولكن المدير هو الذى يحسم الموقف حين يهمس فى أذن رفاقه بعد أن ودع العالم الحجازى: «لولا أنى أعرف أن نديم» راح وراحت أيامه لقلت أن هذا العالم الحجازى هو نديم. ولكن جل من لا شبيه له».

وكان جديرًا بنديم الممثل أن يطرب لهذه الشهادة حين تبلغه وأن يحزن فى نفس الوقت لأنها لن تطرب سواه، ولأنها تنعى إليه «نديم» بمعنى من المعانى ! وكان جديرًا به أيضا أن يواصل تلك المزحة الغريبة بقلب جسور، فيتقبل الدعوات التى يتنافس فيها العمدة والأعيان ليشرف عالم الحجاز الشيخ يوسف المدنى دورهم، وبلادهم، ويخطب الجمع فى المساجد ويتحدث إلى المصلين بعد الصلاة، وينظر إلى وجه الحشد من جديد، فيرتعش لسانه ويتذبذب حين يندفع فى حماسته وحين تكتمل الدائرة القديمة، ولكنه يمسك به شأن الممثل العظيم فى الوقت المناسب حتى لا يخرج عن حدود الدور المرسوم، ولم يكن هناك من يدرك عنصر الفكاهة فى هذه الرواية الغريبة سوى هذا

النفر من رجال الشيخ شحاتة الذين يدورون حوله حيثما ذهب، وينقلون أخباره لسيدهم، ويدركون ما قد لا يدركه الممثل العظيم من همس النظارة وشكوكهم وهل كانت تذهب سدى تلك الكلمة العابرة التى أطلقها مدير الغربية فى لحظة دهشة وحيرة؟

* * *

وجاءه ما يشبه الأمرِ من الشيخ شحاتة القصبى ليعود إلى حيث بدأ اختفاؤه إلى «منية الغرقى» ويبقى بها حتى ينسى الناس أمر الشيخ يوسف المدنى الذى ذاع أمره وشاع !! وطبعًا أعلن الشيخ يوسف عن رغبته فى أن يعود إلى بلاده المقدسة. وكان ذلك بعد ثلاثة أعوام قضاها فى «الكوم الطويل»، وخرج أهل القرية والقرى المجاورة ليكونوا فى وداع العالم الكبير الذى أعلن عن رغبته فى أن يزور المحلة لشراء بعض الهدايا لأقاربه، وقبل عودته إلى الحجاز، غمرته هدايا الأعيان كما غمرته عواطفهم وتمنياتهم!

كانوا هم أعداءه التقليديين وحماته كذلك، وكانت علاقته بهم بكل تعقيداتها فكاهته الخاصة حين لا يجد ما يتفكه به، ثم إنه حمل ذلك كله وعاد إلى حيث بدأ، إلى «منية الغرقى».

ثم إن «نديم» لم يبق طويلاً فى «منية الغرقى» لقد شاقته الحياة الطليقة، وما عاد يطيق البقاء بعيدًا عن الناس فى حجرة مظلمة أو منيرة!!

ـ ولكن إلى أين يا بنى!؟

وكان الشيخ شحاتة هو الذى يسأل هذه المرة:

ـ إلى القرشية، عزبة المنشاوى باشا، أظنك تعرف..

وكان الشيخ شحاتة يعرف عن المنشاوى باشا ما يجعله مطمئنًا على مصير نديم، فالباشا فضلاً عن معرفته بنديم، من أنصار الثورة العرابية، والذى أنقذه من مصيرهم هو أنه إبان الحرب أنقذ عددًا من الأوروبيين من مذبحة كانت تودى بحياتهم ونقلهم جميعًا إلى عزبته، وفى حمايته، وحين حوكم مع العرابيين لم ينس الأوروبيون صنيعه فتدخلوا لدى قناصلهم الذين تدخلوا بدورهم لدى الإنجليز، فصدر عفو عنه!

وعاش كجزيرة محاصرة وشامخة بعد فشل الثورة، عاش أيضًا يتسلى بزراعة أرضه الواسعة، وبمجلس علمى وأدبى.. فكر نديم أن يحتل ركنًا فيه!

وإذا كان من الممكن أن تتجدد الشكوك فى شخصية الشيخ «يوسف المدنى» فلتكن ثمة شخصية جديدة لا تثير الشكوك!

* * *

واستقبل المنشاوى باشا ذات مساء فى قصره رجلاً يرتدى ثياب أهل اليمن، وينطق لهجتهم، واسمه الشيخ على، ثم أصبح اسمه الشيخ «على اليمنى»!

فى البداية ظنه رحالة يبيع علمه وأدبه مقابل عدة ليال من الضيافة والسمر، وبعض العطايا والهبات، ثم إنه هو الذى أصبح يرجوه أن يطلب أى شىء عدا الرحيل عنه!

وكان جديرًا بنديم أن يتذكر تحذير الشيخ شحاتة له وهو يهم بالسفر هذه المرة:

ـ لا تبالغ فى الثقة بنفسك والاعتماد عليها، اعتمد على خالقك وتذكر دائمًا حاجتك لعونه!

وإذا كان المنشاوى باشا لم يعرفه حتى الآن وهو من أصدقائه القدامى. فجدير بنديم أن يطا من غروره، وأن يعرفه بنفسه لأن الاستمرار فى هذه اللعبة يحمل فضلاً عن الشك فى ولاء. صديقه معنى مخادعته..

ولكن هل يحتمل صديقه الباشا مسئولية وجوده حين يعرف حقيقته؟ لقد احتملها صعاليك الشيخ شحاتة ودراويشه ولكن هل يحتملها الباشا بمصالحه المعقدة مع الحكومة والإنجليز، ودائمًا كان يواجه مع كل صديق اختبارًا ومخاوف جديدة!

ولكنه ما عاد يبالى هذه المرة، حين راح يسأله كيمنى عن أحوال البلاد والعباد، ثم يتطور إلى السؤال عن الحقيقة وراء ذلك الحدث الغريب المسمى ثورة، عاوده خوف شديد!

كانت تلك لعبة خطرة، وإمعانًا فى الخداع. وسواء أكان ما سيقوله عن ذلك الحدث ورجاله هو الحقيقة التى يعتقدها أو ينبغى أن يقال لرحالة غريب، فالأمر دقيق وحساس ومخيف بقدر ما فيه من الإغراء..

ترى هل يحدثه عن نديم وعرابى وغيرهما من رجالات مصر دون أن يدرى حقيقته؟

أية فرصة، بل أية تهلكة؟

وقبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة عن هذا الجزء الحساس قاطعه نديم قائلاً:

ـ أنت يا سيدى لا تعرف من أنا، وإذا كان مثل هذا الحديث يسبب لك..

ـ يا سيدى لقد أصبح كل شىء ملكًا للتاريخ. وليس هناك ما أخافه، وإن كان هناك ما أحزن عليه.. وما عرفته عنك يكفينى عما لا أعرف..

ـ وماذا عنى يا سيدى؟

ـ وماذا يعرف الناس عن بعضهم؟ أنت تعقد ما ليس معقدًا:

ـ لقد خدعتك كثيرًا، أنت تحمى فى بيتك هاربًا من الحكومة.

وتأمله المنشاوى باشا مليًا: من تكون؟ ثم استطرد دون مبالاة: لست أبالى أن أحمى عربيًا مهما تكن فعلته لكن كيف يستطيع مثلك أن يفعل ما يخاف جريرته.؟

وكان جديرًا بنديم الممثل أن يسكر بنجاحه بقدر ما يخاف من هذا النجاح ذى الطرف المدبب! ثم قال بتهيب:

ـ لقد فعلت الكثير.. أشعلت ثورة!

ولم يكن هناك ما يخفف من وقع هذه الخدعة الثقيلة على المنشاوى باشا سوى أن يشترك مع نديم فى توسيع نطاقها.. سوى أن ينظر إلى رياض باشا نفسه رئيس الوزراء آنذاك وهو يتردى فى حبالها..

ولقد واتتهما الفرصة دون قصد حين بعث رئيس الوزراء إلى الشيخ «على اليمنى» الذى بلغته شهرته يسأل عن معنى مثل يمنى كان قد قرأه ولم يفهمه!

وكتب الشيخ على اليمنى يشرح لدولة الباشا معنى المثل:

«بعلة الورشان يؤكل رطب المشان».

وكانت تلك فكاهة أخرى لا تليق بغير نديم، وكان ثمة زواج ثالث، ورخاء تجاوز «نديم» إلى خادمه فهيأ له ولزوجته حياة طيبة فى قرية اسمها الجميزة!

وكان ذلك كله لونًا من الحياة لا يجرؤ غير نديم على أن يتوغل فيه إلى هذا الحد ! فالرجل الذى يتعشق الحياة لا يبالى فى أى ثوب يلتقى بها ولا من أى باب؟ وكان للأبواب الخلفية جمالها الخاص ولكل لون من ألوان الحياة لون خاص من الحرية.

لكن إلى متى تستمر هذه الرواية الغريبة؟ نعم إلى متى؟ وكان هذا السؤال لا يباغت «نديم» وحده بل يباغت أيضًا هذا النفر من رجال الشيخ شحاتة الذين يشاهدون عن قرب هذه الرواية، ويدركون ما فيها من فكاهة أليمة!!

وكان من رأيهم ألا يستقر نديم فى مكان وأصبح ذلك من رأيه أيضًا ليس بدافع الخوف فحسب بل لدوافع كثيرة ربما كان منها الخوف على هذه الرواية نفسها.

وللروايات دائمًا تقاليدها فى الأدب أو فى الحياة، وخلال وجود نديم فى ضيافة المنشاوى باشا الذى كان بيته وكرًا للعرابيين بشكل من الأشكال، لم يجد نديم مانعًا من أن يكشف عن شخصيته لعدد من أخلص أصدقائه، وأن يزيد بذلك عدد المشاهدين لهذه الرواية والممثلين فيها أيضًا، لذلك أنهم جميعًا وافقوا «نديم» على رأيه وأتاحوا له أثمن فرصة.

وأعلن الشيخ «على اليمنى» ذات مساء لرواد مجلس الباشا عن رغبته فى أن يسافر لأداء فريضة الحج!

وكان هنا كما كان هناك، وداع آخر، وسفر آخر قصير، وعودة أخرى إلى غير المكان!!

ولكن الذى يعود هذه المرة هو «سى الحاج على المغربى».. يعود إلى بلدة صديقه الشاعر «محمود التميمى»، وتتغير الثياب، وتتغير اللهجة، ويتغير بعض الشىء موضوع الحديث، وعرفت الدلتا ومدنها الصغيرة فى هذه الشهور عددًا من المشايخ، هم الناجى، والغزى، والسبكى، والنجدى، والمصرى، والشرقاوى، عرفتهم فى المساجد وفى مضايف العمد والأعيان وفى حلقات الذكر.. وسهرت معهم، وتعلمت منهم، وصليت وراءهم وأخذت عليهم العهود والمواثيق، وافتقدتهم واحدًا وراء الآخر، كما وجدتهم!

وبالتأكيد لاحظت ما بينهم من فروق فى لون الشعر أو شكل الثياب أو لهجة الحديث، ولكن هل لاحظت فيهم جميعًا تلك التوق العارم للحشد؟ ذلك السؤال الملح عن حياتهم ومشكلاتهم؟ ذلك الهمس الشجى عن ضرورة أن يعملوا معا وأن يثقوا بالله وبأنفسهم، ثم ذلك الآسى الغامض حين يغالب بأسهم أمله، وحين يتراجع حبه لهم أحيانًا أمام حبه لنفسه ولوجوده!

أمام ذلك السؤال المضنى الذى كان يلتقى به دائمًا فى كل مرة يسافر فيها شيخ ليعود شيخ آخر؟

- إلى متى تستمر هذه الرواية الغريبة؟؟

ومرة قال لنفسه: أيها المجنون ما الذى تريده؟ تصور أن المستحيل قد حدث، وأن الخديو أصدر الآن عفوًا عنك فماذا يمكن أن تفعل؟ أجل ماذا تفعل بمثل هذه الحرية



فى مثل هذه الظروف؟ ربما أنه لم يكن يعرف كل شىء عن مصر آنذاك، ولكنه أيضًا لم يكن يجهل كل شىء. وكان يأس الناس أفظع ما يعرف، ذلك اليأس الذى يجعلك فى غنى عن أن تضع القيود فى أيدى الناس، وكان ينظر إلى كل ما عاش من أجله يسحق بلا هوادة، ويتلاشى كأن لم يكن!!

وكان هو وحده الذى ينعم الآن بحياة الصعاليك وحريتهم ولا مسئوليتهم كذلك!!

وفى كل مرة واجه فيها السؤال اللعين كان يرد عليه بمزيد من الكتب يؤلفها فى أوقات فراغه. وكان الفراغ أعظم ما يمتلك الآن بعد أصدقائه.

لقد ألف كتابًا أسماه «تاريخ مصر فى ذلك العصر» عرض فيه لتاريخ الثورة العرابية وأجاب فيه على هذه الأسئلة: كيف بدأت الثورة، وكيف قامت، وكيف تحطمت؟؟

كان ذلك بعض همه، ولكن همومه الفكرية كانت دائمًا أكبر من كل ما يملك من فراغ، وها هو ذا يعالجها الآن واحدة بعد الأخرى، فيكتب عن العادات والأخلاق وعن التصوف والعقائد والأصول ويكتب لعرابى فى منفاه رسائل لا ينتظر عليها ردًا، ولا يخالجه أدنى شك فى موهبته كشاعر فينظم أشعاره فى كل شىء، وحين يفقد الجمهور يبعث بها لأصدقائه فى كل مكان!

ولكن إلى متى يستمر هذا كله؟ لقد عالج أشياء كثيرة ولكن هذا السؤال المضنى لا علاج له!

ولم يكن ثمة من يجد علاجًا شافيًا لمثل هذا السؤال!!

* * *

مرة واحدة قدمت زوجته الأخيرة هذا العلاج! لقد كانت من النوع الذى لا يصبر على طبع نديم فضلا عن حياته، ولم يحتمل نديم هذه الزوجة لقد احتمل كل شىء، ولكنه لم يعد يحتمل هذه المرأة، وقرر أن يسلم نفسه للبوليس كأمثل طريقة للتخلص منها!

وقال له صديقه محمد التميمى: هذه أسخف نكتة سمعتها منك!

ولم يكن نديم يقول نكتة، وبالطبع لم يكن يعنى ما يقول، ولكن مجرد هذا التفكير كان يعنى أن «نديم» قد تعب، فعمر اختفائه الآن يقترب من تسعة أعوام، أم هو فيقترب من الخمسين واختفاء الوضوح والمعنى والأمل من حياته ومهما تكن التبريرات والمعاذير، وإدراكه أنه لا يحتمل وحده، وأن أصدقاءه الذين كل ذنبهم أنهم كانوا أصدقاء يحتملون

معه نفس العبء الغامض المجهول، مثل هذا الإدراك كان يغلبه على أمره فى لحظات الوحدة والمرض، وأحيانًا يغلبه على إيمانه فيشكو إلى الله من قسوة التجربة، ويطلب مزيدًا من الإيمان والصبر، يطلبه شعرًا ونثرًا، ويخفف العبء عن الأصدقاء الذين عرفوا أمره، باللجوء لمن لم يعرفوا بعد، ومع أن كل صديق جديد، كان يمثل لنديم اختبارًا جديدًا، ومغامرة جديدة إلا أن ذلك كله كان ينتهى دائمًا ثروة جديدة، ولم يأسف نديم لأنه لم يدخر أموالاً، كان أصدقاؤه هم أعظم مدخراته، ولم يكن فى حاجة للذهاب إلى بلادهم، كانت تغنى رسائله، وكان يغنى أسلوبه الفريد ـ بزركشاته التى عاد يتسلى بها ويتحلى كذلك ـ عن التوقيع على هذه الرسائل، التى يحملها أصدقاؤه لأصدقائه فيتعارفون من خلاله، وتربطهم جميعًا تلك الرغبة المشتركة فى المحافظة على هذا الرجل الذى كان كل ما تبقى من ثورتهم، لقد كان أملهم الغالى وها هو ذا يصبح حلمهم الأثير، وحيث كان فرسائلهم تصله، وحيث كانوا فرسائله تصلهم، ولم تكن رسائله تطلب العون دائمًا بل كانت تقدمه لمن يحتاجه!! وكانت قصة اختفائه نفسها وبدون تعليق قد أصبحت وحيًا وإلهامًا لمن يملكون الخبز، ولمن يفقدون الأمل، وكانوا يقايضون «نديم» وكان نديم فى النهاية يحتمل كل شىء، ويحاول أن يتلمس المعنى فى أى شىء، ولكنه لم يعد يحتمل، ولم يجد أى معنى لما تفعله هذه المرأة التى تدعى زوجه!

لقد شجعها على أن تسافر لتزور زوجة خادمه فى قرية الجميزة قال لها:

ـ سوف تغيرين الجو. وتتسلين!

ولكنها أضافت:

ـ وسوف أستريح منك!

وصمت نديم، حتى لا تغير رأيها وتبقى، اكتفى بقوله:

ـ ليسامحك الله !

وفوجئ بعد أيام من سفرها بخادمه صالح:

ـ سوف يفتضح أمرنا !

ـ لماذا؟

ـ زوجتك ياسيدى تشاجرت مع زوجتى !

ثم أضاف فى خجل شديد:

ـ تعال يا سيدى وخد زوجتك.

وسافر نديم إلى الجميزة، وعقد صلحًا بين الزوجتين، وبقى هناك أيامًا يرقب تطور الأمور، ولكن عمدة الجميزة أعجب بالشيخ الشهاوى، وهو الاسم الذى دخل به نديم القرية!

أعجب به إلى الحد الذى لم يتردد معه فى أن يفصح أمام الشيخ الشهاوى عن حقيقة عواطفه نحو الثورة العرابية.. حين تطرق إليها الحديث يومًا، وإذ وجد أن الشيخ الشهاوى قد طرب لهذا الحديث لقد فتح درجًا مسحورًا فى أحد صوانيه ليطلعه على الخفايا التى لم تكن سوى أعداد مركومة من مجلة الطائف والتنكيت والتبكيت!

ـ أين نحن الآن يا سيدى من هذه الأيام؟ رحم اللّه «نديم» ورحم أيامه.

ـ هل عرفته؟

ـ رأيته مرة أو مرتين ولكنى لا أنساه!

وكادت دموع نديم تفضحه، ولكنه تماسك حين قال العمدة:

ـ ولكنى لا أغفر له عدم ثقته بطائفة العمد والأعيان!

ـ ليسوا جميعًا مثلك!

ـ ولكنه لم يكن يفرق، كان رحمه اللّه مندفعًا!

ـ وهل أنت واثق من موته؟

ـ اللّه وحده يعلم، ولكن هل كنت تعرفه ياشيخ شهاوى؟

* * *

واستقر المقام بنديم فى الجميزة، كانت تلك قرية صغيرة، ولم يعد الشيخ إبراهيم الشهاوى يحرص كثيرًا على تنكره، وقد وجد فى العمدة خير صديق، وكان كل شىء هنا يشجعه على المقام طويلاً، بل وعلى الخروج أحيانًا للتنزه بين الحقول بصحبة العمدة وخادمه صالح!

وفى الجميزة كان يعيش رجل اسمه حسن الفرارجى قضى حياته مخبرًا سريًا فى البوليس، وشارك فترة فى البحث عن نديم، وحين بلغ سن المعاش أعفى من وظيفته، ولكن لم يعف من طبعه، كان الفضول قد أصبح جزءًا منه وكان يعرف صالحًا منذ استقر فى قريتهم ولكن علاقته بالرجل الغريب المسمى إبراهيم الشهاوى أثارت فضوله

فراح يسأله عنه، وكان من الممكن أن يمر الموضوع لولا أن أحس بغريزته المدربة أن إجابة صالح، أو ربما حرصه على عدم الإجابة يخفى سرًا، وحيث لم يكن لديه ما يشغل به نفسه، فقد شغلها بالتحرى عن حقيقة هذا الزائر الغريب، فأخذ مكانًا فى مجلسه، وراح يتسقط من أحاديثه معه ومع صالح ما يجعله على مثل اليقين من أن هذا الرجل هو أحد الهاربين من الحكومة!

هل هو نديم؟

وفى حذر أبلغ الجهات المسئولة، وفى حذر أشد أرسلت الحكومة قوة من البوليس طوقت القرية!

وفى مساء ٢ أكتوبر سنة ١٩٨١ وعلى غير انتظار وجد نديم إجابة للسؤال الذى كان يقلقه دائمًا: إلى متى تستمر هذه الرواية الغريبة؟

* * *

وعاشت مصر كلها مع الخبر المثير الذى تناقلته الصحف، وخاصم النوم عيون الناس بين الأسئلة والأجوبة، عن الماضى والمستقبل أين كان؟ وماذا سيفعلون به؟ وكيف قضى هذه السنين؟ وفى انتظار تحقيقات البوليس بدأ الشعب يحقق قضية نديم، ويكتشف أنها أيضًا قضيته! وفى حجرة صغيرة بمركز السنطة احتجز نديم،. كان هو نديم هذه المرة، وبالتأكيد كان سعيدًا لأنه أصبح نفسه مرة أخرى، وكان بمقدوره هذه المرة أن يسمع تصفيق النظارة للممثل العظيم وهو لم يخلع بعد ملابس الدور الأخير، وكان الذى يحقق معه شاب رقيق مهذب اسمه «قاسم أمين» سمح له بالقهوة والتدخين وبالصحف، وبأن يكون حرًا فى كل أقواله!

ولأول مرة منذ ما يزيد على تسعة أعوام نام نديم دون أن يفكر جزء من عقله فى أنه قد يستيقظ فجأة ليجد البوليس محدقًا به!

ونعم لحظات بذلك الشعور النادر الذى لم يعرفه طوال حياته كلها، ذلك شعور بأنه لم يعد مسئولاً عن شىء حتى ولا عن نفسه!

مسئولية واحدة تحملها نديم فى إصرار بعد الليلة، هى مسئولية هروبه واختفائه، ولقد أدى تحمله لهذه المسئولية إلى إطلاق سراح كل من اعتراف خادمه بأنهم فتحوا بيوتهم لنديم، فقد أصر على أنه لم يدخل بيوتهم بوصفه «نديم» بل بوصفه عالمًا حجازيًا أو مغربيًا أو ما شاء من صفات وأن أحدهم لم يكن يعرف حقيقته!

وانتهت مسئولية المحافظة على حياة نديم بعد القبض عليه إلى شعب مصر، فخرجت جميع الصحف تطالب بالعفو عنه، وبالإفادة منه!

واجتمع مجلس الوزراء ليصدر قرارًا بالعفو عن نديم وأيضًا بنفيه إلى الشام ممنوحًا معاشًا كافيًا ليقضى حياة مستقرة!!

* * *

واختار نديم لمنفاه، وهناك نزل أيامًا فى ضيافة السيد على أبو المواهب مفتى يافا، ثم أصبح له مجلس خاص، وهرع الناس إلى مجلس نديم الذى أصبح أسطورة الشرق، والناس كل مكان لايختلف تقديرهم للذكاء والثقة والظرف، فتلك عملة لا تفقد قيمتها وراء أية حدود، ثم انهالت على نديم الدعوات ليزور فلسطين ويتجول فى مدنها، وربما كانت أول رحلة حقيقية يقوم بها نديم كرحالة حقيقى! يشاهد ويتأمل ويسأل ويمتع الطرف ولا يتلفت خلفه إلا ليستعجل صديقًا أو يلقى نظرة وداع على مشهد أثير، وكان نديم قد ألف كتابًا اسمه «كان ويكون» عن تاريخ الرسالات والرسل، وكان جديرًا به الآن أن يرى بعينيه آثار أولئك الذين كتب عنهم، وعاش يتعلم منهم كيف تنتشر العقائد، وتؤلف الجماعات وتبنى الدول!

وكان كل شىء هنا فى فلسطين، كانت تلك أرضًا مقدسة وكان كل شبر يحمل ذكرى موقف، ويجسد معنى حياة! ومضى يتأمل كل شىء فى فضول الرحالة وذهوله معًا! وزار بأعلى جبل حارزيم مجمع السامرة، والتقى بكهنة هذه الطائفة، وناقشهم وقرأ لهم، ولم يكن ثمة ما يستعجله، كان يربط الزمان بالمكان، وكانت الدنيا أكبر من كل ما رأى، ولايزال هناك ماينبغى أن يتعلمه، وحين بلغه أن الخديو توفيق لقى ربه، وأن ابنه عباس الثانى ولى الأريكة الخديوية، وأنه أصدر عفوًا عنه لم يتعجل العودة.. أثر أن يتم رحلته، كانت تلك أول إجازة حقيقية يحصل عليها نديم فى حياته! وكان فى حاجة إلى مثل هذه الإجازة فلم يكن يدرى على وجه التحديد ماذا ينتظره حين يعود إلى مصر؟

الجزء الخامس

ويتضمن ما قام به نديم بعد عودته من المنفى الأول فى يافا إلى قضائه فى المنفى الأخير بالأستانة.

العودة من المنفى

لم يبق نديم طويلاً فى بيته بالإسكندرية يستقبل وفود الزائرين والمهنئين!

لقد سمع منهم، وسمعوا منه! وكانت القصة التى رواها لهم عن اختفائه! ظريفة، ولكنها ساذجة، أو هكذا تبدو له الآن!

أما القصة التى كان يسمعها منهم فلم تكن طريفة ولا ساذجة، وكانوا يحدثونه عن مصر خلال سنوات اختفائه! وكان واضحا أنهم لا يرون قصة واحدة وكان واضحًا أيضًا أنه لا يهتم كثيرًا بالوقائع والأحداث التى يعرف عنها الكثير، بقدر ما كان يهتم بأصدائها فى نفوسهم.. فى نفوس محدثيه!!

وحين كانوا يسألونه فى نهاية كل جلسة:

ـ والآن ما الذى تنوى أن تفعله؟

لم يكن يجد إجابة واضحة أو مريحة، وكثيرًا ما كان يكتفى بأن يعيد السؤال عليهم بصيغة أخرى، فى انتظار بعض الوقت ليرى ويفكر!!

كانت الحرية أملا، والآن أصبحت مشكلة! ولكن كيف يكون المرء حرًا فى وطن مستعبد؟ وكان ذلك مجرد سؤال! وتنقل بين القاهرة والإسكندرية، والتقى بمزيد من الأصدقاء هنا وهناك، وقلب الصحف التى كانت تصدر آنذاك، وعرج على بعض المقاهى، وهبط فى بعض القرى، كان به توق إلى أن يرى الناس كما هم دون أن يخافهم أو يخافوه!! دون أن يخدعهم أو يخدعوه! وفى كل خطوة كان ثمة من يتبعه من رجال البوليس السرى ولكنه لم يعد خائفًا، ولم يكن ذلك يعنى أن الخوف قد انتزع من تحت جلده!

لقد تلاشى ذلك الخوف المحدود على نفسه، ليحل محله خوف أشد وأعمق على الناس، خوف لم يستشعره بهذه الضراوة حين كان معنيا بالمحافظة على وجوده!

أما الآن فإن ما يخيفه هو أن الناس أصبحوا لا يبالون أو يخافون أى شىء!

كان ثمة نوع من البلادة والذهول يخيم على كل شىء، يزيحه الناس بجهد ليسأل بعضهم «نديم» ذلك السؤال التقليدى:

ـ والآن ما الذى تريد أن تفعله يا نديم؟

* * *

وقال له صديقه أحمد سمير:

ـ لشد ما تغيرت يا نديم!

وكان ينظر دهشا إلى وجهه وملابسه، وكان نديم آنذاك يرتدى زى الإشراف، عمامة خضراء، وكاكولة داكنة، ولا يخفى عن الناس قصة نسبه الشريف، وفى عينيه بقايا بريق يومض حين يبتسم، ولأول مرة كان نديم يستعيد صوته الطبيعى، ولهجته العادية وأيضًا حركته التى غدت أبطأ وأثقل!!

ـ سبحان من يغير ولا يتغير!

قالها نديم وهو يتنهد، ثم إنه عاد يسأل عن بقية الأصدقاء الذين لم يلتق بهم بعد، وكان السجن لا يزال يحتفظ ببعضهم، بأعزهم، بمحمود واصف!

ـ ولكنى لن أغفر لك يا نديم أنك لم تحاول أن تتصل بى إلا بعد سفرك إلى يافا!

ـ يا صديقى الطيب، لم اتصل بمن يعرف الناس صلتى بهم.

ـ لكن ما الذى تنوى أن تفعله يا نديم؟

ـ وما الذى تفعله أنت الآن؟

ـ أعمل مدرسا!.. وضحك نديم قائلاً:

ـ أبحث لى عن وظيفة فى مدرستك!

وخيل لأحمد سمير أنه لا شىء قد تغير فى الرجل سوى جلده وملابسه، ولم يقو على الضحك معه!!

* * *

قال له أبوه فى ضيق:

ـ لم تعد شابا يا بنى، ولم أعد أحتمل فوق ما احتملت، فلماذا لا تدعنى أقضى فى هدوء بقية أيامى!

ـ يا أبى أنت أكثر شبابا منى!

ـ كنت أظنك تعلمت شيئًا مما جرى لك ولنا

ـ لقد تعلمت الكثير! ثم أضاف مقاطعًا أباه الذى التمعت عيناه بالغضب مقاطعا غضبه:

ـ ثق أنه لن يكون فى هذا المشروع ما يسبب لك أو لى أى إزعاج، أنه مجرد عمل أتسلى به!!

ـ وهل تظنهم يسمحون لك بإصدار مجلة جديدة؟

ـ ربما لا يسمحون لى، ولكنهم قد يسمحون لأخى، ستكون باسمه.

ـ طبعًا حتى أفقدكما معا.. كأن ما حدث لنا جميعًا، وبسببك لم يكن كافيًا!!

ـ ثق يا أبى..!

ـ إننى واثق من شىء واحد، هو أنك مجنون، وأن جنونك يكبر معك!

ثم إن أباه صمت فجأة، وهدأ فجأة كذلك، وكأنما أدرك أنه اندفع أكثر مما ينبغى، فعاد يسأل «نديم» فى هدوء مترددا معتذرًا:

ـ لكن ما الذى تريده يا بنى حقا بهذه المجلة؟؟

* * *

ولم يكن أبوه وحده هو الذى يلقى بمثل هذا السؤال!



وفى الواقع أن عودة نديم قد جعلت الشعب كله فى حالة انتظار وترقب لما يفعل نديم ولما يكون؟

الأصدقاء القدامى، والأعداء القدامى، الذين قرءوا «التنكيت والتبكيت» و«الطائف» والذين استمعوا إليهما، الذين رأوا «نديم» مرة ومرات فى بلادهم، أو فى الحرب! الذين أخفوا «نديم» وهم يعرفونه، والذين أخفوه بلا معرفة، والذين سمعوا عنه لأول مرة من خلال قصة اختفائه العجيبة!

إن عقدا من الزمان قد انقضى، والتلاميذ الذين كانوا يتعلمون القراءة والكتابة فى مدارس نديم قد أصبحوا شبابا.. والأطفال الذين ولدوا فى عام الثورة يتعلم بعضهم الآن ما يريد لهم الإنجليز أن يتعلموه، والشباب قد اكتهلوا، والكهول صاروا شيوخًا!

والثورة التى بدأت كحلم، وانتهت مثل كابوس، أخذت مكانها فى سباق التاريخ، وأصبحت جرحا وحرجا ولغزا يختلف الناس فى تفسيره.

وأوروبا التى كانت تتسلل إلى مصر خلف القروض، وفوق مراكب التجارة، وداخل صندوق الدين، اختصرت فى دولة واحدة هى إنجلترا التى ألغت المراقبة الثنائية، ولم تعد سيطرتها على مصر فى حاجة إلى إقناع أو تبرير أو شريك!!

والأعيان الذين انقلب بعضهم على الثورة حين بدأت العواصف تهب، بحثا عن الأمان!! يواصلون نفس البحث: ويجدونه فى اهتمام المستعمر بزراعة القطن ليوفر لمصانعه المادة الخام، وليوفر لهم دخلاً ثابتًا منتظمًا!!

والفئات الصغيرة التى عرفت يومًا قوة التجمع التى تكون لها حين تضع قرشًا فوق قرش، عادت كما بدأت مجرد شراذم تسحقها قبضة الحياة اليومية فى الحقول والدكاكين والمشاغل!

وحفنة المثقفين الذين وعوا ذات يوم حلم الثورة. أغلق بعضهم خلفه أبواب بيوتهم بعد أن لفظتهم أبواب الإدارات الحكومية التى كادت تصبح وقفا على الأجانب!

وراحوا يتسلون بالكتب القديمة وبنبش الذكريات التى أصبحت قديمة، أما الباقون فبينما شغل بعضهم بالصحافة فقد شغل البعض الآخر بالتدريس، وهنا وهناك كان شعار الجميع تلك الحكمة القديمة القائلة: «إن ما لا يدرك كله لا يترك كله».

أما الخديو الجديد «عباس الثانى» ذلك الفتى الذى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، والذى كان صبيا حين زار مدرسة نديم فى الإسكندرية، فقد أحسن استقبال نديم حين عاد من منفاه!!

وألمح فى لياقة إلى تذكره لهذه الواقعة ضمن حديثه الودى مع نديم، كما ألمح إلى جهود نديم الوطنية فى الماضى وما يمكن أن يقوم الآن من أجل مصر فى ظروفها الدقيقة الراهنة!!

وكان ذلك كله فوق ما ينتظر نديم، ولقد تجنب فى لباقة مواقف نديم من أبيه، مؤكداً أننا فى عهد جديد تماما، هذا الخديو الجديد الذى أيقظ أحلامه القديمة وشكوكه القديمة فى وقت معا، كان أكثر جوانب الصورة التى رآها نديم لمصر بعد عودته إشراقًا!!

وكانت تلك هى الانطباعة الأولى التى رآها نديم للشعب الذى أصدر له العدد الأول من مجلته الجديدة يوم الثلاثاء، ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢، والتى أسماها «الأستاذ».

الأستاذ

وأسبوعا بعد أسبوع كان اللقاء يتم بين الماضى والحاضر، بين الجزء والكل، بين الأستاذ والناس!

وقال بعض الناس: مدرسة أخرى جديدة من مدارس نديم!

وأكمل البعض الآخر: بعد أن أصبح غير قادر على افتتاح المدارس!

وكان فى كلام الجميع بعض الحق، لقد بلغ نديم الخمسين من عمره، وحتى لو سمحت له صحته برحلات جديدة يفتتح فيها الجمعيات والمدارس، فهل يسمح له الإنجليز؟ ولم يبق أمامه سوى أن يجعل من مجلته مدرسة بلا أسوار، وبأجر زهيد، وهو وحده كل من فيها من المعلمين، وأن يجعل من قضية الشعب مرة أخرى مشكلته الشخصية، ودرسه المفضل، وأن يمزج على طريقته بين ما يريد أن يقوله، وما يريد الناس أن يسمعوه؟

* * *

ما الذى يريده الناس؟

أشياء كثيرة بالتأكيد، فى أولها أن يعرفوا شيئًا عن قصة اختفائه العجيبة، ذلك أمر يحبه كل الناس فى كل وقت، ليكن لهم هذا، على أن يتوزع على أعداد المجلة، ذلك أمر تقتضيه الصنعة! وعلى أن يدس فيه المعنى الحقيقى فى قصة اختفائه لا باعتبارها بطولة فرد بل بطولة شعب، فالشجاعة كالجبن كلاهما مرض اجتماعى شديد العدوى، وذلك أمر يعنيه هو.

وليكن ذلك كله بطريقة تؤدى الغرض، وكان ضمن أغراضه ألا يحرج سلطان الحكومة التى عفت عنه، وسمحت لمجلته بالظهور!

ما الذى يريدونه أيضًا؟ ذلك أمر يختلف باختلاف كل فئة وطبقة!!

ولكن الجميع بالتأكيد، إن لم يكن بدافع الوطنية فبدافع الفضول يريدون أن يعرفوا صورة الحاضر والمستقبل كما يراها ذلك الرجل العائد من منفاه، والذى كان جزءًا من الثورة وإذا كان اختفاؤه لغزا، فإن الطريقة التى يمكن أن يواصل بها ظهوره فى ظروف الاحتلال، تبدو لغزا أشد غموضًا!!

وإذا اقتربت عودته من عودة حاكم جديد فإن عيون الناس راحت تنظر هنا وهناك، وأيضًا تنتظر!

ولم يكن نديم أفضل من هذا الجو ليبدأ روايته الجديدة! ليعيد إلى الحياة شخصياته القديمة التى عرفها الناس فى حواريات «التنكيت والتبكيت»، وما أقرب الظروف التى ظهرت فيها بالظروف التى فيها تعود، لقد اختفت حين بدأت الثورة، والآن - حيث يلوح أن كل شىء قد انتهى - لم لا تعود لتواصل من جديد مسيرتها التى تأخرت بعض الوقت؟

لم لا تعود، وتعود معها مشكلاتها القديمة والجديدة؟

ويعود الحوار الأسبوعى بينه وبينها أو بين بعضها البعض الآخر، حوار بلغة الشعب وفكره وخبرته ومرحه .

* * *

وهكذا، وعلى نحو هادئ عادت إلى الحياة هذه المجموعة من صعاليك نديم وشخصياته، حبيب والمعلم حنفى وسعيد وبخيتة، وحنيفة ولطيفة ودميانة، وزبيدة ونبوية، وعمارة والزناتى»، فلاحون وصناع وخدم وزوجات، وأزواج ، وبنات وتلاميذ!

شخصيات قديمة وشخصيات جديدة، تثرثر وتتشاجر وتشكو وتضحك وتعانى وتعكس مشكلات الحاضر والماضى، وتبحث عن طريق للخلاص.

كل هؤلاء هم جيش نديم قبل أن يصبح جيش الدولة، أداته لتحقيق الثورة والتقدم، وإذا كان جيش الدولة قد هزم، وإذا كانت الدولة الآن خاضعة لجيش الاحتلال، فأى شىء يمنعه من أن يعود لقواعده؟ من أن يجمع فلول جيشه الشعبى!

لكن لأية معركة؟

للدفاع عن أنفسهم! ففى الواقع أن جيش نديم الشعبى قد تعرض هو الآخر لهزيمة من نوع أشد!

ذلك أن الدولة التى هزمت الجيش المصرى فى «التل الكبير» لم تقنع بهذا النصر العسكرى، لقد خلع الأوروبى المنتصر خوذته، ووضع سلاحه جانبا، وارتدى بذلة من نوع ردىء وتمنطق بمريلة بيضاء. وتسلل إلى مراكز مصر وقراها يفتح هنا وهناك محلا تجاريًا يعرض بضائع أوروبا، وبجواره برميل من الخمر الرديئة، وأمام الدكان بضعة مقاعد من القش سوف تكون نواة لمقهى تخدم فيه زوجته أو ابنته زبائنه من القرية أو المدينة، وبجواره أيضًا خزانة حديدية سوف تكون نواة لبنك صغير، يجمع رأس ماله من زبائن الدكان والمقهى ثم يعيد إقراض نفس الزبائن نفس الأموال بأفظع نسبة من الربا وفى وقت قريب يصبح هذا الوافد الغريب المالك الحقيقى لأرض القرية وعقار المدينة.. كانت البذرة التى بدأ نديم حربها فى الماضى قد أصبحت غابة مظلمة، وكان جيشه الشعبى قد أوشك أن يفقد ثروته، وهى سلاحه، ثم إنه يوشك الآن أن يفقد شخصيته ووطنه، وقديمًا كتب نديم: «أن من فقد المواطن فقد الوطن». وإذ كانت هذه المجموعة من صعاليك نديم وشخصياته تصنع فى النهاية شخصية مصر، فقد كانت مصر تفقد هذه الشخصية عامًا بعد عام، ودون حرب وهى تلبس، وهى تأكل، وهى تتكلم، وهى تتعلم، وهى تشترى، وهى تبيع، وهو تسكر، وهى تمرح! وكان على نديم أن ينقذ هذه الشخصية من الانحلال لتصبح قادرة على مواجهة الاحتلال وصنع التقدم!!!

* * *

وأسبوعًا بعد أسبوع، كانت ترد إليه رسائل القراء، القدامى، والجدد إنهم يذكرونه بالزيارات واللقاءات والمناسبات، كيف يمكن أن يكون المرء صديقًا شخصيًا لمثل هذا العدد من الناس؟ وكانت رسائلهم هى التى تعطيه هذا الانطباع! ويدرك نديم على نحو مريح أنه لا يصيح فى البرية، أن صعاليكه لهم فى مصر أقارب وأصدقاء، فقد كانت بعض الرسائل تصل بأسماء هذه الشخصيات، وتتحدث معها رأسا وتناقشها دون أن تلتفت إلى نديم، كان الشعب المصرى قد هزم، ولكن روح الفكاهة لم تهزم فيه أبدا، وكانت تلك طريقته فى مداعبة نديم، وبدأ أصحاب المواهب فى اكتشاف مواهبهم، ويعبرون بالأزجال والأشعار عن كل شىء، عن مشكلات المجتمع، وعن رغبتهم فى أن تصل إليهم «الأستاذ» مجانًا على حد سواء!!

هل يتغير الناس أم أنهم لا يتغيرون أبدًا؟

ها هو الصوت القديم يعود، والحوار يتجدد، وأنفاس الحشد وعيونه تومض وتلتهب بنفس البريق والحرارة من بعيد.

لقد تبددت الحشود ولكن لا شيء يجمعها من جديد مثل الكلمة الصادقة..

وحين يلتقى نديم بالمعلم حنفى فى إحدى حوارياته ويسأله:

ـ «أنا من نهار ما جيت وأنا أدور عليك، إزاى حالك اليوم؟ إن شاء الله تكون الصنعة وياك مبحبحة، والزهر مشخشخ شوية!!

يجيبه حنفى بسؤال آخر:

ـ أنت فتنى وأنا فانهوكار؟

ـ فى انهوكار؟ أنت فت الشبكشية؟

ـ ما فتناها من زمان!.. سبحانك يا دايم، من يوم ماطلعت السيجارة اتقفلت بيوتنا وقمت عملت خرائط، وقعدت اشتغل كراسى، جولنا الجماعة الألافرانكة وعملوا الدرابزينات الحديد والشبابيك الأمريكانى فبطلت صنعتنا فرحت عملت فوطى وشفت المر لما تعلمت القزازة، التفتنا لقينا الفوط جايا تفتل من بلاد بره معموله من القطن الكهنة اللى بياخدوه من عندنا..»

ويمضى المعلم حنفى يروى لنديم كيف تنقل من صناعة الشاهى والقطنى إلى صناعة النحاس، وفى كل صنعة تطارده المصنوعات الأجنبية التى يفضلها الأهالى!

وحين يسأله نديم:

ـ بقى العبارة بقت على الحديدة، ما بقاش عندنا صنايعية أبدًا؟ يجيبه المعلم حنفى ساخرًا:

ـ الحمد لله لسة الزبالين مننا والحمارة والشيالين والخدامين ومساحين الجزم والبوابين، وشوية عطارين على كام بتوع بفته، وبياعين طعمية وكرشة، وفجل وكرات!!

ولم تكن تلك هى الطريقة الوحيدة لإنقاذ الشخصية المصرية، وإذا كان صعاليك نديم يمثلون الملامح الرئيسية لهذه الشخصية، فإن السادة بدورهم يمثلون بعض هذه الملامح الرئيسية، وكانت له طريقته أيضًا فى مخاطبتهم...

إنه يكتب لهم بأسلوبه الحاد المباشر مباحث أخرى عن الشخصية، وكيف تتكون من مجموعة من العادات ثم يكتب عن العادة والخلق، وكيف يتكونان بالتقليد الذى يخضع فيه الضعيف للقوى، والمهزوم للمنتصر!

ثم يوضح الوظيفة الأساسية للعدة، وكيف تبدأ فى الأصل كاستجابة صحيحة لظروف معينة، وكيف يمكن أن تصبح نفس العادة عقبة فى سبيل التطور حين تتغير الظروف، والتقليد فى ذاته ليس خطأ، بل هو أساس التطور الناجم عن الاختلاط بين الأمم، لكن المشكلة هى ماذا نقلد؟ كيف نختار ما يلائم ظروفنا، ما يساعدنا على التقدم؟؟ فليس كل جديد صوابا، وليس كل قديم خطأ، المهم أن يختار الأنسب من هنا ومن هناك!

«لماذا لا نقلد الإنجليز فى طريقتهم فى تكوين الجمعيات والشركات؟»

لماذا لا نقلدهم فى الحرص على الثروة، وفى طرق استثمارها؟

لماذا لا نقلدهم فى تكوين العصبيات السياسية، فلقد تخلل الإنجليز ممالك الدنيا بأعمال حزبى المحافظين والأحرار وأحكام سيرهما فى توحيد الوجهة الملكية مع اختلاف الوسائل المؤدية للمقصد الاجتماعى؟؟

لماذا لا نقلدهم فى الحرص على اللغة والدين وهما أساس التماسك فى الأمة؟»

وكانت أفكار نديم حول هذه المسائل قد تبلورت خلال سنوات اختفائه، وكان بمقدوره أن يرجع إلى مدوناته فى هذه الفترة، فلا يعجزه أن يحرر وحده المجلة كلها من الغلاف إلى الغلاف!!

وكانت فكرة التقدم التى ظل نديم يغازلها طوال حياته قد خضعت له الآن، وأخذت مكانها فى إطار فهمه لمعنى التطور خلال التاريخ!!

ويتصدى نديم للإجابة على السؤال الذى كان من أكبر همومه وأقدمها، وجعله الاحتلال سؤال الوقت!

«بم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد؟؟»

وبقدرة لم تكن لتتاح له قبل الآن يضع الإجابة واضحة للسادة والصعاليك معا، ذلك أن التقدم دائمًا نتيجة جهد جماعى وتجميعى، إنه ليس وقفا على دين أو جنس أو أرض

أو طبقة أو فئة، وكانت نقطة انطلاقه هى إيمانه بقدرة الإنسان كإنسان على صنع التقدم، ولكن سر التقدم لا يكمن فى صيغة واحدة، كالعلم أو الدستور أو الحرية أو العدل أو الثروة أو الثورة، أن سر التقدم بمعنى من المعانى ليطوره فى شكله، إنه هو الآخر يأخذ شكل الدائرة المتصلة التى لا يغنى فيها جزء عن آخر!!

فالعلم يحتاج إلى المال، والمال يحتاج إلى العمل، والعمل بدوره يحتاج إلى العلم ليطوره، وإلى القانون لينظمه، وإلى الحرية لتمده بروح الخلق والإبداع!!

والشركة هى أفضل الصيغ لتجميع الثروة، والصناعة هى أفضل الوسائل لتنميتها، ولخلق المناخ الملائم للعلم وتستمر الدورة، ولكنها ليست دورة واحدة، فكرة الوطنية المصرية التى أنبثقت عنها الثورة تتطور هى الأخرى فى عقل نديم وفى مجلته، لتعانق فكرة التقدم، وتصبحا معا وجهين لعملة واحدة، فالوطنية ليست تجمع الأمة فى مكان متكثرين متضامنين، إنها التجمع الذى يستخدم العلم ويستثمر المال فى التجارة والصناعة، ويحترم حرية الفكر ويجد فى توحيد اللغة أساسا لتوحيد الأمة!

وإذا كانت الشركة هى أفضل الصيغ لتنمية الثروة، فإن الحزب هو أفضلها لتنمية الرأى العام والحياة الوطنية، كانت تلك دورة أخرى، وكانت كلمة السر فى كل دورة هى أنه لا يغنى فيها جزء عن آخر!

كان ذلك هو نديم الأستاذ الذى يرى أنه فى بلد كمصر يموج الآن بمختلف الأجناس والأديان واللغات، تبدو فكرة الوطنية المصرية أمثل الحلول لمواجهة آلاف المشاكل ولتحقيق تقدم مصرى يعتمد على الشخصية المصرية!!

الأستاذ والناس

ـ ليس هذا يا سيدى، هو كل ما ينتظره الناس من «الأستاذ».

وتمهل الشاب النحيف العصبى الذى كان يتحدث إلى نديم، محاولا أن يتلمس تأثير كلامه عليه، ولعله وجد ما يشجعه على أن يندفع مكملا:

ـ أن يجلس، ويكتب لهم عن «التقدم» و«الحياة الوطنية» إن ما نكتبه يا سيدى عظيم جداً، ولكن ما تستطيعه أكثر جداً ما تفعله، وما يحتاجه الناس أكبر مما تقدمه!

ثم إن الشاب الجم نفسه، وبدا على ملامحه شعور مباغت بالأسف وهو يتدبر اندفاعه فى قوله، وراح يحدق فى مجموعة الشباب التى كانت تجلس معه حول نديم محاولا أن يجد فى وجوههم صدى لما قاله!

لقد طلبوا منه أن يتحدث باسمهم، كان بعضهم من تلاميذ نديم، وبعضهم من قرائه ومحبيه، وكانوا قد كونوا جمعية جديدة بالإسكندرية، أسموها «العروة الوثقى»، وكانوا يريدون أن يؤكدوا لنديم ما ظنوه فى شك من أمره وهو قدرة الشباب على أن يواصل طريقه، ولكنهم كانوا يريدونه أن ينفى لهم ما باتوا فى شك منه، وهو قدرته على أن يتقدمهم كما كان فى نفس الطريق، وكانوا على مثل اليقين من أن مجرد وجوده بينهم، وسط الجماهير سوف يكون له فعل السحر، هل ثمة قيود على حريته؟ هل تقدمت به السن؟ هل أصبحت الكتابة هى كل ما يقدر عليه؟ ما حقيقة موقفه من الخديو الجديد؟ إن الشعب كله بدا يشعر بمواقف الخديو الوطنية التى أقربها عفوه عن نديم، وتحديه المتكرر لسلطات الاحتلال البريطانى، واقترابه من الشعب، وزياراته للمدارس. واحتضانه لذلك التلميذ الملتهب حماسة ووطنية مصطفى كامل!

فكيف يكتفى نديم وسط هذه الظروف بمجرد الكتابة؟ لقد قلبوا بينهم هذه الأسئلة، وأقنعهم الشاب النحيف العصبى بقدرته على أن يواجه بها كلها «نديم»، وأن يقوده إليهم وها هم جميعًا غارقون فى صمت كئيب مثقل، لقد ألفوا جمعية صغيرة لم تفعل بعد أى شىء، فإذا بهم يعطون أنفسهم الحق فى أن يحاكموا الرجل الذى صنع ثورة وخاض حربا، وأين؟ فى بيته؟ وخيل إليهم أنهم رأوا فى عينيه.. فى أغوار عينيه، بريق دمعة خافتة، الشاب النحيف العصبى الذى لم يقدر على أن يتطلع إلى نديم بعد ما قاله هو الذى لم يبصر بريق الدمعة الخافتة، لكنه سمع صوت نديم المثقل بنبرة أسى:

ـ لم أسمع منذ سنين طويلة كلمات ردت إلى روحى كما ردتها كلماتكم الغاضبة!

ورفع الشاب النحيف العصبى رأسه غير مصدق، واستطرد نديم فى هدوء:

ـ ولكنى سأكون حزينًا ما حييت لو تصورتم لحظة واحدة أن أى مشروع أو فكرة سوف يتوقف وجودها على وجودى!! يكون الأستاذ قد فشل والتلاميذ أيضًا.

ثم انهارت السدود فجأة، وبدأ الحديث...

* * *

ولم يكن نديم فى السن التى تسمح للعواطف بأن تغلبه على أمره، ولكن هذه المجموعة من الشباب ردت إليه شبابه، وقبل هذا اللقاء كان نديم قد بدأ يشعر بأن شيئًا ما يتحرك تحت سطح الحياة المصرية الساكن، بدأ هذا الشىء فى رسائل القراء التى كانت تخزه هى الأخرى بأسئلة مشابهة:

ـ لماذا لا تجىء إلينا؟

ـ الخواجات الآن هم الذين يتنقلون فى القرى وجيوبهم هى صناديق اقتصادك فلماذا أنت قابع هناك فى الإسكندرية؟ هل أنت خائف؟؟ هل نسيت كل شىء؟؟

ـ الخديو يتصل بالشعب فما الذى تخشاه؟

ثم إن جماعة من الشباب أعادوا تنظيم الجمعية الخيرية التى بدأ بها نشاطه فى الإسكندرية، جماعة أخرى فى أسيوط كونوا جمعية «الكمال»، وكتبوا إليه بما فعلوه!

ولم يكن نديم خائفًا ولا حتى سعيدًا، كان رجلا مثقلا بالتجربة، ولم يكن يود أبدًا أن يفقد بذور التجربة التى خسر ثمرتها!

ولقد فكر بعض الوقت أنه لو نجح فى أن يضع هذه البذور فى أرض صالحة وقبل أن يدفن إلى جوارها لقضى قرير العين، ولكن شيئًا ما يتحداه الآن، يتحدى غروره وتواضعه معًا، يتحدى حتى تجربته، ويتساءل نديم فى شك من أمره:

هل أصبح رجلاً كل ما يقدر عليه هو أن يلهو بالكلمات؟

ولم يكن نديم بعيدًا عما يقوله الخديو الشاب، ولا ما يفعله. ولكن كان دائمًا يفكر فيما ينطوى عليه سلوك ذلك الفتى الذى يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وفيما تنطوى عليه ردود فعل المعتمد البريطانى الداهية «اللورد كرومر» لهذا السلوك!

وكانت ثمة مباراة خفية بين العواطف الملتهبة لفتى حالم. وجد نفسه فجأة حاكما لبلد يحكمه غيره، وبين عقل بارد مجرب لرجل قدر له فى وقت واحد أن ينفذ فى مصر سياسة الإمبراطورية البريطانية وأن يروض ذلك الفتى الغر!

وكان نديم يرقب المباراة بأعصاب قلقة، تزداد توترا كلما رأى تأثيراتها على جماعة أخرى من الشباب من تلاميذ مدرسة الحقوق كان نديم يلتقى بهم فى منزل «لطيف بك سليم» أحد أعضاء الحزب الوطنى القديم!

وكان نديم يشعر أن هذه المجموعة التى يتزعمها فتى نابه اسمه «مصطفى كامل» هى الأرض الطيبة التى كان يبحث عنها لبذوره، لقد ارتضع هذا الفتى روح نديم ومنطقه لا فى موهبة الخطابة وحدها بل وفى موضوعاتها كذلك، وكانت أول خطبة له فى أول جمعية عن «أفضل الجمعيات فى العالم» وفتح له نديم قلبه، وقال له كل ما لم يقدر على كتابته آنذاك، عن قصة الثورة التى كان أحد صانعيها وشهودها، ولكن هذه الأرض الطيبة، كانت تهتز هى الأخرى بكل ما يفعله الخديو ويقوله، كان فى مثل سنهم ومنطقه أقرب إلى عقولهم، وكان بمقدورهم أن يلخصوا أمورًا أحيانا فى مثل هذه الصورة المقنعة فى بساطتها!!

«لقد حكم الإنجليز مصر لعشر سنوات من خلال أقنعة مصرية من أمثال رياض ونوبار ومصطفى فهمى، ولكن لو مارس الخديو الجديد حقه الشرعى فى اختيار رجل حقيقى لمنصب رئيس الوزراء، فلن يكون أمام الإنجليز إلا أن يرضخوا، فتكون تلك خطوة جبارة، أو يعارضوا فتنفضح أمام العالم دعاواهم القديمة والجديدة، بأنهم جاءوا لتأييد الحاكم الشرعى، وبقوا لأن الحكومة تقدم لهم صنعهم فى إقرار النظام! لقد أفاد

الإنجليز من استسلام الخديو السابق أما الآن فبمقدور الخديو الجديد أن يكشف حقيقة تسلطهم فى مصر أمام العالم، وبالتأكيد ستلقى مثل هذه الخطوة تأييد الشعب، وتأييد فرنسا وروسيا وتركيا فى نفس الوقت!!

وكان بمقدورهم أيضًا أن يضيفوا فى فورة الحماس وهم يخاطبون «نديم»:

ـ ألست ترى أن ظروفنا تختلف عن ظروفكم، كنتم تواجهون الخديو والإنجليز معًا، أما نحن فمعنا الخديو، وهو قوة عرف الإنجليز كيف يفيدون منها فى الماضى، وسنعرف نحن كيف نفيد منها الآن!!

وكان نديم بالطبع يجد عسرًا بالغًا حين يحاول أن يوضح لهم أن قوة الخديو الحقيقية تقاس بمدى قوة شعبه، وقوة الرأى العام فى بلده وأن عليهم أن يفعلوا الكثير فى صفوف الشعب حتى يمكنهم أن يجنوا الكثير من موقف الخديو!

* * *

ولكنه هو نديم لم يعد ينتظر ما يقوم به هؤلاء الشباب ، لقد كانت له أيضًا طريقته الخاصة التى يضع بها الخديو فى مكانه الصحيح من الشعب، وأصبحت له طريقته أيضًا التى يضع بها الشعب أمام مسئولياته، وفى لقاء جديد مع المعلم حنفى ، يبدو المعلم وهو يتحدث عن أشياء محددة هذه المرة وواضحة تمامًا!

ـ أنا بدى حاجة تبل ريق أخوانا الغلابة، وتخليهم يشموا نفسهم شوية..!

نديم:

ـ زى إيه كده إللى بدك فيه!!

حنفى:

ورشة بولاق أهى موجودة، ليه ما يخدوهاش جماعة من الأغنيا ويشغلوها، وليه ما يخدوش قد عشرة آلاف فدان من أرض الفيوم والا البرارى ويربوا فيها قد عشرين ألف راس غنم، ينتفعوا بصوفهم للتجارة والصناعة فى البلاد، ويعملوا من اللبن سمن وجبنة ولبن يابس زى الأفرنج، ويأخذوا من نتاجهم ، ويبيعوا للجزارين، وليه ما يعملوش شركة تعمل ورشة كبيرة تشتغل الأصواف والحرير والبصمة، وتتعهد الحكومة بأنها تأخذ كل ما يلزم للعسكر والدواوين منهم، وأمراء البلد يفرشوا بيوتهم، ويلبسوا من شغل بلادهم،

هيا الإفرنج بتضربنا على أيدينا، وتقول ألا تشتروا منا، ما أحنا اللى نستاهل ضد الصرم!

ثم إن «نديم» يكتب هذه المرة موضحًا للسادة والصعاليك معا كيف يمكنهم الوصول إلى تكوين الرأى العام القوى، ويعقد محاكمة طريفة للنظر فى دعوى يرفعها الوطن ضد المواطنين، وخلال المناقشات والمرافعات، يقول نديم ما ينبغى أن يقال هذه المرة للشعب وللحكومة وللسادة والصعاليك!!

وحين لا يستجيب الأغنياء لصيحة المعلم حنفى، يقترح نديم أن تتقدم الجمعية الخيرية التى دبت فيها الحياة من جديد لشرائها.. وحين يوضح له الأعضاء أنهم لا يملكون المال اللازم يقول لهم:

- أعرف طبعًا أنكم لا تملكون!!

ثم إنه يقترح أن تقوم الجمعية بدعوة الشعب كله لاكتتاب عام لشراء الورشة ، ثم يدعو الخديو لتبنى هذه الدعوة! ويتحرك نديم هذه المرة وراء الفكرة، ويتحرك صعاليكه أيضًا وراء أفكار أكثر تحديدا..

فسعيد يقول لبخيته بعد أن ضاقا بالخدمة فى بيوت السادة يوما والتعطل أياما:

«لو كانت الحكومة بدل ماتسيبنا بطالين تجمعنا وتعطينا أراضى بور من الأراضى الميرية فى برية بلقاس، وسيدى غازى، والمندرة، وأراضى البحيرة الواسعة، وتعطينا مواشى وآلات وتتمنهم علينا، ولما يطلع المحصول نسدد المطلوب شىء فشىء، كانت تحيى بينا أراضى كثير وتحيى أنفس كثير، وسنة فسنة تعمر الأرض ويبقى فيها بلاد، وتأخذ من أولادنا عسكر، ومن الصنايعيه ويركو، وتضرب على الأراضى ضريبة...

واحنا نلم بعضنا ونجوز ونقعد متهنيين!!!»

الأستاذ والمعركة

وقال نديم لنفسه: هذا الصوت أعرفه، ربما لم يكن صوتا، لعله صدى الصوت، صوته، وفى كل مرة ارتفع فيها صوته، كان يرتفع أيضًا ذلك الصوت المضاد بنفس الدرجة وبعكس الاتجاه!

أول مرة سمع فيها هذا الصوت كانت حين بدأ يتحرك فى اتجاه الأقاليم، وقد جاء مجهول المصدر، يتناقله الناس، ويهمسون به فى شك:

ـ هل صحيح أن «الأستاذ» ستغلق، وأنك ستنفى من جديد؟

ـ ولكنى معكم الآن، ألا ترون مدى كذب الشائعة؟

وتذكر «حسين فهمى» وتذكر أيضًا محافظ الإسكندرية القديم، وبدت الصورة وكأنه لاشىء يتغير كثيرا: لا الخير ولا الشر، قد يتغير الأشخاص والأسماء، وإذا كان «حسين فهمى» يجلس الآن فى أحد بارات الإسكندرية، يشكو لجلسائه أمراض الشيخوخة، فهناك من يقوم بمهمته الآن، وإذا حرص الإنجليز دائمًا على أن يكون هناك من يحكم باسمهم من المصريين، فقد حرصوا على أن يكون هناك أيضًا من يكتب باسمهم فى الصحف باللغة العربية، وكانت جريدة المقطم هى التى تقوم بهذه المهمة، ولقد بدأت معركتها مع نديم همسا بالشائعات ثم جهرا بالمقالات، تتهمه بأنه يريد أن يشعل النيران القديمة، ويحرك الغوغاء ضد الانجليز الذين جاءوا ليقروا النظام والمدنية فى بلاد سادها التخلف قرونا وأن نشاطه الاجتماعى ليس إلا ستارا لإخفاء نشاطه السياسى الدامى لإشعال ثورة جديدة قوامها التعصب الدينى المقيت!!

وضبط نديم نفسه فى مواجهة هذه الحملة، وبلغة هادئة رصينة راح يكتب تحت هذا العنوان «إنما يقبل النصيحة من وفق!»

وكان أصحاب المقطم شاميين نزحوا مثل غيرهم إلى مصر،يتكلمون عن العواطف المشتركة والمصالح المشتركة، والهدف البعيد المشترك وقبل أن يصبح بعضهم أقنعة للمستعمرين!

وظل نديم يستخدم نفس اللغة الهادئة الرصينة، «لم اختلفت كلمتنا إذا اتحدت وجهتنا»؟؟ ولكن لا أحد يريد أن يعى أو يثوب!!

ولم يفقد نديم الصبر وإن فقد الأمل، فكتب بلغة أكثر عنفا «أتتقلب الأمم بتقلب الأحوال ونحن نحن؟؟» ولم يكن هناك من يسمع!!

ولم تكن المعركة التى يتكلم فيها نديم بلسان الشعب ويتكلم فيها أصحاب المقطم بلسان الإنجليز، إلا المناوشة التى تسبق الحرب الحقيقية، وقد بدأت هذه الحرب حين أرسل الخديو إلى رئيس وزرائه مصطفى باشا فهمى من يقنعه فى لباقة بأن يقدم استقالته ولكن الباشا الذى كان فى دور النقاهة من مرض ألم به راح يقنع مندوب الخديو بأنه من الخير لمولاه أن يستشير فى هذه المسألة الخطيرة «سير افلن بارنج» لورد كرومر!

وكان مثل هذا الرد وحده، ودون كل ما سبقه من مواقف كافيا ليقبل الخديو مع «مصطفى فهمى» وزيرين آخرين للمالية والحقانية لما عرفا به من ميول للإنجليز، وأن يعين «حسين فخرى» باشا رئيسا للحكومة ودون أن يستشير السير افلن بارنج..

وهبت العاصفة..

* * *

ولكن العاصفة لم تقتلع الخديو ولا الإنجليز، لقد وقف الشعب كله وراء الخديو، ووقفت وزارة الخارجية البريطانية وراء ممثلها فى مصر، وفى الوقت الذى خرجت فيه المظاهرات لأول مرة فى مصر منذ عشر سنين بقيادة حفنة من طلبة مدرسة الحقوق الخديوية، وعبرت عن شعورها بأشياء كثيرة ضمنها إشعال النيران فى دار جريدة المقطم، فى نفس الوقت أرسل وزير الخارجية البريطانية برقية للخديوى يفهمه فيها بطريقة حاسمة أنه أقدم على خطوة قد تكلفه عرشه، وأن حكومة بريطانيا تستجيب لمطلب ممثلها فى مصر الخاص بزيادة جند الحامية البريطانية بها..!



وأسفرت المعركة عن نصف الفوز لكلا الجانبين، لقد تراجع «كرومر» عن إصراره على إعادة «مصطفى فهمى» وقبل الخديو استقالة «حسين فخرى» باشا وعين بدلا منه رياض باشا، ولكن هذا النصر الجزئى، الذى أعاد الروح للشعب وجعل من الخديو الشاب بطلاً، ودفع بطوائف الأمة إلى قصر الخديو فى مظاهرات أعادت إلى عينى نديم وقلبه أحب المشاهد والذكريات: هذا الموقف الجديد دفع «نديم» لأن يبحث لقلمه عن لغة جديدة، لغة تكمل هذا النصر الجزئى، لغة لاتكتفى بفضح خداع الإنجليز أمام العالم، بل وتفضح من يحاولون رغم كل ماحدث ستر هذا الخداع، وكانت جريدة المقطم التى أحرقها الشعب لاتزال تنفث أحقادها هذه المرة بعنف أشد، فتهاجم المظاهرات، وتتحدث عن الفوضى التى تهدد البلاد، وعن قصور المصريين عن حكم أنفسهم!

وكتب نديم فى مرارة:

«أى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية؟ أصرنا أقل درجة من فعلة الإنجليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم، وتجمعوا لراحتهم؟!».

وكتب مرة أخرى:

«وهل يعد حضور وفود الأمة لتعبر عن تأييدها لحقول الأمة الوطنية والدستورية إخلالا بالأمن؟

ومن الغريب أننا نسمع عن أوروبا أن النهليست، تظاهروا وفتكوا بالملك، والسوشياليست فعلوا كذا، والكمون فعلوا كذا، ثم من العجيب ألا يعد سعى الاضراب فى قلب الدول، ولا قتل القيصر ولا هدم الأماكن بالديناميت تهديدا للأمن، وتعد زيارة الأمة لأميرها تشويشا للأفكار، وسلبا للأمن العام موجبا لزيادة الحامية!».

وكان بمقدوره أيضًا أن يذكر الإنجليز بأنهم برروا احتلالهم لمصر بدعوى تأييد الحاكم الشرعى، وإنقاذه من تسلط العسكريين، وانجلترا الآن هى التى تسلب الحاكم الشرعى أبسط حقوقه وفى الوقت الذى لايستند فيه هذا الحاكم على غير قوة الشعب الأعزل تقرر هى زيادة حاميتها لتواجه بها قوة الشعب!

وكان بمقدوره أيضًا أن يواصل السخرية بالإنجليز فى الوقت الذى يخاطب فيه المصريين بهذه اللغة:

«إننى أرجو من مواطنى أن يجعلوا كلامهم فى الاحتلال كلام الحكماء الذين يبحثون الحقائق بفكر صائب، فإن إنجلترا دخلت لتأييد الخديو ووضع حكومة ثابتة كمنشورها الدولى، ولم تقل يومها إنها دخلت بقصد الاستيلاء على بلادنا، وعللت الجلاء بإتمام ما دخلت من أجله، وهى الآن بعد عشر سنوات ترى الحكومة غير نظامية، وماذلك إلا لأنها وضعت معظم إداراتها فى أيدى الأجانب، ولم تمكن المصريين من إصلاح بلادهم تحت مراقبتها فاختلت البلاد، فإن كان مرادها إفساد البلاد فقد أفلحت، أما إذا كانت تريد إصلاحها، وتسليمها لابنائها فكيف يحدث ذلك، وهى لا تستعمل أبناءها فى الحكم، وتبعدهم عن الإدارات؟».

ومرة أخرى قال نديم لنفسه: هذا الصوت أعرفه!

وكان قد فرغ لتوه من قراءة إحدى الرسائل التى كتبها قارئ لا ينقصه الذكاء ولا حس الفكاهة!

ولم ينصع القارئ شيئًا أكثر من أنه اقتطع جزءا من أخطر مقال كتبه نديم إبان الأزمة السابقة، وكان عنوان المقال هو تلك العبارة الساخرة التى يقولها الأوروبيون للشرقيين: «لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا» وأعاد كتابته بنصه وفى النهاية كتب لنديم: «لم أصدق خبر ظهوركم إلا بعد أن قرأت هذه الفقرات!!».

وكتب اسمه الذى لم يكن يعنى شيئًا لدى نديم، ولكن الموقف نفسه كان يعنى الكثير، لقد أعاد نديم قراءة الفقرات المتقطعة من مقاله بصوت مرتفع وقال لنفسه:

ـ هذا الصوت أعرفه! إنه صوتى الحقيقى هذه المرة!

لقد عرفه حين عرفه الناس، وبعد كل هذه السنين كان نديم يسأل نفسه السؤال القديم: من أنت؟ وما الذى تريده؟؟ وبالتأكيد لم يكن يريد هذا الشجار الذى يحدث، لم يكن يريده الآن على الأقل!!

وقبل أن يحشد فلول جيشه الشعبى، ولكن متى فعل إنسان مايريده؟ لقد قامت الثورة فى الماضى وقبل أن يعبئ الشعب نفسه، وها هى ثورة جديدة تبدأ وقبل أن يبدأ أى شىء آخر!!

والغريب أنه يجد ذاته الحقة فى كل ما لا يريده، وكان ذلك المقال العنيف الذى قد يكلفه مجلته، هو الذى يشفى القروح القديمة ويلهبها فى وقت معا!

ولكن هل كانت إنجلترا تتركه يعيد جمع فلوله المبعثرة؟ وهل كانت تسمح له بهذا الحق وهى التى تنكر على الخديو أوضح حقوقه؟ كانت تلك أحجية أخرى لا يستطيع نديم أن ينشرها ضمن أحاجيه الكثيرة التى يسلى بها قراءه فى مجلته؟ ولكنها على كل حال أحجية تتحدى فكره، وكان هو نديم الذى يلتمس ذاته القديمة، وداخل تلك الهيئة التنكرية التى لم تخدعه، ولم تخدع الأصدقاء، ولم تخدع الأعداء.. تلك العمامة الخضراء والكاكولة الغامقة وألقاب الشرف والسيادة.. كان هو نديم الذى راح يبحث عن حل لهذه الأحجية!

* * *

ثم إن محمود واصف صديق نديم القديم خرج من سجنه، لقد كان نديم قادرا على أن يستغل نفوذه لدى الخديو فى العفو عنه، وعلى حد تعبيره «تشرف محمود واصف بعد ذلك العفو بلقاء رئيس الوزراء «رياض باشا» ثم عاد ليتشرف بلقاء نديم!».

كانت تلك دورة أخرى من دورات التاريخ، وكان لابد أن يكتشف الصديقان بعد وقت قصير أنه لا أحد منهما هو نفس الشخص القديم، وأن يكتشفا أيضًا أنه لايزال تحت الجلد وتحت الثياب عبق الأيام الخالية.

ـ ولكن ماذا عن المستقبل؟

وكان نديم هو الذى يسأل وقد اتضح له الآن بشكل قاطع أنه رغم كل شىء كان أحسن رفاق الكفاح حظا..

وصمت «محمود واصف» قليلا ثم قلب فى بعض أعداد من مجلة الأستاذ كانت أمامه قبل أن يقول:

ـ ألقيت عليها نظرة!

وظنه نديم نسى سؤاله ثم أنه نسيه هو الآخر وراح يسأله فى لهفة.

ـ وما رأيك؟

ـ أهم شىء فيها هو تلك السلسلة التى تسميها مدرسة البنات ومدرسة البنين.

وتأمل نديم، تأمل شعره الأشيب، وعينيه الغارقتين فى التجاعيد.

- لو قدر لى أن أبحث عن بداية فلن تكون سوى نقل برامج هاتين المدرستين إلى أحد المنازل فى شوارع الإسكندرية..

- والخديو الذى عفا عنك.

- عفا عنى من أجلك، وأنت ترد له الجميل.

ولم يقل له نديم: ولماذا عفا عنى؟ راح يقول له فى شك:

- لكنه فى حاجة لمواصلة التأييد الشعبى، ليقف على قدميه فى مواجهة الإنجليز.

- الشعب هو الذى فى حاجة إلى أن يتعلم، وبالنسبة للخديوى فسواء لدى أن يقف أو أن يجلس على أحد المقاعد.

وكانت تلك أحجية أخرى تتحدى «نديم»، كان رفاق الكفاح القديم قد تعب أكثرهم، ووضعوا ثقتهم فى الجيل الجديد، وكان الجيل الجديد هو الذى يلتهب الآن حماسة، ويدفع «نديم» أمامه لكى يجد ذاته هو الآخر فيما لايريد، الآن على الأقل!!

ثم إن جرثومة الجمعيات بدأت تنتشر، وخطى نديم بدأت تسرع من جديد فى تكوين عصبية جديدة من فلول جيشه الشعبى، وبلهفة الرجل الذى يدرك أن سنوات العمر الباقية لم تعد تغرى بالأحلام البعيدة راح يكتب وكأنه يسجل وصاياه، ويتحرك كالمطارد! ويرقب عن كثب تطور الأمور بين الخديو وكرومر ويصاب بالدهشة حين يجد أن مستر افلن بارنج يحاول هو الآخر أن يصطنع نفس الأسلوب، ويؤلف حوله عصبية من الشعب، فهو يتقرب من الناس، ولا يخجل من أن يخيفهم من عودة الاستبداد التركى القديم فى شخص الخديو الجديد لولا وجود الإنجليز بتقاليدهم الديمقراطية العريقة!

ولا يتردد نديم فى أن يواجه معركة التضليل الجديدة فيغمس قلمه فى نفس المداد القديم ويكتب هذه المرة على لسان المواطن الحائر:

«هذه يدى فى يد من أضعها؟» ثم يجيب: ضعها فى يد وطنك، وإلا فاقطعها خير من وضعها فى يد أجنبى يستميلك إليه بوعود كاذبة، وحيل واهية، حتى يخدعك به، فتكون عونه الأكبر على ضياع حقوقك، وإذلال إخوانك واحتلال بلادك!!».

وجاءه من يقول له فى قلق:

ـ أنت تستعجل النهاية، لنا ولك!

ـ نهايتى لا تهم، وإذا كان وجودكم سوف يتوقف على وجودى، فلن يكون هناك ما آسف عليه.

وكان ثمة شىء يشتعل فى داخله، يشتعل بما يكتبه أصحاب المقطم، وبما يزعمه كرومر وبما يجده فى صدور حفنة الشباب من تطلع وحماسة.

وجاءه من يقول له:

سيغلقون الأستاذ!

ولم تكن هذه إشاعة هذه المرة، فقد أنذر رياض باشا «الأستاذ» ولم يعبأ نديم بالإنذار وكتب «أن الأستاذ متمتع بالحرية التى تتمتع بها البروتستانت فى نشر جريدة دينية باللغة العربية تتكلم عن الدين المسيحى بحرية تامة، والتى تتمتع بها الصحف الأجراء فى تكلمهم عن أحوالنا بما تهواه نفوسهم».

ونجح نديم فى أن يجمع حوله الصحف الوطنية فى جبهة قوية لتواجه الصحف الأجنبية التى تصدر فى مصر وإنجلترا والتى بدأت تستشعر خطر الأستاذ وترمى «نديم» بإثارة التعصب الدينى، وتتهدد وتتوعد..

ولم يتردد فى أن يواجه كل الأعداء فى كل الجبهات، وكتب فى ضراوة «إننا لم نسمع أن مسلما دخل أوروبا لدعوة أهلها للإسلام، ولا أن جمعية عقدت لنشر دين الإسلام بين النصارى، ولكننا نرى ونسمع هذا كله فى أوروبا، ومع ذلك يقول عنا ذوو المطامع الملكية أننا متعصبون تعصبا دينيا».

كان ذلك هو نديم المقاتل حين يحاصره الأعداء، وكان كل شىء يصلح لأن يكون بداية أو نهاية، وكانت الأحجية التى تصدى لحلها توشك أن تحل على طريقته أو طريقتهم، لقد تكرر إنذار نديم، وتكرر رفض الخديو للتخلى عن رجله وعن موقفه، وكتب نديم أخطر مقالاته دون أن يدرى أنه سيكون آخرها أيضًا، وشفى صدره، قبل أن يضمه على أعمق الجراح، لقد صدع رياض بأمر سير افلن بارنج ـ وكان نديم كما كان الخديو الشاب يخسران آخر مواقعهما ـ فأمر باغلاق الأستاذ ونفى نديم.

وفي آخر عدد من الأستاذ ودع نديم قراءه بمقال حار ختمه بهذين البيتين:

أودعـــكم والـــلّه يـــعـــلم انـــنى

أحب لـــقـــاكم والخـــلـــود إلـــيـــكم

ومـــا عن قـــلى كـــان الـــرحـــيل وإنمـــا

دواع تـــعـــددت فـــالـــسلام عـــلـــيـــكم

العودة إلى المنفى

ومرة أخرى اختار نديم «يافا» كانت له هناك بذرة صداقة وكان له هذه المرة الحق فى اختيار منفاه، فقط شرطوا عليه ألا يتكلم فى السياسة، وألا يهاجم الإنجليز!

ولكنه تكلم فى كل شىء، وهاجم الإنجليز، وهاجم السلطان نفسه لأنه لم يتدخل لمساندة الخديو ضد الإنجليز، ولألف سبب آخر، ولم تكن هناك صحيفة أو مجلة تنشر هذا الهجوم ولكن الأعداد الغفيرة التى كانت تقبل على مجلسه، كانت تنشر أحاديثه فى كل مكان، وإذا كان للكلمة المطبوعة سحرها، فإن للكلمة المسموعة من نديم سحرا أشد، وبلغت كلمات نديم مسامع السلطان نفسه، ولم يكن قد مضى على وصوله إلى يافا سوى أربعة شهور حين صدر قرار آخر من السلطان هذه المرة بإبعاده عن يافا، وعن كل الأراضى التابعة للسلطان! وتساءل نديم:

ـ إلى أين هذه المرة؟

وكانت صلته «بالغازى مختار باشا» المندوب السلطانى بالإسكندرية تسمح له بأن يتوجه إليه بنفس السؤال! وسافر إلى الإسكندرية كضيف هذه المرة، ولم تكن تلك مدينته، ولم تكن مصر بلده! لقد عاد فقط ليقابل مندوب السلطان ليدبر لنديم وطنا.

وارتسمت على وجه الحمال الذى ساعد نديم فى حمل حقائبه من الميناء ابتسامة عريضة وهمس قائلا:

ـ أنت نديم.. تعود إلينا..

وهز رأسه وهو يغتصب ابتسامة

وقال له الغازى مختار باشا كلاما كثيرا جاء ضمنه:

- وكما ترى ليس من السهل أن أصنع لك شيئًا كثيرا ولكن لو وافقت على السفر إلى الآستانة، لتنزل فى كنف السلطان نفسه فقد يكون من الممكن أن نعالج هذه المسألة.. وأنت تعرف...

ولم يرد نديم وواصل الغازى مختار حديثه وبعد لحظة صمت وكأنه وجد التبرير:

- وهناك ستلتقى بصديقك القديم الشيخ جمال الدين و..

وخفق قلب نديم ليس فقط لأنه سيلتقى مرة أخرى بصديقه وأستاذه، بل لأنه أيضًا كان يعرف نوع الحياة الذى بقى فى انتظاره وكان يعرف أن للسلطان طريقته فى التخلص من خصومه، وحين لايجدى التهديد، فقد يجدى التقريب، وفى الحقيقة لم تكن أمام نديم أية فرصة لأى اختيار، وكانت نهاية الجولة التى قام بها الشيخ جمال الدين فى أوروبا تجعله لايفكر فى أن يبدأ حيث انتهى أستاذه القديم، ومن يدرى فقد يسفر لقاؤهما هناك عن شىء، ثم إنه سافر إلى الآستانة!!!

* * *

تلك هى الآستانة فى عام ١٨٩٣، ونديم يعمل مراقبا للمطبوعات بمرتب قدره ٤٥ جنيها شهريا، وفى الحقيقة لم يكن نديم يعمل شيئًا، أنه لأول مرة فى حياته بلا عمل.. لأول مرة يتقاضى مرتبا منتظما يزيد على حاجته، ولكنه لا يزيد على حاجة ذوى الحاجات الذين يلتفون حوله حيثما كان!

كان رجلا غريبا فى بلاد غريبة، ولأول مرة تفصل اللغة بينه وبين الناس، لكن ذلك لا يدوم طويلا فذاكرته التى لم تهرم بعد تشق له نصف الطريق وسط حواجز اللغة، وشهرته تمهد ماتبقى من الطريق، والناس هم الناس، والمشاكل هى المشاكل، ولكنه هذه المرة لايستطيع أن يفعل شيئًا حقيقيا لهم أو لنفسه، لم يكن يملك سوى حرية أن يعطى ما يفيض عن حاجته من مرتبه لمن هم أشد حاجة هنا أو فى بلاده، وطوال حياته لم يعذبه سوى حاجة واحدة، تلك هى حاجته إلى أن يعمل شيئًا ما من أجل الناس، وكان يعمل فى وظيفة اسميه، ويعيش حياة اسمية كذلك لو صح التعبير!

وكانت تلك إحدى دعابات الحياة الثقيلة يعيشها رجل كان فى بعض الوقت من ملوك الدعابة! وفى كل الوقت من رجال الفكر والعمل والنضال!

وها هو الآن يلتقى برجل آخر من رجال التاريخ العظام، كان قد عرفه منذ سنين، وتآمر معه على أن يغير وجه الحياة الذى لم يكن يروق لهما فى ذلك الوقت! وكان بمقدور نديم أن يضحك فى مرارة حين يرى الحياة وهى تتآمر ضدهما وتنجح المؤامرة هذه المرة!

- ولكن رؤيتك يانديم رغم كل شىء، متعة الروح الحزينة إن الأيام تمضى يابنى بسرعة غريبة، ولاتتعثر سوى أحلامنا!

كان الشيخ جمال الدين هو الذى استقبله بهذه الحرارة الملتاعة فأخرسه بعواطفه الجياشة كما كان يخرسه بعقله الحاد.

لقد اكتفى نديم بعناقه، وفكر وهو يضمه إلى صدره إن الرجال العظام يهرمون بنفس الطريقة التى يهرم بها غيرهم، وتغلبهم العواطف، وقد يغلبهم اليأس!!

ها همابلا عمل، بلا أحلام صغيرة أو كبيرة يتأملان وجه الحياة حين يكون كل شىء مباحا ومتاحا عدا الحرية والأمل.

إن متعة الحديث بين رجلين فى مثل عبقرية الشيخ جمال الدين ونديم يمكن أن تكون من متع الحياة النادرة، ولكن الحديث لا يكون كذلك إلا حين يتخلل الأعمال العظيمة، حين ينبثق منها، ويراوح بينها، وحين لا يكون هناك سوى مجرد الحديث، سوى مجرد التعليق على أشياء قاموا بها فى الماضى، سوى مجرد التذكر والتدبر، فقد تظل متعة هذا الحديث من نصيب من يسمعونه فحسب، ولكنه يسبب لأصحابه عذابا يضاعفه أنه لا تزال لديهم قدرة العمل دون حريته!!

وكان هذا النوع من العذاب هو كل ما تبقى لهذين الرجلين، وكان قد تبقى لهما شىء آخر، أن يشهدا عن قرب تلك الحياة الغريبة التى كان يعيشها رجل آخر من أعجب رجال التاريخ، هو السلطان عبدالحميد الذى بدأ حياتهما بالثورة عليه ثم انتهيا بالعيش فى رحابه!!

كان رجلا ذكيا إلى حد العبقرية، ومتخلفًا إلى حد الجمود والسخف ومثل هذا الازدواج الغريب يحدث أحيانا حين يقترن الذكاء بالسلطة فيستغنى بها عن العلم والثقافة.

ورجل هذا شأنه يصبح عبئا ثقيلا على الحياة، ذلك أن الشعوب تعانى من ذكائه وتخلفه معا، فذكاؤه لا يثمر سوى التفوق فى الخداع والتزييف، وتخلفه يسمح لمن هم على شاكلته أن يجدوا فى حاشيته أرفع مكان! وأن يجدوا من النفاق أبرع وسيلة وفى حاشيته حرب لا تهدأ بين من هم على شاكلته، ومن ليسوا كذلك، ومن سوء حظ الشعوب أن يكسب هذه الحرب من هم على شاكلة السلطان.

وحين التقى نديم بصديقه الشيخ جمال الدين فى الآستانة وجده يخوض حربا من هذا النوع، فقد كان فى حاشية السلطان رجل آخر اسمه أبو الهدى الصيادى، أصبح بمرور الوقت سلطانا آخر، وربما كان هذا الرجل يبز السلطان فى مواهبه، وإذا كان السلطان قد وصل إلى عرشه عن طريق الوراثة، فقد وصل أبو الهدى الصيادى إلى مركزه فى الحاشية عن طريق مواهبه وحدها!

وكانت أخطر مواهبه أنه يتامل مع نواحى الضعف فى الخليفة وفى البشر جميعا، ولم يكن يستعمل فى حربه ضد خصومه سلاحا من خارج أنفسهم، كان يعرف دنيا القلب البشرى الغامض يعرف اختلاج القلب الأبدى بين الرغبة والرهبة، بين الخوف والثقة، وكان يعرف أن الذاكرة هى أضعف شىء فى الإنسان، وأن قدرة الإنسان على نسيان الإساءة لا تعادلها إلا قدرته على نسيان الإحسان!

وكان يعرف كيف يخيف السادة بالدهماء، والدهماء بالسادة وبالطبع كان يعرف الخطر الذى يهدد مثله من وجود مثل الشيخ جمال الدين فى حاشية السلطان، فلم يتردد فى أن يعلن ضده الحرب أو بعبارة أدق يثيرها، ولكن السلطان الذى كانت إمبراطوريته تتمزق آنذاك بين مخالب الدول الأوروبية دون أن يكون قادرا على إنقاذها، كان يتسلى بعمل آخر، بهذه الحروب الصغيرة التى تنشب بين أفراد حاشيته، إنها تصبح بمعنى من المعانى وقاية له، بدلا من أن تتجه أفكارهم ضده.

فكان يتيح للشيخ جمال الدين أن يعرف من دسائس أبى الهدى ما يجعله يتصدى للدخول معه فى معارك لا تنتهى، ولا تتكافأ، لاختلاف الأسلحة والمقاصد!

وكان يتسلى برؤية الشجاعة والعلم وهما يناجزان الخديعة والجهل!

وكان ذلك كله ملهاة جديرة بأحد ملوك الزمن الغابر حين لا يعود ملكا حقيقيا، ولا رجلا عاديا تشغله هموم البشر.

وكان هذا كله بعض ما وجده نديم بعد أن استقر به المقام فى الآستانة، وحين أخذ مكانه إلى جوار الشيخ جمال الدين فى حاشية السلطان عبدالحميد!!

وأخيرا، وجد نديم الذى أصبح لأول مرة فى حياته بلا عمل.. وجد عمله.. فى تلك الحرب الدائرة.

لقد كانت حياته حروبا متصلة، حارب الأغنياء بلا عمل، وحارب الفقراء بلا أمل، وحارب الظلمة ملوكا وسوقة، وحارب الإنجليز كدولة مستعمرة، وحارب الخليفة كرجل لا يتصدى لمسئوليته، وكحاكم متخلف عن عصره، وحارب الأجواء والمنافقين وحارب الخداع والكذب والبلادة والترهل واللامسئولية والآن ماذا يمنعه من هذه الحرب؟

إذا كانت بعض صفات نديم تروح وتجىء، مع الوقت، والخبرة، وتغير الظروف، فإن صفة واحدة تبقى معه، لاصقة كالجلد، تلك هى صفة المقاتل..

وخاض نديم هذه المعركة إلى جوار الشيخ جمال الدين، خاضها حديثا وكتابة، خاضها شعرا ونثرا خاضها جدا وهزلا وكان أبو الهدى فى إحساس نديم تركيزا نقيا لكل رذائل الشرق سلوكا وفكرا تلك التى ظل يحاربها طوال حياته، والتى كانت تتصدى لآماله بأسف مما يتصدى لها المستعمرون أنفسهم، وها هى الآن تتصدى له مرة أخرى وهو يحاول أن ينفذ إلى السلطان، لإنقاذ أى شىء وها هى موضوعة أمامه فى ثياب ذلك الرجل المدعو «أبو الهدى الصيادى» فكيف يدع هذه الفرصة؟

* * *

وألف واحدا من أعجب كتبه، سماه «المسامير» ألفه فى شكل فصول، يرويها رجل اسمه الشريف أبو هاشم، يحكى قصة الشيخ مدين الشهير بأبى القاسم، لقد كان شيخا طاهر النفس والسلوك إلى الحد الذى عجب فيه من طهارة قلبه مع علمه أن إبليس اللعين عدو للصالحين، فراح يبحث عنه، ويسأل عن عدم قربه منه حتى وجد إبليس حزينا كئيبا، فلما سأله عن حاله أخبره بظهور منافس لهم من بنى الإنسان فاقه فى حيله وأحابيله، وسلبه سلطته وسطوته!

ولم يكن هذا المنافس الخطير سوى «أبى الضلال» (يعنى أبا الهدى الصيادى) ثم بدأ الشيطان يسرد قصته مع أبى الضلال، فى شكل فصول، كل فصل فى شكل مقامة سماها مسمارا...

* * *

وحين بدا نديم يقرأ على الشيخ جمال أول مسمار نسى الشيخ جمال الدين نفسه، وأغرق فى الذهول والضحك وفكر الشيخ جمال الدين: هاهو نديم يعود كما بدأ صعلوكا يجرى فى عروقه دم الصعاليك، وتجرى على لسانه بذاءاتهم، ها هو يمارس أبشع صور الحرية حين حرم أبسط صورها، ها هو يجسد حرية اليائسين ويأس الأحرار، ويحارب أبأس معاركه، ولم يكونا وحدهما، وذهل أيضا بقية الحاضرين وليس يعلم إلا الله ماذا فكروا؟

وكان لابد أن يصيب أبا الهدى ذهول أشد حين يبلغه أمر الكتاب!!

وحتى يكسب السلطان إلى جواره فى معركته ضد نديم أفهمه أن الهجاء يشمل السلطان هو الآخر، وعبثا حاول السلطان أن يعثر على المخطوط الذى سمع به، لقد أخفاه رجل اسمه «جورج كوتشى» كان صديقا لنديم، وفر به إلى القاهرة لينشره هناك!

وعاد رجال البوليس بلا دليل يدين «نديم»!

ولكن أبا الهدى الصيادى لم يغفر لنديم فعلته، فراح يحاربه فى غير ميدانه، وبغير سلاحه!

وإذا كان نديم يوشك أن يصبح سفيرا غير رسمى للخديوى عباس لدى السلطان، فقد كان يسعى ليزوج السلطان إحدى بناته للخديوى الشاب لدعم العلاقة بين تركيا ومصر، وليواصل السلطان دعمه للخديوى فى نضاله ضد الإنجليز..

وجدها أبو الهدى فرصته ليبعث مخاوف السلطان وشكوكه وليوهمه أن هذه الخطوة ليست سوى البداية فى مؤامرة يدبرها الإنجليز لنقل الخلافة إلى مصر، وما أيسر ذلك حين تنجب ابنة السلطان طفلا للخديوى الشاب، وحين زار الخديو عباس الآستانة لأول مرة عام ١٨٩٤ والتقى بالشيخ جمال الدين ونديم فى منتزه الكاغد خانه ولم يكن هذا اللقاء ضمن البرنامج، وجد أبو الهدى فى هذا اللقاء العابر بذرة صالحة لإيقاظ شكوك السلطان فى جمال الدين ونديم!



وفشلت وساطة نديم، وكان ذلك آخر فشل له، كما كان كتاب المسامير آخر قتال..

وكاد يشعر بعبث كل شىء، النصر والهزيمة، والصفح والانتقال، كاد يفقد صفة المقاتل!

كان جسده يهتز تحت وطأة السعال الحاد، والفراغ الذى بدأ أشد وطأة من السعال، والأمل الشاحب الذى لا يخفى ولا يبين!

وتواضعت أحلام نديم، أصبحت حلما واحدا صغيرا، هو أن يعود إلى مصر، وفى الواقع أن مصر فى هذه الأيام هى التى كانت تزور «نديم» تزوره فى النوم واليقظة! وزاره أديب إسحاق، من العالم الآخر، قال له بنفس النبرة الحزينة الساخرة: نصحتك يوما ألا تموت فى الغربة يا بنى، ولكنك لم تسمع أبدا لنصائحى!

هل أصبح الموت هو كل ما ينتظره الآن؟

* * *

وعلم أن الخديو عباس فى طريقه إلى الآستانة فى زيارة جديدة وتجددت آمال نديم فى العودة إلى بلاده، لقد كتب كثيرا عن الوطن والوطنية والمواطن، وها هو يكتشف الآن إنه لم يلمس الحقيقة مرة واحدة فى كل ما كتب، ثمة شىء غاب عنه، شىء كان من المستحيل أن يعرفه أو يشتعل فى قلبه قبل الآن، شىء غير التقدم وغير الحرية وغير العدالة، وغير الثروة وغير الثورة كذلك، شىء لم يشعر به إلا حين فقده، شىء لم يفقده، وهو مطارد فى بلاده، ينتقل من حجرة مظلمة لأخرى أشد ظلاما، لم يفقده حتى وهو يفتقد الأمن، وهو لا يقوى على التلفت وراءه، وهو يسدل على الدنيا عصابة مشدودة على عينيه، شىء كان يسمعه فى صوت صالح وفى لهجته، ويسمعه فى روائح الحقول التى يتعثر فى شقوقها وجسورها، ويجده فى أصوات الحيوانات والطيور وفى الشخصيات الحقيقية والوهمية التى يتحاور معها فى الحياة وفى «التنكيت والتبكيت» و «الأستاذ» .. شىء رقيق غامض ولكنه كل شىء، شىء يبدو فى الحياة نفسها فى أصوات الباعة فى أسلوبهم فى المساومة فى طريقتهم فى الصدق والكذب، فى اللقاء والوداع، فى إخفاء الأشياء والبوح بها!! شىء يعجز الناس عن أن يمسكوا به رغم أنه ملء وجودهم، يعجزهم أن يفصلوه عن أى شىء لأنه ملء كل شىء، شىء يعيى الناس بأمره فيسمونه مصرا!

* * *

ولم يصدق حين وعده الخديو بأن يصطحبه معه إلى مصر! كان ذلك أكثر أحلامه تواضعا وبهجة!!

وتحقق هذا الحلم حين ركب مع الخديو على ظهر السفينة وألقى نظرة على المياه اللانهائية، فهناك عند نقطة لا تراها العين توجد بلاده، يوجد المعلم حنفى وسعيد وبخيته وأبو دعموم، وعمارة الزناتى ولطيفة ودميانة، وابتسامة حمال فى الميناء لا يعرف اسمه يوجد أبوه وأمه وقبور أبنائه وبعض زوجاته، ولو قدر له أن يموت هناك، فسوف يشيعه الصعاليك إلى قبره، وسوف يوصى أن يكون قبره بين قبورهم!!

ثم إن السفينة التى يركبها الخديو ونديم أوقفت فى آخر لحظة، وأنزل نديم مخفوراً من على ظهرها!

وعجز الخديو عن أن يفعل شيئا، وعجز نديم عن أن يفهم شيئا، أو يذكر الآن أسبابًا لما يحدث، وإذا كان هو الآن لا يذكر شيئا سوى مصر، فإن أبا الهدى لايزال يذكر شيئا اسمه «المسامير» ألفه نديم فى نوبة غضب، وكان الشر أبرع حيلة، وأقوى ذاكرة لقد قال أبو الهدى للسلطان:

ـ ما معنى أن يسافر نديم دون إذن منك؟

ولم يكن السلطان يعلم أن «نديم» فى طريقه إلى مصر على نفس سفينة الخديو، ولكن أبا الهدى كان يعلم كل خطوة يخطوها نديم! وكان ذلك كافيا ليصدق السلطان كل ما قاله أبو الهدى عن نديم!

* * *

وأبرق نديم للسلطان فى نوبة غضب حين علم بآخر وشاية لأبى الهدى «إنك أنت أمير المؤمنين القادر على الانتقام بلا معارض، ولكننا سنقف بين يدى عادل قاهر يقضى بيننا بالحق، هو خير الحاكمين».

كانت تلك آخر انتفاضة، وآخر غضب، لم يعد هناك سوى حزن رقيق هادئ، وتأمل رصين شفاف لتلك الرواية الغريبة التى يعيشها البشر، وكان هناك رجلان من كبار رجال التاريخ يعيشان خارج دائرة التاريخ، يثرثران أحيانا، ويبتسمان لا وإلى حد الضحك، وقد يبكيان بغير دموع، ضيفان لا يقوى أحد على أن يشير لهما نحو الباب، ولا يدريان متى الرحيل، ولا معنى الزيارة؟

ثم إن ضيفًا ثالثًا حل بينهما الآن، حل فى صدر نديم فى البداية لم يشعر بمقدمه، ومتى اهتم نديم بنوبات البرد والسعال؟ وأشار الطبيب إلى أن تغير البيئة والجو قد يسبب مثل هذه الأعراض ولكن السعال الآن يمزق صدر نديم، ويمزق أحاديثه، وساعات نومه، وساعات يقظته، وتغلب على وجه الطبيب انطباعة يأس لا تفلتها عينا نديم.

ولم تكن هناك زوجة ولا أب ولا أم ولا أولاد، تلك الحاشية التى عاش نديم دائما بدونها، ولم يعد يريد الآن أكثر من أن يلقى على من تبقى منهم نظرة!!

ـ ولكن السلطان لن يجد فى حضور بعضهم إلى هنا أى خطر على حكومة جلالته!

وهز الصديق الذى كانت له كلمة فى حاشية السلطان رأسه مطمئنا ومؤكدا أنه سيبذل مساعيه، وأبرق نديم إلى أخيه وأمه.. وبقى فى انتظارهما وأخذت ساعات الليل والنهار تمضى بخطى أبطأ وتزايد زواره يتقدمهم رجل عجوز مرهق اسمه الشيخ جمال الدين وفى كل مرة يفتح نديم عينيه متفحصا وجوه الزائرين، باحثا بينها عن وجه أو وجهين ينتظرهما بصبر نافد ولا يسمح لخيبة الأمل أن تظهر على وجهه، كان ذلك سباقا آخر بين الحب والموت!

وحين تشتد عليه وطأة المرض واليأس يضيق بالانتظار، فيشد رحاله إلى مصر.. إلى الإسكندرية والمحروسة، إلى القرى والكفور، إلى التل الكبير وكفر الدوار، إلى المنصورة والعتوة القبلية ومنية الغرقى، وتتزاحم الوجوه والحشود، وتختلط الروائح والأصوات، ويتلاشى الزمان والمكان، وتكتمل الدائرة حين يغلبه الحماس، فيلقى بإحدى خطبه، فيخيم الصمت، وحين يفتح عينيه لا يكون هناك سوى الصمت والعرق، وأحيانا صوت السعال.

* * *

وحين وصل أخوه وأمه إلى الآستانة، لم يجدا «نديم»، كان قد رحل كعادته، ودون أن يقول لهما إلى أين! ولم يترك وراءه ما يكلفهما مئونة حمله.. كان «جورج كوتشى» قد هرب آخر ما كتب وكان ثمة رجل عجوز مهدم اسمه الشيخ جمال الدين ألقى عليهما نظرة واجمة حزينة، ثم قادهما إلى مقبرة «يحيى أفندى فى باشكطاس» حيث يرقد واحد من أبناء مصر، من أعظم أبنائها، كانوا يدعونه عبدالله نديم.. وكانت العجوز

التى وقفت ترقب مقبرته فى صمت ودون أن تطرف أو تبكى، لا تعرف عنه سوى أنه ولدها الذى كانت دائما تفتقده.

وسأل شقيقه العجوز المهدم الذى كان برفقتهما وكأنه تذكر فجأة شيئا مهما:

ـ لكن يا سيدى متى حدث ذلك؟

وتأمله الشيخ العجوز فى ذهول، وكأنه لم يجد أى معنى لسؤاله ثم قال بعد لحظة تذكر:

ـ أظنه كان مساء الأحد العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦.

ثم تمتم بصوت مختنق:

يرحمه الله... يرحمنى الله!!

كلمة أخيرة

إذا كانت طبيعة هذا العمل الأدبى، فضلا عن طبيعة السلسلة التى ظهر فيها، تعفينى من الإشارة إلى المصادر والمراجع فى نهايته.

فإن الأمانة تحتم أن أذكر بالتقدير الدراسات التى كان لها فضل السبق فى إلقاء الضوء على «عبدالله النديم»، والتى كان لها أيضا الفضل فى توفير كثير من الجهد والوقت بالنسبة لما يجىء بعدها من محاولات لإلقاء مزيد من الضوء عليه وفى مقدمة هذه الدراسات البحث المهم والشامل الذى كتبه الدكتور على الحديدى، ونشر فى سلسلة أعلام العرب «عن عبدالله النديم خطيب الوطنية».

والدراسة التى كتبتها الدكتورة «نفوسة زكريا»، عن «عبدالله النديم بين العامية والفصحى» ونشرتها الدار القومية.

والدراسة التى اشترك فى تأليفها الأستاذان محمد عبدالوهاب صقر، وفوزى سعيد شاهين ونشرت فى سلسلة الألف كتاب.

هذا بالإضافة إلى مقالات وأبحاث قصيرة للعلامة أحمد باشا تيمور فى كتابه «تراجم أعيان القرن الثالث عشر»، وجورجى زيدان فى كتابه «مشاهير الشرق» وأحمد أمين فى كتابه «زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» والدكتور عبداللطيف حمزة فى كتابه عن «أدب المقالة الصحفية» والدكتور إبراهيم عبده فى كتابه عن «تطور الصحافة» والأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه عن «الأدب الحديث» والأستاذ أحمد بهاء الدين فى كتابه «أيام لها تاريخ».

كتب للمؤلف

فتاة فى المدينة: مجموعة قصصية.. دار الآداب بيروت سنة ١٩٦٠.

الابتسامة الغامضة: مجموعة قصصية.. الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٣.

الناس والحب: مجموعة قصصية.. دار الآداب بيروت سنة ١٩٦٦.

الوهم والحقيقة: مجموعة قصصية.. هيئة الكتاب سنة ١٩٧٤.

مهمة غير عادية: مجموعة قصصية.. دار الآداب سنة ١٩٨١.

الزعيم: مجموعة قصصية.. هيئة الكتاب سنة ١٩٨٣.

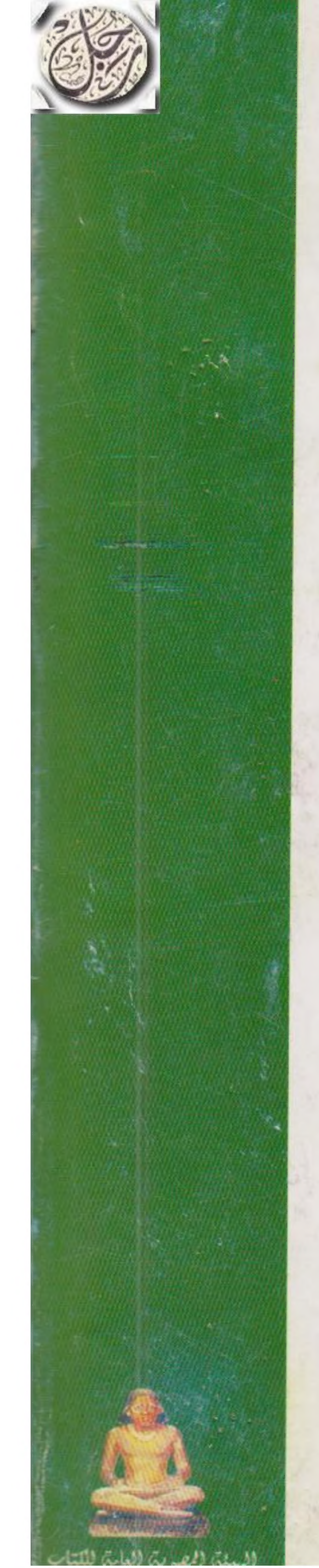
الجميع يربحون الجائزة: مجموعة قصصية.. هيئة الكتاب سنة ١٩٨٤.

العودة إلى المنفى: الحائزة على جائزة الدولة فى الرواية عام ٧٠/ ١٩٧١ - صدرت طبعتها فى مجلدين عن دار الهلال سنة ١٩٦٩.

ضد مجهول: رواية .. دار الهلال سنة ١٩٧٥.

قراءة فى الرواية العربية: دراسات نقدية.. هيئة الكتاب سنة ١٩٨٨.

الفهرس





ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذي يحياه ويحيا فيه، حين يفتح أفقًا أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه المعلوم، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ نفسه، ويقرأ الآخرين، فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر عقل الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات، وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، وتتسع أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة.
لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر.. أن نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة

سوزان مبارك





٣ جنيهات

